الشارع الجديد

عبد الحميد جوده السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

- ١ -

حارة ضيقة متعرجة ، انتشرت فيها بحيرات صغيرة خلفها المطر ، فبدت كصحاف من فضة غبرتها انعكاسات السحب الداكنة ، وسرعان ما عكرتها أرجل الصبية الحافية ، التى هرعت تخوض الماء عابثة ، فيتطاير من أقدامها نثار قاتم يصيب الجدران بدوائر بنية ، تحاكى العملة البرنزية الكابية .

وانسابت على سطوح البحيرات زوارق الورق ، تدفعها السواعد اللاهية، فتمشى على استحياء ، ثم تتعثر وتميل على جنوبها ، فتمتد إليها الأيدى تقيل عثراتها ، وراح الماء يجرى فى قنوات على جانبى الحارة ، شقها عند أقدام الجدران ، ينبث له خرير خافت أقرب إلى الهمس ، يتضاءل فى ضوضاء الصبية الذين حسروا جلابيبهم عن سوقهم ، وجعلوا يخوضون الوحل والماء ، وضحكاتهم تجلجل طليقة ، تنم عن قلوب فارغة راضية ، وإن كانت ثيابهم تفشى سر فقرهم .

وعند منحنى فى الحارة وقف رجل يشوى الذرة ، وقد التف حول عربته بعض الغلمان ينظرون ولايشترون ، يشتهون ولايأكلون ، فما كان معهم ما ينفقون ، بل اكتفوا بالدفء اللذيذ الذى تشعه جمرات الفحم الحامية .

سار يونس على حذر ، يتحاشى الماء ، ويلم أطراف ثيابه خشية أن تتلوث ، دون أن يقطب أو يلوح فى وجهه الأسمر أثر للتبرم أو الضيق ، فهو يسير وقد عشش الفرح فى صدره ، إنه اليوم راضى النفس ، مرتاح الضمير ، فما كانت تركة المطر المثقلة بالطين لتكدر صفوه ، أو تعكر مزاجه .

وسارت خلفه على بعد خطوات منه ، زوجه فاطمة ، وقد التفت فى مئزرها ، لاتبدى زينة ، ولا يلوح منها شىء ، اسدلت عل وجهها نقابا كثيفا ، ولو رفع قليلا لفضحت ملامح وجهها خبيئة نفسها ، فقد كانت ضيقة الصدر ، متبرمة بالحارة وما

فيها ، ومن فيها .

وسرى صوت المؤذن حنينا من الجامع القريب يؤذن بالعصر ، فنفث فى الجو سحرا خشعت له القلوب ، فأطرق يونس وأخذت شفتاه تتحركان بالشكر لله ، فأحس الدعاء يتدفق حارا من جوفه ، فغشيه أمن ، كان الأمل يملؤه ، فراحت روحه تعكس مشاعره بهيجة مشرقة .

ومر بخربة ارتفعت عن الأرض أشبارا ، كانت فى يوم من الأيام دارا ، تتدفق فى شرايينها الحياة تنبض بالحب والبغض ، والكدر والصفاء ، تطوى فى أحشائها أسرارا : آمالا وآلاما ، وحقائق وأوهاما ، وإذا بالفناء يطوف بها فيعصف بيقظتها وأحلامها ، ويتركها أنقاضا يرتع الناس فوقها ، كما يرتع الدود فى الجثة الهامدة .

واقتربا من بيت يتكون من ثلاث طبقات ، أغلقت نوافذه ، وسيطر عليه سكون عميق ، فلاح لعينى يونس كأنما يقوم فى الحارة وحده ، فخفقق قلبه طربا ، والتفت إلى زوجه فرحا ، وقد تهللت أساريره ، وقال وهو يشير بإصبعه :

ـ هذا هو البيت .

ونظرت فاطمة ، ولم تنبس بكلمة ، وإن كانت قد مطت شفتها السفلى أسفا ، واستمرا فى سيرهما حتى بلغا الباب ، فألفيا امرأة جالسة عليها مسحتان : مسحة من فقر ، ومسحة من جمال ، وقد وضعت أمامها قفصا من جريد ، عليه بعض الحلوى تبيعها للصبية ، فألقى عليها السلام ، ودفع الباب فدلفت منه فاطمة وهى غارقة فى الصمت ، تدير عينيها فى الساحة الرطبة ، فلا تزداد إلا امتعاضا ، وأسرع يونس إليها ، يأخذ بيدها وهى ترق فى الدرج، ولسانه لايكف عن الدوران فى حلقه و يتغنى بمحاسن بيته ، ودخلا الطبقة الأولى ، وراحا يجوسان خلال غرفاتها الواسعة ، وهو يقول :

ـ هذهالغرفة شرقية ، ستكون غرفة نومنا ، وهذه الغرفة قريبة من الباب ، إنها أحسن غرفة لحسان ، وهذه الغرفة بعيدة عن الحارة ، فلنجعلها غرفة الجلوس ، حتى إذا اجتمع فيها الأولاد لم تتسرب أصواتهم إلى الطريق.

وصعدا إلى الطبقة الثانية ، ويونس يدور كالنحلة ، وتتدفق الكلمات من فمه

مشحونة بالغبطة .

ـ وهذه الطبقة للبنات ، ثريا فى هذه الغرفة ، وزينب هنا ، وعزيزة وأبناؤها فى هذه الغرفة الرحبة ، وزهيرة فى الغرفة البحرية ، وحميدة ..

فالت فاطمة فى امتعاض :

ـ فلماذا زوجناهن إذا كن سيعشن معنا ؟

فقال يونس فى بساطة :

ـ هذه إحدى مساوىء خلفة البنات ، على الوالد أن يبحث لهن عن ثيران ليسترهن ، ثم عليه أن يتكفل بهن وبثيرانهن ، بمايجود به عليه الثيران من أولاد وذرية !

وصعد إلى الطبقة الثالثة وقال :

ـ هذه الطبقة لعلى ولأولاده .

وسكتت فاطمة ولم تبد اعتراضا ، فقد رزقت به وبحسان ، ثم بست بنات بعدهما ، وكان على برا بها ، فكان أحب أبنائها إلى قلبها ، ثم صعدا إلى السطح وكان الجو باردا ، والسحب تتجمع فتزيد الدنيا قتاما ، وتحركت فاطمة لتهبط ، ولكنه جذبها من يدها وهو يقول :

ـ انظرى ، ما أروع التقاء المحمودية بالبحر .

ونظرت ، وكان البحر رائعا فى ثورته ، والترعة جليلة فى وقارها وهدوئها ، والسحاب فخما فى شموخه وعظمته ، كان مشهدا من مشاهد الشتاء التى تبهر العين ، وتهز النفس ، ولكنه لم يمس وترا فى فؤادها ، فقالت وهى تشيح بوجهها عن البحر والمحمودية جميعا :

ـ هيا نهبط ، ما أقسى البرد هنا !

وراحا يهبطان وفاطمة تقول فى مرارة :

ـ أكتب علينا أن نظل فى هذه الحارة حتى نموت ، أما كان الأفضل أن تشترى بيتا آخر فى شارع كبير ، أنفقت ما ادخرناه طوال العمر ، لننتقل من بيت إلى بيت قريب منه فى نفس الحارة . ضاعت نقودنا وماحققنا أملا ، ولاشفينا

غليلا.

فلم تنفذ مرارة كلماتها إلى قلبه ، ولم تكدر نفسه ، فابتسم ابتسامة لطيفة ، وقال فى نبرات الواثق :

ـ لم أكن قصير النظر يوم اشتريت هذا البيت ، فهو ثروة كبيرة ، إننى قبل أن أقدم على شرائه اطلعت على التخطيط الجديد لهذه المنطقة ، أطلعنى عليه موظف كبير فى الحكومة ، فوجدت أن شارعا جديدا سيشق هذا الحى ، وأن هذا البيت سيقع على ناصية ذلك الشارع الجديد .

ونظر إلى وجه فاطمة ، ورفت على شفتيه ابتسامة زهو وإعجاب بالنفس ، ولكن حرارة كلماته لم تذب آثار المرارة البادية فى صفحة وجهها .

ـ ٢ ـ

عبق الجو بروائح البصل المحمر فى السمن ، وجلجلت دقات الهاون فى جنبات البيت ، فقد نزلت به بطون كثيرة لايملؤها إلا وافر الطعام ، فخفت النسوة وقد أذن المؤذن بالظهر إلى المطابخ لتجهيز الغداء .

ووقفت صفية أمام الموقد تحرك مروحة من ريش الطير ، لتؤجج النار فى الفحم، وجلست فاطمة بالقرب منها على وسادة تعاونها فى تنظيف الخضار ، كانت صفية معتدلة القامة ،ممتلئة الجسم ، يميل لونها إلى البياض ، وكان وجهها مستديرا، وعيناها واسعتين سوداوين تنطقان بالقوة والعزم ، وكان شعرها الفاحم يختفى خلف منديل مشغول مائل على جبينها ، وكانت فاطمة نحيلة فى قوة ، عودها كالخيزرانة ، سمراء البشرة ، وماكان بينها وبين صفية شبه ، فماكانت ابنتها ، ولكنها زوجة ابنها على ، ومع ذلك كانت تؤثر عشرتها على معاشرة إحدى بناتها ، وإن كان زوجها ينفق على الجميع .

وسمع وقع أقدام فى الردهة الخارجية ، فلم تذهب صفية لترى من هناك ، كانت قد اعتادت أن تسمع وقع تلك الأقدام ، فى أثناء طهو الطعام ، وأقبلت ثريا

وشعرها منفوش بارز من منديل رأسها ، وفى يديها آثار البصل ، وقالت :

ـ اعطينى بعض البهار.

فخفت صفيه وأعطتها ما طلبت ، ثم عادت إلى الإناء الموضوع فوق الموقد تقلب ما فيه ، وماهى إلا لحظات حتى دخلت زينب مسرعة ، وهى تقول :

ـ هاتى فص ثوم .

وما كادت زينب تنصرف حتى ارتفع صوت عزيزة ترغى وتزبد وهى صاعدة ، ودخلت حانقة تصيح :

ـ عندك زيت ؟

فقالت صفية فى هدوء :

ـ عندى .

ـ هاتى ماعندك . فالمدعوق لايشبع من الزيت .

ـ ماذا تطبخين ؟

ـ باذنجان .

ورفعت صفية إناء الزيت ، فوجدت مابه قليلا ، فدفعت بالإناء جميعه إلى عزيزة ، اتقاء لسانها ، فلو أنها أفرغت كل مابه فى الوعاء الذى قدمته لها ، لما أرضاها ذلك ، ولراحت ترميها بالشح والتقتير .

وخفت زهيرة تلتمس قليلا من الدقيق ، وحميدة حفنة من السكر ، وظلت فاطمة تنظر ولاتتكلم ، حتى إذا مافرغت بناتها من أخذ مايردن ، قالت لصفية مداعبة :

ـ أفتحت لهن دكان بدال ؟

فقالت صفية فى صدق :

ـ كله من خيركم .

ـ والله لا أدرى ماذا كن يفعلن لو أغلق هذا الدكان فى وجوههن !

وانتهت النسوة من تجهيز الغداء ، فخفت صفيه تبدل ثيابها ، وترقب عودة زوجها ، بينما جلست الأخريات بثياب المطبخ ، تفوح منهن روائح البصل والثوم

ينتظرن أوبة الثيران !

وعاد الرجال والأولاد إلى البيت ، ومدت موائد الطعام ، فامتدت الأيدى وكأنها الجراد نزل فى زرع ، وماارتفعت حتى كانت الموائد خالية من كل شىء . وخرج من الرجال من خرج، وأسرع الأولاد إلى الحارة يلعبون ، أما على فقد دخل إلى فراشه ليهجع ، فهو ينام عقب الغداء حتى يحتمل سهر الليل . وولى النهار وأدبر ، وساد الحارة ظلام دامس ثقيل ، ولولا المصابيح الخافتة المدلاة فوق بعض أبواب المنازل ، لما رأى السارى بالليل كفه .

وقام على من نومه ، وراح يتأهب للخروج ، وإذا بأنغام صعيدية عذبة تسرى إلى مسامعه ، فيلقى إليها السمع وهو نشوان . كانت الحارة تفصل بين حيين متباينين ، حى على ضفتها العالية ، يقطنه خليط من أهالى الإسكندرية وفقراء الفلاحين الذين جاءوا إليها يلتمسون العيش ، وحى على ضفتها المنخفضة يعيش فيه الصعايدة الأشداء ، وكان الصعايدة يعتبرون أنفسهم أهل الحى وأصحابه ، ومن عداهم غرباء دخلاء .

وداعبت أذنيه أصوات موسيقى نحاسية ، وأخذ الصوت يتضح حتى صار دويا ، وتسللت إلى غرفته أضواء خافتة ، سرعان ماانداحت حتى راحت تتراقص على الجدران ، فذهب إلى النافذة ينظر ، فرأى الفلاحين قادمين يحملون المشاعل ، وثلاثة رجال فى ثياب صفر مهلهلة ، ينفخ أحدهم فى بوق ، ويضرب ثانيهم بالصنوج ، ويدق ثالثهم بقوة طبلا كبيرا ، فتنبعث من آلاتهم تلك الجلبة المدوية، وأخذ بعض الرجال يرقصون على الأنغام ، يقفزون كالقردة فى الهواء ، وهم يطوحون بهراواتهم مرة ، ويديرونها فوق رءوسهم مرات ، ولاحت فى نهاية الركب عربة يجرها جوادان ، التف حولها رجال شداد يرفعون عصيهم فى الهواء ، فهم حرس الشرف الساهر على راحة العروس وأمنها.

وراح الركب ينحدر الهوينى ، من ضفة الحى العالية إلى الضفة المنخفضة ، وانساب حتى دنا من مقهى صعيدى ، فلم يتمهل الركب ، ولم يقف ليؤدى التحية، فقام رجل صعيدى فى يده هراوة ضخمة ، واتجه إلى الموسيقى ، وطلب من الرجال

الثلاثة أن يقفوا ويدقوا السلام تحية ، ثم ينصرفوا فى أمان ، فأعرض عنه الرجال ، واستأنفوا سيرهم ، فهب من فى المقهى والدم يغلى فى عروقهم لما لحقهم من عار. رفض الدخلاء تحيتهم ، فحق القتال ، فمشى الرجال إلى الرجال ، وجلجل فى الحارة قرع الهراوى للهراوى ، وارتفعت أصوات النساء حادة وقد امتزجت بأنات الجرحى وزئير الرجال ، وانهزم الفلاحون ، وراحوا ينسحبون والصعايدة يتصايحون صيحات النصر والظفر .

تقهقر الفلاحون ، والصعايدة فى أثرهم يجدون ، وقد بدت الحماسة فى حركاتهم وصيحاتهم ، ودنوا من العالية ، وما هى إلا لحظات حتى انهالت عليهم الزجاجات المحشوة بالزلط والرمل من كل ناحية ، من النوافذ ، ومن سطوح الدور ، ومن الأبواب ، ومن الشقوق ، وشاركت النسوة الرجال فى مناوأة الصعايدة الذين وقعوا فى الشرك دون تدبر أوتفكير ، حتى العروس كانت تلقى قذائفها عليهم .

وسالت الدماء ، وتضعضع الهجوم ، وانسحب الصعايدة إلى مقهاهم مدحورين ، يضمدون جراحهم ، وعلى فى شرفته يرقب ما يدور ، وقد انتقلت حرارة المعركة إلى صدره ، فانفعل بها، وامتلأ حماسة وزهوا ، كان يحب القوة وإذا بالحى الذى يقطنه ينبض بالقوة والحياة !

ـ ٣ ـ

كانت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، وقد احتقن وجهها بالدم ، وأشعتها الواهنة تجاهد فى يأس أن تبدد طلائع الليل ، وكانت الحارة قد استسلمت لجحافل الظلام ، فراح الناس يضيئون قناديل الزيت ومصابيح النفط، وتجاوبت فى الحارة أصوات باعة لبن الزبادى ، بعد أن خفتت أصوات الصبية وباعة النهار .

وانطلق يونس فى الحارة يحمل فى يده اليمنى قفصا به ببغاء ، وفى يده اليسرى منديل به فاكهة ، وكان دخوله فى هذه اللحظة توفيقا ، فلو أنه جاء إلى الحارة ولم يتستر بالليل ، لرأى الصبية الببغاء ولهرعوا إليه يتصايحون « أبوك

السقا مات » .

وبلغ يونس داره ، فألفى بائعة الحلوى ما زالت فى مكانها ، وقد ألقى الضوء الواهن نورا على وجهها ، فأضاء نصفه ، فألقى ظلا خفيفا على نصفه الآخر ، فبدت رائعة فى جلستها الذليلة ، فحياها تحية المساء ، ثم وضع الببغاء على الأرض ، ومد يده إلى منديله وأعطاها بعض ما به من فاكهة ، ثم استأنف سيره ، يحس راحة وأمنا .

ودخل على زوجه ، متطلق الوجه ، فنظرت إلى القفص فى دهش ، وقالت فى إنكار :

ـ ما هذا الذى جئتنا به ؟

ـ ضيف من بلاد الإنجليز .

ـ لن تعرف للنقود قيمة ! كم دفعت فيه ؟

ـ لم أدفع فيه شيئا ، أخذته هدية .

ـ أهدته إليك امرأة إنجليزية ؟!

ـ ما كانت النساء ساذجات إلى هذا الحد لتهدى امرأة شيئا لرجل فى مثل سنى ، كنت أسوق قطار السياح من الإسكندرية إلى السويس ، وجاءوا إلى ينظرون فى عجب ، فما كانوا يصدقون أن مصريا يقود قطارا . انطلق القطار يجرى بسرعة هائلة ، حتى بلغت سرعته خمسة وعشرين كيلومترا فى الساعة ، فالتفوا حولى يحدثوننى ، ثم دعونى إلى الجلوس معهم .

تركت القطار لمعاونى ، وجلست أحدثهم ، قلت لهم إننى أول سائق قطر فى مصر ، وذكرت لهم ما حبانى العظماء من عطف ، وراح الرجال يجاذبوننى أطراف الحديث .

فقالت فاطمة وفى نبراتها أمارة الغيرة :

ـ وماذا قالت النسوة لك ؟

فنظر إليها وفى وجهه مولد بسمة :

ـ ماذا بك الليلة ؟

ـ أقولها ولاأخشى إلا الله إنى لا أحب نساءهم ، فيهن وقاحة وقلة حياء.

ـ كن جالسات صامتات يصغين إلى الحديث ..

ـ محملقات .

ـ فيم يحملقن ، لم أعد أثرا من الآثار ، فما تخطيت الستين بعد !

ـ يونس ؟ دع اللف ، إنى أراهن فى عينيك .

ـ والله إن غيرتك هذه لتشرح صدرى .

ـ أنا أغار ؟

ومصمصت شفتيها عجبا ، وساد الصمت برهة ، استأنف يونس حديثه مزهوا:

ـ راحت الأسئلة تنهمر على ، هذا يقول : « يونس . أين تعلمت قيادة القطر »؟ وذاك يقول : « يونس .. كم مرة تزوجت » ؟

ورمقها بطرف عينه ، وتهللت أساريره لما رأى تلك التقطيبة التى ضيقت جبهتها ، كان يسره أن يثير كوامن الغيرة فيها ، وكان ذلك يرضيه حقا ، فتنتفخ أوداجه ، وترضى كبرياؤه ، واستأنف حديثه :

ـ وظل هذا يقول : يونس وذاك ينادى : يونس ، وبقى اسمى يتردد على ألسنتهم حتى صاح الببغاء : يونس ! فضحك الجميع ، فقام صاحبه وأهداه إلى .

واستمر يسامر زوجه ، حى داعبها النعاس ، فقاما إلى الفراش ، واندسا فيه، وراحا فى سبات ، وتقضت ساعات وهما يغطان فى النوم ، وفى هجعة الليل . صاح الببغاء :

ـ يونس : I want to eat ، يونس : I want to eat .

وقاما من رقادهما على صوته ، وقالت فاطمة :

ـ لماذا يصيح الببغاء ؟

ـ إنه جائع .

ـ ماذا يقول ؟

ـ يونس . آكل .. يونس : آكل .

ـ فلنطعمه .

وغادرا الفراش ، وذهبا إليه ، ووقفت فاطمة قليلا ، ثم قالت :

ـ ماذا يأكل ؟

ـ قرطم .

ـ ليس عندنا قرطم الليلة ، أيأكل الموز ؟

ـ لاأظن أنه يرفضه .

فذهبت فاطمة وعادت وفى يدها موزة قشرتها ، ودفعتها إليه ، فحملها بين أصابعه ، ينقرها بمنقاره ، فابتسمت فاطمة وقالت :

ـ أقولها ولاأخشى إلا الله : إنه ظريف . أحببته على الرغم من أنى لاأحب من أهدوه إليك .

ـ ٤ ـ

اسكتوا يا مقاصيف الرقبة ، ياشياطين ، يا أولاد الشياطين !

قالتها عزيزة ثائرة لأولادها الذين كانوا يتشاجرون ، ولكن الأولاد ظلوا فى صخبهم كأنهم لايسمعون ، فهبت من جلستها ، وأسرعت إليهم وهى تصيح :

ـ والله لأدقن رءوسكم بالأرض .

فلما لمحوها قادمة إليهم والشر فى عينيها ، فروا من أمامها هاربين ، فالتفتت إلى زوجها إسماعيل ، وكان جالسا على وسادة يهوم فى جلسته ، يسقط رأسه على صدره فيرفعه ، وما يلبث أن يسقط ليرفعه ، وقالت:

ـ ألا تزجر أولادك العفاريت ، حطموا رأسى ، انت سبب كل هذا البلاء ، كل قطرة فيك امتزجت بالحشيش . وضعت بذرتهم من الحشيش ، فجاءوا وقد عجنوا بماء العفاريت .. أنت يا رجل .. ألاتفيق أبدا لتؤدبهم كما يؤدب الناس أولادهم ؟!

فتح عينه فى جهد وقال :

ـ عندك نقود ؟

ـ من أين جاءتنى النقود ؟ أمن الضيعة التى ورثتها عن أبيك أم مما وفرناه

من الأموال التى توزعها بالشمال وباليمين ؟ إنى لو رأيت ليلة القدر ماتمنيت فيها أكثر من أن تدخل على وفى جيبك عشرة قروش .

ـ عزيزة ، أريد نقودا ، أى نقود ، لاأطمع فى كثير .

ـ أعرف أنك لاتطمع فى أكثر من ثمن الأفيون والحشيش .

ـ تعرفين أنى قنوع .

ـ ليس عندى ما أملأ به البطون ، لأعطيك ماتنفقه على مزاجك .

ـ أعطنى ثمن العشاء ، وأعدك أننى لن آكل عندك الليلة .

ـ رأسى سينفجر ، اسكت يا راجل قبل أن أصوت وأملأ عليك البيت ناسا ، يوه .. يوه .. يوه .

انكمش إسماعيل ، وقال لها فى ضراعة :

ـ اسكتى لا أريد منك شيئا ، لاأريد منك شيئا ؟

ـ آخر زمن .. آخر زمن ، الرجال يطلبون من النسوان النقود !

وصمت إسماعيل قليلا ، ثم هوم فى جلسته كأن لم يقع شىء ، ورمقته عزيزة فى شزر ، وأحست عواطفها تثور ، فغمغمت :

ـ ياعار الرجال .

ولكن لاتعجبها غمغمتها ، إنها لا تستريح إلا إذا صاحت ، فتأخذ فى الصراخ :

ـ أكاد أنفلق وأنت ساكن أهدأ من الماء البارد ، ألاتتحرك ؟! ألاتفعل شيئا ، ألاتهبط إلى أبى وتأخذ منه ماتريد ، لتسجل له ملائكة الحسنات مايعطيك إياه فى سجل الطيبات ، ياللبخت الذى مال !

نهض إسماعيل واتجه صوب الباب ، وزوجه تتبعه بنظرها ، وتلقى خلفه بصيحاتها العالية ، وإن كانت فى قرارة نفسها لاتحس نحوه كرها ، ولماغاب عن عينيها ، وهدأ صياحها ، فكرت فيما قالته له فعجبت من أنها أرشدته دون وعى منها إلى من يعطيه مايحتاج إليه ، لينفقه على مزاجه .

وجلست تستريح ، ولكنها لم تطق السكون الذى خيم عليها ، فتلفتت فرأت

الأولاد يلعبون ، فراحت تصيح :

ـ ياعفاريت ، ياشياطين ، يا « بخ » حشيش ، اسكتوا ، قصفت رقابكم .

وهبط إسماعيل فى الدرج ، ووقف أمام طبقة يونس قليلا ، لايجرؤ على الدخول ، ثم لم أطراف شجاعته وتقدم ، فألف يونس وفاطمة يتناولان القهوة ، فسلم عليهما وجلس ، وأطرق صامتا ، ومرت لحظات ، وحزر يونس أنه يريد أن يقول شيئا ، فقال له :

ـ ماذا تريد يا إسماعيل ؟

فقال دون أن يرفع عينيه :

ـ أنا فى حاجة إلى ريال ، سأرده إليك قريبا .

فقالت فاطمة فى سخرية :

ـ بعد عمر طويل ، فى الدار الآخرة !

وحلت عقدة لسانه فقال :

ـ أنا لا آكل مال الناس ، سأدفع كل مليم أخذته .

ـ لو أعطيتنا ماتجمعه فى سنة ما سددت ما عليك .

فقال يونس فى رقة وهو يمد يده بالريال :

ـ كفى يافاطمة ، خذ يا إسماعيل .

فمد إسماعيل يده ، وأخذ الريال ، وانسل فى خفة ، يتحامى أن تقع عيناه على عينى حماته ، ولما اختفى قالت فاطمة لزوجها عاتبة :

ـ لاتظن أنك تحسن إليه بإعطائه مايطلب ، إنك تسىء إليه ، وتعاونه على الفساد .

ـ إننى أبره إكراما لعزيزة .

ـ هذه خسارة ، طارت نقودك فى الهواء ، ذهبت فى الشيطان الرجيم .

ودخل على ورأى الانفعال فى وجه أمه ، فقال لها :

ـ ما الذى أغضبك ؟

ـ أبوك يبعثر نقوده .

ـ ماذا جرى ؟

ـ جاء إسماعيل يطلب نقودا فأعطاه .

فقال يونس فى هدوء :

ـ لعله معذور .

فقالت فاطمة فى حدة :

ـ لو كان ينفق ما يأخذه على البيت لكان الأمر يهون . ولكننا نعرف أنه يصرفه على المحروق .

ورأى على أن يهدىء من ثورة أمه ، فقال :

ـ يجب أن يقف إسماعيل عند حده .

ولمح سحابة الغضب تنقشع عن وجهها ، فأرضاه ذلك ، فالتفت إلى أبيه وقال :

ـ عدنى ألا تعطيه نقودا بعد اليوم .

فقال يونس فى هدوء :

ـ أعدك .

فقالت فاطمة فى يأس :

ـ ما أكثر الوعود .

وانصرف على يبتسم فى أعماقه ، فلو أن اسماعيل جاءه هونفسه يلتمس منه نقودا لأعطاه مايطلب ، وإن كان على يقين من أنه سيصرفها على المحروق !

ـ ٥ ـ

الحارة غارقة فى الصمت والظلام ، انتصف الليل فنام الكون وهدأ كل شىء إلا الجنادب التى كانت تصر ، والحشرات التى كانت تدب فى الحرية ، والنساء اللاتى كن فى غدو ورواح فى البيت الذى لا يعرف الهدوء فى الليل أو فى النهار .

كانت فاطمة فى النافذة ترقب الحارة وقد أرهفت منها الحواس ، إنها تنتظر أوبة

ابنها حسان ، ضيقة الصدر ، منقبضة النفس ، فزوجها يتقلب فى فراشه ثائرا على تلك الغيبة ، كان يخشى أن تزل قدم ابنه ، فيهوى فى مباءات الفساد ومازال غضا.

كان يونس يحب ابنه حسان ، فكان يرجو من كل قلبه أن يشب ابنه فى نمط آخر غير ذلك النمط من الحياة الذى شب عليه الشيران . كان يريد له حياة كريمة غير حياة الرجال الذين زوجهم من بناته ، الرجال الذين لا ثمرة لجهودهم إلا إنجاب الأولاد ، وما أيسره من نتاج !

لم يكن يغضبه سهرأزواج بناته ، فقد أيس من إصلاحهم ، وألف ماهم عليه من بلادة وخمول ، وتبخر كل مايحسه نحوهم من زراية . ولم يعد ينظر إليهم إلاكما ينظر إلى ثيران جلبها لأبقاره ، لتملأ عليه البيت بنين وبنات ، ولم يكن يشور لسهر على بعد أن صار رجلا يجرى على زوجه وأولاده ، ولكن سهر حسان كان يضايقه ، ويثير أعصابه ، فهو يعلم أن بابنة دفعة ، فإن تردى فى الرذيلة ، فلن يستقر حتى يبلغ القرار، فما كان يعرف الاعتدال .

وكانت عزيزة فى الطبقة الثانية ، ترغى وتزبد وحدها ، تذهب إلى أبنائها النائمين تصلح أغطيتهم وهى تسب أباهم الذى رماها به الزمن الجائر ، ثم تخف إلى النافذة تنظر لعله يعود .

وكانت صفية فى الطبقة الثالثة ، تدير شئون بيتها ، تحيك بعض الثياب، أوتعيد تنظيم الملابس فى الصوان ، وكانت تنتظر أوبة زوجها هادئة النفس ، فما كان يقلقها سهره ، أو يثير أعصابها .

وأقبل إسماعيل فى الحارة خائفا يترقب ، كان وهمه يصور له ظلال الأشياء التى تعكسها أضواء المصابيح الخافتة أشباحا تتراقص ، فيقف مرعوبا تارة ، ويجد فى السير تارة ، ويهرول مفزوعا تارة أخرى ، خشية ذلك العدو المخيف المنقض عليه ، الذى يصوره خياله .

وتحركت قطة فى الخربة ، فرآها نمرا مفترسا فأطلق لساقيه الريح ، حتى إذا بلغ الدارصرخ فى صوت مضطرب :

ـ عزيزة .. النور.. عزيزة .. النور .

وما مس صوته أذنيها حتى خفت إليه تستقبله مهرولة ، وقد حملت المصباح فى يدها ، فلما غمر الضوء المكان أفرخ روعه ، وأخذ يرقى فى الدرج فى تؤدة ، وصعدت عزيزة خلفه ساكنة ، ولكنها لم تحتمل الصمت ، فقالت :

ـ والله لولا الفضيحة لجمعت عليك الآن كل من فى الدار .

وأخذت تقرعه بصوت عال سرى إلى كل الآذان ، وهو صامت هادىء لايخشى شيئا مادام يسير فى نور المصباح .

ودخل غرفته ، ومااستقر على حشية صغيرةحتى خفت إليه تحمل له العشاء، وكان أفخر من الطعام الذى تناولته مع أولادها ، كان لسانها عليه وقلبها معه !

وسمعت أصوات أقدام صاعدة ، فاعتدل يونس فى فراشه وقال :

ـ أعاد حسان ؟

فقالت فاطمة فى اضطراب :

ـ لا . هذا على قد جاء .

فقال يونس فى انفعال :

ـ عاد الناس كلهم إلى بيوتهم إلا هو ، والله لا أدرى ماذا يفعل فى الخارج حتى الآن ؟!

ـ يتسامر مع أصدقائه .

ـ والله ماأفسده إلا تدليلك .

ـ وماذا فعلت له ؟

ـ كلما قرعته انبريت للدفاع عنه .

ـ لم يعد حسان صغيرا .

ـ دعينى أقومه ، إنه ابنى وأنا أعرف الناس بمصلحته ،

ـ إنه ابنك وأنت أبوه ، فافعل ما بدا لك .

ودار المفتاح فى الباب ، فعلا وجه فاطمة الاضطراب ، وهب يونس من فراشه ، وقد لاح فى وجهه عزم ، وانفتح الباب ، ودخل حسان فى خفة ، ولكنه لمح أباه منتصبا أمامه ، فوقف برهة وقد أربكته المفاجأة ، صاح يونس به :

ـ أين كنت حتى الساعة ، وقد أغلقت المواخير ، وعاد السكارى والحشاشون إلى بيوتهم ؟!

ـ كنت فى نادى الحزب .

فقال يونس فى سخرية وهو يقلد صوته :

ـ ساهرا على مصلحة الوطن .

فقال حسان فى انفعال .

ـ ومن أجدر من الشباب بصيانة الوطن ؟

ـ دعوا الهراء واعرفوا مصالحكم أولا ، تتظاهرون بالوطنية لتواروا خيبتكم ، اسمع ياحسان ، لن أسمح بهذا العبث أبدا ، إنى امنعك من السهر.

فأحس حسان الدم يتدفق حارا فى عروقه ، ولم يستطع أن يكبت مشاعره فصاح :

ـ وأنا لا أسمح لأحد أن يعاملنى معاملة الأطفال ،

ـ إنى أنذرك ياحسان ، إذا عدت إلى السهرفلن أسمح لك بدخول بيتى..

وارتجت فاطمة ، ورأت أن من الخيرأن تتدخل قبل أن يزداد الموقف سوءا ، فذهبت إلى ابنها تدفعه أمامها فى حنان وهى تقول :

ـ كفى ، سيستيقظ الجيران على صيحاتنا ، دعوا هذا حتى الصباح . ادخل ياحسان إلى فراشك .. ادخل يابنى واسترح .

وسارحسان فى خطا وئيدة إلى غرفته ، وهتف يونس فى صوت أقرب إلى الهمس :

ـ تدليلك هذا يفسده .

وكان فى قرارة نفسه يحمد لها هذا التدخل ، فماكان بطبعه قادرا على أن يستمر فى ثورته ، إنه ينفر من الشدة ، وإذا اشتد فإنه يفتعل ذلك افتعالا ، ليدلل على سيادته ، ولكن سرعان ماتخبو الحدة المصنوعة ،. ليعود إلى هدوئه وسماحته .

ـ ٦ ـ

على يتقلب فى فراشه ، فما مشى الوسن إلى عينيه ، لا لأن أصوات أولاد الحارة الحادة المتنافرة التى تحطم الأعصاب تنفذ إلى مسامعه على الرغم من إغلاق نوافذ غرفته ، فما كان يصغى إليها ، فقد كان مشغولا عنها بفكرة شغلت رأسه ، وجعلت قلبه يدق فى قوة ، تتدفق منه دماؤه حارة ، تغذى حماسته ، وتؤجج نار ثورته .

كان يفكر فى تلك الشركة الإنجليزية التى تستغل تحكم الإنجليز فى مصر ، فتتعنت مع معامليها ، إنها ترغمه على أن يأخذ مع الملح صابونا ، وإن كان فى غنى عن الصابون ، إن ذلك التعنت يضايقه ، حتى إنه يشعر فى أعماقه أنه يفضل أن يغلق حانوته على أن يقبل ذلك الذل .

جأر التجار بالشكوى من ذلك الجبروت ، ولكن الشركة صمت أذنيها عن أن تستمع إلى منطق العدل ، ما دامت قوة الاحتلال تظاهرها ، ولم يحتمل ذلك الهوان ، فكتب إلى الشركة يرشدها إلى محجة الصواب ، ولكن ذهبت كتاباته أدراج الرياح .

كان على مغرما بقراءة أسفار التاريخ ، فكان يقتنى كتب السيرة ، وتراجم أبطال المسلمين ، يقرؤها فى شغف ، وينفعل بها ، ويحاول أن يتمثل بالسلف الصالح ، فكان يثور على الظلم ، والأهوال ، كان فارسا فى ثياب بلدية !

وكان إذا جلس ليكتب قفزت إلى ذهنه رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم الروم : « أسلم تسلم » فكان يكتب رسائله عل نمطها ، موجزة قوية ، وكانت طبيعته المتحمسة تعاونه على أن يكتب رسائل نابضة بالقوة والحياة .

أحس على الثورة على تلك الشركة تتكاثف وتتجمع فى صدره فيضيق بها ،

فراح يفكر فى وسيلة ينفس بها الغيظ الحبيس ، فلم يرشده فكره إلا إلى كتابة رسالة نارية ، ولكن إلى من يبعث بها ؟ وظل يفكر ويتقلب فى فراشه ، حتى قر رأيه على أن يبعث برسالته إلى اللورد كرومر المندوب السامى للدولة العاتية .

وهب من فراشه ، وقلبه يخفق فى قوة ، وراح يبحث عن ورق يليق بأولئك المتعجرفين ، وكانت حركاته تنم عن حماسة دافقة ، حتى إذا استراح إلى نوع الورق، جلس يكتب إلى عميد الإنجليز فى مصر حكما عربية وآيات قرآنية !

وتزاحمت الأفكار فى رأسه ، فأخذ ينتقى منها أكثرها قوة ، وغاب عن كل شيء حوله ، وعاش فى رسالته حتى إذا انتهى منها ، وبث فيها النار المشبوبة فى جوفه ، راح يعيد قراءتها ، وقد امتزجت الحماسة بمشاعر الزهو ، فغمرته موجة من الرضا عن النفس استكان لها مرحبا متلذذا .

وختم الرسالة ، وعنونها باسم اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى ، بقصر الدوبارة بالقاهرة ، ولم يقو على الصبر على إرسالها حتى يوافى ميعاد خروجه أول الليل للسهر مع رفقائه فى مقاهى الإسكندرية وملاهيها ، فارتدى ثيابه وحمل الرسالة فى حرص ، وانطلق مهرولا .

واجتاز الحارة ، وخرج إلى الشارع ، وذهب إلى صندوق البريد ، وألقى فيه الرسالة ، وقد قر عزمه على أن يظل فى محاربة هذه الشركة الباغية ، حتى إذا لم ينصفه اللورد كرومر ، شكاها إلى الرؤساء واستمر فى التنديد بها ، حتى ينال حقه ولو اضطر آخر الأمر إلى رفع شكايته إلى ملك الإنجليز بلندرة !

***

وجاء الليل ، وساد الحارة ظلام وسكون ، ونام الكون فى حراسة النجوم ، فدخل يونس إلى فراشه ، واستسلمت فاطمة للذيذ الرقاد ، وبينا هى غارقة فى سبات ، ارتفع صوت الببغاء يصيح :

ـ يونس !

واستمر فى الصياح حتى هبت فاطمة من نومها تصرخ حانقة :

ـ هذه عيشة لاتطاق .

فاستيقظ يونس ، وراح يتساءل :

ـ ماذا جرى ؟

فقالت فاطمة فى حدة:

ـ إنه دائم الصراخ ، لايفرق بين الليل والنهار .

ـ وهل له عقل يميز به ، إنه يصرخ كلما جاع .

ـ أعصابى تحطمت ، لاأطيق صراخه ، أطلقه ، لا أريده .. لا أريده .

ـ وما ذنبه ؟

ـ إنه يطلب الطعام فى غطرسة كأننا عبيد عنده ، يحسب نفسه إنجليزيا ، إنه متغطرس مثلهم .

ـ إنه لا يفقه شيئا .

ـ لا أريده ، يكفى أن رطانته فى البيت تذكرنى بالأيام السود ، كلما صرخ تذكرت ذلك اليوم الأغبر الذى استيقظنا فيه مفزوعين على صوت مدافع مراكبهم وهى تدق المدينة ، تذكرت غدرهم وخروجنا عرايا مرعوبين هائمين على وجوهنا فارين إلى دمنهور، كلما صرخ تجددت آلامى التى احتملتها فى تلك الأيام ، كنت حاملا فى على ، وكنت لا أستطيع أن أهرول ، ومدافعهم الغادرة لاترحم ، إننى أبغضه بقدرماقاسيت من أوجاع .

وتوجه يونس إليه ليطعمه ، فهتفت به زوجه :

ـ يونس ، والله لن يجمع بينى وبين هذا اللعين سقف بعد اللحظة أبدا .

ـ اهدئى .

ـ أقولها ولاأخشى إلا الله ، إنى أكرهه وأكره من أهدوه إليك .

ـ ليس له جريرة فى هذا البغض .

ـ اختر : إما أنا وإما هو فى البيت .

وصاح الببغاء :

ـ يونس :

ـ فصاحت فى انفعال :

ـ والله لن يأكل فى بيتنا شيئا بعد الآن أطلقه وليذهب إليهم ليطعموه .

وأحس يونس أنه عاجز عن أن يحتفظ به ، فذهب إليه وأطلقه ، فوقف على حرف الشباك وصاح :

ـ يونس : I want to eat

فهرعت فاطمة إليه تطرده فى قسوة وهى تصيح :

ـ اذهب ملعون أنت ، ومن نطقت بلسانهم .

ـ ٧ ـ

صفية ثائرة متبرمة ، تغدو وتروح بين النافذة وفراش أولادها ، وكلما مرت لحظة زادت ثورة نفسها . لاح الخيط الأبيض فى الأفق الشرقى ، وهتك صياح الديكة سكون الليل ، وسرى صوت المؤذن نديا فى الفجر يذكر أهل الأرض بنداء السماء ، وما عاد زوجها إلى داره بعد .

تحملت وتذرعت بالصبر، ودارت ما بها كلما سهر ولج فى السهر ، ولكنه لم يغب عنها قبل اليوم حتى مطلع الفجر، فأحست كرامتها تهدر ، وكبرياءها تطعن . فانفجر مرجل غضبها ، واحتلت رأسها فكرة مغادرة البيت إعلانا باستيائها .

وجلست على حافة الفراش مطرقة حانقة ، تكاد الدموع تطفر من مآقيها ، إنها أحست منذ اليوم الأول الذى وطأت فيه قدماها هذا البيت أن معدنها يختلف عن معدن أهله ، فهى من أسرة ميسورة ، تعيش فى نظام ، بينما الفوضى تضرب فى هذا البيت أطنابها ، فأهله ينامون أغلب النهار ، ويسهرون طوال الليل ، ويتركون أولادهم يهيمون كالأنعام . ونفرت من معيشتهم . ولكنها رأت أن تسايرهم دون أن تتأثر بهم ، وحاولت أن تهذب من تصرفاتهم دون أن تجرح شعورهم .

وانجبت أولادا ، شدوا أواصرها بتلك الأسرة ، وعلموها الصبر على الهوان ، ولكن نضب معين صبرها وهى قائمة الليل وطرفا من النهار ، تنتظر أوبة على قلقة أرقة ، ثائرة حانقة ، وهو فى الخارج يسعد بالرفاق .

ومس أذنيها صرير الباب ، فهبت مزمجرة تستقبل الوافد مع خيوط الشمس الأولى ، وما أن وقعت عيناها عليه حتى هتفت فى غيظ :

ـ لم أعد أحتمل هذه الحياة ، لن أمكث فى هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن، لو كنت كلبا ماتركتنى أعوى وحدى الليل الطويل ، إننى ذاهبة ، ذاهبة إلى أهلى ولن أعود .

فقال على فى خذلان :

ـ أخذنى حسان معه إلى نادى الحزب الوطنى ، وقد تأخر الاجتماع .

ـ هذه حياة لاتطاق . تلفت أعصابى ، وهدت قواى . لا . لن أبقى دقيقة واحدة .

وراحت تجمع حوائجها ، وهو يتلطف معها ، يحاول أن يثنيها عن عزمها ، ولكنها صممت على الخروج ، واستيقظ أولادها .. فهرعت إليهم تبدل لهم الثياب ، وبعثت إلى أمها تستدعيها لتخرج معها .

وعز على علىّ أن تغادره صفية غاضبة ، فذهب إلى أمه وأخواته ، وطلب منهن أن يلتمسن منها البقاء ، فأسرعن إليها ، وراحت أمه تلتمس منها فى صدق المسالمة والصفاء ، بينما كانت عزيزة وأخواتها يحدثنها وهن يتغامزن ، وفطنت صفية إلى تغامزهن ، فزادها ذلك إصرارا على الذهاب .

وجاءت أمها ، فلما لمحتها عزيزة قالت لأخواتها فى سخرية :

ـ جاءت البرنسيسة .

وهزت كتفيها تقلدها فى مشيتها ، فارتسمت على الشفاه ابتسامات خفيفة، وإن كانت قهقهة السخرية دوت فى الأجواف .

وهبطت صفية وأمها وأولادها ، وخفت النسوة إلى الشبابيك ينظرن ، فألفين عربة أمام الباب يجرها جوادان ، وقد التف أبناء الحارة حولها ، فما أندر دخول

العربات إلى هذا المكان ، قالت عزيزة :

ـ لقد أخطأت أمها .

والتفت النسوة إليها يتساءلن:

ـ فيم ؟

قالت عزيزة وهى تحرك حاجبيها :

ـ هذه العربة لا تليق بالمقام ، ياليتها أحضرت لها عربة زينب هانم !

فقالت ثريا :

ـ وأمرت بدق الطبول وفرش الحارة بالرمل .

فقالت فاطمة غاضبة :

ـ كفى ، قصروا ألسنتكن .

وانطلقت العربة فى الحارة ، وقدتعلق بعض الأولاد بها ، والآخرون يحرضون الحوذى على ضربهم بسوطه ، لارأفة بالحوذى وحصانيه اللذين يجران العربة فى جهد بل حسدا للأولاد الذين وجدوا لهم مكانا فى مؤخرة العربة !

وبينما العربة فى طريقها إذ لمح صفية عمها ، فأسرع إليها ، وأشار للحوذى بيده أن يقف ، وقال :

ـ إلى أين فى هذه الساعة المبكرة ؟

فقالت الأم :

ـ إلى بيتنا ، غضبت صفية من زوجها .

فقال العم فى استياء :

ـ وهل تغادر الزوجة بيتها كلماوقعت جفوة بينها وبين زوجها ؟ لا. إن هذا لن يرضى أباك ، لايا صفية ، البنت عندنا لاتغادر بيت زوجها إلا ميتة .

أطرقت صفية ولم تنطق بكلمة ، وقال عمها :

ـ على الزوجة أن تحتمل زوجها ، إنك يابنتى لست خالصة ، مامصير كوم اللحم هذا « وأشار إلى أولادها » إذا دب بينكما الخصام ، تعالى معى ، لأصلح بينكما .

ولم ينتظر جوابها ، بل قفز إلى العربة ، وأمرالحوذى أن يعود من حيث جاء .

وعادت العربة تخب فى الحارة ، وفتحت الشبابيك التى اشتركت فى الوداع الساخر ، ونظرت النسوة فى دهش ، فلما وقعت العيون على صفية وأمها وعمها ، قالت عزيزة :

ـ عادت البرنسيسة ومعها قاضى الغرام .

ورنت فى جنبات المنزل ضحكات ، ولم تكن فاطمة هناك لتزجرهن ، فقد أسرعت مستبشرة تستقبل رسول السلام .

وعاد إلى البيت الصفاء ، وأقبل الليل ، ووافى ميعاد السهر فارتدى على ثيابه وخرج ، ومرت الساعات وصفية تدبر شئون بيتها . ثم اتجهت إلى النافذة ترقب أوبة زوجها ، جلست وفى جوفها قلق ، تحسب أن مصدره خشيتها من أن يمعن فى السهر ، دون أن تثمر ثورة الصباح ، ولكنها كانت فى الواقع قلقة خوفا من أن يعود مبكرا مدحورا أمام غضبتها ، ولو عاد قبل أوانه لضاعت هيبته ، وذابت رجولته ، وتقضت ساعات الليل دون أن يثوب ، فتبخر قلقها ، واستمرت تنتظره هادئة ، دون أن تدرى لذلك سببا !

ـ ٨ ـ

الهوام تزحف فى الخربة ، خنافس تدور حول الأحجار ، وصفوف من النمل تثوب فى نظام إلى شقوقها كأنها صفوف من الجيوش المدربة فى طريقها إلى قلاعها ، وجنادب تخرج من مكامنها تمرح فى انطلاق ، فقد ولى النهار.

وعشش الليل ، فدبت فى الخربة حياة موصومة ، لاتحيا إلا فى الخفاء ، حفنة من الرجال افترشوا الأرض ، وتحلقوا حول شمعة خافتة لايكاد ضوءها يزحزح أشبارا من أمواج الظلام ، وقد صوبت عيونهم إلى الأرض ، ورفرف فوق رءوسهم صمت ، وإن أرهفت منهم الحواس ، كانوا يلعبون القمار.

وفى ركن منها قبع فريق من الرجال ، قلما يجتمعون إلا فى هذا المكان،

بعض الصعايدة يجلسون إلى بعض الفلاحين وقد نزعت من قلوبهم البغضاء ، كانوا ساكنين هادئين ، ينتظر كل منهم الغاب الذى يدور عليهم ، ليجذب منه نفسا طويلا، ثم ينفث دخانه فى خمول ويسبل عينيه ، ليغيب فى أحلام !

وعلى حوافى الخربة ، انتشر الصبية فى ثيابهم القذرة الممزقة ، يصنعون من أعقاب بعض اللفائف التى التقطوها من الطرقات ، لفائف طويلة يشعلونها وينفثون دخانها حلقات ، كانوا جماعات متناثرة ، لايجمع بينهم إلاالنار، نار الشمعة الواهن ، ونار الفحم فى الموقد ، وبصيص اللفائف ، الذى يتوهج ويخفت ، ثم يتوهج ليخفت كلما شدت منه الأنفاس . وفتحت النوافذ فى الحارة ، وأطلت النسوة اللاتى كن يختفين خلفها بالنهار، ولم تحرك حياة الخربة المريبة فضولهن . فقد اعتادت عيونهن مشاهدها ، حتى باتت أمرا مألوفا كبزوغ النجوم فى رقعة السماء كلما وفد المساء .

وأطلت فاطمة من الشباك ، تنتظر عودة يونس ، وتلفتت فألفت حليمة جالسة بالقرب من الباب ، وأمامها قفص الجريد ، صفت فوقه قطع الحلوى التى تبيعها الأولاد . تفرست فيها فمشت إلى قلبها غيرة ، كانت شابة طاف بها الجمال ، فخلف فى ملامحها آثاره ، ووضع فى عينيها بعض أسراره ، وكساها الفقر انكسارا، تحالف مع جمالها واتحد ، فكانت إشعاعات عينيها تنفذ إلى قلوب الرجال ، وتبذر فى قلوب النساء الحسد .

وأقبل رجل ووقف أمام حليمة ، تبينت فاطمة ملامحه فى ضوء المصباح ، كان صارم الملامح ، مفتول الشارب ، فيه غلظة وشكاسة ، ولكن ما أن نظر إلى حليمة حتى انبسطت أساريره ، ولانت نظراته ، ومد يده فى جيبه وأخرج قرشا ، ودفعه إليها ، وأخذ بعض قطع الحلوى التى لايشتريها إلا الأطفال ، وتحركت شفتاه ، ولم تبلغ كلماته مسامع فاطمة ، ولكنها أحست ضيقا ، ساءها أن يجرى ماتوهمته غزلا تحت نافذتها .

واستشعرت نحو حليمة بغضا يتحرك فى جفونها ، فطالما رأت رجال الحى يفدون إليها ، يشترون ماتبيعه ، وإن كان ماتبيعه لم يصنع للرجال ، وكان يزيد

فى حنقها أن حليمة كانت تغض الطرف كلما حادثها رجل ، ولكن وهم فاطمة كان يصور لها أنها تسبل عينيها دلالا ، إمعانا فى الإغراء .

وجاء يونس يسعى ، ولمحته زوجته وهوقادم ، يحمل فاكهة فى منديله ، فما كان يعود إلى داره فارغ اليد ، فراحت تتبعه بنظراتها ، وعرج على الدارولمح حليمة فى جلستها ، فقال :

ـ مساء الخير .

ـ مساء النور يا سيدى .

قالتها فى انكسار وأطرقت ، ولمحتها فاطمة تحرك الشفاه ، فاندلع فى جوفها أتون نار ، ساءها أن يحدث زوجها هذه المرأة الجالسة لاصطياد الرجال، فانسابت عقارب غيرتها تلسعها ، ففكرت أن تهرع إلى الباب تعنف زوجها ، ولكنها خشيت أن يفوتها ماقد يقع بينهما ، فابتعدت عن الشباك وهى ترصد ما يجرى فى اهتمام.

عز على يونس أن يمر على حليمة ، وهو يحمل مارزقه الله به دون أن يعطيها منه ، فمد يده إلى المنديل ، ودفع برتقالتين إلى حليمة ، فتناولتهما مستبشره وهى تقول :

ـ كثر الله خيرك ياسيدى .

وانطلق فى طريقه ، هادىء النفس ، لايفكر فى شىء مما وقع ، ولكن فاطمة كانت تغلى من الغيظ ، تحس مهانة أججت ثورتها ، وذهبت إلى الباب تفتحه ، يكاد يفجر صدرها حنقها وغضبها . وما أن وقعت عيناها عليه ، حتى صاحت فيه :

ـ ينبغى أن نطرد هذه الفاجرة من أمام بيتنا ، من العارأن نسكت على فعالها ، وجودها سيفسد الأولاد والرجال .

ـ ماذ حدث منها ؟

ـ إنها امرأة ناعمة ، تتظاهر ببيع الحلوى ، ولاهم لها إلا اصطياد الرجال .

ـ حرام عليك ، حليمة امرأة مسكينة ، تسعى على قوتها ، ولو لم تكن شريفة لما قبلت عيشة الضنك التى تحياها .

ـ لا بد أن تدافع عنها ، سحرتك وما أيسر أن تسلب الفاجرة عقول الرجال .

ـ عندنا ولايا ، حرام أن نتهم الناس بالظن .

ـ وماذا قالت لك ؟ ولماذا أعطيتهاالبرتقال ؟

ـ هذه الغيرة لاتليق بنا وقد تجاوزنا الستين .

فقالت فى استياء :

ـ أنا أغار منها ؟ أغارمن كلبة لايشتهيها إلا الكلاب ، والله لايعجبنى الحال المائل . هذه امرأة مائعة ، لو كانت عندنا لقتلوها. فالصعيدى لايسكت على العار .

فقال فى نبرات ساخرة :

ـ أتحرضيننى على قتلها ؟ !

ـ أحرضك أنت ؟! إنها غالية عندك ، تخصها بالخير قبل أهلك .

فقال لها وهو يبتسم :

ـ غيرتك دائما تفرحنى .

ـ لاتقل أنى أغار منها.

ـ معاذ الله ، انشرح صدرك لما أعطيتها برتقالتين .

فقالت فى ضيق :

ـ أقولها ولاأخشى إلا الله ، هذ المرأة أكرهها لله وفى الله .

فرنا إليها فى عطف ، وقال وهو يتصنع الجد :

ـ سأعترف لك بكل شىء .

فالتفتت إليه خافقة القلب ، وانداح فى جوفها خوف ، وأرهفت منها الحواس ، وقال :

ـ أنت المرأة الوحيدة التى أحببتها فى حياتى .

فأشاحت بوجهها عنه، متظاهرة بالاستياء من عبثه ، وإن انتشر الرضا بين جوانحها ، ودثرتها طمأنينة وأمن .

ـ ٩ ـ

مضى شهر ولم يتلق على من اللورد كرومر ردا على رسالته التى بعثها إليه ، فلم يفت ذلك فى عضده ، بل أذكى جمرة حماسته ، فما كان يقبل أن ينام على الضيم ، إنه على يقين من أن الشركة البريطانية تتعسف معه ومع إخوانه التجار ، فإذا كان اللورد كرومرقد غض الطرف عن ذلك الظلم ، فما ذلك إلا لأنه يؤازر الاستعمار، ويمكن له فى البلاد ، ولكنه قد بيت العزم على ألايسكت على ذلك الهوان ، سيكتب إلى وزير خارجية الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، منددا بالشركة الباغية ، التى ترغم التجار على شراء بضاعة كاسدة لا يحتملهاالسوق ، فلو أعرض وزير الخارجية عن شكايته وصم أذنيه ، فسيرفعها إلى قصر بكنجهام ، وإذا لم ينصفه ملك الإنجليز ، فلن يقعده شىء عن تبليغ ذلك الظلم الذى تظاهره القوة إلى المحافل الدولية !

وملأت فكرة الكتابة إلى وزير خارجية بريطانيا رأسه ، واستولت على مشاعره ، فجلس يكتب :

ـ حضرة صاحب المعالى وزير خارجية بريطانيا العظمى .

« إن احسنتم فلأنفسكم وإن أسأتم فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » . وراح يسرد قضيته وقضية إخوانه التجار، مقتبسا من القرآن ، مستشهدا بالأحاديث ، حتى إذا انتهى من تحرير رسالته ، وهدأت ثورته ، خطر له خاطر ، كيف يفهم وزير الخارجية هذه الرسالة وهى مكتوبة باللغة العربية ؟! وضايقه ذلك الخاطر لحظات ، ولكنه اهتدى إلى أن يلجأ إلى أحد أصحابه من الموظفين يترجمها له . وانطلق إلى المقهى ، فألفى صديقا من أصدقائه يقرأ « اللواء » ، فذهب إليه ، وقدم له الرسالة ، وقال له :

ـ اقرأ هذه .

فراح الرجل يقرؤها ، وما أن فرغ منها حتى قال :

ــ رسالة من نار .

ــ أريد منك أن تترجمها إلى الإنجليزية ترجمة أمينة ، حتى يحس وزير الخارجية كل حرف فيها ،

فقال الرجل فى فزع :

ــ أنا ؟ محال .

ــ لماذا هذا الفزع ، ولم أطلب منك أن توقعها باسمك ، أوتنسبها إليك ؟

ــ أتريد أن تخرب بيتى ، لو عرفوا خطى لاضطهدت وشردت .

ــ من ذا الذى سيعرف خطك ؟!

ــ عيون اللورد كرومر فى كل مكان .

ــ ترجمها ولاتخف .

فتلفت الرجل فى ذعر وقال :

ــ ابتعد عنى يا سيدى على ، أرجو منك ، أنا صاحب عيال . فغادره على وهو حانق ، وراح يبحث عن صديق غيره ، أكثر منه شجاعة ، ولكن أعياه البحث ، وماوجد من يجرؤ على ترجمة رسالة فيها مساس باللورد كرومر الجبار، كان الفزع يتسلط على العقول ، حتى إن كل من عرض عليه الرسالة ليترجمها ، كان وهمه يصور له أن اللورد سيعرفه من أسلوبه ولوكتبت الرسالة بخط سواه !

ضاق صدره بأصدقائه الجبناء ، وإن أحس بموجة من الرضا عن النفس تغمره ، فهو الرجل الوحيد بين هؤلاء النعاج ، الذى جرؤ عل أن يثور على شركة بريطانية ، وأن يصم اللورد كرومربالتحيز واضطراب ميزان العدل فى يده. وأخيرا وجد من تطوع بكتابة عنوان وزير خارجية بريطانيا على الظرف . فدس فيه الرسالة المكتوبة باللغة العربية ، وذهب إلى صندوق البريد ، ووضعها فيه ، وعاد إلى القهوة يحس أن الروح السارية فى جسمه ، روح صحابى من صحابة الرسول ، الذين ثاروا فى وجه الطغيان ، دون أن يهابوا السلطان ، وقد عاشوا كراما لا يخشون فى الحق لومة لائم ، فانبثق فى جوفه ينبوع من الكرامة والعزة ، ملأ نفسه حتى فاض على

لسانه . فكان حديثه نابضا يحرك المشاعر ، ولكن كانت القلوب ترتجف رهبة من الاستبداد والطغيان .

ــ أتريد أن تخرب بيتى ، لو عرفوا خطى لاضطهدت وشردت .

ــ من ذا الذى سيعرف خطك ؟!

ــ عيون اللورد كرومر فى كل مكان .

ــ ترجمها ولاتخف .

فتلفت الرجل فى ذعر وقال :

ــ ابتعد عنى يا سيدى على ، أرجو منك ، أنا صاحب عيال .

فغادره على وهو حانق ، وراح يبحث عن صديق غيره ، أكثر منه شجاعة ، ولكن أعياه البحث .. وماوجد من يجرؤ على ترجمة رسالة فيها مساس باللورد كرومر الجبار، كان الفزع يتسلط على العقول ، حتى إن كل من عرض عليه الرسالة ليترجمها ، كان وهمه يصور له أن اللورد سيعرفه من أسلوبه ولوكتبت الرسالة بخط سواه !

ضاق صدره بأصدقائه الجبناء ، وإن أحس بموجة من الرضا عن النفس تغمره ، فهو الرجل الوحيد بين هؤلاء النعاج ، الذى جرؤ عل أن يثور على شركة بريطانية ، وأن يصم اللورد كرومربالتحيز واضطراب ميزان العدل فى يده . وأخيرا وجد من تطوع بكتابة عنوان وزير خارجية بريطانيا على الظرف . فدس فيه الرسالة المكتوبة باللغة العربية ، وذهب إلى صندوق البريد، ووضعها فيه ، وعاد إلى القهوة يحس أن الروح السارية فى جسمه ، روح صحابى من صحابة الرسول ، الذين ثاروا فى وجه الطغيان ، دون أن يهابوا السلطان ، وقد عاشوا كراما لا يخشون فى الحق لومة لائم ، فانبثق فى جوفه ينبوع من الكرامة والعزة ، ملأ نفسه حتى فاض على لسانه ، فكان حديثه نابضا يحرك المشاعر ، ولكن كانت القلوب ترتجف رهبة من الاستبداد والطغيان .

ـ ١٠ ـ

غادر الثيران المنزل لمزاولة أعمالهم ، التى كانت تقطر لهم قطرات من الرزق ، لاتكاد تطفىء ذلك العطش الدائم إلى النقود ، ولولا عطف يونس عليهم ، وإيواؤه إياهم فى داره لعاشوا فى مسغبة ، كانوا يبذلون اتفه الجهود فى أعمالهم ، ويصرفون كل تفكيرهم فى ملاذهم ، فقد حببت إليهم المخدرات والنساء .

واجمعت بنات يونس الخمس يتحدثن ، فدار الحديث حول صفية ، قالت ثريا فى مرارة :

ـ وضعت ولدا ثالثا ، بينا جئت بأربع بنات .

فقالت لها زينب :

ـ وماذا علينا إذا كانت ذريتنا بنات ؟ هذا ليس عيبنا إننا نلد ما يضعه الرجال فينا .

فقالت عزيزة :

ـ أولاد .. أولاد ، أجاءت بالأمراء ؟ .. العزب لاتنتظرهم ، دكاكين الحدادين والنجارين فى حاجة إليهم ، والمقاهى والخمارات ..

فقالت زهيرة فى نفاق :

ـ حرام عليك ياعزيزة ، عندنا أولاد .

فقالت عزيزة ثائرة :

ـ حرام .. حرام ، أكفرت ؟ من لايشبه أهله فهو ابن حرام ، أنفاس أهل البيت حشيش ، ومايجرى فى عروقهم خمر ، إنها ذرية بعضها من بعض .

فقالت حميدة فى حماسة :

ـ زوجى لم يشرب الخمر أبدا .

فقالت عزيزة فى سخرية :

ـ زوجى ولى من الصالحين ، والحشيش لا يمنع ولاية .

فقالت نبيلة :

ـ الحمد لله ، زوجى لا يعرف الحشيش ولا الخمر .

فقالت عزيزة وهى ترفع حاجبا وتخفض آخر :

ـ أزواجكن كلهم ملائكة ، وليس بينهم حشاش وسكير وابن كلب غير زوجى، فاهدأن واسترحن !

فقالت لها زينب :

ـ لم تذكر سيرة زوجك على طرف لسان .

ـ ماله زوجى ؟ حشاش وسكير وفيه العبر، لكنه أفضل من أزواجكن .

فقالت لها ثريا فى حدة :

ـ ماهذا الخلط لمى لسانك .

ـ أغضبك أن زوجى أحسن من زوجك ؟!

فقالت لها نبيلة :

ـ زوجك زين الرجال . اسكتى .

ـ ظفر إسماعيل بالحى كله .

فقالت ثريا وهى تتمايل :

ـ يا وكسة ، تعال يا أبى اسمع .

وارتفعت أصوات بنات يونس واختلطت ، فرحن يتصايحن دون أن يصغى إليهن أحد ، وهرعت أمهن إليهن ، تصرخ فيهن بأن أخاهن عليا هابط ، ولكنهن وضعن أصابعهن فى آذانهن .

وسمع وقع أقدام فى الدرج . فخفتت أصوات النسوة ، وخرجت نبيلة تنظر ، فألفت أخاها نازلا ، فقالت له :

ـ مبارك ، يتربى فى عزك .

وهرعت إليه أخواته يهنئنه بالمولود الجديد ، واستأنف هبوطه ، حتى إذا غاب عن عيونهن ، لم تقو عزيزة على كبح جماح لسانها ، فقالت :

ـ يتربى فى بيت جده ، كما تربى أخوه من قبل .

فقالت زهيرة متظاهرة بالدفاع ، وإن كانت فى قرارة نفسها تريد أن تجر عزيزة للنيل من زوجة أخيها :

ـ وهل فى تربية الجد لحفيده عيب ؟ كلنا نتمرغ فى خير أبينا ، فماذا عليها إذا تركت ولدا فى بيت أبيها ترعاه جدته ، إنها معذورة .

فقالت عزيزة وهى تهز كتفيها :

ـ تتركه للبرنسيسة .

وراحت عزيزة تنال أهل صفية بلسانها الذرب ، وتنتقد ذهاب صفية إلى بيت أهلها كلما أحست آلام الوضع ، وأخواتها يصغين إليها مسرورات ، وكانت زهيرة أكثرهن سرورا ، وإن كانت تظهر استياءها بين لحظة ولحظة ، ففى طبعها النفاق .

وانطلق على إلى القسم ، استدعوه ومايدرى لذلك سببا ، فراح يقدح زناد فكره ، ليهتدى إلى فعل ارتكبه يوجب استدعاءه ، فلم يهتد إلى شىء ، فانتابه قلق . وجد فى السير ، فلما بلغ القسم قدم نفسه ، فاقتيد إلى الضابط البريطانى ، الذى كان يضع فوق رأسه طربوشا ، استعار حمرته من حمرة وجهه .

نظر إليه ضابط البوليس البريطانى بعينيه الزرقاوين نظرة فاحصة ، ثم أشار إلى كرسى قريب منه ، وقال فى لكنة :

ـ اقعد .

جلس على ، فتهدل قفطانه على الأرض ، ومد يده دون وعى يصلح طربوشه ، كان مشتتا ، لا يعرف إلى أين يوجه حواسه ، وقال الرجل الإنجليزى :

ـ هل رفعت شكاية إلى وزير الخارجية البريطانية ؟

اضطرب للمفاجأة ، فدق قلبه ، فما خطرت شكايته على ذهنه وهو فى طريقه إلى القسم ، فراح يستجمع قواه ليقهر إحساسات التخاذل ، التى أرادت أن تطل بوجهها ، ثم قال :

ـ نعم

فقال له الرجل فى رقة متكلفة :

ـ صدرت التعليمات إلى الشركة أن لاترغمك على شراء مالا تريد ، أنت حر، يمكنك أن تشترى الملح وحده إن أردت ، أو الصابون وحده إن أردت ..

وصمت الرجل قليلا ، ثم قال :

ـ هذه خدمة جليلة تؤديها لك إنجلترا .

وسكنت الطمأنينة قلب على، وأريقت الغبطة فى جوفه ، وهزه النصر، فهبطت فروسيته تتحدث :

ـ لم أطلب رفع الظلم عن نفسى وحدى ، بل طلبته لجميع إخوانى التجار .

فقال الضابط الإنجليزى :

ـ مالك ولغيرك وقد نلت مبتغاك ؟

فقال على فى إصرار :

ـ لاأرتضى هذا الحال ، وسأعاود الكتابة إلى وزير الخارجية !

كان يعز على الضابط البريطانى أن ينتصرمصرى على شركة بريطانية فى ظل الاحتلال ، وإن كان الحق فى جانبه ، فأراد أن يؤدى للاستعمار خدمة ، بأن يستثنى ذلك المشاغب وحده من طغيان الشركة ، على الرغم من أن الأوامر صدرت بتكليفها ألا ترهق عملاءها ، ولكن ذلك المشاغب لايرضيه ما ناله من كسب ، بل يريد تخليص إخوانه من ذلك الاستبداد ، فرمقه البريطانى بعين خبيرة فاحصة ، فقرأ فى وجهه التهور والدفعة ، فتيقن من أنه لن يسكت ، وسينكشف تدبيره ، فقال له :

ـ لا تكتب إلى وزير الخارجية ، إذا أردت شيئا تعال إلى .

فقال على :

ـ أريد أن يسرى ذلك القرارعلى التجار جميعا ،

فقال له الضابط البريطانى ملاطفا وهو يصافحه :

ـ سيسرى ذلك القرارعليهم جميعا إكراما لك .

وخرج على من القسم مزهوا. يشعر شعور قائد انتصر على الإمبراطورية العاتية ، وراحت الأفكارتتوافد على رأسه مشرقة مبهجة ، وتذكر وليده الجديد ،

فقال إسماعيل :

ــ إذا خاصمناهم أرغمونا على محادثتهم ، والابتسامة فى وجوههم برغم أنوفنا .

فقال حسان فى ثقة :

ــ لايستطيع إنسان أن يرغمنى على الابتسام ..

فقال ثورثالث :

ــ يضربك حتى تنفرج شفتاك عن أسنانك .

قال يونس :

ــ الإنجليز أهل مكر ودهاء ، إذا جذبت الحبل أرخوه ، وإذا أرخيته جذبوه ، وإذا عبست فى وجوههم ابتسموا . سياستهم أن ينيموا الشعب ، وأن يخمدوا ثورات النفوس فى الصدور .

فقال حسان فى انفعال :

ــ لن يخرج الإنجليز من بلادنا إلا إذا حاربناهم .

ــ وكيف نحاربهم ؟

ــ تنضم إلى تركية ونغريها بحربهم .

فقال إسماعيل فى فزع :

ــ نخرب بلادنا بأيدينا ؟!

فقال حسان وقد استعارت ألفاظه حرارتها من حرارة صدره :

ــ أن تخرب بلادنا ويخرجوا ، خيرمن أن تبقى عامرة وهم يجرون فيها كالدود ، ويسيرون فى شرايينها كالصديد .

فقال ثور من الثيران :

ــ أفضل أن تبقى عامرة وهم فيها ، من أن تصبح خرابا ونحن تحت أنقاضها.

وقال إسماعيل :

ــ ماذا فعلوا بنا حتى نتمنى خراب بيوتنا ليخرجوا ؟ لا أفهم الضرر الذى لحقنا من وجودهم ، لقد يسروا لنا كل شىء .

فقال حسان فى احتقار :

ــ حتى الحشيش .

وهم على ليتدخل ويلطف من وقع حدة أخيه ، ولكن إسماعيل لم يثر، بل قال فى هدوء :

ــ إذا كانوا هم الذين يسروا لنا الحشيش ، فهذه مكرمة منهم توضع فى كفة حسناتهم .

فهب حسان حانقا وقال :

ــ حرام أن أضيع وقتى مع أناس هازلين .

وهم بالانصراف ، فقال له على :

ــ أذاهب إلى نادى الحزب ؟

فقال إسماعيل فى استخفاف :

ــ إنه ذاهب ليحارب الإنجليز .

فقال حسان فى حماسة :

ــ والله لو وجدت بين المصريين من يوافقنى عل ذلك لحاربتهم .

فقال إسماعيل وهو يصلح هندامه :

ــ أمنيتك ليست أيسر من أمنيتى ، إنى أتمنى أن أجد ألف جنيه ، فلو وجدتها لأنفقتها هذه الليلة .

فقال حسان وهو ينصرف :

ــ لا تسخر ، سيأتى اليوم الذى أحاربهم فيه .

فقال له إسماعيل :

ــ أطال الله عمرك .

وقال حسان دون أن يلتفت خلفه :

ــ ووهب لك طول النفس .

وخرج حسان ، وخرج الرجال بعده ، وانطلقوا كل فى طريقه ، الرجال إلى المقاهى وأماكن المزاج ، وحسان إلى نادى الحزب ، يؤسفه ما دار بينه وبين أزواج

أخواته من أحاديث تقطر تخاذلا ومرارة ، وانتشر فى جوفه ضيق ، ولكن خفف من حزنه أن خيل إليه وهمه ، أنه يصغى إلى أبيه وهو يصيح بهم « ثيران » .

ـ ١٢ ـ

مس أذنى فاطمة طرق خفيف على الباب فذهبت وفتحته ، فألفت أمامها حليمة ممتلئة الجسم ، فى وجهها نضارة الشباب ، تسألها عن صحة سيدها يونس فى صوت خافت أقرب إلى الهمس ، وقد أطرقت وأسبلت عينيها حياء ، فلم ترتح فاطمة لرؤيتها . وأحست انقباضا ، وأجابتها عن سؤالها فى اقتضاب وصمتت ، ونظرت إليها نظرة كان فيها إيحاء بالانصراف ، فدارت حليمة على عقبيها ، وراحت تهبط فى الدرجات القليلة الفاصلة بين الطبقة الأولى وفناء الدار ، خافضة الرأس ، وشعرها الطويل المضفور ينوس خلفها .

وما أغلقت فاطمة الباب حتى شعرت بعدم رضا عن نفسها ، لماذا قابلتها بمثل هذه الحدة ، وقد جاءت مشكورة تستفسر عن زوجها ؟ إنها اعتادت أن تقابل الناس مرحبة ، فهى مضيافة ليست فيها غلظة ، فما الذى دفعها إلى إتيان ذلك العمل الذى يتجافى وطبعها ؟ ! وإذا بصوت اتهام ينبعث من أعماقها ، إنها غيرتها قست قلبها ، وساءها أن تتهم نفسها بما كان يتهمها به زوجها ، فحنقت ، وأغضبها أن تغار من شابة لم يصدر منها مايحرك الغيرة ، وزاد فى أساها أنها تغار منها على شيخ تجاوز الستين ، مسجى فى فراشه !

فكرت فى أن تفتح الباب ثانية ، وأن تهرع إلى الدرج تدعو حليمة إلى الدخول ، وتلاطفها لتمسح من صدرها آثار إساءتها إليها. ولكن كبرياءها منعها أن تفعل ذلك ، فذهبت إلى غرفة يونس وفى جوفها قلق .

كان الحر شديدا فى الغرفة ، يكاد يزهق الأنفاس ، والذباب يتساقط عل الوجوه فى إلحاح ، ويطن فى الآذان ، فيزيد النفوس ضيقا ، فالتفت يونس إلى زوجه وقال :

ـ افتحى الشباك واطردى هذا الذباب .

فقامت فاطمة تذب الذباب عنه ، وهى تقول :

ـ ليس لنا أن نضيق به مهما فعل فينا ، إننا نستحق كل مايجرى لنا فى هذا البيت .

فقال يونس فى صوت خافت :

ـ لماذا ؟

ـ لأن نقودنا كانت معنا ، وكنا نستطيع أن نشترى بيتا آخر فى الشارع ، ولكننا لم نحتمل فراق الحارة .

ـ لو صبرت قليلا يا فاطمة لثبت لك أن هذا لبيت كنز ، سيشق هذا الحى شارع جديد ، وسيقع هذا البيت على ناصية الشارع ، وسيطل عل ميدان فسيح ، ويومها يشهد لى الجميع ببعد النظر وأصالة الرأى .

ـ ياطول مانصبر ، أوهموك ذلك لتشترى البيت .

ـ رأيت تخطيط الحى الجديد بعينى هاتين ، ولولا ذلك ما أقدمت على الشراء .

ـ ليس لنا إلا الصبر ، ولو أنى واثقة أنا لن نرى ذلك الشارع الجديد .

ـ سنة واحدة وتريك الشمس أشعتها فى هذه الغرفة ، وتهب النسائم لطيفة من الميدان الفسيح .

ـ والله لن نستنشق فى هذا البيت إلا الروائح الخربة .

ـ هكذا أنت دائما لا تتفاءلين .

وفتحت فاطمة النافذة المطلة على الحارة ، فهب الهواء ساخنا يشوى الوجوه ، فقطبت جبينها ، وقالت :

ـ ياحفيظ ، هذه طاقة من الجحيم .

ـ الدنيا صيف ، وموجة الحر فى كل مكان .

ـ فلنبق فى هذه الدار ، حتى يجود علينا ميدان الشارع الجديد بالنسيم الرقيق .

وعادت فاطمة إلى مكانها ، تفكر فى أسى فى تلك الأموال التى وضعت فى بيتهم فى الحارة ، بينا راح يونس يفكر فى الشارع الجديد ، ويهيم فى دنيا ينيرها الأمل الحلو البسام .

ـ ١٣ ـ

انتهت صفية من تجهيز أبنائها للخروج ، فكانت تحية ترتدى ثوبا بسيطا، وزكريا حلة متواضعة ، وكان خالد فى لفائفه البيض . وعلى الرغم من أن ثيابهم لم تكن غالية ، إلا أنها كانت نظيفة ، وهبطوا الدرج ، وقابلوا زهيرة ، فراحت تربت على الأولاد فى نفاق ، مظهرة لأمهم ودها ، وجعلت توصيها فى إلحاف أن تبلغ تحياتها للحاج والست الكبيرة .

واستأنفوا هبوطهم وزهيرة تطل عليهم ، وسمعت عزيزة أصواتا فى السلم، فخفت لترى من هناك ، فلم تجد إلا أختها زهيرة ، فسألتها :

ـ مع من كنت تتحدثين ؟

ـ مع صفية ، إنها ذاهبة لزيارة البرنسيسة .

فابتسمت عزيزة فى شماتة ، فماكانت زهيرة تتحدث عن أم صفية إلا حديث إجلال ، ولو أن حديثها كله ضرب من النفاق ، فلسانها لاينطق إلا بمعسول الكلام ، وإن كانت أذناها تطربان للسباب ونهش الأعراض ، ونفسها تتفتح لها وإن أظهرت النفور والاستياء ، فلما ذل لسانها وجدت عزيزة فى ذلك مايستوجب الابتسام ، وقالت لها :

ـ الحمد لله أصبح لسانك كألسنتنا ، ولن تعيرينا بعد الآن .

قالت زهيرة فى إنكار :

ـ أستغفر الله ، كنت أريد أن أقول إنها ذاهبة لزيارة الست الكبيرة ، ولكن رؤيتى لك أفلتت لسانى .

ـ كأن رؤيتى لاتوحى إلابطول اللسان . الله يسامحك !

ولم تقدر طويلا على أن تكبح جماح لسانها ، فقالت :

ـ إذا كنت أسب هذا وذاك ، فقلبى ناصع البياض ، ولكن من يدرى ما لون قلبك ؟

وتأهبت لتسلق أختها بلسانها ، ولكن زهيرة كانت على يقين من أن خير ماتفعله لتنجو من ذلك الشر ، أن تلتزم جانب الصمت ، فلم تنبس بكلمة ، فانسلت فى خفة إلى غرفتها ، وبقيت عزيزة لحظة وهى حانقة ، فهى لم تطفىء شهوتها للجلبة والصياح ، وسمعت أصوات أبنائها يتشاجرون ، فوجدت منفسا لرغبتها ، فانطلقت صائحة :

ـ يامقاصيف الرقبة ، ياعفاريت ، ياأولاد العفاريت .

وتدفق السباب من فمها فى يسر ، فتبخر حنقها ، وبرىء جوفها من تفاعل إحساساتها وهدأت ، كأنما أصغت إلى لحن موسيقى أخاذ يشفى الصدور .

***

ودخلت صفية بيت أبيها ، فألفت أختها جليلة هناك ، فخفت إليها تحييها فى شوق ، وتلفتت تبحث عن لبيب ، فما كانت تراه إلا كلما زارت بيت أبيها ، أخذته جدته بعد ولادته وربته ، فتعلق ببيت جده .

وأقبلت أمها عائشة ، تهتز أكتافها هزات خفيفة فى مشيتها ، تلك الهزات التى تجسمها عزيزة كلما تكلمت عن « البرنسيسة » والتى تحب زهيرة أن ترى أختها تحاكيها ، وإن انكرت ذلك بلسانها وعابته . وسار لبيب خلف جدته ، فلما أن رأته تفتح قلبها له ، وهفت روحها إليه ، فخفت إليه تضمه إليها ، فاستراح الصبى إلى صدرها قليلا ، وسرعان ماتذكر شيئا ، فتركها وذهب ليطمئن فى حضن جدته ، تذكر أنها تلاطفه لتدعوه للعودة معها إلى بيت أبيه ، وهو ينفر من ذلك البيت ، ولايعرف له مقرا إلا هنا ، وفى كنف جدته ورعايتها .

ونهضت عائشة ، وذهبت إلى المطبخ ، ووضعت على النار وعاء به ماء وأربع

بيضات ، لتعد لتحية وزكريا فطورهما ، ودخل عليها زوجها الحاج كرم ، فى مشيته الوئيدة ، وجسمه الضخم ، ونظر إلى الوعاء ، وقال فى إنكار:

ـ كل هذا الماء لسلق أربع بيضات ؟ هذا إسراف ، البطر يزيل النعم .

ورفع الوعاء عن النار ، وصب الماء فى الحوض ، ولم يترك منه إلا ما يغمر نصف البيض وهو يقول :

ـ « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » . صدق الله العظيم .

وصمتت عائشة ولم تتحرك شفتاها ، فماكان أحد فى البيت يتحدث إذا تكلم الحاج كرم .

خرج الرجال من البيت ، وراحت صفية وجليلة وأمهما يتجاذبن أطراف الحديث، كانت جليلة تتحدث فى زهو عن زوجها ، فقد عرف الغنى طريق بيته ، بعد أن كان مأوى للفقروالحرمان، ومر الوقت ووافى ميعاد أوبة الرجال، فأقبل مصطفى وكمال وحسين أبناء الحاج كرم ، وقال مصطفى :

ـ العم متولى جارنا دعانا لحضور زفاف ابنه .

فقال كمال فى عدم اكتراث :

ـ ليس لنا مصلحة فى الذهاب .

وقال حسين :

ـ ما لنا وللعم متولى ، ضايقنى اليوم أن الجناينى لم يدفع ماعليه ، وأرى أن نأخذه بالشدة ، وإلا طمع فينا الناس .

فقال مصطفى فى حذر:

ـ ليس من مصلحتنا أن نأخذه بالشدة ، فهو عميل قديم ، وصديق من أصدقاء المحل .

فقال حسين فى حدة :

ـ ليس للمحل إلاصديق واحد هو القرش .

وقال كمال :

ـ خسارة ، لقد قلت قيمة هذا الرجل .

فقال مصطفى فى إيمان :

ـ وهل تبقى للرجل قيمة إذا ذهب ماله ، الرجل يساوى قرشا إذا كان معه قرش .

فقال حسين :

ـ من مصلحتنا أن ينتعش الرجل ، ليسدد لنا ما عليه .

وظلوا يتحدثون ، هذا يقول : من مصلحتنا ، وذاك يقول : من مصلحتنا ، فما كانوا يعرفون للحياة إلا هدفا واحدا ، هو جمع المال ، وكانت علاقاتهم بالناس تتحدد على ضوء مصلحتهم ، ورأوا أن يجاملوا جليلة وصفية ، فراحوا يستفسرون عن على وبهاء ، ووضح من حديثهم ميلهم إلى جليلة ، لالشىء إلا لأن جيب زوجها بدأ يعرف أوراق البنك الكبيرة ! قال مصطفى :

ـ زوجك ياجليلة رجل عبقرى ، عرف كيف يخرج القرش من الصخر.

وقال كمال :

ـ ياطالما قلت عنه إنه ذكى ، رجل كفاح .

وأخذوا يغمرونه بثنائهم ، ويدعون أنهم كانوا أصحاب فراسة ، وكانوا يترقبون له كل نجاح ، وما كانوا يقدرون الرجل ، ولكن هبط تقديرهم عليه فجأة ، كما هبطت الثروة عليه فجأة ، وهم على استعداد أن يزيدوه إكبارا وإجلالا ، كلما زاده الحظ عطفا ورعاية .

ودخل الحاج كرم يتقدم وئيدا ، فساد المكان صمت ، وتضاءل الرجال فى جلساتهم . وتعلقت عيونهم به ، إذا تحدث أصغوا ، وإذا قال قولا أمنوا عليه ، لا عن نفاق ، بل عن يقين واقتناع ، كان ولى نعمتهم ، وهدفهم الأسمى ، والقدوة الصالحة ، والمثال الذى يحتذى !

وسمع طرق على الباب ، فأسرعت الخادم ترى من هناك ، ثم عادت تقول:

ـ عسكرى بالباب .

فاضطرب الحاج كرم ، وارتبك أبناؤه . كانوا يهابون رجال الحكومة ، ويرون فيهم نذير شر ، وساد القلق برهة ، ثم قال الحاج كرم لأولاده :

ـ هل فعل أحد منكم شيئا يغضب الحكومة ؟

فأسرعوا كالأطفال ينفون هذه التهمة .، وأشفقت صفية عليهم فقالت :

ـ سأذهب لأرى ماذا يريد .

فقال الحاج كرم فى أنفة :

ـ أتذهب النساء لمحادثة عسكرى ونحن هنا ؟

وهدأت نفوس أبنائه قليلا ، حسبوا أن أباهم ذاهب لمقابلته ، ولكن الحاج كرم صاح :

ـ اذهب يا مصطفى وانظر ماذا يريد .

وتحرك مصطفى وذهب ، وغاب قليلا ، ثم عاد يقول :

ـ العسكرى يقول إن الخفير قد بلغ أن مصباحنا انطفأ بالليل ، وعلينا أن نذهب لدفع المخالفة .

فصاح الحاج كرم فى الخادم :

ـ هذا بسببك .

فقالت الخادم تدفع التهمة عن نفسها :

ـ ليس لى ذنب فى هذا ، فقد أمرتنى يا سيدى ألا أملأ المصباح كله ، خشية أن يحدث عنه حريق .

فصاح فيها فى حدة :

ـ اذهبى ، والله لو أنصفت لاستنزلت قيمة الغرامة من مرتبك ، اذهبى !

وخيل إليه أن هاتفا يهتف به :

ـ لو ملىء المصباح مرات ، ما بلغت تكاليفه قيمة الغرامة .

فاربد وجهه ، وشعر بضيق ، وزاد فى غضبه أن ذلك الهاتف راح يردد فى أذنيه :

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » . فانسحب من المكان يتأهب للذهاب لدفع الغرامة وهو ثائر حانق .

ـ ١٤ ـ

راح يونس يلتقط أنفاسه فى جهد شديد ، كأنما لم يبق فى صدره إلا ثقب صغير لا يكاد يسمح بمرور الأنفاس الواهنة ، وجعلت فاطمة ترنو إليه فى أسى شديد ، وأحست بلوعة تكاد تحرق جوفها ، فهى ترى فى زوجها المسجى أمامها صفحات حياتها تذوى أمام عينيها لتغيب فى بطن الأبد المجهول .

كانت به محور الدار ، وملاذ أهل البيت ، والسيدة المسيطرة على الجميع ، فإذا ذهب فستصبح تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وسيدة كبيرة تستحق العطف والرثاء ، بعد أن كانت ينبوع العطف والحنان ، فشعرت بغصة ، وجرت دموعها حارة على خديها .

وجلس على بالقرب من فراش أبيه ، حزين القلب ، ولكن حزنه كان وقورا ، فلم تنقبض عضلات وجهه ، ولم تظهر فى ملامحه أثار ذلك الأسى المنتشر فى وجهه ، بينا كان حسان جزعا لايستطيع أن يستقر فى مكانه ، كان ينهض إلى فراش أبيه ، ويتطلع إلى وجهه الشاحب ، ثم يعود إلى مقعده فى أقصى الغرفة يذرف الدموع .

ووقفت ثريا وزينب وعزيزة وزهيرة وحميدة ونبيلة حول الفراش ، يتظاهرن بالجزع ، ويبالغن فى إظهار الأسى ، ووقفت صفية بالقرب من فاطمة ، كلما لاح الجهد فى وجه يونس دنت منها ، كأنها توحى إليها أنها إلى جوارها تواسيها ، وتشد أزرها .

وجلس أزواج البنات صامتين ، يفكرون فيما ينول إلى زوجاتهم إذا انقضت الأنفاس الباقية ، فيجدون أنهم قد ورثوه فى حياته ، أسكنهم بيته ، وأنفق عليهم من فضله ، فإذا مات قطع عنهم ماكان يكسبه فى دنياه ، فأشفقوا على أنفسهم من

نضوب ذلك المورد الفياض !

ولفظ يونس النفس الأخير ، فهبت فاطمة تصك وجهها ، وراحت تولول ، وتأهبت للصوات ، ولكن عزيزة قالت لها زاجرة :

ــ تريثى حتى نعد له فراشا نظيفا ، ماذا يقول عنا الناس ؟

وانسل على وحسان وأزواج البنات من الغرفة مطرقين ، وذهبت فاطمة وفى إثرها صفية لتجهيز الفراش النظيف ، ولم يبق فى الغرفة إلا جسد يونس وبناته ، فخفت عزيزة إليه ، ودست يدها فى صدره وأخرجت حافظة نقوده ، وغيبتها فى صدرها ، ومدت زهيرة يدها فى خفة إلى أصبعه تخلع منه خاتمه ، وأخذت ثريا ساعته، وأسرعت كل منهن تأخذ منه ما تصل إليه يدها ، كأنما كان يونس قتيلا من الأعداء وجب سلبه ، وكادت تنشب معركة بين الأخوات على الغنائم ، لولا إقبال فاطمة وهى تنتحب ، فخمدت الثورة فى الصدور إلى حين .

وتم كل شىء ، ووضع يونس فى فراشه الأخير ، وأعدت الغرفة لاستقبال الوافدات ، وتأهبت فاطمة لتطلق الصوت إعلانا للموت ، ونداء للجيران ، ليخفوا للعزاء ، ولكن عزيزة زجرتها مرة ثانية :

ــ انتظرى حتى نبدل ثيابنا بثياب سود .

وغادرت بناته المكان لا إلى غرفهن لتبديل ثيابهن ، بل إلى صوان ملابسه ، للانتهاء من سلبه ، حتى تطمئن قلوبهن ، وفتحت عزيزة الصوان ، وراحت توزع على أخواتها جلابيب أبيها الصوفية ، لم تكتف بذلك بل أخذت توزع عليهن ثيابه الداخلية ، حتى إذا أصبح الصوان خاويا أسرعن إلى مساكنهن محملات بالأسلاب.

ومرت لحظات ثم شق السكون صوت عزيزة مجلجلا مدويا ، منذرا بالموت والفناء ، وتبعتها أخواتها فى الصوات ، ولم تنس زهيرة طبعها ، فقالت فى نفاق :

ــ يا خراب بيتى ، يا أعز الأحبة ، ياليتنى سبقتك ياحبيبى .

وصوتت فاطمة ، فكان صوتها حزينا حارا تقشعر منه الأبدان ، كانت تنفث فى الجو حزنها كأنما تلفظ قطعا من كبدها . وهرعت نساء الحى إليهن، يشاركنهن فى

العويل والبكاء ، وصعدت حليمة للعزاء ، ولكنها أحجمت عن الدخول ، فجلست على الدرج قريبة من باب الشقة . تذرف دموعها الصادقة . ولمحتها فاطمة فى غدوها ورواحها ، فتذكرت فى غمرة حزنها أنها أساءت استقبالها يوم جاءت تستفسر عن المرحوم ، ورأت أن تكفر عن إساءتها ، فانطلقت إليها تدعوها للدخول ، فقامت حليمة مطرقة ، وما أن وقعت عيناها على الجسد المسجى حتى شرقت بدموعها ، فانفجرت فاطمة باكية ، تنتحب فى صوت عال .

وصفت كراسى فى الحارة ، ووقف على يستقبل الوافدين ، وهبط أزواج أخواته يرتدون ثياب أبيه ، الذى مازال جسده فى الدار ، فأحس حنقا لما ارتكبه الثيران، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل فى تلك اللحظة إلا أن يطوى صدره على غيظه ، فراح يغدو ويروح يصرف أنيابه فى ضيق .

وأقبل الحاج كرم وخلفه ولداه مصطفى وكمال ، ولم يأت حسين ليشترك فى تقديم العزاء، بل بقى فى الدكان يصرف شئونه ، فماكان الحاج كرم يغلق حانوته مهما كانت الأحداث ، فالحوادث ذاهبة ، والمحل باق لا يزول .

خف على إلى الحاج كرم يصافحه ويتلقى العزاء فى صبر، ثم جلس يحادثه ، فنسى فى غمرة الحديث مافعله أزواج أخواته ، فانقشع حقده عليهم، حتى إنه كان يراهم وهم يتحركون جيئة وذهوبا أمام عينيه فى ثياب أبيه ، دون أن يهيج ذلك غضبه ، أو يثير حفيظته ، فقد كان يغضب لحظة، فينذر ويتوعد ، وسرعان مايتبخر غضبه ، فيبرأ صدره مما كدره وغيره . كان معدنه نفيسا لاتعلق به أدران الحقد ، ولاتتراكم فوقه أصداء الحفيظة .

وجلجلت أصوات النسوة بعد خفوت . معلنة المعزين أن جثمان الفقيد خارج من داره إلى حيث لايعود ، فقام الرجال عن مقاعدهم ينتظرون ، حتى إذا لاح لهم النعش ساروا صامتين برهة ، ثم ما لبثوا أن مال بعضهم على بعض يتسامرون .

وانطلقت الجنازة فى الحارة الضيقة ، وخرج يونس محمولا فى نعشه ، وقد طوى معه أمله ، ولم تكتحل عيناه برؤية الشارع الجديد .. ولم يكتب لجسده أن يسير فيه .

ـ ١٥ ـ

بلغ زهيرة أن صفية بعثت فى استدعاء أمها ، لأنها تحس آلام الوضع ، فعجبت فى نفسها من أن تلد صفية فى بيتها ، وقد اعتادت أن تلد فى بيت أبيها ، وخطر لها أن تسرع إليها تخدمها تملقا ، فهى تحب أن يمدحها الناس ، وأن يقال عنها إنها أفضل من أخواتها ، فلو أن عائشة جاءت ووجدتها بجوار ابنتها ، للهج لسانها بالثناء عليها ، وحفظت لها هذه المكرمة .

وهمت بالصعود فى الدرج ، ولكن طبعها قهرها ، فهى تحب أن تسمع أخواتها وهن ينهشن أعراض الناس ، ويلكن سيرتهم ، ويلعن جدودهم ، وهاهى ذى السانحة قد واتتها ، فلو أنها ذكرت لهن ذلك الأمر البسيط الذى وقع فى البيت ، لفتحت لهن آفاقا جديدة للسباب ، تتدفق من أفواههن فى بساطة وهدوء بال ، كأنها قلائد مدح تقلد بها أجياد الضحايا .

دخلت على أخواتها وقالت :

ـ أنا صاعدة إلى صفية ، فقد تحتاج إلى من يخدمها ، حتى تصل إليها أمها .

فقالت ثريا ، وهى تصلح عصابة رأسها :

ـ ما لها ؟ مريضة ؟

فقالت زهيرة ، وهى تتظاهر بأنها سائرة فى طريقها ، وإن أرهفت أذنيها ، وتباطأت :

ـ إنها تلد .

فقالت عزيزة فى صوت أقرب إلى أصوات الندب :

ـ ماذا جرى فى الدنيا حتى تلد صفية عندنا ؟

وقالت زينب فى استخفاف :

ـ وكيف يسمح الحاج كرم للبرنسيسة أن تغيب عن بيته سبعة أيام ، ألا يخشى أن تتخطفها العفاريت ؟ !

فقالت عزيزة :

ـ الحاج كرم ؟ والله لم يعرفه الذين سموه ، فلو عرفوه لسموه الحاج « قبحة » .

ورأت زهيرة أن تنفخ فى النار لتزيدها شبوبا ، فقالت :

ـ حرام عليك ، ماأدراك أنه « قبحة » الرجل ليس بخيلا ، هل من الضرورى أن يبعثر الرجل ماله حتى يعلن عن كرمه ؟

فقالت عزيزة وهى تحرك حاجبيها سخرية :

ـ ما أكرمك ياحاج ، ثمانية أعوام وصفية بيننا غارقة فى خيرك ، هداياك تتساقط عليها كالذباب !

فقالت زهيرة فى خبث تغلفه البراءة :

ـ لعله يهديها فى السر .

فقالت عزيزة :

ـ لاتظلمى الرجل ، والله ماجاء يوما لزيارتها إلا ويد وراء ويد قدام ، لم يتعب يديه بحمل هدية . الله يرحمك يا أبى لو كان الحاج كرم أبانا ، لخنقنا وخنق رجالنا ، وطردنا من البيت لنعيش مع الكلاب .

فقالت ثريا لتنهى ذلك الحديث :

ـ الله يرحم الجميع .

وكأنما ساء زهيرة أن يغلق ذلك الموضوع ، فقالت :

ـ ستلد صفية ولدا ، فهى لا تلد إلا أولادا .

فقالت زينب فى تأكيد :

ـ بل ستلد بنتا ، فهى مثل أمها : ولدت بنتا وثلاثة أولاد ثم بنتا .

فقالت ثريا :

ـ ليس من المحتم أن تكون البنت كأمها فى الخلفة .

فقالت زينب تدافع عن رأيها :

ـ غالبا مايحدث ذلك ، فها هى ذى عزيزة كأمها ، جاءت بولدين ثم أعقبتهما بالبنات .

فقالت زهيرة لتوجه دفة الحديث إلى صفية :

ـ ولكن صفية ستلد هذه المرة ولدا .

فقالت عزيزة فى ضيق :

ـ ولد .. بنت .. يستويان . لاينتظرهما إلا الفقر والعذاب .

فقالت ثريا وهى ترنو إلى عزيزة :

ـ من مصلحتك أن تكون خلفتها أولادا .

فقالت عزيزة فى فزع :

ـ من مصلحتى ؟ لماذا ؟

ـ ليتزوج أولادها بناتك .

فقالت عزيزة فى استخفاف :

ـ يا وكسة ؟ تمنى لبناتى غير هذا ، أكتب عليهم الفقر الأزلى ؟ .

وسمع وقع أقدام فى الدرج ، فخفت زهيرة تنظر ، فألفت عائشة صاعدة ، فهرعت تسبقها ، لتتظاهر بأنها فى عون صفية ، حتى لا تحرم من عبارات الشكر والثناء التى ترضى مشاعرها .

وأطلت زينب ، فلما وقع بصرها على الصاعدة همست :

ـ البرنسيسة .

فأسرعت النسوة لاستقبالها ، وتقدمت عزيزة منها تصافحها فى ترحيب ، وتقول :

ـ تفضلى استريحى قليلا ، أهلا وسهلا .

كان ترحيبها متكلفا ، فراحت الألفاظ تتعثر فى فمها ، كان عسيرا عليها أن تنطق كلمات مهذبة ، وخشيت أخواتها أن تطول الوقفة فيفلت لسانها ، فأسرعن

يتبادلن مع عائشة عبارات الترحيب والمجاملة .

دلفت عائشة إلى شقة ابنتها ، وكانت نظيفة مرتبة على الرغم من بساطة أثاثها ، لاتتفق مع الحارة الضيقة التى انتشرت فيها أكوام القاذورات، والمستنقعات المتخلفة من الماء القذر الذى يلقى به من النوافذ والشبابيك ، ولا تتناسب مع الفوضى المنتشرة فى أرجاء البيت .

ووضعت صفية وليدها ، ونظرت زهيرة إلى أخواتها نظرة متحدية ، كأنما تقول لهن ألم أقل لكن ؟ والتفتت ثريا إلى عائشة وقالت :

ـ مبارك ، يتربى فى عزك !

وقالت زينب :

ـ سموه كرما .

فقالت عائشة فى بساطة :

ـ كنا نحسبه بنتا ، فاتفقنا على تسميته جليلة ، ولكنه جاء ولدا .

فقالت ثريا :

ـ سموه جلالا .

فقالت عائشة :

ـ على بركة الله .

وهبط النسوة إلى طبقتهن ، واجتمعن ينتقدن ماحدث فى الولادة ، ويسلقن عائشة بألسنتهن ، لأنها لم تمنح القابلة بالمولود إلا ريالا ، ولم تظهر فاطمة ، فقد كانت فى غرفتها مطرقة ، حزينة على زوجها ، وما كان لحزينة أن تحضر ولادة ، ففى حضورها إدانة لها بأنها لم تعرف للمرحوم قدرا !

ـ ١٦ ـ

غصت الإسكندرية بالجنود الزنوج والأفريقيين والأستراليين والهنود ورجال البحرية البريطانية ، فقد اندلع لهيب الحرب بين ألمانيا والحلفاء ، وترنحت المدينة من

حوادث السلب والنهب والشغب والاستفزاز ، حتى إن أغلب الناس كانوا إذا أمسى المساء ، قروا فى بيوتهم ، ليأمنوا الاعتداء .

وأقبل الليل موحشا ، مغرقا فى الوحشة . كانت ليلة اختفت فيها مصابيح السماء ، وعجزت مصابيح الأرض أن تبدد جحافل الظلام ، وصفرت الرياح وتجاوب صفيرها كعويل الذئاب ، فأغلقت النوافذ ، وساد السكون ، وارتمى الناس فى أحضان الكرى ، ولكن أهل ذلك البيت اليقظان فى الليل والنهار ، لم تعرف عيونهم النوم فعلى وحسان وإسماعيل والشيران يتأهبون للخروج ، ونساؤهم ينتظرن انصرافهم للاجتماع حول الموقد ، والأخذ فى القيل والقال . وكر وقع الأقدام فى الدرج ، وسمع صوت انفتاح الباب الخارجى وأغلاقه أكثر من مرة ، وهبط على ومر على أمه قبل أن يغادر الدار ، فلما رأته قالت له فى حنان :

ـ ألاتمكث بين أولادك فى هذه الأيام ؟ فالإنجليز أناس أرذال .

فقال لها يطمئنها :

ـ مالنا ومالهم ؟ إننا نجلس فى المقهى بعيدا عنهم .

ـ البعد عنهم غنيمة ، إذا شربوا ارتكبوا كل الحماقات ، لا أنسى الأيام السود التى دخلوا فيها علينا ، كانوا وحوشا غلاظ الأكباد .

وشردت فاطمة ببصرها ، وانعكس على وجهها أثرالذكريات ، فتجعد جبينها ، وضاقت عيناها فى انفعال ، وأراد على أن ينزل بصدرها الطمأنينة ، فقال لها :

ـ إننا نسهر فى مقهى فى الحى ، ونتحاشى الشوارع التى يسيرون فيها.

وانصرف على إلى رفاقه يلعب بالنرد ، ويتحدث ويصغى إلى الأحاديث الدائرة ، وتصرم الوقت ، ووافى ميعاد الانصراف ، وإذا بأربعة جنود طوال ، بيض الوجوه ، صفرالشعور ، تعلن ضخامة أجسامهم أنهم من الأستراليين الشداد ، يندفعون إلى المقهى ويتجهون إلى الخوان الجالس عليه على ورفاقه، فماعاد فيه سواهم ، ونظروا إليهم شزرا ، فخفقت القلوب رهبة فى الصدور ، وتخلخلت المفاصل ، وقال الجنود فى لهجة آمرة : « هاتوا ما معكم » . وفهم الرجال ما يبغون، وإن كانوا لا يفقهون ما ينطقون ، فزادت القلوب خفقانا ، واستولى الذعر عليهم ،

وخجل كل منهم أن يمد يده فى جيبه ، ليخرج ما به ، خوفا من أن يصبح سخرية أصدقائه الليلة المقبلة ، فتريثوا ، فضاق الجنود بجمودهم ، وتقدم أحدهم نحو على ومد يده فى جيبه ليخرج ما به ، ففار الدم فى عروقه ، وساءه أن يختاره القدرليكون محور الأحاديث والنوادر، ومركب الغمزات والتهكمات ، فدفع الجندى عنه فى حدة ، فثار الجنود لتلك الجرأة ، ولكمه أحدهم لكمة أطارت صوابه ، فهاج وأفلت زمام أمره من يده ، فهجم على من لكمه وأخذ بتلابيبه ، وحاول أن يخنقه بثيابه ، فخف الآخرون لنجدة زميلهم ، فرأى رفاق على انشغال الجنود عنهم ، فولوا هاربين ، لا يلوون على شىء .

سددت الضربات إلى على ، ولكن يديه لم تتراخيا عن عنق ذلك الجندى الذى أمسك به ، وسال الدم من أنفه وانبثق من جبينه ، وانحدر إلى عينيه فلم يعد يرى شيئا ، وأحس رغبة فى أن يمسح دمه عن بصره ، فدفع الجندى الذى كان بين يديه بكل قوته ، وسرعان ما بلغ أذنيه صوت ارتطامه بالأرض ، ورفع ذراعه ، ومسح دمه فى كمه ، فانجابت الغشاوة عن عينيه ، ورأى بالقرب منه كرسيا فانقضت يده عليه انقضاض نسرعلى فريسته ، وما هى إلا برهة حتى كان يطوحه فى الهواء ويهوى به على رءوس أولئك الذين صوبوا إليه لكمات قاسية ترنح لها .

رأى الجنود الكرسى وهو يرتفع ليهوى عليهم ، ثم يرتفع ليتحطم على رءوسهم ، ففزعوا ، فتقدم على ليشق لنفسه طريقا ، فحسبوه يتبعهم ليقضى عليهم ، فتفرقوا ، واستمر فى تقدمه ، حتى إذا بلغ باب المقهى قذف الكرسى فى وجوههم ، ثم لاذ بالفرار .

انطلق خائفا يترقب ، كلما مس أذنيه حفيف ثوبه تلفت ، كان يخشى أن يتبعوه ليجهزوا عليه ، فأغذ السير، خافق القلب مضطربا . ولم يفرخ روعه حتى دلف إلى الحارة ، فوقف تحت مصباح من المصابيح المعلقة على أبواب الدور يمسح دماءه ، ويلتقط أنفاسه .

وبلغ مسامعه وقع أقدام ، فنظر ، وتفرس فى القادم ، ثم هتف :

ـ حسان .

فأقبل حسان نحوه ، فلما وقع بصره على ثيابه الملطخة بالدماء ، قال ملهوفا :

ـ ماهذا ؟ ماذا جرى ؟

فقال على وهو يحاول أن يجفف دمه بطرف ثوبه :

ـ تحرش الإنجليز بنا .

فقال حسان وهو يخرج منديله من جيبه :

ـ أنذال دائما ، نعام فى المعارك ، وأسود هنا .

وراح يعاون أخاه على ضمد جراحه ، وقد ثارت ثائرته ، فأخذت الكلمات تتدفق حارة من فمه :

ـ ليس لنا أن نسكت على هؤلاء الأوغاد .. سلبونا حريتنا ، وكمموا أفواهنا ، وسرقوا أقواتنا ، فلماذا نستكين لهم ؟ يجب أن نثور فى وجوههم ، أن نصرخ بهم أن يخرجوا من ديارنا ، أن نشن عليهم حربا لاهوادة فيها ولارحمة ، فلن يجلوا عنا إلا إذا روينا الأرض بدمائهم النجسة .

فقال على فى مرارة :

ـ لوثرنا عليهم الآن أبادونا ، ماذا يفعل الأعزل أمام الحديد والنار؟!

فقال حسان فى حماسة :

ـ يفعل كثيرا ، ولكنا استكنا للهوان . والله لو سنحت لى فرصة لحربهم فلن أدعها تفلت من يدى ، فلا يعلم إلا الله مقدار حقدى على هؤلاء الأوغاد .

وانطلق الأخوان إلى الدار، وقد شغل كل منهما عن الآخر بما يدور فى خلده ، كان على يفكر فيما يقوله لصفية ، ليهون عليها الأمر، وكان حسان مطرقا يفكر فيما يفعله لقتال هؤلاء الذين يكرههم كرهة للموت .

ـ ١٧ ـ

دخل إسماعيل على فاطمة وحياها وجلس ، كلما هم بالحديث انعقد لسانه ، فبانت الحيرة فى وجهه ، ورنت إليه فاطمة . ففطنت إلى اضطرابه ، وإلى رغبته فى أن يفضى إليه بشىء ولكنه لايجد لسانه ، وذكرها ذلك القلق والإطراق بين لحظة وأخرى ، بتلك الأيام التى كان يهبط فيها إلى زوجها يسأله نقودا ، حتى إذا أخذها أنفقها على الأفيون والحشيش . فانداحت فى صدرها سحابة أسى للذكريات ، كانت تثور فى تلك الأيام كلما رأته يمد يده ليأخذ من يونس مايطلبه ، وهو يعد برد ما أخذ ، فياليت تلك الأيام دامت .

وهمت بأن تسأله عما يود أن يفضى به إليها . ولكنها خشيت أن يلتمس منها نقودا ، وليس عندها منها شىء ، فلو كانت تملك مايلتمسه ، لأعطته عن طيب خاطر ، إرضاء ليونس فى قبره ، فما كان يغضبه أن يمنحه مايطلب ، ولكن نضب المال فى يدها بعد موت زوجها ، فرأت أن تظل فى صمتها ، لعله ينصرف دون أن ينكأ جرح نفسها .

وتململ إسماعيل فى جلسته ، وفتح فمه ، ولكن حبس صوته ، فلاح فى وجهه حنقه على نفسه ، وتيقن أنه ضعف عن أن يفضى إليها بما جاء به ، فقام وانسل من الغرفة ، وراح يصعد فى الدرج مهرولا ، لينبىء زوجه بالخبر الذى ضاق به صدره ، وجبن أن يحمله إلى فاطمة .

دلف إلى الغرفة كالعاصفة ، وما أن وقعت عيناه على زوجه حتى قال :

ـ عزيزة ، ذهب حسان لقتال الإنجليز ، ركب المركب ولم يلتفت إلى توسلاتى، ذهب ..

ولم تحتمل عزيزة هذره ، فصاحت به :

ـ أفق يا رجل ، والله لن ترجع عن الحشيش حتى يطير برج من رأسك.

فدنا منها وهو يؤكد حديثه :

ـ ركب حسان وسافر ليحارب الإنجليز ، لقد رأيته ..

ولم تستطع صبرا حتى يتم حديثه ، فصاحت :

ـ يوه .. يوه .. الله يلعن الحشيش ومن زرعه ، جننت ولن تدعنى حتى أجن .

وهرعت أخواتها إليها يستفسرن عما حدث ، فقالت عزيزة لهن :

ـ كتمت قطعة أفيون أنفاسه ، فراح يخرف ، حسان سافر .. حسان ركب المركب ، حسان ذهب يحارب الإنجليز .

وهبط على ليرى سبب ذلك الهياج الذى ساد بين أخواته ، فصك أذنيه حديث عزيزة ، فانقبض ، واتجه إلى إسماعيل يسأله فى لهفة :

ـ ماذا فعل حسان ؟

فراح يروى ماحدث ، وهو يلتفت إلى زوجه الفينة بعد الفينة:

ـ قابلت حسان فى الصباح وهو يهرول صوب الميناء ، فسألته عن وجهته . فأخبرنى أنه وجد مركبا يحمله إلى اسطنبول ، وأنه مسافر اليوم لينضم إلى الجيش التركى لمحاربة الإنجليز ، فحاولت أن أثنيه عن عزمه ، ولكن أخفقت كل محاولاتى ، سألته أن يبقى من أجل أمه الحزينة ، ومن أجل أخواته ، ومن أجلنا ، ولكنه أخبرنى أنه على يقين من أنه لن يغيب عن مصرطويلا ، إن هى إلا شهور حتى يدخلها مع الجيش التركى المظفر .

لم أشأ أن أتركه فذهبت إلى الميناء ، أتوسل إليه أن يرجع عن عزمه ولكنه تركنى ومضى إلى المركب ، ووقفت أنظر وكأنما تسمرت قدماى ، وذهلت عن كل شىء إلا عنه ، فراحت عيناى تجولان بين الواقفين على ظهر المركب ، ولكنهما لم تقعا عليه ، وأخيرا رأيته يلوح لى بمنديله ، والمركب يبتعد عن الميناء ، وغاب عن بصرى ، فسالت دموعى ، بكيت أنا الذى لم تعرف عيناى البكاء .

فغمغم على فى أسى :

ـ فعلها حسان ، ذهب لقتال الإنجليز ، ذهب يحارب الأوغاد .

وأجهشت النسوة بالبكاء ، ورفعت زهيرة صوتها لتوحى إلى على أنها أكثر حنانا من أخواتها ، فقال لها على :

ـ ماذا يجدى البكاء ؟ ليس لنا إلا الصبر .

وكأنما كان ذلك حافزا لها على الانفجار ، فصاحت :

ـ مسكينة يا أمى . عاداك الزمان .

فهمس على :

ـ مسكينة ياأمى ، اللهم ألهمها الصبر.

وكاد لسان عزيزة يفلت ، فتسب الإنجليز أقذع سباب ، ثم تردف بسب حسان، وما فعله حسان ، ولكنها كبحت زمام لسانها فى جهد ، كانت تهاب عليا ، وتتحاشى أن تزل أمامه .

وهبط على فى الدرج فى خطوات ثقيلة ، كان ذهنه يعمل ليفضى إلى أمه بالنبأ الفاجع ، دون أن يزلزلها ، إنه لعسيرعليه أن يخبرها أن ابنها ذهب ولا أحد يدرى متى يعود .

وجلس إلى أمه صامتا ، وإن كان وجهه يعبر عن المأساة ، ونطقت ملامحه بكل شىء ، فانقبض قلبها ، واستشعرت ما جرى قبل أن تتحرك شفتاه ، فقالت فى رعب :

ـ تكلم ، ماذا تخفون عنى ؟

فقال وهو مطرق :

ـ سافرحسان .

ـ إلى إين ؟

ـ إلى اسطنبول .

ـ لماذا ؟

ـ ليحارب الإنجليزمع الأتراك .

وراح يقص عليها القصة ، وهى واجمة ، تحس نارا تتأجج بين ضلوعها ،

وجمدت عيناها ، وزادت نار جوفها اضطراما ، وشعرت بإحساسات الأسى تمور فى صدرها ، حتى كادت تكتم أنفاسها ، وأخيرا جادت مقلتاها بالدموع ، فانهمرت تطفىء اللهيب المندلع فى أحشائها ، وراحت تولول ، لتنفس عن كربها :

ــ ابنى .. ابنى ..ابنى حسان .

ــ ١٨ ــ

الغرفة التى اختارها يونس بعيدة عن المارة ليجتمعوا فيها فى العصر وفى الأمسية حتى لاتتجاوز أصواتهم الجدران ، وتقرع أحاديثهم آذان السارين فى الغدو والآصال ، غارقة فى الصمت ، ففاطمة مطرقة ساهمة يعكس وجهها الأسمر أعمق آيات الأسى ، فقد سدد القدر إلى قلبها سهمين ، مات يونس ، وكان الشعاع الذى ينير حياتها ، وسافر حسان ولم يرحم شيخوختها ، فزاد جراحات الفؤاد

وصمت على احتراما لصمت أمه ، وكلما هم بالحديث طالعته ملامحها الحزينة، فتنتشر فى جوفه مشاعر الأسى والإشفاق ، فيحبس لسانه عن الكلام ، ويلج فى الصمت ، ويدير فى المكان عينيه فى اضطراب .

وضاقت النسوة بذلك السكون الجاثم على المكان ، فما كانت عزيزة بقادرة على أن تكبح شهوة الكلام ، فلسانها دائم النبض ، حتى فى نومها تتحدث فى الأحلام . فلسانها وقلبها يشتركان فى دوام الدق ما دام فى الجسد حياة . وما كانت زهيرة تحتمل العيش دون أن تصغى إلى فواجع الناس ، وإلى أخواتها يخضن فى أعراضهم ، ويلعن آباءهم وجدودهم ، وهى متلذذة تبدى التقزز والاستياء ، فرأت أن تخرجهم من ذلك الصمت البغيض إلى نفوسهم ، فقالت :

ــ مسكينة فوقية ، إنها تستحق العطف والرثاء .

وصمتت ولم تزد على ذلك حرفا ، وأرهفت السمع ، فقد كان ذلك كافيا لأن يطلق الألسنة من عقالها ، فقالت عزيزة فى ثورة :

ــ آه يا نارى لو كنت رجلا لشربت من دمه .

فصكت عبارتها أذنى على ، فأعارها سمعه ، واستمرت فى حديثها :

ــ الرجل الخائن الدون ، يتركها بعد عشرة طويلة من أجل بنت حقيرة ترددت عليه ، أربعون يوما مرت من غيرأن يدخل عليها يوما ، أو يرسل إليها ما تنفقه ، مسكينة ، كيف تعيش هى وأولادها الخمسة من غيرنفقة، هذا الرجل الدون يستحق الحرق ! آه لو كان الأمر بيدى لشنقته .

ولاحظت اهتمام على بحديثها ، فقالت له :

ــ لو رأيت دموعها وهى تقص نكبتها لحزنت ، فتتت دموعها كبدى ، ولوكنت قادرة على أن أفعل لها شيئا ما ترددت .

فسألها على فى اهتمام :

ــ وأين أهلها ؟

فقالت عزيزة فى حسرة :

ــ لو كان لها رجال ما فعل معها ذلك ، مسكينة .. إنها وحيدة .. قطعت من شجرة .

وتحركت نخوته فقال :

ــ أنا له ، والله لن أدعه حتى يعود إلى بيته . أوينفق عليه .

وهب واقفا ، لم يحتمل البقاء ، وتحرك صوب الباب ، ولكنه تذكر أنه لا يعرف الرجل ولايعرف مقر عمله ، فتوقف يستفسر ، حتى إذا ألم بما يريد ، انطلق حانقا ، وزهيرة تقول له فى نفاق :

ــ ما لنا وللناس ، لن تجنى من عتابه إلاتعكير دمك .

ولم تكن صادقة فى قولها . كانت فى قرارتها تشتهى أن يذهب إلى الرجل ويشتد معه ، لاحبا فى فوقية وإنصافها ، فما كانت تحب أحدا ، وإن تظاهرت بالحب للجميع . بل ليكثر فى البيت القيل والقال ، الذى يسعدها أن تصغى إليه وتشتهيه .

وذهب إلى الرجل ، وما نظر إليه حتى ازدراه ، فقد رآه من خلال أقوال عزيزة، رجلا دنيئا ، يترك أولاده بلا طعام ولاعطف أربعين يوما من أجل بنت حقيرة ،

فقال له :

ـ ليس من الشهامة أن تترك زوجك وأولادك أربعين يوما، لايجدون ماينفقون ، وانت تبذر مالك على بنت قذرة.

أخذ الرجل ، فرمقه فى دهش ، فما دار بخلده أن يجبهه أحد بمثل ذلك الحديث ، فتريث قليلا ، حتى إذا خفت حدة المفاجأة ، قال فى إنكار :

ـ وما دخلك أنت بشئونى ؟!

ولم يوهن ذلك الاعتراض من إصراره ، فقال :

ـ لو كنت أمينا على أهلك ، ماتدخل أحد بينك وبينهم ، ولكنك أسأت إلى الأمانة التى وضعها الله فى عنقك ، فحق على الناس أن يقوموا معوجك.

فرنا إليه الرجل فى حنق ، وقال له :

ـ من أنت ، وماذا تريد ؟

فقال على وهو يرميه بنظرة احتقار :

ـ أريد أن تعود إلى زوجك وأولادك .

ـ وماشأنك ؟ وماصلتك بزوجتى ؟ أبوها؟ أخوها؟

ـ حز فى نفسى ما تلاقيه من ظلم على يديك .

ـ ومن أقامك قاضيا بين الناس ؟

ـ لن ألتفت إلى اعتراضاتك ، ولابد أن تعود إلى بيتك ، أو تنفق عليه .

ـ لن أفعل شيئا من ذلك إكراما لك .

ـ هجرتها وأسأت إليها وأذللتها لأنك عرفت أنها مقطوعة ، ليس لها رجال ، ولكنى لن أدعك تسىء إليها بعد الآن .

فقال الرجل فى غضب :

ـ وماذا تقدر أن تفعله أنت ؟

فقال على فى هدوء :

ـ أقاضيك .

فنفد صبر الرجل ، واستولى عليه غضب شديد ، فقال وهو يدفع ذراعيه

أمامه فى حدة :

ـ افعل ماتريد :

فقال على وهو يدور على عقبيه :

ـ سترغمك المحكمة على أن تدفع نفقة لزوجك وأولادك .

وانطلق وقد عزم على أن يقاضى الرجل، ومد يده فى جيبه يعد مامعه من نقود ، فلم يجد منها مايكفى ليدفعه عربونا لمحام يتولى الدعوى ، فذهب إلى صديق من أصدقائه فاستدان منه ، ثم يمم وجهه شطر محام يعرفه ، وماخرج من عنده حتى كان خالى الوفاض مرتاح الضمير ، فقد أرضى نزعة الشهامة فى نفسه ، وهى التى تدفعه إلى الوقوف فى وجه الطغيان ونجدة الملهوف .

ـ ١٩ ـ

كان الليل يهيج أشجانها ، فوقع أقدام الشيران فى الدرج ، وتصفيق الباب الخارجى خلف كل من يغادره ، يذكرها بحسان ، إنها تدخل إلى فراشها وتحاول أن تهرب من الواقع الأليم الذى يخز روحها ، ويعتصر قلبها ، بالاستسلام إلى الكرى ، ولكن النوم ماكان يحنو عليها ، ويطوف بها ، بل كان يمعن فى الصد ، ويتركها فريسة لأفكارها .

كانت تقف فى الشباك تمد بصرها فى الحارة ، تحاول أن تخترق حجب المجهول، الذى يتمثل لها فى طيات الظلام المتراكمة ، وكان خيالها يمدها بالأوهام ، فإذا مس أذنيها وقع أقدام ، أوحفيف ثوب ، أو مرور النسيم ، أقنعها وهمها أن القادم حسان، فيرفرف قلبها فى صدرها ، وينتابها قلق يسرى معه أمل ، وترهف حواسها، وماتتبين عيناها حقيقة القادم فى الحارة حتى يذوب الأمل ، وتتبخر الأحلام ، وينزل اليأس المرير بفؤادها ، وياليتها استراحت إلى اليأس ، فما أسرع أن يفر إذا لاحت فى خيالها بارقة كاذبة من أمل خداع ، وماتلبث أن تخبو ليعود

اليأس إلى جوفها ، كانت مطية ذلولا لأملها وجزعها ، وكانت تذوب من وهج إحساساتها ، كما تذوب الشمعة من لهيب نهارها .

وضاقت بوقفتها فى شباكها كل ليلة تنتظره ، إنه لم يخرج من الحارة إلى صديق من أصدقائه غاب عنه ، أو إلى جلسة فى نادى الحزب طالت، ولكنه ركب البحر وسافر ، ولن يعود إليها إلا إذا لفظه البحر كما ابتلعه ، فأحست رغبة فى أن تتطلع إلى البحر الذى حمله ، تذرف دموعها على الذاهب الذى قسا قلبه

واستبدت تلك الرغبة بها ، فتحركت ترقى فى الدرج واهنة مطرقة ، وقد انتشرت بين ضلوعها مشاعر غريبة ، أحست ماتحسه الثكلى وهى ذاهبة إلى قبر ابنها أول مرة ، فأوجست خيفة من إحساسها وتطيرت ، وكادت تنكص على عقبيها ، وتعود إلى حجرتها ، تذرف دموعها ، ولكن رغبة التطلع إلى البحر غلبتها ، فاستمرت فى صعودها .

ودلفت إلى سطح البيت ، وتلفتت حولها .. كان الليل خاشعا ، والسماء صافية الزرقة منمنمة بنجوم فضية ، والبحر ساجيا داكن الزرقة خابيا ، فتفجرت ينابيع الأسى فى جوفها .

قلبت وجهها فى السماء فى انكسار ، ومدت بصرها إلى البحر فى ذلة ورجاء ، ولم تتحرك شفتاها ، وإن أحست أن كل خالجة فيها تناجى الكون فى خشوع وتتوسل إلى البحر فى خضوع ، وتبتهل إلى الله فى حرارة وصدق ، إن يرحم ضعفها ، ويعيد إليها ابنها .

وشعرت صفية بصعودها إلى السطح ، فحزرت أنها فرت من حزنها ، وأنها أرادت أن تنفس عن كربها ، فخفت إليها تواسيها فى محنتها ، وتشد أزرها . وجدتها ترنو إلى البحر واجمة ، وقد لاح فى وجهها الأسى فتحركت عواطفها ، ووقفت برهة تنظر ، لاتقوى على أن تقتحم عليها محراب صمتها ، ثم تقدمت إليها فى خفة ، وقالت فى إشفاق :

ـ ارحمى نفسك .

فالتفتت إليها فاطمة ، وقد ترقرق بالدمع فى مقلتيها ، فقالت لها صفية :

ـ سيعود . سيعود يوما .

فانهمرت عبراتهاعلى خديها ، ولم تنبس بكلمة ، فازدادت صفية منها قربا وقالت :

ـ قلبى يحدثنى أنه سيعود .. ليس لنا إلا الصبر .

فقالت فاطمة وهى تشرق بدموعها :

ـ لو مات أمام عينى لعرفت له قبرا أزوره ، أما الآن فلا أدرى ماذا مصيره : أحى أرجوه ، أم ميت أبكيه .

فعادت صفية تكرر أمانيها ، فقالت :

ـ سيعود .. سيعود يوما .

ولفت ذراعها حولها فى حنان ، وراحت تعيدها إلى غرفتها ، فانفجرت فاطمة باكية :

ـ ابنى .. آه ياحسان .

ـ ٢٠ ـ

لم تقفر الحارة من الصبيان ، فما غربت الشمس بعد ، بل كانت تنثر فلولها هنا وهناك ، فبدا الضياء فى الخبة وعلى الجدران كرقع بيض فى ثوب أغبر . وأقبل إسماعيل ينظر من بين أهدابه الثقيلة . فلاحت الحارة لعينيه فى هيئة قشيبة ، رأى الخربة وقد كسيت بسندس أخضر ، والمعيز ترعى فيها ، وقد وهب لها خياله ريشا أشبه بريش الببغاوات ، فتمهل قليلا يمعن النظر فى إعجاب فى المشاهد الفريدة .

واعترضت طريقه حفرة صغيرة ملئت ماء ، ولكنه رآها بحرا هائلا ، فوقف برهة يفكر فيما يفعله ، ليجتاز اللجة إلى داره ، ثم راح يدور حولها فى حذر ، حتى لا يغرق فيها ، فلما تجاوزها تنفس فى راحة واستأنف سيرة .

وبلغ باب البيت ، فألفى حليمة جالسة ، وأمامها ذلك القفص الذى تصف فوقه الحلوى ، فخيل له وهمه أن القفص يسد الباب ، فالتفت إلى حليمة وقال لها :

ـ أبعدى قفصك حتى أدخل .

رمقته حليمة بنظرة خاطفة ، ولم تعترض ، بل زحزحت قفصها ، وتقدم يصعد الدرج على حذر ، وما صعد بضع درجات حتى وقعت عيناه على رجل يهبط ، وقد حمل على رأسه أوانى من نحاس ، فمشت إلى ذهنه فكرة : ان ذلك الرجل قد سرق النحاس ، فعليه أن يقبض عليه .

وهم بأن يتقدم إليه ليمسك به ، ولكن استولى الجبن عليه ، وصور له وهمه أن الرجل سيضربه بالنحاس إذا اعترض سبيله ، ويمر على جسده ، فسرت فيه قشعريرة ، وفر أمامه مرعوبا ، حتى إذا بلغ حليمة ، راح يقول لها فى لهفة :

ـ صوتى .. صوتى يا حليمة .

نظرت إليه فى دهشة ، ثم قالت :

ـ لماذا ؟

ـ سرق الرجل النحاس ، صوتى حتى يقبل الرجال ، ويقبضوا عليه .

وجلجل فى الحارة صوت حليمة ، فخف إليها الناس ، وما أن رآهم إسماعيل حتى راح يشير صوب البيت ويصيح :

ـ أمسكوه .. أمسكوه .

وارتفعت أصوات تستفسر :

ـ من ؟ .. من ؟ .

فيقول إسماعيل وهو يختبىء خلف الناس :

ـ سارق النحاس .

وبلغ الرجل الطريق ، وأوانى النحاس فوق رأسه ، وخف الناس إليه يقبضون عليه ، والرجل يتلفت مذهولا ، لا يدرى لجمهرة الناس سببا ، وهبط من الدار ، وماجت الحارة ، وتطايرت الأسئلة من الأفواه ، ثم اتضح أن الرجل لم يسرق النحاس، بل أخذه ليبيضه ، فتقلص الزحام ، وانسل إسماعيل مطأطىء الرأس ، وصعد فى الدرج ، ووقفت زوجه تستقبله بالصياح :

ـ ياعار الرجال ! يا وكستى ! يا شماتة الأعداء ! الله يلعن الحشيش ومن

زرعه .

وظلت عزيزة فى صياحها ، تقذفه بالسباب وهو هادىء ، ترف على شفتيه ابتسامة ، كأنما يناغى أذنيه عبارات المدح والثناء ، ووجد أهل الدار مادة للتندر والحديث ، فأخذوا يعيدون ماحدث ويضحكون ، إلا عليا فأنه قر فى حجرته لا ينبس بكلمة .

حزرت صفيه أن زوجها مهموم ، فما كان يطيق السكون ، فأية حادثة أتفه مما وقعت تحرك روح المرح فيه ، فيأخذ فى التعليق عليها ، والتندر بنظائرها، ولكنه اليوم يمعن فى الإطراق ، ففى رأسه أفكار تشغله عما يدور حوله من مفارقات ، فرأت أن تشاطره آلامه ، فدنت منه وقالت فى رقة :

ـ ما الذى يشغلك هذه الأيام ؟ أراك كثير الإطراق والتفكير .

فرنا إليها فى ود ، وأحس راحة لسؤالها ، كان ينتظر أن تفطن إلى ما هو فيه ، وأن تسأله عما أهمه ، فيبوح لها بمتاعبه ، فهو يشعر براحة كلما أفضى إليها بهمومه ، فقال لها :

ـ اشتريت بضاعة كثيرة ، واستدنت ، وكنت على ثقة من ارتفاع الأسعار ، ولكن الكساد استبد بالسوق ، وحل أجل الديون ، فحق على أن أسدد ما على أو أعرض اسمى للعار .إننى لا أطيق أن يقال عنى أننى أكلت أموال الناس ، لابد أن أدفع كل ما على .

فقالت له صفيه فى هدوء :

ـ وماذا تستطيع أن تفعل ؟

ـ أستطيع أن أبيع كل ما فى الدكان بخسارة وأسدد ديونى .

فقالت له فى ثبات :

ـ افعل .

فنظر إليها فى تردد وقال :

ـ والأولاد ؟ لو كان الأمر يتعلق بى وبك لهان الخطب .

فقالت فى إيمان :

ـ ربنا موجود ، خلق رزقهم قبل أن يخلقهم .

وأحس على كأنما نسائم من الرحمة هبت عليه ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، لم يعد المستقبل يبدو لعينيه بغيضا كأبالسة الجحيم ، فصفية تمسح بيدها جراحة فتلتئم ، وتنفخ فى روحه أمنا يعينه على أن يخوض غمار الحياة هادىء النفس ، مستريح الضمير .

ـ ٢١ ـ

فاطمة مطرقة فى جلستها ، ترعى فى جوفها إحساسات الحزن العميق ، فحزنها لا يبلى ، بل يتجدد كل ليلة ، كلما خرج الرجال وقفلوا إلى دارهم عائدين ، إلا حسان فأنه لا يعود . مرت سنتان وهى قلقة ، لا تجد لها مستقرا ، لا تستطيع أن تلقى بنفسها فى أحضان اليأس وتستريح ، ولا تستطيع أن تضرب طويلا فى طريق الرجاء ، فسرعان مايبدد الواقع نور الأمل ، فتتردى فى مهاوى الألم . صارت مرتعا للانفعالات المتضاربة ، فلاح فى وجهها الأسمر أثر ما تقاسى من قلق .

كانت ترهف السمع ، خافقة القلب ، كلما تحدث أحد عن الحرب الدائرة ، فقد تجسمت فى مخيلتها وتمثلت فى حسان ، إذا اشتدت وكثر عدد القتلى اغتمت ، فكل قتيل قتل فهو ابنها ، وكل جريح جرح فهو ابنها ، وكل أسير أسر فهو حسان ، ولا أحد غير حسان ، إذا زعمت الأنباء أن الهدوء مخيم على ميدان القتال ، عشعشت الطمأنينة فى جوفها ، فقد رفرف السلام فوق حسان ، كانت تعيش كريشة فى مهب الأنباء ، لا تعرف لها قرار .

ومس أذنيها وقع أقدام تقترب ، فرفعت رأسها ، ونظرت فى تطلع ، وتأهب فؤادها ليمدها بالانفعالات ، وتبينت القادم فاذا به على ، جاء إليها يسامرها قبل أن يخرج ، فانبسطت أساريرها ، وهدأ قلبها ، كانت تحبه وتجد فى حديثه العزاء .

جلس إلى جوارها يحادثها وهى تصغى إليه ، واستمر ينتقل من حديث إلى حديث ، حتى إذا ما تحدث عن الحرب ، اتسعت عيناها ، وأرهفت منها الحواس ،

فراح يقول :

ـ الجيوش التركية تقترب من قناة السويس ، وحسان قد انضم إلى الجيش التركى ، وهو يزحف الآن مع الجيوش الزاحفة صوب مصر ، سيدخلها قريبا منتصرا ، ويتحقق حلمه ، فيا طالما فكر فى قتال الإنجليز وطردهم من مصر ، وها هو ذا أمله يوشك أن يتحقق ، سينفتح باب البيت يوما ويدخل منه حسان ، سنجده أمامنا فجأة .

وأحيا ذلك الحديث موات الأمل فى قلب الأم ، فقالت والدموع تترقرق فى مآقيها :

ـ متى هذا ؟

فقال فى ثقة :

ـ عسى أن يكون قريبا ، أقرب مما نظن .

وطوى الحديث ، وغادرها ، وتركها وحدها لتصوراتها ، فراحت الرؤى العذاب تلح عليها ، كانت ترى الباب ينفتح عن حسان ، ثم يندفع صوبها ويرتمى فى أحضانها وهو يغمغم : « أمى .. أمى » فتضمه إلى صدرها ، وهى تردد فى حنان: « ابنى .. ابنى » وتختلط أنفاسها بأنفاسه ، وتمتزج دموعها بدموعه ، وكانت تفيق من تصوراتها فلا تجد إلا الهواء الذى تضمه ، وعبراتها التى تنسكب على خديها .

وتحركت مشاعر الحنان فى جوفها ، وغذاها الأمل الذى بذره على فى صدرها ، فأحست الحياة تدب فى أوصالها ، فقامت إلى الشباك القريب من الحارة تنظر ، فكانت كلما مدت بصرها إلى شىء أحست أن ذلك الشىء يشاركها أملها ، حتى الخربة بدت لعينيها نابضة بالأمل .

ووقعت عيناها على حليمة وهى قابعة فى ذلة أمام باب البيت ، فأحست ميلا نحوها ، وخطر لها أن تدعوها تسامرها ، وتحركت عوامل الشفقة فى صدرها ، فقد كانت مشاعر العطف تنبثق من ينابيع الحنان التى تفجرت فى فؤادها ، فراحت تهتف فى صوت خافت :

ـ حليمة .. حليمة .

فرفعت حليمة رأسها . تبحث عمن يناديها ، فلما وقعت عيناها على فاطمة . بأن فيهما شىء من الدهش ، فما دعتها قبل الآن ، وتلاقت العيون ، فقالت فاطمة فى رقة :

ـ حليمة .. اصعدى .

نهضت حليمه وراحت تصعد فى الدرجات القليلة الفاصلة بين الشارع والطبقة الأولى ، حتى إذا بلغت فاطمة ، ألفتها تدعوها إلى الدخول ، فدلفت إلى الشقة ، ووقفت مترددة ، فدعتها فاطمة إلى الجلوس ، وراحت تجاذبها أطراف الحديث فى رقة ، ثم قامت وعادت وفى يدها ثوب جديد من ثيابها ، قدمته إلى حليمه ، فأخذته وهى مأخوذة ، لا تدرى أن قلب فاطمة اليوم يسع الدنيا جميعها .

ـ ٢٢ ـ

ألقى على العبء على زوجه ، فهو يخرج فى الصباح يبحث عن رزقه ، ثم يعود إلى صفية ، ويضع فى يدها بضعة القروش التى يكسبها ، ويدع لها تدبير أمر البيت بذلك الرزق الضحل ، الذى يحتفظ بجزء منه ينفقه فى المقهى على نفسه وعلى أصحابه !

راحت صفيه تدبر شئون بيتها فى صبر ، تدبر أمر ملء البطون ، وأمر كسوة الأجساد ، وأمر الأولاد الذين يذهبون كل صباح إلى الكتاب . ومرت شهور وهى تكافح ، تحرم نفسها ، لتوسع على زوجها وأولادها ، وشعرت أنها مقبلة على أيام عجاف ، فاضطربت وركبها الهم ، وإن تجلدت أمام من فى الدار ، وجاهدت أن تبدو سعيدة قانعة .

ومدت بصرها يوما تحاول أن ترى ما ينتظرها فى مستقبلها القريب ، فألفت غيوما وضبابا ، فقد استراح على إلى حياته الجديدة ، يكسب قليلا ، وينام فى النهار كثيرا ، ويسهر فى الليل طويلا ، لا يقاسى ما تقاسيه من التفكير فى أمر الأبناء ، إنها تمضى سحابة يومها فى تجهيز طعام يكفيه ويكفى تحية وزكريا وخالدا

وجلالا ، وتمضى سواد ليلها فى قص ثيابها لتحية ، وتغيير ثياب زكريا لتلائم خالدا ، وتدبير ملابس لجلال ، ثم التفكير فيما تفعله فى نهارها لتشبع البطون المفتوحة للطعام .

وهجمت عليها الأفكار السود ، فراحت تفكر فيما فى بطنها ، إن هى إلا شهور حتى تضعه ، فينضم فم جديد إلى الأفواه الفاغرة ، فيزيد ذلك فى متاعبها ، ويلقى عليها عبئا جديدا ، ما أغناها عنه ، إنها تنوء بما تحمل ، فياليت الله يريحها من ذلك الوافد الزاهدة هى فيه .

وراودتها فكرة التخلص منه ، فراح شيطانها يوسوس لها أن ألما زائلا ، خير من ألم دائم ، فما أيسر إلام الاجهاض إذا قيست بالوخز المستمر الذى تتحمله كلما وقع بصرها على ابن محروم . وفى ساعة من ساعات ضعفها استسلمت لوسواسها ، فنامت على بطنها ، ودعت خالدا ، وكان أثقل أولادها وزنا ، وأمرته أن يصعد فوق ظهرها ، وأن يأخذ فى القفز .

ووقف خالد على ظهرها وراح يقفز ، كلما ارتفع فى الهواء وهبط بثقله أحست ألما يزلزل كيانها ، فتحرق نواجذها ، وتكتم أناتها التى لو انطلقت لأفزعت ذلك المرتفع فى الهواء الهابط على ظهر أمه ، وهو يحسب أنه يلهو ويعبث !

وبلغ منها الجهد ، وتفصد العرق وسال ، فراحت تجمع البساط بين أصابعها وتضغطه ، لعل ذلك يخفف بعض الألم الذى تقاسيه ، ولكن أوجاعها اشتدت ، فأمرت خالدا أن يكف عما هو فيه ، فهبط عن ظهرها وهو يحس تلك النشوة التى يحسها الأولاد كلما انتهوا من ممارسة رياضة حبيبة إلى نفوسهم !

وجلست تنتظر لحظة الخلاص مما فى بطنها ، ولكن الجنين أبى أن ينزل قبل أوانه ، كان له فى الملهاة الخالدة دور يلعبه على مسرح الحياة ، وكان القدر يضمر له آمالا وآلاما ، فما كانت هناك قوة قادرة على أن تحذف شخصية من الشخصيات التى رسمها المبدع الخلاق .

لم تكن حوادث المستقبل تكتمل ، لو أن ذلك الجنين أجهض ، وما كانت الصورة التى لم ينشرها الزمن بعد تتضح ، لو اختصرت حياة ذلك الذى لم يشهد

كان الغيب يعرف عنه كل شىء ، حتى الاسم الذى سيطلق عليه ، فقد أدرج اسم « سعيد » ضمن أسماء ممثلى الملهاة .

وانجابت موجة اليأس التى غمرتها ، ففكرت فيما اقدمت عليه ، فانداحت فى جوفها رهبة . أقدمت على عمل يغضب الله ، وهى التى تخشى غضبه ، فارتجفت وزاد فى خوفها ذلك السكون المسيطر فى الليل البهيم ، وذلك النجم البادى فى رقعة السماء من شباك غرفتها ، كانت تحس أنه يرنو إليها فى عتاب .

واستولى الندم على مشاعرها ، ورأت أنها لا تملك إلا أن تستغفر الله مما اقدمت عليه ، فرفعت رأسها ، وتطلعت من خلال النافذة إلى السماء فى رجاء ، ثم غمغمت فى حرارة وصدق :

ـ سامحنى يا رب .

ـ ٢٣ ـ

سقيفة عتيقة ذات باب ضخم متهدل ، كانت فى الليل حظيرة للخيل ، وفى النهار كتابا يلوذ به صبية الحى ، لتحصيل المعرفة والعلم .

أقبل السائس بكرة ، فلما انتهى من الخيل ، راح يزيل الروث ، ثم يفرش الحصير البالى على الأرض التى كان يرطبها البول ، وترتع فيها الهوام والجنادب والخنافس ، فلما انتهى من تجهيز المكان لاستقبال الغلمان ، ووضع حصر الشيخ عند المعلف ، وقف فى ثيابه الرثة القذرة على باب السقيفة يرصد إقبال الشيخ ، حتى إذا لمحه هرع إليه يعاونه على الجلوس فى صدر المكان .

وتقاطر الصبيان فى جلابيبهم الملونة المرصعة بآثار الطعام يعلقون فى أعناقهم ألواحا من الصفيح كتب فيها بحبر أسود بعض آيات الكتاب الكريم ، ينتعلون نعالا مزقتها يد الزمان ، ودمغها الفقر والحرمان ، كانت خير مرآة تعكس حالة الدور التى تسعى إليها فى العصر ، وتخرج منها فى الصباح .

وجاء خالد فى جلباب نظيف و يتدلى اللوح على صدره ، وما وقعت عيناه

على الكتاب حتى انقبض ، حاول أن يحفظ الآيات ولكنه أخفق ، فقد خانته ذاكرته ، فبات يوجس خفية من الشيخ ، حتى راودته فكرة الهرب من الكتاب ، ولكن ظهور الشيخ فى قامته الطويلة المهيبة ، وجبته التى كانت ذات يوم سوداء قبل أن تذهب الشمس بلونها ، أطارت الفكرة من رأسه ، وجعلته يتسمر فى مكانه مرعوبا ، خشية أن يشى « العصفور » بما خطر له .

وتقدم الشيخ ، وقد بدا من فتحة جبته قفطانه المخطط وحزامه المزكرش ، يحمل فى يده اليسرى فى حرص صرة يخشى أن يتهشم ما بها ، وفى يده اليمنى عصاه التى لا تفارقه . وما أن رآه الصبيان حتى تعلقت عيونهم به رهبة . وساد المكان صمت ، ففطن السائس إلى وصول الشيخ ، فخف إليه يحييه فى تملق ورياء .

وجلس الشيخ على حصيرة ، وبسط الصرة أمامه ، فراح الذباب يتساقط على ما بها . كانت قطعا من الحلوى المتواضعة ، يبيعها للأولاد بأضعاف ثمنها ، وكان الصبيان يدفعون قروشهم فيها اتقاء أذاه ، هرعوا إليه يتنافسون فى الشراء ، يحاول كل واحد منهم أن يعلن عن نفسه ، وأن يجذب نظر الشيخ إليه ، حتى إذا أخطأ فى القراءة . كان القرش الذى دفعه شفيعا له .

وظل خالد بعيدا يفكر . خطر له أن يشترى منه اليوم فرارا مما ينتظره من ضرب . إذا ما حانت ساعة تسميع القرآن ، ولكنه كان حريصا على قرشه يفضل ادخاره على إنفاقه ، فقهره طبعه ، وطرد ذلك الخاطر من ذهنه ، ووطن النفس على الصبر على الضرب ، فذلك خير عنده من العودة إلى الدار ، وقد طار قرشه فى الهواء .

وقعد الأولاد على الحصير يتسامرون ، وهبطت العصافير من فتحه واسعة فى السقف ، وأخذت تزقزق ، وتنتقل بين الكوات الكثيرة فى الجدران، فصارت السقيفة كخلية نحل ، ولمح بعض الأولاد الخنافس فى غدوها ورواحها ، فأمسكوها ، وغرسوا فى ظهورها أعواد الثقاب ، ثم وضعوها فى خفة على حصير الشيخ ، وانفلتوا هاربين ، وراحت الخنافس تموج على جبة الشيخ والأولاد ينظرون ويتغامزون ويضحكون ، فأراد أن يشغلهم فى شىء حتى ينتهى من عد الفلوس وحساب

الأرياح ، فصاح فيهم ، وكان ينطق ألقاف جيما :

ـــ سنة أولى « اجرأوا » الفاتحة بصوت عال . سنة ثانية « اجرأوا » جدول الضرب ، فارتفعت أصوات فريق :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ..

وصاح الفريق الآخر فى نفس الوقت :

ـ ١×١ب١ ، ١×٢ب٢

وجلجلت الأصوات وامتزجت كما تمتزج حمم البركان ، لتنطلق مدوية تصم الآذان ، وانتهى الشيخ من عد القروش وغيبها فى صدره ، وأصلح الجبة والقفطان ، ثم تنحنح :

ـ « جف » .

خيم على المكان سكون عميق ، ونزلت الرهبة بالقلوب ، فقد كان ذلك إيذانا ببدء التسميع ، والبطش والتنكيل .

ونادى طفلا من الأطفال ، فخف إليه وجلس أمامه على الحصير ، فمد الشيخ يده ، وأسند رأس الغلام بكفه ، وقال :

ـ « اجرأ » .

وبدأ الغلام فى القراءة ، وراح الشيخ يهتز إلى الخلف وإلى الأمام ، وهو يجذب رأس الغلام معه ويبسطها ، فيهتز الاثنان فى توافق ، ويتحركان حركة المنشار ، فإذا أخطأ الصبى هوى بالعصا على يافوخه وهو يلعن أمه ويسب أباه ، دون أن يتوقف عن الحركة .

ولمح غلاما يزحف خلف الخنافس ، فرفع رأسه ونظر إلى العصافير ، وفتح عينا وأغمض الأخرى ، وقال :

ـــ هيه ، ماذا ياعصفور ؟ ماذا يفعل مصطفى فى البيت ؟ « جل » إنى اسمعك .

ويسمع الصبى الزاحف خلف الخنافس اسمه فيرتجف ويزيد اضطرابه عندما يصل إلى أذنيه صوت الشيخ الرهيب :

ـ تعال يا مصطفى .

فيذهب إليه مأخوذا ، كأنما ينجذب إلى مغناطيس ، فيقبض عليه بيده ثم يهوى بالعصا على أم رأسه ، وهو يصيح فيه .

ـ تب عما تفعله فى البيت ، لا تنكر . أخبرنى العصفور بكل شيء . تب .

وساد السقيفة صمت ، لا يعكره إلا نشيج الطفل المضروب ، واستأنف الشيخ التسميع . واستمر الصبيان فى قعود وقيام ، حتى إذا دعا خالدا ذهب إليه ينتفض. يكاد يسقط من الإعياء .

وجلس أمامه ، وأسند رأسه إلى كفه فى استسلام ، وراح يهتز معه ويرنو فى فزع إلى العصا ، فتلعثم ثم أخطأ ، فهوى بالعصا على رأسه وهو يصوب له خطأه . واستأنف خالد التسميع ، ولكن سرعان ما أرتج عليه ، فعقد لسانه ، فثارت ثائرة الشيخ ، وراحت العصا ترتفع فى الهواء لتهوى على الصبى . والشيخ يزمجر :

ـ « أسجيه » لك ؟! « أسجيه» لك يا بن ال ..

وعاد خالد إلى مقعده يتلوى من الألم ، وانقضى النهار ، فانصرف الأولاد إلى بيوتهم ، لتتأهب السقيفة لاستقبال الخيل ، ورجع خالد إلى بيته يحمل همه وآثار الضرب ، وما أن لمح أباه حتى انفجر باكيا ، وراح يقص عليه ما ناله على يد الشيخ .

تحرك الغضب فى جوف على ، وامتلأ حنقا ، فضم خالدا إلى صدره فى حنان، وأقسم :

ـ والله لأخنقن الشيخ « قرد » بشال عمامته .

وانقضى الليل ولم تهدأ ثورة على ، ضايقة أن يضرب ابنه مثل ذلك الضرب ، فما أن طلع النهار حتى خرج يجد فى السير إلى الكتاب .

رأى الشيخ فى صدر المكان ، وفى يده عصا ، فجرى الدم حارا فى عروقه ، ولم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، يحاول أن يخنقه بشال عمامته ، فراح الشيخ يصرخ ويستغيث ، وحدث اضطراب بين الأولاد ، وأسرع الجيران إلى الشيخ يحاولون تخليصه .

ومست الكلمات الناعمة أذنى على ، فحركت المشاعر الطيبة فى نفسه ، وما أيسر أن تتحرك ، فترك الشيخ وقد مات غضبه وراح يعاتبه فى رقة ، محاولا أن يمحو أثر ما فعله به فى سورة غضبه .

ـ ٢٤ ـ

تأهب على للخروج ليبحث عن رزقه ورزق عياله ، وكان منقبض الصدر لذلك الحرمان المخيم على البيت ، أصبح يقاسى شظف العيش ، ويرى زوجه تكاد تنوء بما تحمل من هم ، وإن كانت تكدح النهار فى صمت ، وتسهر الليل فى صبر لتسد على قدر جهدها وموارد زوجها الضحلة حاجات الأولاد ، ولتبدو شقتها نظيفة مستورة .

إنه يلمح فى وجه صفية آثار الجهد ، ولكنه لا يرى أثرا للحنق ، فهى مستسلمة لما تأتى به المقادير ، وإن كانت تكافح بكل ما فيها من عزم ، لتسعد من فى البيت ، وإن كفاحها الصادق وصبرها الرزين ، واستسلامها المؤمن، تحرك كوامن شجنه ، وتمس مواطن إعجابه ، فتتأجج نار الحب فى جوفه ، وترتفع مكانتها فى عينيه .

وفكر فيما يفعله ليعيد الرفاهية لهؤلاء الذين يحبهم ، فلم يهتد إلى شىء ، وضاق رزقه ، وحالفه فقره ، بعد أن ذابت تجارته ، ولم يعد يملك إلا نصيبه فى هذا البيت الذى ورثه عن أبيه ، وفكر فى أن يبيع حصته ، ولكن لم يدم تفكيره طويلا، لو أنه باعها لأنفق ثمنها فى أشهر معدودات ، ولأضاف إلى متاعبه إيجار المسكن الذى سيضطر إلى الانتقال إليه ، يوم يفرط فى نصيبه .

وطافت برأسه أمنيه شغل بها ، فلو أن ذلك الشارع الجديد الذى طالما سمع نبأه من أبيه اخترق الحى ، وأصبح هذا البيت على ناصيته ، لارتفعت قيمته ولأغراه ببيع نصيبه ، واستئناف تجارته ، ولكان فى ذلك مفتاح السعادة لأهله . واستراح إلى تلك الأمنيه ، فلج فى التفكير فيها حتى نبت فى جوفه أمل أدفأ صدره ، وألقى على مستقبل حياته بصيصا من النور .

ورث فيما ورث عن أبيه حلم الشارع الجديد ، وإن تباينت الأهداف ، كان يونس يرجو تنفيذ الشارع الجديد ليبرهن لزوجه أنه لم يكن قصير النظر يوم وضع كل ما ادخره فى ذلك البيت ، بينا كان على يرجو تنفيذه ليبيع حصته ، ويحطم أغلال الفقر التى كبلته ، وليعيد إلى أهله السعادة والهناء

وغادر على الدار وهو يحلق وراء أحلامه وأوهامه ، وترك صفية للواقع الأليم، ليس معها إلا قروش قليلة لا تسد الحاجات الكثيرة الفاغرة فاها لابتلاع أضعاف ما عندها من نقود ، فجلست إلى طشت الغسيل تغسل ثياب الأولاد ، وتطلق لخيالها العنان ، ليرشدها إلى تدبير أمر الغداء ، فما معها من دراهم قليلة يحتاج إنفاقه فيما يكفى البطون الكثيرة إلى تدبير عبقرى ، وكانت موهوبة فى مثل ذلك التدبير .

وجهزت الطعام ، كان أول ما فعلته أن بعثت إلى الجدة غداءها ، وحجزت أطيبه لزوجها ، ووضعت باقيه أمام أبنائها ، وتناولت رغيفا تمسح به الوعاء ، وكان ذلك طعامها .

وقال على بعد الغداء ، وهبط الأولاد إلى الحارة يلعبون وساد الشقة سكون ، ولكن صفية لم تهجع بل كانت تغدو وتروح . كانت تصلح ملابس أولادها ، تثبت الأزرار ، وتبدل المناديل ، وتمسح الأحذية ، كانت تقدس الترتيب ، وكانت تهتم بنظافة أبنائها .

ومالت الشمس للمغيب ، وهى غارقة فى أعمالها ، وفتح الباب ودخل زكريا هادئا نحيلا ، ودنا منها ، وقدم إليها كيسا ، فأخذته وقد انقبض قلبها، ورنت إليه فاحصة ، وقالت فى حدة :

ـ ما هذا ؟

فقال زكريا فى هدوء :

ـ كيس وجدته بجوار الجامع .

وفتحته وعدت ما به ، فإذا ثلاثة ريالات من فضة ، إذا بمشاعر من الأسى والقهر تنتشر فى صدرها ، تقاسى ما تقاسيه فى صبر من أجل أبنائها ، وإذا

بأحدهم يعود إليها بكيس لا تدرى من أين جاء به وخطر لها أنه سرقه ، فاسودت الدنيا فى وجهها ، فصاحت فى حدة غضب :

ــ قل من أين جئت به ؟

فقال زكريا وقد تعلقت عيناه بوجهها العابس :

ــ وجدته بجوار الجامع .

فلطمته فى حنق ، خيل إليها أنها ترى أملا من آمالها ينهار أمام عينيها ، وصاحت صيحة زلزلت زكريا :

ــ قل الصدق خير لك .

فقال زكريا ودموعه تطفر من مآقيه ، لا من ألم الضرب ، بل من حرقة الاتهام الظالم :

ــ والله العظيم وجدته بجوار الجامع .

وانخرط زكريا فى البكاء ، وبلغ نشيجه مسامع على ، فهب من نومه ، وهرع إليه ، فما كان قلبه يحتمل بكاء أحد من أبنائه ، ولمح صفية تزجره ، فقال :

ــ ماذا جرى ؟

فقالت صفية فى ثورة وهى ترفع الكيس بين أصابعها :

ــ سله من أين جاء بهذا ؟ يخرج ليلعب ، فيعود بثلاثة ريالات .

أحس على كأن يدا قوية تعتصر قلبه ، خيل إليه أن زوجه تيقنت من فعلة ابنه النكراء ، فدنا منه ، وقال له فى صوت خافت ينم عما فى جوفه من قلق :

ــ قل لى : من أين جئت بهذا الكيس ؟

فقال زكريا فى حرارة :

ــ والله العظيم وجدته بجوار الجامع .

واستشعر على الصدق فى نبراته ، فأقلع قلقه ، وطافت به سكينة ، فالتفت إلى زوجه وقال :

ــ إنه صادق فيما يقول ، وجد كيسا بجوار الجامع ، فما وجه الغرابة فى ذلك؟

فقالت صفية ، وقد شعرت ببعض الراحة :

ــ ولماذا لا يعثر به إلا زكريا ؟ .

فقال لها على معارضا :

ــ ولماذا لا يعثر به زكريا ؟

فقالت صفية فى صدق :

ــ ليته لم يجده ، كان ذلك أهدأ لقلبى .

وفطنت إلى الكيس المتدلى من أصابعها ، فقال :

ــ وماذا سنفعل بهذا الكيس ؟

فقال على فى هدوء :

ــ ما يفعله الناس بما يجدونه من أشياء .

فقالت صفية فى عزم :

ــ لن يمكث هذا الكيس لحظة ، لابد أن يسلم للقسم .

ولم يعترض على ، كان على يقين من أن صفية إذا قالت فلن يثنيها عن قولها شىء ، فأخذ زكريا والكيس ، وانطلقا إلى القسم وذابت الريالات الثلاثة ، فلم يبق فى الشقة بيضاء ولا صفراء .

ـ ٢٥ ـ

وضعت صفية سعيدا ، ذلك الذى أبى له قدره أن يهبط قبل أن تكتمل شهوره ، من ظلام البطن إلى ظلام القبر ، كان مكتوبا عليه أن يرى شروق الشمس وغروبها ، وأن يضيق بحر الصيف وقر الشتاء ، وأن يجوع وأن يشبع ، وأن يبتسم وأن يضحك ، وأن تدمع عيناه ، وأن يذرب ذوب النفس ، كان مقدرا له أن يكون إنسانا .

وجاء الحاج كرم يعود ابنته ، وما أن سمع وقع أقدامه فى الدرج حتى خفت ثريا وعزيزة وزينب وزهيرة مستطلعات . فلما رأينه يصعد يد وراء ويد قدام ،

ابتسمن فى خبث ، ولم تستطع عزيزة أن تكبح شهوة الكلام فهمست :

ـ ليت هذا الرجل يخرق عين الشيطان مرة ولو بعود قصب .

وانسحبن ليفسحن للصاعد الدرج ، وليجتمعن ليسلقن الناس بألسنتهن ، قالت زينب :

ـ كلما رأيت الحاج ، تذكرت ذلك الغنى الذى كان يخصم من الخولى ثمن الجرجير الذى يشتريه ، لأن الجرجير الذى زرعه تأخر فى الظهور .

فابتسمت ثريا وعزيزة وزينب ، وقالت زهيرة فى نفاقها المعهود ، وإن كانت ترهف السمع ، وينشرح صدرها للخوض فى أعراض الناس :

ـ أعوذ بالله ، مالنا وللناس .

ولم تلتفت أخواتها إلى اعتراضها ، كن يعلمن أن ذلك الاستنكار إن هو إلا تحريض لهن على الاسترسال فيما هن فيه ، فقالت ثريا :

ـ إنه يذكرنى بذلك البخيل الأعمى الذى كان يطلب من الخادم أن تجهز له فلجانة واحدة من القهوة ، ثم يخشى أن تنتهز عماه ، فتجهز لنفسها فلجانة أخرى، فيقوم بتحسس ، حتى إذا بلغ الإناء قاس بأصبعه ما به من ماء .

وقدحت عزيزة زناد فكرها ، لم تكن تصغى إلى حديث ثريا ، بل كانت تفكر فى قصة ترويهاعن بخيل ، عز عليها أن تترك الميدان لأخواتها وهى فارسته ، وأسعفها فكرها ، لابقصة بخيل واحد بل بقصة ثلاث بخيلات ، فقالت :

ـ ما أكثر البخلاء ! كن ثلاث أخوات ورثن عن أبيهن ثروة كبيرة ، وكن يسكن معا فى شقة واحدة ، فكن يطهين طعامهن فى وعاء واحد ، فإذا ماجاء أوان الغذاء قامت بينهن المشاجرات ، كانت كل منهن تتهم أختها باصطياد اللحم .

وفكرن فى وسيلة يضعن بها حدا لهذه المنازعات ، فاهتدين إلى أن تسلك كل منهن لحمتها فى خيط مميز بلون ، فإذا وضع أمامهن الوعاء ، جذبت هذه خيطها الأبيض ، وجذبت تلك خيطها الأسود ، وجذبت الثالثة خيطها الأحمر .

فقالت ثريا فى عجب :

ـ وما الذى يضطرهن إلى المشاركة فى الطعام ؟

فقالت عزيزة :

ـ الاقتصاد فى البصل والملح والفلفل والبهار والإناء والموقد والنار .

فقالت زهيرة فى تأفف :

ـ أعوذ بالله .

وصعد الحاج كرم إلى ابنته ، وراح يحادثها فى ود ، كان يحبها ، وكان يقدر صفاتها ، وما كان يخفى تقديره ، بل كان يقول أمام أبنائه : «ليتك كنت يا صفية الرجل ، وكانوا هم البنات » .

وحملت صفية وليدها ، ودفعته إلى أبيها فى حنان ، فحمله فى حرص بين يديه ، كان يخشى أن يبول عليه ، فينجس ثيابه . ومد يده فى جيبه، وأخرج خمسة جنيهات وضعها فى يد الطفل ، وأعاده إلى أمه ، فتمتمت صفية ببعض عبارات الشكر ، وترجمت نظراتها عن حقيقة فرحتها ، كانت تلك الجنيهات كالطل الهابط من السماء بعد الجفاف .

ـ ٢٦ ـ

جلبة الأولاد تتردد فى جنبات الحارة ، كانوا يتصايحون فى عدوهم وقفزهم، والتجائهم إلى الخربة يختبئون بها ، وكان خالد يشاركهم فى صياحهم وعبثهم ، وجلال يجرى فى أعقابهم ، بينا وقف زكريا بعيدا وحده ينظر ، كان ضعيف البنية، منطويا على نفسه ، لايشاطر صبية الحى لهوهم وإن كان يتمنى أن يخرج من قوقعة نفسه .

وجلجل صوت المؤذن يؤذن بالعصر ، فنفث فى جو الحارة سحرا ، انساب الرجال فى خشوع إلى المسجد ، وتوقف الأولاد عن الصياح برهة ، حتى أولئك الرجال الذين اجتمعوا فى الخربة للعب القمار انتفضوا رهبة ، ولكن سرعان ما وأدتها الإحساسات الجشعة المتفجرة من القلوب القاسية .

ودنا زكريا من المسجد ، فلما قضيت الصلاة ، دلف إلى الحلقة التى تجتمع

كل يوم حول الشيخ تصغى إلى الدرس الذى يلقيه بين العصر والمغرب ، وجلس على الحصير بالقرب من المشرف وتعلقت عيناه بوجه الرجل ، وأعاره سمعه ، كان حديثه يصادف هوى فى نفسه ، وكانت تلك الجلسة ترضيه وتعوضه عن لذة مشاركة الأولاد فى لعبهم ، فصار يؤم المسجد كل يوم فى العصر ، ويزيد مداركه ويزداد وحدة .

وظهر فى الحارة شاب أسمر قصير ، مفتول الساعد ، يدفع أمامه عربة عليها أقطان ، فلما رآه الأولاد هرعوا إليه يتصايحون :

ـ النجرو ..النجرو جاء .

كان النجرو يسرق الأقطان من الميناء ، وكان يخبئها فى الخربة حتى يبيعها ، وكان سكان الحارة جميعها يعلمون ذلك ، ولكن واحدا منهم لم يفكر فى أن يبلغ عنه ، أويشى به ، كانوا جميعا يقاسون وطأة الغلاء لا يجدون إلا مايكاد يمسك الرمق ، بينما يسمعون قصص تجار الأقطان الذين أثروا حتى صاروا يشعلون سيجارة راقصة بأوراق البنكنوت ، فأصبحوا يمقتون تلك الطبقة ، ويحقدون عليها ، ويجدون فيما يفعله النجرو انتقاما لهم ، وتنفيسا لحقدهم الدفين .

وراح الأولاد يعاونون النجرو فى إخفاء ماسرق ، دون أن يزجرهم زاجر، وأخذ خالد يغدو ويروح مع الأولاد ، ولمح رجلا هزيلا واقفا فى الخربة وحده ، وقد برز شعره المنفوش من تحت طربوشه ، وتمزقت ثيابه ، فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يرقبه برهة ، فألفاه يخرج علبة ثقاب من جيبه ويفتحها ، ويخرج منها ورقة بيضاء ، يصب مابها على ظهر كفه ، فإذا به مسحوق أبيض، ثم يستنشقه فى قوة ، وخالد يرنو إليه دون أن يفطن لشىء ، فيستأنف غدوه ورواحه فى الخربة مع الغلمان .

ومالت الشمس للمغيب ، وأذن المؤذن بالمغرب ، فانسل زكريا من المسجد إلى البيت راضيا ، فالإصغاء إلى الشيخ لايتطلب منه الخروج عن انطوائه ، ولايحتاج إلى مثل تلك القوة التى يفتقر إليها حتى يستطيع أن يشارك أقرانه فى لعبهم .

واستمر خالد فى لعبه على الرغم من ذلك الظلام الذى خيم على المكان، وظل جلال يتابعه فى جريه ، ودوى فى الحارة دق الطبول ، ثم غرقت فى الضوء

فأسرع الأولاد صوب الخربة ، فقد كان الركب قادما من العالية ، من الحى الذى يقطنه الفلاحون والصيادون .

هبط إلى الحارة حملة القناديل ، ثم تبعهم رجال شداد يقفزون ويلعبون بعصيهم الغليظة ، وجاء بعدهم نافخ المزمار وضاربوالدفوف ، يسير فى وسطهم رجل ضخم يرتدى سروالا أسود وقميصا مزركشا بالقصب . وعلى جبهته عصا طويلة تنتهى بمكعب تكسوه المرايا ، وتتدلى منه الشراريب ، وطفق الرجل يرقص على الأنغام ، وينقل العصا من رأسه إلى ذراعه ، ثم من ذراعه إلى قدمه الحافية .

وسار الرجال وفى أيديهم هراواتهم أمام عربة العروس وخلفها وعن يمينها وعن يسارها ، فى وجوههم صرامة وعبوس ، كأنما يترقبون الأعداء الذين سينقضون لاختطاف العروس .

وهبط الركب من العالية ، وانساب فى الحارة ، والأولاد من حوله يتصايحون فرحين ، وتقدم ليخترق حى الصعايدة ، فخف خالد إلى أخيه الصغير، وجذبه من يده ، وسحبه بعيدا ، كان على الرغم من صغر سنه قد حزر ماسيقع عما قليل ، فيا طالما شاهد المعارك الدائرة بين أهل الحيين اللذين نبتت فى صدورهم العداو ة ، كما ينبت الحسك فى الصحراء .

ودنا الركب من مقهى الصعايدة ، فساد الترقب والتحفز ، وقام رجل صعيدى إلى الزمار ، وقال له فى نبرات آمرة :

ـ سلام ، سلام الرجال ..

فنظر الزمار إلى والد العروس يستلهمه ، فهز ذلك رأسه ، فاستمر الزمار فى السير، وإن أخذ يرقب من طرف عينيه مايجرى حوله ، تأهبا للفرار عندما يدور القتال ، وتحرك الصعايدة الجالسون على المقهى ، وخطفوا هراواتهم ، وهوت على الرءوس والأبدان ، وسالت الدماء ، وتطايرت المقاعد فى الهواء وارتفع الأنين والصراخ ، ثم راح موكب العروس يتقهقر بانتظام ، والصعايدة يتبعونه وهم يصيحون صيحات الظفر والنصر .

ولاذ الفلاحون بدورهم ، والصعايدة يجرون خلفهم ، وما هى إلا لحظات

حتى تطايرت الزجاجات المحشوة بالرمل والزلط من الشبابيك والأبواب والأسطح ، لترتطم برءوس الصعايدة فتهشمها ، أو بوجوههم فتسيل منها الدماء .

وارتد الصعايدة ، يضمدون جراحهم ، هزموا وكثرت أصاباتهم ، استدرجهم الفلاحون إلى دورهم ، ثم أطلقوا عليهم الزجاجات من كل مكان ، نفس الخطة التى اتبعوها معهم مرات ومرات ، ولكنهم لم يفطنوا أبدا إلى ذلك الكمين الذى ينصب لهم ، فنشوة النصر تدفعهم فى كل مرة إلى السقوط فيه ، لم يتعلموا من الماضى شيئا ، ولن يستفيدوا من تجاربه ، ستنسيهم نشوة الظفر الأولى الحذر من الشرك المنصوب ، فيتردون فيه غافلين .

ـ ٢٧ ـ

دخل على على أمه مستبشرا ، ينم وجهه عن الفرحة ، وما إن التقت عيناه بعينيها حتى صاح مبتهجا :

ـ أعلنت الهدنة .. انتهت الحرب .

نظرت إليه أمه فى جمود ، كأنما لم تفقه مايقول ، وجعلت تتطلع إلى وجهه دون أن تنبس بكلمة ، فاندفع فى حديثه :

ـ انتهت الحرب .. انتهت وسيعود حسان ... سيعود إلينا حسان .

وتهدج صوته ، ولم تجد الأم لسانها ، ألجمتها المفاجأة ، ولكن طفرت الدموع من عينيها ، وسالت على خديها ، فخفق قلب على لدموعها ، وأدار وجهه ، ومسح بظهر يده عبراته التى ترقرقت فى مآقيه .

وشردت الأم ببصرها ، وهمست فى صوت خافت منادية فى حنان :

ـ حسان.. ابنى حسان .

وألقت رأسها على صدرها ، وأجهشت بالبكاء ، فجلس على إلى جوارها ، ولف ذراعه حولها ، وضمها إليه فى رقة ، وقال :

ـ كفكفى دموعك يا أماه ، وابتسمى للرجاء .

فقالت الأم فى وله :

ـ ترى يا بنى أين أنت الآن ؟

ـ فى طريقه إلينا.

ـ ليته يرحمنى ويعود .

ـ اطمئنى ، سيعود .

وغادرها على بعد أن حرك الرماد، فاندلعت فى جوفها نار المشاعر التى خبت على مر الشهور وكر السنوات ، كان قلبها يخفق بالأمل البسام ، وسرعان ماتنداح الفرحة ، وتمحى ، ليحل مكانها انقباض ولده خاطر أسود هاجمها فجأة ، وراح يوسوس لها أن حسان قد مات .

وصارت مرتعا لمشاعرها المتصارعة ، مشاعر اليأس ومشاعر الرجاء ، وانتصر الأمل ، فاستشعرت رغبة فى أن تتطلع إلى البحر، تتوسل إليه أن يرحم شيخوختها ، وأن ينحسر عن حسان ، فراحت ترقى فى الدرج خافقة الفؤاد ، حتى إذا مابلغت سطح الدار مدت بصرها إلى اللجة التى يعلوها الزبد ، وإلى القبة الزرقاء، وظلت ترنو إلى الفضاء لاتنبس بكلمة ، وإن كانت كل خالجة فيها تنبض بأحر صلاة ، كانت تبتهل فى إخلاص أن يعود إليها حسان .

وظلت فى وقفتها لاتحس مرور الزمن ، حتى دثرها الليل بردائه ، وشاركها الكون فى صمتها ، فدارت على أعقابها ، وهبطت يداعبها الأمل ، وذهبت إلى فراشها وهجعت ، واستسلمت للأحلام والرؤى العذاب .

ومرت الأيام ، وترادفت الشهور ، ولم يعد حسان ، فاقتلع اليأس بذور الرجاء ، وانزوت فى بيت الأحزان ، وضاقت بمشاعرها ، ففزعت إلى البحرتذرف دموعها ، لعله يرق لحالها ، ويلفظ جثمان ابنها الذى مزق غيابه الفؤاد .

وقفت على السطح ، ونظرت إلى البحر الجبار ، ثم أطرقت فى أسى ، وانهمرت دموعها تغسل وجهها ، ثم غمغمت :

ـ يارب .

ولم تحتمل وطأة إحساساتها ، فانفجرت بالبكاء .

وافتقدتها صفية ، لم تجدها في شقتها ، ففطنت إلى أنها قد صعدت إلى السطح ، كانت تعرف فيها ذلك الحنين إلى البحر، إنها تلوذ به إذا انبثق فى جوفها بصيص من نور ، وتلوذ به إذا خبا ذلك البصيص ، فهرعت إليها تواسيها فى محنتها ، وتخفف عنها آلام الأفكار السود .

رأتها فى طرف السطح مطرقة ، تكاد كبدها تنشق من البكاء ، فأحست نحوها عطفا ، ودنت منهاوقالت فى رقة :

ـ ارحمى نفسك ، ماذا يفيد البكاء ؟

ـ ليته يا صفية مات أمام عينى .

وهمت صفية أن تقول لها كما اعتادت أن تقول : « سيعود .. سيعود يوما ».

ولكنها رأت أن الأمل يمد حبل العذاب ، وأن فى الركون إلى اليأس راحة ، فكبحت جماح لسانها وصمتت ، ولفت ذراعها حولها ، وراحت تقودها إلى شقتها وهى تحنو عليها ، وتغمرها بالمواساة .

ـ ٢٨ ـ

ترعرع لبيب فى كنف جده ، وما كان يزور أمه وأباه وإخوته إلا زيارة ضيف خفيف ، كان يمكث معهم سويعات ثم يعود إلى البيت الذى شب فيه ، وقف أمام المرآة يرتدى ثيابه ، ويصلح رباط عنقه ، وقد لاح البشر فى وجهه النحيل ، فهو ذاهب إلى أمه بعد أن ظهرت نتيجة « الكفاءة » وكان من الناجحين .

وانطلق الشاب النحيل ، أنيقا نظيفا تغمره سعادة ، ويعمر قلبه حنين، تلقى تهانى جده وجدته وأخواله ، ولكن نفسه تتوق إلى أن تسمع رنة الفرح لنجاحه من أحب صوت إليها ، كان يهفو إلى حنان أمه ، وإلى مشاركتها له فى بشره ، فصدق مشاعرها نحوه يدغدغ حواسه ، ويفعمه نشوة ساحرة عجيبة .

وانساب الشاب الصغير فى الحارة ، فألفى إخوته يجرون مع الصبية

ويلعبون ، فلم يزجرهم كما كان يفعل كلما رآهم فى عبثهم الضائع ، فهو اليوم منشرح الصدريغفر لعبهم ، ولكن ما إن وقعت عيونهم عليه حتى كفوا عما كانا فيه ، كانوا يهابونه ، وقد حفظ له هيبته ذلك الغياب الطويل عنهم ، وتلك الأناقة التى ما كانوا يألفونها .

وصعد فى الدرج ، وقابل عماته ، وتلقى تهانيهم فى فتور ، ثم هرع إلى أمه نشوان ، فلما وقعت عيناها عليه انبسطت أساريرها ، وقالت له فى صوت عذب :

ـ مبارك !

كلمة سمعها من أفواه كثيرة ، ولكن نفسه لم تهتز لها كما تهتز الساعة، إنه يحس بأنامل رقيقة تعبث بأوتارقلبه ، وبنشوة عارمة تفعمه ، وبدموع الفرح تندى مقلتيه ، ولو طاوع نفسه للاذ بالصدر الحنون .

وجاء أوان الغداء ، فقاموا خفاقا ، إلا صفية جلست بعيدا تصلح ثوبا تمزق ، فدعاها لبيب لتشاركهم فى طعامهم ، فاعتذرت بأنها شبعانة ، فسكت وإن فطن إلى أنها تصوم لتوفر لهذه البطون مايملؤها .

تفتحت عيناه على الحقيقة ، إن أسرته فى حاجة إلى عونه ، فشرد قليلا يفكر فيما يستطيع أن يفعله، ليساعد أهله ، فراحت الأفكارتتوافد على رأسه ، كانت أفكارا نبيلة كلها ، ولم تطرأ على ذهنه فكرة واحدة عن نفسه ، ذابت أنانيته لما لمس ماهم فيه من ضيق .

واطمأن إلى فكرة ، فعزم على إنفاذها . خطر له أن يفضى إلى أمه بها ، ولكنه فضل أن يتريث حتى ينجح فى تحقيقها ، فبقى جالسا معهم بجسمه ، بينا كان فكره شاردا هائما .

وقام مستأذنا . وخرج ولكنه لم يذهب إلى بيت جده ، بل راح يغذ السير إلى بيت خالته جليلة ، فزوجها الذى نمت ثروته فى الحرب وتضخمت حتى فتحت له أبواب العظماء ، خير من يحقق له فكرته .

ووقف أمام الباب الضخم يصلح هندامه ، وتقدم يرقى فى الدرج الرخامى ، ثم دلف إلى غرفة واسعة ، انتشر فيها الرياش الفاخر، فجلس فى مقعد وثير غاص

فيه ، وما مرت لحظات حتى أقبلت خالته ، وماإن رأته حتى رحبت به وقالت :

— مبارك . سرنى نجاحك !

— متشكر .

وجلست قريبة منه ، ثم قالت :

— ماذا نويت أن تفعل ؟

استراح لذلك السؤال ، فتحت له الباب ليلج منه إلى الموضوع الذى جاء يتحدث فيه ، فقال وهو ينظر إلى البساط الفاخر الذى يغطى أرض الحجرة :

— فكرت فى أن أبحث عن وظيفة .

فقالت فى حماسة :

— هذا عين العقل ، أمك فى حاجة إلى عونك .

كان يعرف هذه الحقيقة ، وهذا ما دعاه إلى أن يحضر إليها الساعة ، ولكنه أحس كأن كلماتها وخزات إبر تخز كبرياءه ، ليتها لم تجبه بها فى صراحة ، فما أكثر الحقائق التى نعرفها عن أنفسنا ولانحب أن نسمعها من الآخرين ! فارتبك قليلا ، ولكنه ما كان ليسمح لارتباكه أن يفوت عليه فرصته ، فقال :

— ولقد جئت التمس من خالى أن يعاوننى على الالتحاق بوظيفة فى الحكومة .

فقالت خالته وهى تنهض :

— إنه هنا . انتظر حتى أحادثه فى هذا .

وتركته وحده فى الغرفة ، فراح يعبث بأصابعه ، ويصلح رباط عنقه ، ويقلب وجهه فى الستائر وفى المقاعد والثريا الفاخرة ، ويتطلع إلى وجهه فى المرآة ، وأحس حركة قريبة ، فرنا صوب الباب ، فإذا بخالته وزوجها قادمين ، فنهض يصافح الرجل الغنى .

جلس بهاء بك ، وكان يرتدى جلبابا أبيض ، وقال :

— خيرا ؟

فقالت جليلة :

— نال لبيب الكفاءة ، وقد جاء لتلحقه بوظيفة فى الحكومة ، يعجبنى فى لبيب عقله ، فهذا خيرمايفعله ، أمه فى حاجة إلى عونه .

اضطرب لبيب ، وشعر الدماء تتدفق حارة إلى رأسه ، قالتها مرة ، فما الذى يضطرها إلى أن تعيدها على مسمع رجل غريب ، إنه يستشعر أن ذلك تعريضا بأبيه ، وما كان زوجها أفضل من أبيه يوما ، لولا ذلك الحظ الذى يرفع ناسا ويحط آخرين ؟

وأراد أن يقتل ذلك الاضطراب الذى ولد فى صدره ، فرفع عينيه ، ونظر إلى زوج خالته ، فألف نفسه يدقق فى تلك الحفر المنتشرة فى وجهه ، وخشى أن يفطن الرجل إلى ذلك ، فأطرق ، وأرهف سمعه ، قال بهاء بك :

— ولماذا لايعمل لبيب عندى ؟ ما أكثر السرقات فى الدائرة ، إننى أريد رجلا أمينا أثق فيه يحافظ لى على مالى ، ولن أجد من هو أفضل من لبيب .

فقالت جليلة فى حماسة :

— هذا جميل !

وخاضا فى الحديث ، ومادار حول مايكسبه لبيب من ذلك التوظيف ، بل كان يدور حول مايجنيانه ومايعود عليهما من توظيفه فى الدائرة ، لم ينسيا نفسيهما حتى فى هذه اللحظة التى هرع إليهما قريب يلتمس النصح والمساعدة .

وعين لبيب فى الدائرة ، فجمع حوائجه ، وغادر الإسكندرية وسافر إلى دمنهور، ولم يدر بخلد جليلة أن ذلك السفر سيبعده عن أهله ، ويبتلع أغلب مرتبه ، ولن يمكنه من أن يمد يد العون إلى أمه ـ التى تظهر إشفاقهاعليها ـ إلاباالنذر اليسير!

ـ ٢٩ ـ

انقطعت المواصلات بين القاهرة والإسكندرية ، وانطلقت المظاهرت تهتف بسقوط الاستعمار ، وتهاوى الشهداء صرعى برصاص الغاصب الظالم ، مسجلين بدمائهم صفحات فى قصة الكفاح ، إنها الثورة .

دبت فى البلاد روح جديدة ، روح فتية قوية ، بعثت الحياة فى الشعب الذى استنام للظلم ، ثم هب من رقاده يزأر فى وجه المستعمر ، ويبذل الدماء ، ليتنسم نسيم الحرية .

وسرى البعث فى الحارة ، فراح الغلمان يجتمعون فى الخربة يرددون الهتافات التى دوت فى البلاد ، ويرتلون الأناشيد الحماسية ، حتى النجرو الذى لم يكن له هم فى الحياة إلا سرقة الأقطان من الميناء ، عزم على أن يشارك الأمة فى ثورتها وكفاحها ، فشرد يفكر فنبتت فى ذهنة فكرة شيطانية :

وتلفت فى الحارة ، فألفى زكريا فى طريقه إلى المسجد ، ليصغى إلى الدروس التى يلقيها الشيخ بين العصر والمغرب ، فخف إليه واستوقفه ، وقال له :

ـ ما معنى « بنت » بالإنجليزية ؟

فرمقه زكريا فى شزر ، ثم قال :

ـ Girl

فطفق النجرو يقول وهو يهز رأسه ، ويبتسم فى خبث :

ـ جيرل .. جيرل ..

وابتعد وزكريا يتبعه بنظرة مدهوشا ، لايفقه شيئا ، ثم ينطلق فى طريقه إلى المسجد .

ووفد الليل ، وخيم الظلام وساد الكون سكون مريب ، وخرج النجرو يضرب

فى الحارة ، ثم ينساب فى الطرقات الهادئة التى لم يكن يعكر صفوها إلا وقع أحذية الجنود الإنجليز الثقيلة .ودنا من جندى وهويبتسم ، فتلألأت أسنانه فى رقعة وجهه الأسود ، وبرقت عيناه ، فرمقه الجندى فى حذر، فهمس النجرو وقد اتسعت ابتسامته ، وزادت تألقا :

ـ بنت ؟ جيرل ؟

فرفت على شفتى الجندى ابتسامة ، وهز رأسه موافقا ، وقد مات حذره، فأشار إليه النجرو بأصبعه أن يتبعه ، وسار النجرو مفتول العضل كالنمر الأسود ، وانطلق الجندى فى أثره على بعد خطوات منه .

خلفا الطريق الممهد الواسع ، ودلفا إلى الحارة ، وشاء النجرو أن يتبسط مع الجندى حتى يسكن الطمأنينة قلبه ، ولكنه لم يعرف من الإنجليزية إلاتلك الكلمة التى تعلمها ، فالتفت إلى الرجل النحيل وقال :

ـ جيرل ؟

وضم أصابعه وقبلها ثم بسطها فى شدة ، وكان ذلك كافيا ليفهم الرجل أن الفتاة التى يقوده إليها جميلة ، رائعة الحسن .

واقتربا من الخربة ، كان الظلام ثقيلا لا تقوى على زحزحته تلك الأضواء الواهنة المنبعثة من المصابيح المدلاة على وجوه المنازل ، وكانت الحارة غارقة فى الصمت ، فقد لاذ الناس بدورهم عقب مغيب الشمس .

وسحب النجرو هراوة كان يخفيها عند حافة الخربة ، وفى مثل لمح البصر هوى بها على رأس الجندى ، فترنح وسقط على الأرض ، فانقض عليه النجرو يوسعه ضربا حتى إذا اطمأن إلى أنه قد غاب عن الوجود ،، راح يمد يده يفتش جيوبه .

أخرج حافظة كبيرة ، أخذ مافيها من نقود ، وصور فتاة إنجليزية ، ثم أعاد الحافظة سيرتها الأولى ، وراح يخلع الساعة من يد فريسته ، ثم يلفها حول معصمه الأسود ، ويتطلع إليها مزهوا ولما انتهى من سلبه حمله على ظهره ، وخرج من الحارة يترقب ، حتى إذا بلغ الطريق العام ألقاه فيه ، وعاد إلى وكره مسرورا ، وقد بيت العزم على أن يستأنف مغامرته كل ليلة ، فهى مغامرة رابحة لذيذة تملأ جيبه

نقودا ، وتتيح له المساهمة فى الكفاح والثورة !

ـ ٣٠ ـ

أقيمت الأراجيح فى الخربة ، فهرع الأولاد إليها يتسابقون ، وارتفع صياحهم، وامتزج بصراخ الأراجيح وأناتها ، فدوت الحارة بالجلبة ، وتقضى النهار فى ضجيج وعجيج ، وأقبل الليل ولم يفد فى ركابه الهدوء ، فقد ولى هاربا أمام جحافل الصبيان الذين انتشروا كالجراد يحملون مصابيحهم الملونة ، يرددون أناشيد الوداع لرمضان .

وفاحت فى الحارة رائحة السمن المقدوح ، وسرى الفتية والفتيات فى الضوء المنبعث من مصابيح الدور والمصابيح التى تتحلق المئذنة يحملون صاجات الكعك، كانوا فى غدو ورواح ، الفرن قبلتهم ، والغبطة تفعم القلوب ، فلاحت فى الجو تباشيرالعيد .

وهبط خالد إلى الحارة يشاطر الأولاد لهوهم وصياحهم ، فهبط جلال فى أثره فما كان يفارقه ، وقبع زكريا فى البيت وانفرد بنفسه ، وراح يتذكر أحاديث الصوم التى يسمعها فى المسجد ، كان يحس راحة كلما عاش فى فكره .

نظر جلال إلى المصابيح الملونة التى تترجح فى أيدى الأولاد ، فتعلقت عيناه بها ، وهفت نفسه إلى أن يحمل مصباحا يطوحه فى يده ، واستبدت به شهوته حتى تغلبت على تردده ، فتقدم من غلام وقال له :

ـ أعطنى مصباحك أحمله قليلا .

فرفض الغلام وأعرض عنه ، فألحف جلال فى الطلب . وضاق به الغلام فدفعه بيده ، فسقط جلال على الأرض يبكى بصوت عال ، فانقض خالد على الغلام يضربه ثأرا لأخيه دون أن يسأل عن السبب ، كان قويا ، فكان يعتمد على قوته ، ويحسب أن كل شىء يؤخذ قهرا .

لم يقو الغلام على دفع أذاه ، ولم يستطع أن يبادله ضربا بضرب ، فما إن

هجم عليه حتى ارتطم بالأرض ، وطار مصباحه بعيدا ، وقام الغلام يرمقه شزرا ولم يفكر فى أن يلتحم معه فى شجار وإن نبت فى صدره حقد ، وغالب دموعه المترددة فى مقلتيه .

وخف جلال إلى المصباح وحمله ، وجاء به إلى الغلام وقال له :

ـ خذ مصباحك .

فجذبه من يده فى شدة ، ودار على عقبيه ، وانطلق لايلوى على شىء.

وشردت صفية ببصرها ، لم تفكر فى الكعك ، فما كان يخطرعلى بالها مثل ذلك الترف ، فهى مشغولة بتدبير الخبز والطعام لهؤلاء الذين تعلقوا بعنقها ، وهى مشغولة بأمركساء تلك الأنفس التى كانت تزيد فى كل عام نفسا .

وها هى ذى روائح العيد تعبق فى الجو ، فشردت تفكرفى ثياب أبنائها، إنها تحب أن تدخل الفرحة على قلوبهم الغضة . ولو كان عندها مال لاشترت لهم جميعا ثيابا جديدة ، ولكن رزقها يأتيها يوما بيوم ، وما كانت تدخر شيئا .

وانتقت ثوبا من ثيابها ، ووضعته جانبا ، لتصنع منه ثوبا لتحية ، وراحت تقلب ثياب أبنائها ، فرأت أن تعطى حلة زكريا لخالد ، وحلة خالد لجلال ، وثياب جلال لسعيد ، وأن تشترى لزكريا حلة جديدة .

وأطرقت تفكر فى المال الذى تشترى به تلك الحلة ولم يبق على العيد إلا أيام ثلاثة ، فقر رأيها على أن تدخر جزءا من ذلك الرزق اليومى الذى يمنحها إياه على، وإن كانت تعلم أن ذلك على حساب البطون الخاوية ..

وجلست ترقب عودة على ، وهى ترجو مخلصة أن يكون الله قد وسع عليه رزقه فى هذا اليوم ، حتى تتمكن من شراء الحلة دون عسر، ودون أن تلجأ إلى توفير ذلك المبلغ من أفواه أبنائها .

وسمعت وقع أقدام فى الدرج ، واتضح الصوت واقترب ، فتيقنت من عودة زوجها ، فهرعت إلى الباب وفتحته ، فدلف على منه وهو يجر خلفه زكيبة ، فرمقته صفية مستفسرة ، فجذب الزكيبة من نهايتها ، فتدحرج بطيخ كثير فى الردهة فقالت له صفية فى دهش :

- ما كل هذا ؟

- رأيت هذا البطيخ أثناء عودتى فأعجبنى ، فاشتريته .

فقالت له فى لهفة :

- بكم اشتريته ؟

فقال فى بساطة :

- بكل مارزقنى الله به فى يومى .

تقوض حلمها ، فلن تستطيع أن تشترى لزكريا الحلة الجديدة ، وزاد كربها فقد صار عليها أن تدبر أمرالقوت الضرورى لغدها ، فانتشرت فى صدرها موجة من الأسى ، ولكنها لم تحقد على زوجها ، ولم تعاقبه ، فقد راضت نفسها على أن تنظر إليه نظرتها إلى ابن من أبنائها ، ترضى عن حسناته ، وتغفر له هناته ، وتلتمس المعاذير لتصرفاته ، وإن كانت تلك التصرفات تزيد فى متاعبها وتنقض غزلها .

- ٣١ -

جلس النجرو فى المقهى الصعيدى ، يحتسى كوبا من الشاى ، ويتحدث مع أصدقائه ، يروى لهم فى زهو مغامراته مع الإنجليز ، فتطلعت إليه العيون فى إعجاب ، فملأه إنصات الرفاق إليه غرورا فنسى دمامته ، وراح يقول :

- لم يشف غليلى ما فعلته برجالهم ، فغزوت قلوب نسائهم إمعانا فى إذلالهم .

فقال رجل فى إنكار :

- حقا ؟

فقال النجرو وهو يشمخ بأنفه ، ويمد يده فى جيبه :

- وهاكم الدليل .

وأخرج صورة الفتاة الإنجليزية ، ودفعها لرفاقه ، فراحوا يتخطفونها وينعمون

النظر فيها وقد برقت العيون ، وأثلج صدر النجرو ، وانبسطت أساريره ، فقال وهو يتظاهر بالشرود :

- فتاة لذيذة !

فقال له صديق :

- وأين قابلتها ؟

- فى الطريق ، سألتنى عن شارع ، فقدتها إليه ، وفى أثناء عودتها قابلتنى فى نفس الطريق ، فابتسمت لى ، فشجعنى ذلك على السير معها حتى إذا بلغت دارها دعتنى للدخول . قدمت لى شرابا لذيذا أدفأنى ، وسيطر على ، وأطار التعقل من رأسى ، فضممتها إلى . أمضيت معها ليلة من ليالى العمر لن أنساها .. أعطتنى هذه الصورة عربونا للصداقة ، وواعدتنى اللقاء ، إنها لاتطيق فراقى من تلك الليلة .

وشرد بصره ، وابتسم فى راحة ، كأنما ينفعل للرؤى الموهومة . وقطع حبل استرساله فى أحلامه صوت صديق يسأله :

- وما اسمها يانجرو ؟

فقال فى بساطة :

- جورج .

قال أحد الحاضرين :

- ولكن هذا اسم رجل !

فقال النجرو فى ثقة العالم :

- إنهم لايفرقون بين أسماء رجالهم وأسماء نسائهم .

وهب النجرو واقفا ، فارتفع أكثر من صوت :

- إلى أين ؟

فقال وهو يغمز بعينيه ، وقد انفرج فمه الأدرد عن أسنانه الصفر :

- إليها .

وانساب النجرو فى الحارة ، وهو يغمغم بالنشوة ، دغدغت حواسه نظرات

الإكبار التى كان رفاقه يرمقونه بها ، ومر على حليمة وهى جالسة فى ثوبها الأسود جلستها الخالدة ، فهى قانعة بها لاتريم ، كأنما أصبحت من معالم الحارة الثابتة ، فدنا منها وقال متغزلا :

ـ مساء الخير ياجورج ، ياقمر .

فغضت حليمة من بصرها ، وأخذت توارى بكمها تلك البسمة التى ولدت على شفتيها .

وانطلق النجرو يبحث عن جندى إنجليزى يصطاده ، ويسلبه ما معه ، وما إن بلغ نهاية الحارة حتى انبعث من جوفه صوت يردد : « جورج ، بنت ؟ .. جيرل ؟ جورج ! بنت ؟ . جيرل ؟ . » وهز رأسه لشبح جندى تراءى لخياله أن اتبعنى ،

وتصرم الليل ، وعاد النجرو إلى وكره فى الخربة يحمل أسلابه ، وما إن مس جنبه الأرض حتى راح فى سبات ، وفيما هو نائم رأى جورج مقبلة عليه وقد رفت على ثغرها الوردى ابتسامة حلوة ، وارتمت فى أحضانه ، وغابا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة .

وهب من نومه ، وقلبه يخفق فى نشوة ، والرؤى العذبة التى داعبته فى حلمه تملأ حواسه ، وتغرقه فى بهجة لم يذق لها من قبل طعما ، فشعر بإحساسات رقيقة تسرى فى جوفه ، فعجب لأمره ، حتى كاد ينكر نفسه .

ومد يده فى جيبه فى رفق ، وأخرج الصورة فى حنان ، وجعل يرنو إليها فى وله ، فخفق قلبه خفقات حب ، فرفع الصورة إلى فمه وقبلها . ثم ضمها إلى صدره وهو يغمغم :

ـ حبيبتى جورج .

وانقضى النهار وهو سابح فى أوهامه ، أسند ظهره إلى قائم الأرجوحة وتعلق بصره فى السماء ، يفكر فى حلمه ، وينسج من خيوط الخيال مشاهد حبيبة إلى قلبه ، ويحلق فى عوالم وردية من التصورات ، حتى إذا أهيض جناح خياله ، رنا إلى الصورة ، وانهال عليها لثما وتقبيلا .

وصار الشفق فى غيبوبة ، وهو مستسلم لأحلامه ، وعتم الليل وهو شارد

البصر ، وانبعث من العالية أضواء ، ودوى المكان بأصوات الدفوف والصنوج ، وأقبلت « الزفة » تتهادى وأخذت تهبط الحارة ، وهو فى ذهوله ، لا يحس ما حوله.

وتقدم الركب حتى إذا بلغ المقهى الصعيدى ، وقفت الموسيقى تصدح بالسلام تحية للصعايدة ، فانضم الصعايدة إلى الفلاحين وانطلقوا معهم مستبشرين يشاطرونهم فرحهم ، كانت هذه أول « زفة » تمر فى الحى بسلام ، دون أن تتقارع الهراوى ، وتتطاير الكراسى ، ويستدرج الصعايدة إلى الكمين ، لتلقى فى وجوههم الزجاجات المملوءة بالرمل والزلط ، فقد نامت الحزازات ، ووئدت النعرات ، واتحد الجميع لكفاح الغاصب الدخيل ، كانت هناك ثورة ، وحدت الصفوف ، وصهرت النفوس ، ومسحت من الصدور الأحقاد .

ـ ٣٢ ـ

غصت الغرفة بالفتيات وصغار الأولاد ، ويحمل كل منهم فى يده قطعة من القماش وقد امتلأ صدره بشرا ، فراح يثرثر فرحا ، يقص ما يتمنى أن يفعله فى العيد ، وهو فى ثوبه الجديد ، كانوا نسل الشيران هرعوا إلى صفية لتفصل لهم ملابسهم ، فهم يلوذون بها جميعا كلما وفد عيد ، أو جاءت مناسبة تستدعى ثوبا جديدا .

وأكبت صفية على « آلة » الخياطة ، تدير عجلتها بيد ، وتحرك الثوب تحت الإبرة الصاعدة الهابطة ، وهى ترقبه فى انتباه ، ومشى التعب إلى يدها ، فالتفتت إلى صبى قريب منها ، وقالت له :

ـ أدر العجلة .

فارتفعت أصوات الجميع مدوية فى الغرفة :

ـ أنا يا امرأة خالى ، أنا يا امرأة خالى .

وتدافعوا على يد الآلة ، يحاول كل منهم أن يفوز بها ، وارتفع صياحهم حادا ، فأحست صفية كأن أعصابها تتمزق ، فقالت فى حدة:

ـ لا أنت ولاهو ، سأديرها بنفسى .

كان أهون عليها أن تتحمل ذلك التعب الذى تحسه يدب فى أوصالها ، من ذلك الصراخ الذى يحطم أعصابها ، وانسحب الأولاد إلى أماكنهم ، ولزموا الصمت برهة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكبحوا شهوة الكلام فى نفوسهم ، فصاحت فتاة :

ـ أريد حزاما لثوبى .

فأغرى ذلك الجميع بأن يفصحوا عن رغباتهم ، فارتفعت الأصوات :

ـ أريد جيبا على صدرى .. أريد وردة .. أريد أزرارا حمراء كبيرة ، أريد .. أريد .. أريد .

وامتزجت الأصوت حتى صارت دويا ، ودار رأس صفية ، فصاحت :

ـ هس .. هس ..

وساد السكون ، ولكن كيف يطيق الأولاد الركون إلى الهدوء ، فتقدمت فتاة إلى طرف الثوب المتدلى بعد الإبرة ، وأخذت تجذبه ، ، وصاحت فتاة أخرى محتدة فهى لاتجد مكانا تجلس فيه ، وتشاجرت فتاة مع غلام ، لأنه استولى على مكانها ، وتحملت صفية ، وجاهدت لتكبت غيظها .

ولمح صبى تلك الفتاة الواقفة قبالة امرأة خالها ، تجذب القماش فى رفق ، لتعاون « الآلة » على أن تمر فى سرعة . فهفت نفسه أن يفعل مثلها ، فانسل فى خفة ، وذهب إليها ، وجذب معها القماش فى قوة ، فكسرت الإبرة ، وانفجر مرجل غضب صفية ،

فصاحت محتدة :

ـ الله يلعنكم أولاد شياطين .

وكأنما اضطهد الغلام لغير ما ذنب فبكى ، وكأنما لم تكن دموعه كافية للاحتجاج على ذلك الظلم ، ، فصرخ وهو ينشج بالبكاء ، ليبلغ صراخه مسامع أمه ، فتهب لنجدته ، فقامت صفية تربت عليه ، وتمنيه الأمانى ، حتى كف عن النحيب ، ولوتجاوبت مع نفسها ، وكانت صادقة مع مشاعرها ، للطمته على وجهه ، ونفست عن ذلك الكرب الذى يضيق به صدرها .

وتم ثوب ، فتقدمت صاحبته وارتدته ، ونظرت صفية إليها وقالت :

ـ الله . جميل ، هيه ؟

نقطبت الفتاة جبينها ، ومطت شفتيها ، وهزت كتفها استياء ، فقالت لها صفية :

ـ ألايعجبك ؟

ـ ثوب تحية أجمل منه .

فقالت صفية فى دهش :

ـ إنه لايفترق عن ثوب تحية .

ـ لا.. جعلت لتحية جيبين ، وليس لثوبى إلا جيب واحد .

وراحت صفية ترضى هذه وتنفذ رغبات ذاك ، وتتحمل صراخ الجميع ، وتصرم النهار ، وانقضى من الليل ثلثه ، فأحست رأسها يدور، وراحت الأشياء تتراقص أمام عينيها ، فالتفتت إلى الأولاد الباقين فى الغرفة ، وقالت :

ـ تعبت عيناى ، هجم الليل ، غدا أقص لكم ثيابك فى النهار.

فقام الأولاد ، وانسلوا من الغرفة صامتين ، وانصرفوا وهم يحسون مرارة ، وراحوا يهبطون فى الدرج غاضبين ، ولم تستطع فتاة أن تكتم غيظها، فأجهشت بالبكاء ، فهرعت إليها عزيزة تستفسر بصوت عال :

ـ مالك ؟ ماذا جرى ؟

ـ فصلت امرأة خالى ثيابهم جميعا ولم تمس ثوبى .

فقالت عزيزة فى انفعال :

ـ مال بختنا فى هذا البيت ، لم يعد أحد يحسب لنا حسابا .. سقطنا فى القاع .

وأخذت عزيزة ابنتها فى يدها، وراحت تصعد فى الدرج وهى ترغى وتزيد ، حتى إذا دخلت على صفية صاحت :

ـ أيعجبك هذا ؟ أيرضيك أن تنام البنت وهى حزينة ؟! لماذا كسرت خاطرها؟! آه لأنها ابنتى ، فلو كانت بنت زهيرة لفصلت ثوبها أول ثوب ، ليس لنا فى البيت

حبيب .

ولم تنبس صفية بكلمة ، تناولت الثوب ، وراحت تفصله ، فما ستقاسيه من جهد أخف من وخزات لسان عزيزة السليط ، فأكبت على الثوب ، وهى تكاد تسقط من التعب .

ـ ٣٣ ـ

هبط النجرو من الخربة زائغ البصر ، يتلفت فى شرود ، ثم يقطب جبينه ويغمغم ويطوح يده فى الهواء فيزداد وجهه عبوسا ، وسار يتكفأ ، حتى إذا بلغ حليمة ، رنا إليه فى حب ، وانبسطت أساريره ، ودنا منها خافق القلب ، ثم قال فى رقة :

ـ لماذ لم تأت يا جورج ؟ انتظرتك الليل الطويل .

نظرت إليه حليمة ، فلما رأت حدقتيه قد اتسعتا ، وقد اتسمت ملامحه بالجد اضطربت ، ولم يفطن إلى اضطرابها ، وراح يقول :

ـ أعرضت عنى لأننى فتحت لك قلبى ، أنسيت ياجورج تلك الليلة التى داعب فيها شعرك الأصفر وجهى ؟ إذا كنت ياجورج قد محوت ذكراها من رأسك ، فلن أنسى ماحييت نظراتك الحارة المنبثقة من عينيك الزرقاوين ، لقد أثرت تلك الليلة فى قلبى ، حتى الموت لن يستطيع أن يمحو مشاهدها من نفسى .

ودق قلب حليمة خوفا ، وزاد فى خوفها ذلك الليل الوافد وذلك السكون الذى ران على الحارة ، فثبتت فى مكانها برهة . خشيت إن فرت من أمامه أن ينقض عليها . وازداد قربا منها ، حتى أحست أنفاسه الحارة تلفح وجهها ، وراحت الكلمات تتدفق من فمه .

ـ أحببتك يا جورج ، أحببتك من كل قلبى ، لا أستطيع أن أعيش وأنت بعيدة عنى ، تعالى ياجورج .. تعالى معى .

ومد يده يجذب حليمة ، ففزعت وهبت منتصبة ، وقلبها يخفق فى شدة ،

وهمت بأن تصرخ ، ولكن مات صوتها على شفتيها ، ولمحت شبحا قادما ، فأسرعت نحوه تحتمى به، واتضح الشبح لعينيها فإذا به على ، فلما رآها حياها :

ـ مساء الخير ياحليمة .

فقالت وهى تغذ السير :

ـ مساء الخير يا سيدى .

ورنت تحية على لحليمة فى أذنى النجرو غريبة ، فراح يرمق عليا فى إنكار ، فلما غاب عن عينيه ، قال فى إشفاق :

ـ ياللمجنون الذى لايعرف جورج .. حبيبتى جورج .

وعاد النجرو إلى الخربة ، ينظر فى شرود ، ويتحدث إلى شبح حبيبه الماثل لعينه على الدوام ، فى الليل وفى النهار .

ودخل على على صفية ، وما إن جلس حتى قرأت فى عينيه رغبة فى أن يفضى إليها بنبأ ، كان بسيطا ، فكانت دخيلة نفسه تقرأ على وجهه ، فقالت :

ـ هيه ؟

فقال وهو يبتسم :

ـ قابلت الحاج كرم اليوم .

ـ وكيف حاله ؟

ـ بخير .

ثم اعتدل ، وتأهب ليفضى إليها بالنبأ ، وقال :

ـ وقد عرض على أن أشتغل عنده .

وصمتت صفية ، ولم تنبس بكلمة ، كانت فى قرارة نفسها تشتهى أن يجد زوجها عملا ، ولكنها لم تشأ أن تدخل بينه وبين أبيها، وأراد أن يخرجها من صمتها ، فقال :

ـ ما رأيك ؟

ـ ليس لى رأى فى هذا .

فقال وهو يبتسم :

ــ قبلت عرضه بعد أن ألح على .

وشاء أن يطمئنها إلى أنه لن يعمل أجيرا إلا لفترة قصيرة إلى أن يستعيد تجارته ، فقال :

ــ لن أمكث عنده طويلا ، فقد تيقنت اليوم أن الحكومة رصدت المال اللازم لشق الشارع الجديد ، إنها شهور قليلة وترتفع بعدها قيمة هذا البيت ، سأبيع يومها نصيبى فيه وأستأنف تجارتى ، ولن أبخل بمال أنفقه فى تربية أولادى ، إننى أكاد أشم رائحة الرخاء ، ستعود إلينا السعادة .

واسترسل فى أحلامه ، وقد عجز عن أن يرفع صفية معه لتحلق فى دنيا الأوهام، شدها الواقع إلى الأرض ، كانت تدبر إنفاق ذلك الدخل الثابت الضئيل على بيتها ، ذلك الكراء الذى حدده أبوها لزوجها ، والجنيهات الثلاثة التى يبعث بها لبيب فى أول كل شهر ، مشاركة منه فى أعباء الأسرة .

ـ ٣٤ ـ

استيقظ أبناء صفية فى البكرة ، وأسرعوا يرتدون ثياب الخروج مستبشرين ، فاليوم يوم زيارة جدهم ، وهم يحبون ذلك اليوم ، للعطف الذى تسبغه عليهم جدتهم ، بعيدا عن عينى الحاج كرم ، الذى كان يلومها ، كلما رآها تسرف فى إطعامهم ، خشية أن تتلف الكظة بطونهم !

وتأهبوا للانطلاق ، فأمرت صفية تحية وزكريا وخالدا أن يسبقوها إلى هناك، فتعلق جلال بهم ، فقال له خالد :

ــ اذهب أنت معهم ، وسأبقى مع أمى آخذ بيد سعيد ،

وراح خالد يدور حول أمه ، فقد كان يدور فى رأسه سؤال يخشى أن يفصح عنه ، وأخيرا جمع أطراف شجاعته ، ورنا إلى أمه وقال :

ــ لماذا لا يعطينا جدى قرشا نشترى به حلوى ؟

فقالت له زاجرة :

ــ هس .

وفكت عقدة لسانه ، فقال :

ــ أجدى بخيل ؟

ــ هس ، اخرس .

ــ عمتى عزيزة تقول إنه بخيل .

فقالت فى انفعال :

ــ قلت لك : اخرس والاضربتك ، إياك أن تعود إلى هذا ، وإياك أن تنقل كلاما سمعته .

ورأى الغضب فى وجهها ، فصمت على كره منه ، كان يود أن يعيد على مسامع أمه ماسمعه من عمته عن جده ، لا حبا فى نقل الحديث ، بل لأن ذلك الكلام يصادف هوى فى نفسه ، فلو أن جده أعطاه قرشا كلما زاره ، لأغضبه تعريض عمته به ، ولو أنه أعطاه برتقالة من ذلك البرتقال الكثير الذى يوضع أمامه ليأكله وحده ، دون أن يخشى على معدته ، لثار فى وجه عمته كلما ذكرته بسوء ، ولكنه كان يرى فى سخرية عمته به ، وتندرها ببخله ظلا من الحقيقة ، فكان يصغى إليها دون أن يغضب أو يثور .

وبلغوا دار الحاج كرم فاندفعوا مهرولين ينقبون عن جدتهم ، حتى إذا وجدوها ، التفوا بها فرحين مهللين ، فاستقبلتهم فى بشاشة ، وجمعتهم حول مائدة فى المطبخ ، وقدمت لهم الفطور فأكبوا عليه مسرورين ، كان الطعام أحب شىء إلى نفوسهم فى ذلك البيت الكبير .

وجلست صفية إلى جليلة ، وأخذتا فى الحديث ، قالت جليلة :

ــ بهاء مسرور من لبيب ، انتظمت الدائرة ، وقلت السرقات ، إنه لا يذكره إلا بالخير، كان عمله عندنا كسبا لنا ، إننى أحب لبيب ، فهو رجل يقدر المسئولية ، وأرجو أن يقدر أولادك الظروف كما قدرها .

انتشرت فى صدر صفية موجة من الكدر، فكلام أختها يخز روحها وخزا أليما ، فإذا كانت الحاجة اضطرتها إلى أن تقبل أن يحمل لبيب على عاتقه الغض

بعض أعباء الأسرة . فلن تسمح أبدا أن يخرج أبناؤها إلى معترك الحياة قبل أن يشتد عودهم ، وأن تسلحهم بأسلحة ماضية تيسر لهم شق الطريق ، ستتحمل العبء كله وحدها ، ستجد وتصبر ، حتى تأخذ بأيدى أبنائها إلى السبيل المفروش بالآمال والوعود ، ولو اضطرت إلى أن تشد على بطنها حجرا، لتسكت ألم الجوع .

وانقضى النهار ، وآب الرجال إلى البيت ، فخف أبناء صفية إلى أخوالهم يتوددون إليهم ، فقابلوهم فى فتور ، كانوا ينظرون إليهم كثمرة صفقة خاسرة ، وزاد فى نفور الأخوال منهم ، أن أباهم أصبح عندهم أجيرا.

ولمحوا أبناء جليلة ، فانبسطت أساريرهم ، وذهبوا إليهم يداعبونهم ، ويضمونهم إلى صدورهم فرحين ، فهم يضمون إلى أفئدتهم آمالا عزيزة ، فكل طفل منهم يبدو لأعينهم الحاسبة ألوفا وفدادين .

ولمح خالد درية ابنة خاله تحبو، ففرح بها ، وذهب إليها وحملها ، وضمها إليه وهو يحس فى أعماقه أنه يحمل شيئا ملك يمينه ، فاستشعر راحة ، ولو خطر على قلب خاله مايدور بخلد الغلام ، لخطف الطفلة من ذلك الفقير ، خشية أن ينتقل الفقر إليها بالعدوى !

ـ ٣٥ ـ

إسماعيل سائر فى الحارة بجسمه ، تائه عما حوله بالرؤى العجيبة التى يمده بها ذهنه الذى خدرته قطعة المنزول . ومس أذنيه صوت المؤذن بالعصر رقيقا كحلم جميل ، فأغراه بدخول المسجد ، والجلوس عند المحراب فى خشوع ، وطاف برأسه لحن ماجن ، فجعل يردده فى أعماقه ، وامتلأ نشوة . فهز رأسه ذات الشمال وذات اليمين ، ثم أخذ يهتز بكل جسمه ، حتى إن من يراه يحسبه غارقا فى التسبيح .

ونودى على الصلاة ، فقام الناس ، وعرضوا على إسماعيل أن يصلى بهم ، أغراهم هدوؤه وخشوعه وتسبيحه ، فتقدم يؤم المصلين فى وقار، وصلى بالركعة

الأولى ، ووقف يفتتح الركعة الثانية ، فصور له خياله أن الصلاة طويلة طويلة ، لن تنتهى ، فسلم وهو واقف ، وخرج من الصلاة ، والتفت إلى من خلفه وقال :

ـ لاتؤاخذونا ، أتموا صلاتكم رحمكم الله .

وتقدم رجل يؤم المصيلن ، فحسبه قد تحرك ليشيعه حتى الباب ، فقال له :

ـ متشكر . لاتتعب نفسك ، أعرف الطريق .

وانطلق فى الحارة ، فلما بلغ الدار ألفى حليمة رابضة فى مكانها ، إنه يراها فى غدوه ورواحه ، فخيل له وهمه أنها لا تريم ، حتى خطر له أن يمد يده يتحسسها ، فمن يدرى فقد تكون تمثالا ، ولكنه عاد وأحجم ، وقال وهو يدخل من الباب .

ـ السلام عليكم يا أم الهول .

فنظرت إليه فى دهش ، ثم راحت تنظر إلى نفسها . لعلها تجد ماتنكره ، فلم تجد شيئا ، إنها هى حليمة ، فى ثوبها الأسود . وطرحتها التى كلح سوادها ، فما بال النجرو يأتى إليها بهذيانه يدعوها جورج ، وما بال إسماعيل يدعوها اليوم أم الهول ؟! وشغلت بالتفكير فى ذلك ، حتى كادت تدعو جارا تسأله عما طرأ عليها من تبدل أو تغيير.

وصعد إسماعيل إلى شقته ، فإذا بجلبة صياح ، وإذا بزوجته عزيزة وأختها زهيرة واقفتان تتحدثان ، فقال :

ـ ماشاء الله .. ما شاء الله ! البيت دائما نابض بالحياة .

فقالت زهيرة وهى ترنو إلى أختها من طرف عينها :

ـ قبل سيد وسليمان وزكريا وخالد فى المدرسة الابتدائية

فقالت عزيزة وهى تلوى فمها فى استخفاف :

ـ ياوكسة ! لماذا كل هذه الضجة ، أفتحت لهم أبواب الدواوين ، والله لو أنصفوا لأراحوا أنفسهم من تعب القلب ، إنهم من العنابر ، وليس لهم عيش إلا فى العنابر .

فقالت زهيرة فى نعومة :

ـ حرام ياعزيزة ، من يدرى ؟!

وفطنت عزيزة إلى أن أختها تقول لها : « استرسلى » فقالت :

ـ أبى من العنابر وأزواجنا من العنابر ، وأولادنا للعنابر ، فلو أنصفنا لأعددنا لهم من الآن الشياب الزرق ، بدل المدارس وتعب القلب .

فقالت زهيرة لتلقى على الحديث نارا :

ـ لاأظن أن صفية ترضى أن تشغل أبناءها فى العنابر .

فقالت عزيزة فى سخرية :

ـ إذا كانت لاترضى بالعنابر ، فدكاكين الحدادين والنجارين والحلاقين واسعة .

وراحت عزيزة ترسم لصفية وأولادها المستقبل الذى يترقبهم ، لم يكن فيه بصيص من نور ، وزهيرة تصغى إليها متلذذة وإن تظاهرت بإنكار الحديث والإعراض عنه خوفا من الله ورهبة !

وكانت صفية فى شقتها تحاول أن تثنى خالدا عن تصميمه الخاطىء ، قبل فى المدرسة مجانا ، وقبل زكريا بالمصروفات . فرأى أن يحتج على ذلك القرار ، ولما كان يحسب أن كل شىء يؤخذ قهرا ، فقد رأى أن يؤدب المدرسة بأن لا يذهب إليها حتى تقبل زكريا مجانا مثله !

راحت صفية تبصره فى تؤده إلى خطئه ، وأن ذلك لن يعود إلا عليه وحده بالخسران ، ولكنه ركب رأسه ، فلن يحيد عما عزم عليه ، إلا إذا عادت المدرسة فى ذلك القرار.

ومر أسبوعان ، ولان لحديث أمه ، فذهب إلى المدرسة ولكن المدرسة رفضت أن تقبله إلا إذا سدد المصروفات ، فاضطرت صفية إلى أن تدفع مصروفاته ، بعد أن دفعت مصروفات زكريا ، فزاد على الأسرة عبء جديد ، كانت فى غنى عنه ، لولا رغبة خالد فى أن يقهر المدرسة ويؤدبها !

ـ ٣٦ ـ

فاطمة ترى فى نومها يونس ممدودا فى فراش أبيض .. وقد ارتدى ثوبا أبيض . تعلو وجهه صفرة ، إنه يبدوكالعليل ، يمد يده وينادى : « أشرب .. أشرب .. قليل من الماء .. أنا عطشان .. عطشان » .فلا يجيبه أحد .

وانمحت تلك الصورة ، وإذا بها ترى نفسها . تسير فى طريق قفر ، محلولة الشعر، حافية القدمين ، فى أعماقها حزن ، وسرعان ما امحت هذه الصورة لترى البحر هائجا مائجا ، يتدفق صوبها حتى يغرقها ، فترفع يديها ، وتجاهد ، لتلتقط أنفاسها .

واستيقظت من نومها مفزوعة ، يدق قلبها دقات عالية متتابعة ، تدثرها رهبة ، ويغشاها قلق ، فتجلس فى فراشها وتتلفت ، فيزيد فى خوفها ذلك الظلام الجاثم فى الغرفة ، وتحس جفافا فى حلقها ، فتنهض إلى القلة ، وترفعها بيد مضطربة ، وتصب ما بها فى جوفها ،

واتجهت إلى الشباك وفتحته ، فلفح الهواء البارد وجهها ، وأفرخ روعها ، فعادت إلى فراشها واضطجعت ، فإذا بها تفكر فى حلمها برغمها ، فتنقبض وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

وأشرقت الشمس ، وقامت فاطمة تغدو وتروح ، وهى مشغولة بحلمها ، فهو حلم قاتم يثير المخاوف ، فباتت تخشى المجهول ، وأحست رغبة فى أن تتحدث إلى أحد، لتنفس عن ذلك التشاؤم المكبوت فى صدرها ، وما إن رأت زهيرة مقبلة لتؤنسها فى وحدتها حتى قالت لها :

ـ رأيت الليلة حلما مفزعا .

فقالت زهيرة فى اهتمام :

- خيرا ، اللهم اجعله خيرا ..

- رأيت أباك مريضا ، يطلب شربة ماء ، ولايجد من يسقيه .

فأطرقت زهيرة أسفا ، ولم يكفها أن يبدو عليها ذلك الأسف الطبيعى ، فرأت أن تبالغ فى إظهار شعورها ، لتؤكد لأمها رقة مشاعرها ، إنها تحب أن تمدح ، وأن يقال عنها إنها رقيقة القلب كريمة خيرة ، لاتذكر أحدا خشية من الله ورهبة ، فقالت وهى تتظاهر بكفكفة دموعها بظهر يدها :

- سامحنا ياأبى ، فإذا كنا قصرنا فى حقك ، فإننا نستحق صفحك ، لم نذهب لزيارة قبرك ، شغلتنا الدنيا عنك ، ولكننى آتيه إليك يوم الجمعة لأسقيك .. سأسقى العطشى على روحك حتى تروى .

واستشعرت فاطمة بعض الراحة ، وهمت بأن تفضى إليها بتلك الرؤيا التى تتراءى لعينيها ، إنها ترى نفسها محلولة الشعر حافية القدمين ، وترى البحر المزمجر الهائل يغمرها ، ولكنها أحجمت خشية أن تنفخ زهيرة فى نار مخاوفها .

وعادت زهيرة إلى شقتها ، وبقيت فاطمة وحدها تعيش فى فكرها ، وبينما هى تستعيد ذكرياتها إذ سمعت طرقا على الباب ، كان متتابعا متصلا ، فانداحت فى جوفها رهبة ، وأحست قلبها يقفز ، حتى ليكاد يثب من فمها ، كانت رؤيا الليلة تستبد با ، فتتضخم انفعالاتها .

وذهبت إلى الباب مضطربة ، وفتحته ونظرت ، فاتسعت عيناها دهشا ، ثم صاحت فى صوت ملهوف :

- ابنى حسان .. حبيبى حسان .

وارتمت فى أحضان ابنها ، وراحت تقبله فى غيبوبة لذيذة ، تداعب أذنيها غمغمته :

- أمى .. أمى .

وامتزجت الدموع ، وانبثق من قلبيهما أرق الإحساسات .

وراحت تتحسسه بيدها ، إنها لاتكاد تصدق عينيها ، وظلت ترنو إليه وتهتف :

- حسان .. ابنى حسان .

وأفعمت بالنشوة ، فأخذته من يده إلى أقرب أريكة ، وقالت :

- اجلس .. اجلس ياحبيبى .

وهرولت إلى الدرج ، وهتفت فى فرح :

- على .. حسان جاء .. ثريا .. زينب .. عزيزة .. زهيرة .. إسماعيل .. تعالوا ، لقد جاء حسان .. عاد حسان .. عاد حبيبى .

وهرعت إليه تذرف دموع الفرح .

- ٣٧ -

جلس الحاج كرم فى صدر الدكان ، ووقف أولاده حوله يصغون إلى حديثه ، ويوافقون على كل مايقول ، كان يتحدث عن التجارة ، ويبصر أولاده بما يفعلون ، وجلس على على كرسى من كراسى المقهى القريب من مدخل المحل ، وأقبل زبون ، فدعاه إلى الجلوس ، ومر صبى المقهى ، فطلب على للزبون كوبا من الشاى ، وسرعان ما تذكرالحاج كرم ، فشعاره عدم تقديم مشروبات للمعاملين ، فالمحل أسس للتجارة لاللترفيه عن الوافدين ، فرمقه بطرف عينه ، فألفاه مقطب الجبين ، فمد يده فى جيبه ، وأخرج قرشا ، ودفعه للصبى ثمن ماطلب .

كان على يعرف طبع الحاج كرم ، ولكنه لم يقو على قهرطبعه ، فهو رجل مجاملات ، لايستطيع أن يقابل أحدا دون أن يحييه ، وأن يطلب له طلبا ، حتى ولو لم يكن معاملا ، وكان يدفع ثمن مايطلبه من جيبه ، وإن لم يكن ذلك ليعفيه من وخزات الحاج كرم .

وباع على للزبون بضائع كثيرة ، وتسلم منه ثمنها ، وذهب إلى الحاج ، ودفع إليه بالنقود ، فجعل يعدها فى حرص ، ثم أعادها إليه وهويقول :

- القيمة ناقصة .

فقال على فى بساطة :

- ناقصة قرش صاغ .

فقال الحاج فى صراحة :

- لانستطيع أن نترك قرشا لهذا وقرشا لذاك .

وأخذ على النقود ، ورجع إلى الزبون يعيد إليه نقوده ، وهويعجب فى نفسه من الحاج الذى يرفض سبعين جنيها ، لأنها ناقصة قرش صاغ واحد . وكان الحاج وأولاده يرمقونه فى نفس الوقت . وفى قلوبهم إنكار ، أفصح عنه أحدهم بقوله :

- لوسرنا على هواه لأفلسنا كما أفلس .

ورأى الحاج كرم أن يلقنه درسا فى التجارة ، فناداه :

- على ، تعال .

فأقبل عليه ، وهويحسب أنه يريده لتجهيز طلب ، ولكنه فوجىء به وهو يقول له فى لهجة فيها رنة تأنيب :

- ماالذى يضطرك إلى قبول ثمن البضاعة ناقصا ؟

- كانت هذه النقود كل مامع الزبون ، كانت القيمة تنقص قرشا واحدا ، فلو أننا قبلنا منه المبلغ لكسبنا سبعين جنيها وكسبنا الزبون .

فقال له الحاج وهو يضغط على الكلمات لترسب فى أذهان أولاده :

- إذا أردت أن تتصدق فلا تشتغل بالتجارة ، التجارة شىء والإحسان شىء آخر .

وثار على ، ورأى فى وجوه أبناء الحاج إعجابا وموافقة ، فزادت ثورته، وكاد ينفجر ، ولكنه كان يعرف نفسه ، فهو إذا ثار لا يبقى ولايذر ، فكبح جماح نفسه عل مضض ، حتى لايغضب صفية ولايحملها هما جديد على الهموم الكثيرة التى تحملها صابرة ، دون أن تتذمر أو تنبس بكلمة . راح على يعمل صامتا ، يأخذ النقود كاملة من المبتاعين ويدفع بها إلى الحاج كرم، وفى ذات مرة بينا كان الحاج يتناول منه النقود . إذ سقطت من كفه قطعة من ذات القرشين ، فقام يبحث عنها ، وأخذ أولاده يعاونونه دون جدوى ، ولما يئس من العثور عليها ، التفت إلى على

وقال :

- ستتحمل قرشا وأتحمل قرشا .

وحسب على أنه يمزح ، وأنه ماقال ذلك إلا ليصالحه ، وجده صامتا طوال الوقت ، فأراد أن يخرجه من صمته ، وأن يمسح ما خلفته إساءة الصباح ، ورأى على أن يجاريه فى مزاحه ، فمد يده فى جيبه وأخرج قرشا دفعه إليه ، وكم كانت دهشته لما رأى الحاج كرم يضع القرش فى صندوق النقود ، دون أن تختلج فى وجهه خالجة .

- ٣٨ -

وفد الليل ، فدبت الحياة بعد فترة قصيرة من الهدوء فى البيت الذى يدوى كخلية نحل ، فالشبان هابطون للسهر ، والنسوان على رأس الدرج يذكرنهم بأشياء يأتون بها عند أوبتهم ، فاختلطت الأصوات الحادة بالأصوات الغليظة ، فكان لها فى بئر السلم رنين ثقيل على الأذن ، فهرول الرجال فى الدرج ، للخروج من الصخب البغيض .

وفى الحارة تقابل حسان وإسماعيل ؛ سارا معا حتى إذا بلغا أول الشارع ، قال إسماعيل فى استخفاف :

- إلى أين ؟ إلى نادى الحزب ؟!

فكدرت صفحة وجه حسان موجة خفيفة من الأسى ، لم يشأ أن يستسلم لها ، فقال وقد انفجرت شفتاه عن أسنانه :

- ذاهب لأرطب حلقى بكأسين .

فقال إسماعيل ، وهويجذبه فى طريقه :

- مرحبا بالرفيق الجديد ، أنت ضيفى الليلة .

- أشكر لك هذ الدعوة ، فما كان معى مايكفينى من نقود .

فرنا إليه إسماعيل وقال :

ـ إننا لاتكرم الضيف إلا ليلة .

ـ يكفينى أن أعيش الساعة .

ـ وغدا ؟

ـ يتكفل بنفسه .

فقل إسماعيل مرتاحا :

ـ من علمك هذ الحكمة ؟

ـ قصف المدافع ، ودوى القنابل .

فقال إسماعيل مزهوا :

ـ أحمد الله أننى اهتديت إليها وحدى ، لم أرتكب فى سبيلها مخاطرة وأهوالا .

فقال حسان وقد شرد بصره :

ـ شربت لأنسى ما رأيت من فظائع ، وانت لماذا تغرق فى الشراب ، ماذا تريد أن تنسى ؟

فقال إسماعيل وقد رفت على فمه ابتسامة :

ـ أقولها ولاتغضب ، شربت لأنسى أختك وأهوالها .

وبلغا حانة متواضعة ، تناثرت فيها أخونة ذهب طلاؤها ، فبان خشبها ، ووضعت حولها كراسى تمزق قشها ، وقد غصت ببعض الصيادين فى سراويلهم السوداء المخرفجة وقد لفوا حول كروشهم أحزمة عريضة بيضاء وحمراء وسوداء، وغطوا رءوسهم بطواقى زخرفت بثقوب ، وبعض الحمالين فى ثيابهم الوطنية ، وعمال العنابر فى جلابيبهم البلدية ، وجلس فى ركن من الحانة حوذى فى ثياب ممزقة ، قد برز شعره الأبيض من تحت الطربوش المغبر ، رفع عقيرته بالغناء وهو يسند خده بكفه :

ـ « حمامة بيضة ومنين اجيبها

طارت يا نينة عند صاحبها »

وقف إسماعيل على باب الحانة يدور بعينيه فى المكان ، يبحث عن رفاقه،

وإذا بصوت ينادى :

ـ يا إسماعيل .. ياسى إسماعيل .

فالتفت فألفى أصدقاءه جالسين حول خوان كبير ، معهم أناس لا يعرفهم ، فذهب إليهم وحسان يسير إلى جواره ، وقد تأخر عنه خطوة ، حتى إذا بلغوا الحلقة ، ألقى إسماعيل السلام ، فقال أحد أصدقائه فى زهو يعرفه للموجودين :

ـ إسماعيل أفندى ، أكبر شريب فى حينا .

فقال أحد الغرباء ، وهو يشير إلى رجل مكتنز اللحم ، ذى كرش ضخم :

ـ المعلم سلطان ، شريب دولى .

وجلس إسماعيل وحسان ، ودارت الكئوس ، وما إن شرب حسان كأسين حتى شرد واجما ، وظل إسماعيل يلقى بما فى الكئوس فى جوفه ، فقال صديقه :

ـ إنه يشرب برميلا ولايدور رأسه .

فقال نصير المعلم سلطان :

ـ المعلم يشرب بحرا دون أن يفقد وعيه .

وضايق صديق إسماعيل ذلك التحدى فقال :

ـ الخمر موجودة ، والماء يكذب الغطاس . فليشربا ، فإذا دار رأس إسماعيل ـ وأنا واثق من أنه لن يدور ـ دفعت أنا الحساب ، وإذا دار رأس المعلم دفعت أنت الحساب .

فقال نصير المعلم فى حماسة :

ـ موافق .

وجىء بالخمر ، وانتشر فى الحانة خبر ذلك الرهان ، فاجتمع الناس حول المائدة ينظرون ، وملئت الكئوس ، وفرغت فى الجوفين دون أن يبدو الوهن فى وجهيهما ، أو يظهر فى العيون أثر ذبول . والتفت إسماعيل إلى نصير المعلم وقال له :

ـ سأنهى هذا الرهان الآن رأفة بك .

فابتسم الرجل فى سخرية وقال :

ـ والله لايستحق الشفقة إلا صديقك .

وأخرج إسماعيل من جيبه قطعة من الأفيون ، قسمها نصفين ، وأذاب قطعة فى كأسه ، وأذاب القطعة الأخرى فى كأس المعلم ، ورفع الكأس وقد تعلقت العيون به ، وتجرعها دفعة واحدة ، ثم مسح فمه بظهر يده ، وظل ثابتا كالطود ، ينظر إلى منافسه فى تحد واستخفاف .

وقبل المعلم ذلك التحدى بأن رفع كأسه ، وشمخ برأسه و وألقى به فى جوفه ، وما هى إلالحظات حى رأى المعلم الحانة تتراقص أمام عينيه ، ثم سقط على الأرض، فالتفت إسماعيل إلى نصير المعلم وقال له :

ـ ادفع الحساب قبل أن تحمله .

وخرج إسماعيل يتبعه حسان فى وجومه ، وحمل المعلم سلطان إلى داره ، ليمكث فيه ثلاثة أيام ، غائبا عن الوجود لا يفتح له فم !

وانطلق إسماعل وحسان إلى البيت ، وقد لاح فى الأفق الشرقى ضوء فضى قاتم ، خلفه على صفحة السماء الزرقاء تنفس الفجر، ودخل حسان غرفته وأصوات الديكة تتجاوب فى الفضاء .

ورأى الفراش يرحب به ، فألقى نفسه فيه ، ورن فى أذنيه صوت أمه ، فخيل إليه أنه يحلم ، ولكنه فتح عينيه فى جهد ، فألفاها تنظر إليه فى أسى ، وتقول :

ـ ألا ترحمنى ياحسان!

وأسبل جفنيه ، وراح فى سبات ، ولم يشعرإلا وهى تهزه وتعنفه :

ـ هذا حرام ، من الذى سيدفع لك ثمن هذا السم ، حرام أن تبقى عبئا على اخيك ، ليته يستطيع أن ينهض بعبئه ، وقد جاءه ولد جديد ، ما الذى تنتظره ياحسان ، إننا لا نملك شيئا ، فعليك أن تكسب قوتك . لاتكن حملا علينا ، لماذا لاتذهب إلى عملك ؟ يجب أن تعمل من الغد يا حسان .

فغمغم :

ـ غدا ، سأذهب إلى العمل .

وغط فى نومه ، فتركته وهى تنكره ، لم يكن هذا حاله قبل أن يذهب ، إنه ليخيل إليها أن حسان الذى أحبته فقدته ، وعاد إليها حسان آخر.

وأشرقت الشمس ، ومر الضحى ، وأذن المؤذن بالظهر ، ومالت الشمس وهو فى فراشه ، ثم استيقظ ، فلما رأى أمه ، هتف :

ـ آكل .

فراحت تعد له الطعام الذى أرسلته صفية ، كانت تبعث إليها أطيب ما عندها من طعام ، حتى فى أقسى أيام ضيقها ، ونهض يلتهمه وهى ترمقه دامعة العين ، كسيرة الفؤاد .

ـ ٣٩ ـ

انسل زكريا إلى المسجد ، فقد توطدت الصداقة بينه وبين شيخ الجامع الضرير، كان يقرأ له الأحاديث ، وتفسير القرآن ، ويلقى عليه خطبة الجمعة مرة ، فيسمعها دون أن يتلجلج أو ينسى منها فقرة ، وأعجب زكريا به ، فكان يحاكيه فى إلقائه إذا انفرد بنفسه ، فانطلق لسانه ، حتى بات يتمنى أن يصعد إلى المنبر يوما يلقى على الناس خطبة .

وذهب خالد وجلال وسعيد إلى رفاق الحارة يلعبون ، وراحوا يتدافعون ، فدفع غلام جلالا ، فذهب خالد إليه وضربه، كان نفس الغلام الذى ضربه يوم أراد جلال أن يأخذ منه مصباحه ، فنظر الغلام إليه فى غيظ ، ساءه أن يضرب فى كل مرة ، وأحنقه ذلك الاضطهاد ، ولولا يقينه أنه أضعف منه لهجم عليه ينتقم لنفسه.

واستأنف الأولاد لعبهم ، وحسب خالد أن ما بينه وبين ذلك الغلام قد انتهى، كان يندفع فى ثورته ، فإذا ما انقشعت نسى كل شىء ، فما كان يحقد عل أحد ، ولكن ذلك الغلام كان يتربص الفرصة ليشفى تلك القرحة التى تأكل صدره ، فما إن وجده مشغولا عنه وقد أولاه ظهره ، حتى تقدم منه وضربه برأسه فى مؤخر رأسه ، فسقط خالد مغشيا عليه ، وولى الغلام هاربا .

ورأت حليمة ما جرى ، فقامت مهرولة وحملته ، وعادت به إلى مكانها ، وراحت تعالجه حتى فتح عينيه ، فأجلسته إلى جوارها يستريح ، فتقدم جلال وسعيد يتمسحان به اطمئنانا عليه .

وأقبل النجرو ، وقد استرسل شعره ، واستطالت لحيته ، يرتدى قميصا من الخيش ، ويدير حول عنقه مسبحة طويلة ، حباتها من الخشب ، وقد وضع تحت إبطه ورقا أصفر ، ووقف يرنو إلى حليمة فى نظرات شاردة ، فتعلقت عيون الأولاد به ، ومشت فى قلوبهم رجفة .

وبان فى وجهه الغضب ، فخفق قلب حليمة خوفا ، ولولا خشيتها أن تفزع الأولاد ، لولت فرارا ، ولكنها افتعلت الهدوء ، وجعلت تعيد تنظيم الحلوى فوق قفص الجريد ، وإن كانت ترقبه من بين أهدابها ، وفاض غضب النجرو ، فانفجر قائلا :

ـ إن كنت أحببتك ياجورج ، فلا يعنى ذلك أن تستذلى رقبتى ، فتحت لك قلبى ، فأعرضت عن حبى ، بعد أن مددت لى حبل الوصال ، عشت ياجورج رجلا ، وأحب أن أعيش رجلا ، لا أخفض الرأس لامرأة ، فإذا كان قلبى قد خاننى وخفق بحبك ، فسأكتم أنفاسه .. سأذلك ياجورج كما أذللتنى ، انتظرتك الليل الطويل أرصد مجيئك ، ولكن الليالى مرت وأنا أترقب ، ويا لمرارة اللحظات التى كنت أهتدى فيها إلى الحقيقة الأليمة ، حقيقة إنك تتعمدين إذلالى ، ولكن لاياجورج ، لن أذل لك أبدا ، وسأذلك . سأجعلك تسكبين الدمع من عينيك الزرقاوين الخائنتين ، سأقطع كل مابينى وبينك ، ولن ينطق لسانى باسمك ، لاتتوسلى إلى ، فلن أصغى إليك ، وقد أغلق باب قلبى دونك ، برئت من مرضى ولم أعد أحبك .

ومد يده وتناول الورق الأصفر من تحت أبطه ، وأخذ يلقيه فى وجه حليمة وهو يزمجر:

ـ هذه هداياك ، لا حاجة لى فيها ، وإن كنت آسفا على شىء ، فأسفى عل قبلاتى الحارة التى طبعتها عليها ، ليتنى أستطيع أن أمحو آثارها ، أو أسترد حرارتها .

وبسط ورقة طويلة ، وتفرسها مليا ، ثم قال فى صوت متهدج :

ـ هذه ورقة الطلاق ، جئتك بها لأقطع كل ما كان بيننا .

والتفت إلى الأولاد وقال :

ـ اشهدوا ، إنها طالق ... طالق .. طالق .

ودار على عقبيه ، وسار صوب الخربة ، والأولاد ينظرون إليه ويبتسمون ، وحليمة ترنو إليه ، والدمع فى عينيها يترقرق ، وما ابتعد خطوات حتى هتف من كل قلبه :

ـ نظرة يا جورج .. يا جورج نظرة .

ـ ٤٠ ـ

انطلق زكريا وخالد وابنا عمتهما سيد وسليمان فى طريقهم إلى المدرسة، وهم يتحدثون ، واجتازوا جسر المحمودية وانسابوا فى الطريق الذى اصطف على جانبيه صفوف من الصعايدة ،وقد افترشوا الأرض يتناولون فطورهم ، وكان قرصا صغيرا من البتاو، وقطعة جبن حالوم وضعت فى علبة مستديرة من الصفيح ، كانت فى ذات يوم وعاء لحفظ طلاء الأحذية . وكان الصعايدة يحجون كل صباح إلى هذا المكان ، فمن سعد حظه استدعى للعمل فى « شون القطن » ، ومن أعرض عنه الحظ عاد يجر أذيال الإخفاق والمسغبة ، يمنى النفس بالفرج فى اليوم التالى .

كان الأولاد يشهدون ذلك المشهد كل صباح ، فكان زكريا يفكر فى هؤلاء البائسين ، يحاول أن يجد بذهنه وسيلة لرفعهم من ذلك الحضيض ، كان يفكر فيما تقع عليه عيناه ، فيرى أمثال ذلك المشهد مشاكل تحتاج إلى حلول ، أما خالد فكان يحس إشفاقا عليهم ، فذلك المشهد يفجر منابع الرحمة فى نفسه ، فيرمقهم وفى جوفه أسى عميق ، أماسيد وسليمان فكانا يلقيان عليهم نظرة عابرة ، فهما يريان ذلك البؤس ظاهرة طبيعية كشروق الشمس وغروبها ، واكفهرارالسماء وصفائها، وحر الصيف وقر الشتاء .

ولف الأولاد سكون برهة ، قطعه سيد متمنيا ، كان يتهته ، وكان لسانه حبيسا ، قال :

ـ لو لو .. لو وجدنا المدرسة محروقة !

وصادفت هذه الأمنية هوى فى نفس سليمان فقال :

ـ يا ليتنا نجدها قد انهارت أو تهدمت أوحدث بها مايعطلها .

وكان خالد يتمنى فى قرارة نفسه مثل هذه الأمنية ، ولكنه صمت ولم يفصح عنها ، أما زكريا فقد قال :

ـ لماذا تكرهون المدرسة ؟

فقال سليمان فى ضيق :

ـ فى حصة الحساب ضرب ، وفى حصة العربى ضرب ، وفى حصة الترجمة ضرب ، وفى الإنجليزى ضرب ، ويمر النهار ونحن نتلقى اللطمات والصفعات والركل.

وقال سيد :

ـ أنا أكرهها لله فى لله .

وساروا وأمنية وجود المدرسة مغلقة لسبب من الأسباب التى كانوا يتصورونها تداعبهم ، حتى إذا بلغوا المدرسة وألفوا أبوابها مفتوحة تستقبل الوافدين ، اغتموا ودخلوها مطرقين ، وفى صدورهم حنق ، لأن القدرلم يحقق لهم أبسط الأمنيات !

ودق الجرس ، فاصطف التلاميذ صفوفا ، ولم تخفت ضوضاؤهم ، فأقبل مدرس وفى يده خيزرانة ، وصاح :

ـ مدرسة سكوت .

ولم تخف الجلبة ، فأخذ المدرس يجتاز الصفوف ، ويضرب هذا وذاك ، وسقطت الخيزان على أصبع خالد ، فانفجر باكيا ، وأحس العيون تتطلع إليه ، فساءه أن يبدو ضعيفا ، فتجلد على الرغم من الألم الشديد الذى يشعر به ، وكفكف دموعه ، ثم صاح فى حنق شديد :

ـ والله لأنتقمن منه وإن طال الزمان .

ومر الوقت فى المدرسة وئيدا بغيضا ، وصادق جرس الانصراف وفتحت الأبواب ، حتى هرعوا يتدافعون كطيور حبيسة فى قفص وجدت منفذا للفرار. وتنفس الأولاد نسيم الاطمئنان ، فساروا جماعات يتسامرون ، واجتمع زكريا وخالد وسيد وسليمان ، وقفلوا إلى الدار عائدين .

مروا على كتاب ، وألفوا الشيخ جالسا عل حصيره ، وأمامه طفل قد أسند رأسه بكفه ، وأخذ يجذبه معه ويطلقه فى اهتزازه ، وهويسمع له القرآن ، فقفز إلى ذهن سيد خاطر ، فقال :

ـ تتتعالوا نننضرب الشششيخ قرد .

ولم ينتظر رأيهم ، فمال يلتقط أحجارا ، ثم صوبها إلى الشيخ ، وأطلق ساقيه للريح ، فجرى زكريا وخالد وسيد فى أثره خشية انتقام الشيخ .

وأصبح ضرب كتاب الشيخ حسن بالحجارة فى برنامج سيد اليومى ، كتناول طعام الفطور ، وتلقى اللطمات فى حصة المطالعة ، وفى حصة المحفوظات ، وفى ذات يوم صوب الحجارة كعادته إلى الشيخ ، وهم بالفرار ، وإذا بصبيان شداد يخرجون إليه من كل فج .ويلقون القبض عليه . سقط فى الفخ الذى نصبه له الشيخ وحاول سيد أن يقاومهم ، وأن يشق له طريقا ، ولكنهم حملوه فيما بينهم ، فراح يصيح :

ـ يبيا سسسليمان ! .. يبيا سسسليمان !

وأخذ إلى الشيخ حسن ، فوضع قدميه فى الفلقة ورفعه الأولاد ، فصار رأسه فى الأرض ، ورجلاه فى الهواء ، وانهال الشيخ ضربا على قدميه العاريتين بالخيزرانة ، وأحس سيد قدميه تتمزقان ، فجعل يهتف وهو يبكى :

ـ أأأه .. تتتبت والنننبى .. والنننبى .

- ٤١ -

نادى الحاج كرم بائع العنب ، فذهب الرجل إليه فى صدر الدكان ، ووضع أمامه القفص ، فراح الحاج يرفع العناقيد فى يده ، ويلتقط من كل عنبة يذوقها ، فلما اطمأن إلى جودة الصنف ، بدأت المساومات ، الرجل يطلب ثمنا ، والحاج يعرض نصفه ، فيرفض الرجل ، ثم يأخذ الحاج فى زيادة ماعرض مليما مليما ، وعلى يرقب ذلك وهو ضيق الصدر فهو يعتقد أن الصدقة الخفية فى البيع والشراء .

وانتهت المساومات ، واطمأن الحاج إلى أنه قد اشترى بأرخص مايمكنه من أسعار، وبدأت عملية الوزن ، فأصر الحاج على أن يزن الأقتين على أربع مرات ، كل نصف أقة وزنة ، فرمقه على فى دهش ، غابت عنه حكمة ذلك الإصرار، وظن أنها نزوة ، وما درى عقله المسرف أن الحاج يكسب بذلك بضع عنبات !

وجاء رجل يسعى لا ليشترى حاجاته من محل الحاج ، بل ليشترى بضاعة كان على اشتراهالحسابه بما ادخر من مال ، كان يرجو أن يكسب فيها بعض مايمكنه من أن يوسع على أولاده ، وقد ارتفع ثمن هذه البضاعة ، فجاء ذلك الرجل يشتريها.

وجلس الرجلان يتفاوضان ، والحاج يصيخ سمعه الحديد إلى ما يدور من حديث ، وماهى إلا كلمات حتى اتفق الرجلان . وجد على فى هذه الصفقة مكسبا يرضيه ، وكان يتمثل بالحديث الذى يبارك الرجل السمح فى البيع ، السمح فى الشراء .

وأخذ الرجل البضاعة ، ونقد على ثمنها ، والحاج يرمق مايدور أمامه ، وعقله يعمل ، كان يحسب ما كسبه على فى هذ الصفقة ، وما انصرف الرجل حتى صاح الحاج فى على :

ـ بأى حق تستحل ما كسبته الآن ؟

نظر إليه على فى دهش ، وقال :

ـ بشرع الله ، اشتريت البضاعة بمالى الحلال ، وبعتهابالحلال .

فقال الحاج كرم فى حدة :

ـ هذا المكسب ليس من حقك .

فقال على فى انفعال :

ـ من حق من ؟

فقال الحاج كرم فى هدوء :

ـ إن الله لا يستحى من الحق ، هذا المكسب للدكان .

والتفت الحاج إلى أولاده ، فهزوا رءوسهم موافقين ، وثار الدم فى عروق على ، وشاء لو ينفجر فى الحاج ، ولكنه كبت ثورته وقال :

ـ وبأى حق يستحل الدكان هذا المكسب ؟

ـ أنت هنا تأخذ أجرك ، سواء أكسب المحل أم خسر ، فكل ماتنتج فهو من حق الدكان .

فقال عل متحديا :

ـ أكان المحل يتحمل الخسارة لوخسرت البضاعة ؟

فقال الحاج فى بساطة :

ـ المحل لايتحمل أخطاءك ، ولكنه يدفع لك أجرك ، ليستفيد من عملك .

فقال على فى حنق :

ـ على الغرم ، وللمحل الغنم !

ـ هذا حق .

ولم يصادف ذلك هوى فى نفسه ، لم يكن يهمه كثيرا أن يدفع المكسب ، ولكن ذلك يخالف مبادئه ، ويغضب نزعة الفروسية المتأصلة فيه ، فأحزنه ماجرى ، واستبد به غضبه ، فأخرج من جيبه ماكسبه ، ودفعه إلى الحاج وانصرف حانقا ، عاقدا العزم على أن لايعود .

وتناول الحاج النقود ، ووضعها فى الخزانة وهويقول لأولاده متعجبا :

ـ والله لاأدرى لماذ يغضب الناس من الحق ؟!

ـ ٤٢ ـ

حسان يتقلب فى نومه كالمحموم ، يلوح فى وجهه الجهد ، ويتفصد منه العرق ، ويلتقط أنفاسه كأنما يلتقطها من ثقب أبرة ، فبريق القذائف يبهر بصره ، وانفجارات القنابل تدوى فى أذنيه ، ومشاهد الأشلاء المتناثرة تمزق أعصابه ، جماجم محطمة ، وأرجل متطايرة ، وأذرع مفصولة ، وجثث وجثث ، وبرك من الدماء ، وقرقعة سيارات . وآلاف البنادق مصوبة إليه ، فصرخ صرخة مفزوعة ، وهب من نومهوجلس فى فراشه يتلفت فى رعب وقلق.

وخفت إليه أمه ملهوفة ، ولفت ذراعها حوله ، وضمته فى حنان ، وراحت تجفف له عرقه المتصبب وتقول :

ـ ماذا بك ؟

هدأ قلقه قليلا، واطمأن إلى وجود أمه بالقرب منه ، فقال :

ـ لا شيء .. لاشيء كنت أحلم .

وأحس جفافا فى حلقه ، ورغبة فى الشراب ، وراحت تلك الرغبة تستبد به ، وتستولى على حواسه ، فجعل يمرر لسانه على شفتيه ، واحتلت أقطار رأسه صورة زجاجة وكأس ، وقام مسلوب الإرادة يرتدى ثيابه لينطلق إلى الحانة ، ولكنه تذكر أنه لم يشرب بالأمس لافتقاره إلى المال .

وذهب إلى صندوق أمه وفتحه ، وراح يبعثر مافيه من ثياب ، كان يبحث عن نقود ، فلما لم يجد ما يبغى لاح فى وجهه ضيق ، يريد أن يشرب ، وأن يطفىء ذلك الظمأ الذى يستشعره فى روحه ، فتتركز فيه كل حواسه ، وتتجه إليه كل إشعاعات فكره ، وتتخلخل له كل إرادة وتدبير .

يريد أن يشرب ، فهذا غايته من الحياة الساعة ، فراح فكره يعمل ليحقق له هذه الغاية ، فزين له أن يلجأ إلى إسماعيل ، وإن كان قد قرر ألايلجأ إليه بعد أن

باع له قيراطا من نصيبه الذى ورثه فى البيت عن أبيه ، أخذ ثمنه منه قروشا أنفقهاعلى الخمر جميعا ، فذهب إلى الدرج كوسيط يحركه منوم ، وراح يرقاه شارد اللب والبصر ، يمرر كفه على فمه ، كأنما يحاول أن يمسح عنه جفافه ، ودخل على إسماعيل وما إن رآه حتى ابتدره قائلا :

ـ أريد نقودا .

فقال له إسماعيل ، وقد تعلقت عيناه بلسانه الذى كان يبلل شفتيه :

ـ من أين وقد أخذت ثمن القيراط الذى اشتريته منك .

ـ أقرضنى ريالا .

ـ أقسمت ألا أقرض أحدا .

فقال حسان فى لهفة :

ـ أبيعك قيراطا آخر .

ـ بكم ؟

ـ بالثمن الذى تراه ، أعطنى الآن ريالا .

ـ لن أدفع مادفعته فى القيراط الأول .

ـ ادفع ماتريد ، هات ريالا .

ـ بعد أن توقع على البيع .

وراح إسماعيل يكتب عقد البيع . وحسان يرقبه نافد الصبر ، زائغ البصر ، قلقا متبرما ، يضنيه ذلك الظمأ الروحى الذى يشيع فى حواسه ، فهتف يستحثه :

ـ هات أوقع لك .

ودفع إسماعل إليه العقد ، فوقعه دون أن يقرأ منه حرفا ولو أصر إسماعيل على أن يشترى منه ذلك القيراط بكأس واحد ة ، فما كان فى وسع حسان إلا أن يقبل ..

وأخذ حسان الريال ، وانطلق يغذ السيرالى تلك الحانة المتواضعة ، التى يغرق فيها همومه وينسى نفسه ، وما إن دلف من بابها حتى صاح يطلب كأسا ، وراح يلقى بالكئوس فى جوفه ، فلما تخدرت حواسه ، شرد بصره ، وراحت عبراته

تتفجرمن عينيه ، وتغسل وجهه ، فاستشعركأنما آلامه ذابت فى الدموع .

ودخلت فاطمة غرفتها ، فألفت صندوقها الكبير مفتوحا ، وقد بعثرت ثيابها ، فغضبت وانتشرت فى جوفها موجة من الأسى ، وخطر على ذهنها حسان ، فخفق قلبها شفقة ورهبة ، فهى تشفق عليه مما آل إليه ، وتخاف مغبة ذلك الشعور الغريب ، الذى تولد فى نفسها غب عودته، فهى تنكره أحيانا ، وتثور عليه ، حتى يكاد ينغرس فى قلبها كرهه .

وراحت تجمع ثيابها وهى حزينة ، وأغلقت صندوقها وهى تغمغم :

ـ ويل لى منك يا حسان غائبا وحاضرا .

وترقرقت الدموع فى عينيها ، هنا دموع تذرف ، وفى الحانة دموع تذرف ، هنا دموع أم فجعت فى أمل من آمالها ، وهناك دموع شاب كانت له فى الحياة مثل يتحمس لها ، رآها أمام عينيه تتبخر ، لم تكن حقيقة بل كانت وهما ، فراح يضرب فى بيداء الحياة بلا مثل ، وما أقساها حياة بعد أن تفتحت عيناه على زيف المجتمع .

ـ ٤٣ ـ

صفية فى المطبخ تغترف الطعام من أوان كبيرة صفت أمامها على نضد، إنها ترسل ابنتها تحية بالغداء إلى الجدة ، كانت تبعث لها بطعام يكفى اثنين ، لتأكل ويأكل حسان الذى ينفق على الشراب ولايعمل لطعامه شيئا .

ووضعت الصحاف أمام أبنائها الذين تحلقوا حول الخوان ، فانقضت الأيدى تلتهم ما أمامها فى عجلة . كانوا فى سباق . فكل منهم يحاول أن يملأ بطنه ، قبل أن يغيب الطعام فى الكروش الأخرى ، حتى أصغرهم يحيى كان يدفع من حوله بمنكبيه ، لتتحرك يده فى سرعة دون أن يقف فى سبيلها عائق .

كان جلال يأكل فى شهوة ، فهو يحتفى بالطعام ، وتتهلل أساريره ، إنه أكول لايعرف أنه شبع إلا إذا أحس كظة الطعام فى بطنه ، ومرت صفية عليهم ونظرت ،

فألفت الصحاف فارغة ، وأبناءها يترقبون مزيدا من الخبز والإدام ، فمالت وأخذت الصحاف وصبت فيها ماكانت تبقيه لنفسها ، دون أن تمس مااحتجزته لزوجها ، وعادت إلى الأولاد ، ليستأنفوا ماكانوا فيه من سباق .

وأقبل على ، فأعدت له صفية طعامه ، فالتفت إليها وقال :

ـ اجلسى وكلى معى .

فقالت صفية وهى تنصرف :

ـ لست جائعة ، لما طبخت فقدت اشتهاء الطعام .

وأكل على حتى شبع ، ورفعت صفية الصحاف من أمامه ، ودخلت إلى المطبخ ، وتناولت رغيفا راحت تأكل به ماتخلف فى الصحاف وهى واقفة ، كانت وحدها تحمل هم تدبير إطعام ذلك الجيش ، وكانت وحدها التى لاتهنأ بثمرة تدبيرها ، فما أكلت مرة حتى شبعت كما يشبع حسان وزوجها .

وذهب على يقيل ، وانصرف الأولاد إلى الحارة يلعبون إلا زكريا ، فقد دلف إلى المسجد يقرأ لشيخ الجامع الضرير ، ودخلت صفية إلى المطبخ تغسل الأوانى والصحاف وثياب أبنائها التى اتسخت .

وجاء رسول من عند الحاج كرم يطلب من على أن يوافى الحاج الساعة ، فهو ينتظره فى الدكان ، فارتدى ثيابه على عجل وانطلق ، فلما بلغ الحاج أقبل عليه ، ورحب به ، وراح يبثه قلقه ، قال :

ـ وقعت نفرة بينى وبين أخى ، فادعى أن له نصيبا فى الدكان ، وراح يدعو على فى صلاة الجمعة ، وهو على المنبر يخطب الناس ، كان ينظر إلى وهو يقول : « اللهم من كادنا فكده » فارتجفت وأحسست رهبة ، وإن كنت على ثقة من أن الله لن يستجيب دعاءه . لم أفعل له شيئا يغضبه ، ولم يكتف بذلك ، فاقام دعوى على يطلب الحجز على الدكان ، إننى لم أدخل قسما فى حياتى ، ولا أعرف طريق المحاكم ، وأخشى إذا وقع الحجز على الدكان ، أن يذهب من يدنا ، لاأدرى ماذا أفعل ؟ وأولادى لا يعرفون من الخصومة شيئا ، فرأيت أن نستعين بك .

ونظر على إلى أولاد الحاج نظرة خاطفة ، فألفاهم مطرقين ، فأحس راحة ،

فهم يلجئون إلى معونته بعد إساءتهم إليه ، ولما كان فارسا بطبعه ، فقد نسى كل إساءة ، وقال من قلب صادق :

ـ لن ينال منا شيئا .

فقال له الحاج فى ذلة :

ـ مستقبلى ومستقبل أبنائى بين يديك .

ـ لاتخف .

ـ وماذا تفعل لوقف الأمرالصادر بالحجز على المحل .

ـ لى صديق يونانى أثق فيه ، إنه حماية ، سأؤجر له المحل ، فإذا جاءوا ليحجزوا على المحل وجدوه مؤجرا لأجنبى بطل الحجز .

فقال الحاج فى قلق :

ـ أتثق فى الرجل ؟

ـ أثق فيه كل الثقة ، وليس أمامنا إلا هذا ، إما أن تؤجر له المحل ، أو يحجز عليه .

فقال الحاج فى استسلام :

ـ افعل مابدا لك .

وظل أبناء الحاج مطرقين ، لاينبس أحدهم بكلمة ، وانصرف على وهويحس راحة ، لأن ضعافا لاذوا به ، فحق عليه نصرهم .

ـ ٤٤ ـ

ضوء مصابيح النفط لا يكاد يبدد ظلام الحانة ، وظلال الموائد تنعكس على الحيطان ، فتبدو كأشباح سود ، وصيحات متباينة ترتفع من هنا وهناك ، صيحات فرح ، وصيحات أنين ، تنبع من نفوس مخمورة ، تخلخلت ضوابطها .

وجلس إسماعيل إلى رفاقه يحتسى الكئوس ، ويروى النوادر ، فترن الضحكات ، وتتجاوبها أرجاء الحانة ، وتمتزج بغناء ذلك الحوذى الهرم ، الذى يرفع

عقيرته بالأنغام كلما سكر ، وهو على الدوام سكران لايفيق .

وقبع حسان فى ركن بعيد ، فهو يشرب وحده ، ثم يشرد ويلوح فى وجهه سهوم ، ثم تنهمر من عينيه الدموع ، كان يجد فى البكاء راحة وعزاء ، وكان رواد الحانة يطلقون عليه « الشريب الصامت الحزين »

أسرف حسان فى الشراب ، فإذا بالمشاعر الراسبة فى أغوار نفسه تطفو على سطح ذهنه ، وإذا بعقدة لسانه قد حلت ، وإذا به يحس رغبة فى الثرثرة والكلام ، فصاح :

ـ إذا ادعى الترك أنهم يحبونكم ، وأنهم يريدون الخير لكم ، وأنهم مافكروا فى غزو بلادكم إلا لطرد الإنجليز ، ومعاونتكم على نيل استقلالكم ، فلا تصدقوهم ، إنهم يريدون استعبادكم ، وحمل خيراتكم إلى بلادهم ، إنهم أنانيون ومنافقون ، سلونى كيف كانوا يعاملوننى أنا المصرى الذى انضم إليهم متطوعا لقتال الإنجليز .

وإذا ادعى الألمان أنهم يحاربون الإنجليز لأنهم يبغضون الاستعمار فلا تصدقوهم ، فهم أنانيون ومنافقون ، إنهم استعماريون لايرضون عن الاستعمار إلا إذا كان استعمارا ألمانيا . وإذا ادعى الإنجليز أنهم أصدقاؤكم ، وأنهم ماجاءوا إلا للعمل على إسعادكم ، فلا تصدقوهم ، فهم رأس النفاق ، وبحر الأنانية ، إنهم يريدون أن يسلبوكم وأنتم عنهم لاهون . العالم كله خداع منافق كذاب .

وثار حسان ، فراح يدق على النضد بقبضته وهو يزأر :

ـ إنى أكره هذا العالم كله ، أكرهه لأنه يسوق أبناءه إلى المجازر كالغنم ، لمصلحة من هذه الحروب ؟ وفى سبيل من تذهب آلاف النفوس ؟ فى مصلحة حفنة من الزعماء الجالسين فى البيوت .

وذهب إسماعيل إليه ، وحاول أن يهدىء ثورته ، فدفعه بيده ، وصاح :

ـ إذا ادعى إسماعيل أنه يحبنى فلا تصدقوه ، إنه يتودد إلى ليسرق منى القراريط التى ورثتها عن أبى ، خذها يا إسماعيل ، فماعاد يسعدنى أن أملك الأرض وماعليها ، خذها وستتركها يوم تذهب ولاتعود .

والتفت إلى من فى الحانة وقال :

ــ كلكم منافقون خداعون وحوش ، أكرهكم كلكم ، لأننى أكره المرائين ، وأكره نفسى ، لأننى منكم من العالم الخبيث .

وجلس مبهور النفس ، وساد الحانة وجوم ، وراح يلقى فى جوفه الكنوس ، ونهض وخرج يترنح ، فأحس الموجودون كأنما انزاح عن صدورهم كابوس ، فارتفع صوت الحوذى الهرم يغنى :

« حمامة بيضة . ومنين اجيبها . طارت يانينة . عند صاحبها » .

واستأنف إسماعيل ما كان فيه ، يروى نوادره ، فتجلجل فى جنبات الحانة الضحكات المخمورة .

وانطلق حسان فى الطريق يترنح ، ودلف إلى الحارة يرتطم بالحيطان ، كانت قدماه لاتقويان على حمله ، وبلغ مسامعه صوت النجرو وهو يصيح فى جوف الليل : « نظرة ياجورج .. ياجورج نظرة ». فغمغم حسان وهويتمايل : « نظرة .. نظرة » .

وبلغ الدار وهويكاد ينوء ، ووقف أمام الشقة ثم هوى وشعرت فاطمة بارتطام رأسه بالباب ، فهرعت تنظر، فألفت ابنها على الأرض ممدودا ، فصاحت فى لهفة :

ــ حسان .. حسان .

ورن صوتها فى سكون الليل ، فهرع إليها على وصفية وبناتها ، وحملوا حسان بينهم ، ووضعوه فى فراشه ، وصبوا الماء على وجهه ، وقربوا من أنفه بصلة، ولكنه ظل فى غيبوبة ، فالتفتت صفية إلى زوجها وقالت :

ــ أحضر الطبيب حالا.

فخرج على يهرول ، وماكان إلا دقائق حتى أقبل الطبيب ، وأخذ يفحص حسان والجميع ينظرون واجمين ، وقد غاب عن آذانهم التفكير فى تدبير أجر ذلك الذى لبى نداءهم فى الهزيع الأخير من الليل ، ولم يخطر لهم ذلك على بال ، فما كان أحدهم يحب أن يفكر فى مثل هذا الأمر، ونظرت صفية إلى الواقفين فى هدوء، فاضطربت ، كانت على يقين أنهم جميعا لايملكون أجر الطبيب ، وإذا كانوا يملكونه

فهم لا يحبون أن يدفعوا إليه ثمن قوتهم ليمضوا أياما فى جوع ، فانسلت إلى شقتها ، وأخرجت حصالة خالد ، وفتحتها وأخذت ما بها ، كان يدخر جنيهين .، فوجدت فيهما كفايتها .

وفتح حسان عينيه ، ووضعت صفية فى يد الطبيب أجره ، فانسل شاكرا ، والتفتت فاطمة إلى ابنها وقالت :

ــ والله يا حسان لن أكلمك ماحييت إذا عدت إلى الشراب .

وأسبل حسان عينيه وراح فى سبات ، وعاد أهل البيت إلى شققهم ، وصوت النجرو يدوى فى الحارة .

ــ نظرة يا جورج .. ياجورج نظرة .

ــ ٤٥ ــ

اجتاز زكريا المرحلة الابتدائية فى تفوق ويسر ، بينا ظل خالد وابنا عمته فى مدرستهم يقاسون ذل الاضطهاد ، كان سيد أعسر ، يكتب بيده اليسرى ، فكان مدرسوه ينهونه عن ذلك ، ويلومونه ويقرعونه ، ويضربونه ، أحيانا ، وكان أكثرهم قسوة عليه مدرس اللغة العربية ، كان يضرب بكفه على قرص طربوشه حتى يغوص إلى أذنيه ، ويصيح به « يا أعسر » فكان الأولاد يحسبون أنه يقصد « ياأزعر » فيضجون بالضحك ، فيضطرب سيد ، ويقر فى ذهنه أنه شاذ بين الأولاد ، فيفقد ثقته بنفسه وتزداد لجلجته .

وكان التلاميذ يلتفون حوله فى الفسح . يصيحون به : يا أزعر ، وكانوا يمعنون فى مشاكسته فيحاكونه : « ييييا سسسيد .. ييبيا أأأززعر » فيطيش صوابه ويجرى خلفهم كالمجنون ويصيح :

ــ ييبيا أأأولاد .. اللللكلاب .

وحاول أهله أن يعودوه استعمال يده اليمنى بدل اليسرى فأغلظوا له ، فاضطرب ، وتلجلج كلامه من صغره ، وجاء إلى المدرسة فإذا مدرسوه يحاولون أن

يرغموه على الكتابة باليد اليمنى ، فازدادت علته ، وعاونت مشاكسة التلاميذ له على أن تصبح للجلجته عيبا لايقوى على قهره .

وكان سليمان يضيق بالمدرسة ، ويعجب لإصرار أبيه على إرساله إليها، فأمه لا تفتأ تذكر أنها ستلحقه بدكان حداد يتدرب فيه ، حتى يصبح أهلا للالتحاق بالعنابر، ويومها يصبح رجلا كأبيه ، وهى لا تفتأ تمنيه الزواج إذا كبر ، فلماذا يتحمل كل هذا التعب ؟! أمنيته فى الحارة أن يكبر ، وأن يلحق بالعنابر ، وأن يتزوج ، وأن يصبح واحدا من هؤلاء الذين يراهم فى البيت يغدون ويروحون ، هؤلاء الذين كان يطلق عليهم يونس بحق « الثيران» .

وكان خالد يرتجف فرقا كلما أقبلت حصة الترجمة ، شاع بين التلاميذ أن مدرسها كان ناظرا ، وأن الوزارة أعادته إلى التدريس ، لأنه خلع ذراع تلميذ من تلاميذ مدرسته ، وثبتت هذه الشائعة فى أذهان الأولاد قسوته ، كان يضربهم فى الشتاء القارس ، على أصابعهم بحافة المسطرة ، ولم ينج خالد من هذه « القرمعة » بل كان له فيها أوفى نصيب ، كان يتحمل الضرب وهو يئن ويتوجع ، ولكنه لم يعد يتوعد ضاربيه ، كماتوعد يوما ذلك المدرس الذى ضربه على أصبعه، وأصابه بعاهة ، وأقسم أن ينتقم منه وإن طال الزمن، فإذا ماتوعد كل من يضربونه فالويل لجميع مربيه .

ودخل إلى فناء المدرسة شاب صغير، يرتدى ثيابا صفرا ويعلق فى ذراعه محفظة كبيرة من الجلد الداكن ، وتتدلى على صدره صفارة ، إنه تذكرى فى الترام، ولما لمحه التلاميذ التفوا به فرحين ، كان تلميذا معهم وخرج ليعمل قبل أن يتم دراسته ، وجاء اليوم يسحب أوراقه .

وتطلع الأولاد إليه تطلعهم إلى بطل من أبطال الأساطير ، كان بالأمس القريب معهم يتلقى اللطمات مثلهم من المدرسين ، وإذا به اليوم طليق ، يتحكم فى ترام طويل ، ويجنى من الناس النقود ، وإن كانوا مدرسين !

وأغرت الصفارة المتدلية على صدره بعض الأولاد ، فمدوا أيديهم إليها يتبادلون النفخ فيها، فيسرى صوتها الحادإلى آذانهم سريان اللحن الجميل ، ورنا

سيد إليه ، ودنا منه وراح يقول :

ضضضمنا إإذا رركبنا التتترام فلن نندفع ثثمن التتتذكرة .

ضحك الأولاد ، وصاح خبيث .

ـ ضمن الأزعر أن يركب الترام مجانا.

كان يرمى إلى تحريض التلاميذ عليه، ولكنهم كانوا فى شغل عنه ، بذلك الذى حقق حلمه ، وصار رجلا يكسب قوته ، دون أن يمد يده لأهله يلتمس قرشا ، قد يعطونه وقد يمنعونه .

وانصرف الشاب الصغير، والعيون تتبعه ، وقد أنبتت زيارته فى كل ذهن خاطرا ، كان خالد يراه محظوظا ، أصبح شيئا له قيمة ، وكان سيد يمنى نفسه أن يصادفه كلما ركب الترام ، حتى يعفيه من دفع ثمن التذكرة ، أما سليمان فقد تذكر أحاديث أمه له ، فرأى نفسه بعين خياله فى العنابر يخطر شامخ الأنف ، مرفوع الرأس ، وخطر له فكرة الزواج فاستشعر نحو الشاب الصغير حسدا ، إنه يستطيع أن يتزوج الآن بعد كسب رزقه ، بينا عليه أن ينتظر حتى تلحقه أمه بدكان حداد ، على رغم إرادة أبيه ، يتدرب فيه ، ليصبح أهلا للعمل بالعنابر ، وزفر زفرة كأنما يضيق بالأيام التى تفصل بينه وبين تحقيق أمنيته ، التى غرستها أمه فيه ، وراحت تمد جذورها فى نفسه ، كلما ضمته إليها وأخذت تناجيه .

ـ ٤٦ ـ

غابت الشمس وراء الأفق ، وبدا نور الصباح يتقلص ، وتألق القمر فى رقعة السماء ككرة فضية ناقصة ، وهن بريقها ، فلم تبعث إلى الأرض ضياء، وقام حسان من نومه على قرع طبول ورنين صنوج ، كان منبع الصوت تلك العالية التى يقطنها الفلاحون والصيادون ، هؤلاء الذين يزوجون أبناءهم إذا ماطرت شواربهم أوبرزت لهن النهود ، فالزواج عندهم ضرورة من ضروريات الحياة ، كالماء والهواء ، لايعرض عنه إلا الأموات .

ومزق الرنين وكاء أفكاره ، وفجر وعاء خواطره ، فإذا بها تتدفق إلى رأسه ، لا يرسب منها إلا المرارة فى أعماق نفسه : « ما بال الغافلين يتزوجون »؟! لينجبوا على رغم أنوفهم أولادا ، ليدفعوا ثمن لحظة من لحظات النشوة راحتهم وأعصابهم ، ليحملوامدى حياتهم الغم والتنغيص .. وما مصير هؤلاء الذين جاءوا إلى الحياة برغمهم ، دون أن يرتكبوا إثما ، أويحصلوا لذة ؟! سيساقون إلى المجازر البشرية زمرا . سيكونون حصيدا للمدافع ، وهدفا للقنابل ، ومن ينجو منهم من ذلك الأتون، سيموت على فراشه ، ويقدم بأيدى أحبابه إلى موائد الدود . لماذا تزوج أبى ؟ لو استشارنى لتوسلت إليه أن يعرض عن الزواج رأفة بى .

ودوت الطبول ، ودوت فى جوفه أفكاره التى كانت تساوره فى قوة كلما أفاق من سكره ، فذهب إلى النافذة ينظر ، ليفر من تلك الخواطر التى تضنيه . فإذا بركب العروس ينحدر من العالية إلى الحارة ، وينطلق صوب مقهى الصعايدة ، وإذا بأحد الصعايدة يقف أمام الموسيقا ، ويطلب منها أن تدق السلام تحية ، وإذا بوالد العروس يهز رأسه نفيا ، فهو يرفض أن يوصم بعار تقديم التحية للصعايدة ، وإذا بالتوتر يسود الحارة ، وما هى إلا لحظات حتى كانت الكراسى تتطاير والهراوات تهوى على الرءوس ، والأنات تمزق السكون ، فإن كانت الثورة الوطنية قد وحدت الأهداف ، فنامت الخصومات ، وحولت البغضاء إلى المستعمر البغيض ، فقد تبددت نار الثورة، وخدر الشعب بالأمانى والوعود ، فعادت إلى الصدو النعرات وشغل الناس بالتفاهات ، فماعاد صعيدى يقبل أن يجلس إلى فلاح ، أو يلقى عليه تحية .

وبدأ ركب العروس فى الانسحاب ، وراح الصعايدة يتبعونهم ، وهم يصيحون صيحات الظفر والانتصار ، ورفت على فم حسان بسمة سخرية ، لم يكن وحده يعرف ما بعد ذلك الانسحاب ، فكل من فى الحارة على يقين مما سيتبع احتماء الفلاحين بدورهم ، إلا الصعايدة ، الذين كانت خمرة النصر تديرفى كل مرة رءوسهم، فينساقون إلى الكمين مستبشرين فرحين !

وأطلقت الزجاجات المحشوة زلطا ورملا عليهم من كل مكان ، من فوق

الأسطح ، ومن النوافذ ، ومن الشقوق ، فسالت دماؤهم وانسحبوا مهزومين . ولم يتعلموا من تجاربهم شيئا ، فلو قامت بينهم وبين الفلاحين معركة فى الصباح ، لانساقوا إلى الشرك مهللين مكبرين .

وعادت الحارة لتغرق فى الصمت ، وراحت الأفكار تتوافد على حسان ، فيضيق بها ، وأراد أن يشيح بوجهه عن دنيا الآلام ، فارتدى ثيابه ، وتأهب ليخرج إلى الحانة ، فرارا من الخواطر السود التى تراوده وتضنيه .

وقابلته أمه فى الردهة فى أثناء ذهابه إلى الباب ، فقال لها فى رقة :

ـ مساء الخير .

فقطبت جبينها ، وأعرضت عنه ، وذهبت إلى غرفتها دون أن تنبس بكلمة ، فخرج وهو يحس أسى ، فما كان يحب أن يغضب أمه ، وأغذ السير حتى إذا مابلغ الحانة أكب على الشراب ، ليقضى على ذلك الوعى الذى يسومه ألوان العذاب ، وشكول التنغيص .

وظل جالسا وحده شارد البصر، يذرف من عينيه الدمع ، حتى إذا وافى ميعاد أوبته ، انصرف وصوته يرن فى جوفه :

« حسان ، إذا عدت إلى الشراب فلن أحدثك ما حييت ، حسان ارحمنى وارحم نفسك .. حسان عار عليك أن تستحل عرق أخيك . عد إلى رشدك ياحسان، حسان ، لست ابنى ... ابنى مات يوم هجر الدار، أما أنت فلست ابنى .. لا أدرى من أين جئت .. أمى غضبى ، حاقدة على .. كيف يحقد الجانى على الضحية ؟!

إن كنتِ كريها بغيضا ، فأنا سيئة من سيئاتها .. لم أخلق نفسى ، ولم ألتمس منها أن تأتى بى إلى هذا العالم » .وفتح الباب ودخل ، فوجد أمه ترنو إليه فى غضب ،

فاضطرب ، وقال لها وهو يتلعثم :

ـ مساء الخير.

فدارت على عقبيها برمة به ، وأولته ظهرها ، وذهبت إلى غرفتها تكفكف

دمعة اليأس الحائرة فى مقلتيها .

ـ ٤٧ ـ

أطلت زهيرة وعزيزة من النافذة ، وإذا بزكريا وخالد وجلال ينطلقون فى الحارة ، وقد ارتدوا ثياب الخروج وإذا بسعيد ويحيى يجدان خلفهم ، كانوا فى طريقهم إلى بيت الحاج كرم ، قالت زهيرة لتجرعزيزة إلى الحديث الذى تحبه وتشتهيه :

ـ يعجبنى فى صفية عنايتها بأولادها ، لاتهملهم ، ولاتضيق بخدمتهم، فهى تكاد تقتل نفسها من أجلهم .

فقالت عزيزة فى هدوء :

ـ والله إنى أشفق عل بنت البرنسيسة ، حرام أن تقتل نفسها فى سبيل أحلامها ، إنها تظن أنها تعد أولادها ليكونوا حكاما .

ولم يعجب زهيرة هدوء عزيزة ، إنها تريد أن تشنف أذنيها بالسباب ، وأن ترضى حقدها الدفين ، الذى تحسه نحو الناس جميعا ، وإن حاولت أن تخفيه بإظهار الحب والتودد إلى كل من تجالسه فى تملق ورياء فقالت :

ـ نجحت فى تربية زكريا ، فهو الآن فى المدارس الثانوية ، بينما يعمل سيد وسليمان فى الدكاكين ، ليتعلما حرفة .

فقالت عزيزة :

ـ لافرق بين أن يعمل زكريا كاتبا فى مخبز ، أو أن يعمل سيد صانعا ، كلها وكسة ، ولو أنصفت بنت البرنسيسة لأرسلت جميع أولادها إلى الدكاكين وأراحت نفسها من تلك المصاريف التى تدخرها من فمها وفم أبنائها .

وخرجت صفية ، وسارت فى الحارة وإلى جوارها تحية وقد اكتمل نموها ، فجعلت عزيزة ترقبها صامتة هادئة ، بينما كانت زهيرة تشعر بالحسد ينهش جوفها ،

وزاد فى ضيقها صمت أختها ، فقد كان السباب المتدفق من فمهاعلى الدوام البلسم الشافى لمرض قلبها .

وبلغ الأولاد بيت الجد ، فلمارآهم الحاج كرم قابلهم ببشاشة مرحبا ، وكان صادقا فى ترحيبه حتى خطر له أن يعطى كلا منهم قرشا ، ولكنه أعرض عن ذلك، خشية أن يصير الدفع ضريبة حتمية ينبغى سدادها فى كل زيارة، وخوفا من أن يصبح الدفع للأولاد من تقاليد الأسرة !

ولمح زوجه قادمة ، فهتف بها :

ـ عائشة ، جهزى للأولاد طعامهم .

وكانت هذه أول مرة يحث فيها الجدة على تجهيز الطعام لأولاد صفية ، بعد أن كان ينهاها عن أن تكثر لهم الطعام ، إشفاقا عليهم من أمراض الكظة ! وشعر الأولاد بحرارة الاستقبال فامتلئوا غبطة . وكان جلال أكثرهم فرحا ، فالطعام أشهى شىء إلى نفسه .

ودخلت صفية ، فخف إليها أبوها يستقبلها ، وجلس إليها يحادثها ، فراح يقول :

ـ كنت أود أن ترى عليا فى المحكمة ، لن أنسى ما حييت ما فعله من أجلنا . كاد الدكان يذهب من أيدينا ، ولكنه أجره لصديقه اليونانى ، وهو حماية ، فتعذر الحجز عليه ، وأقام محاميا يدافع عنا حتى كسبنا القضية ، آه ياصفية لورأيت وجه عمك ساعة نطق القاضى بالحكم بدفع تعويض بسيط له ، وساعة أن قال على فى المحكمة إننا لا نقبل دفع ذلك التعويض إلا كإحسان منا ، كان وجه عمك أشبه بوجوه الأموات ، لاأكتمك ياصفية أننى فرحت فى ذلك الشيخ الذى يدعو على من فوق المنبر فى كل جمعة .

وتهدج صوته ، واضطرب رهبة :

ـ لماذا يدعو على ، إننى لم أفعل مايستوجب غضب الله ، هذا الدكان دكانى ودكان أولادى ، فكيف يستحل أن يغتصبه منا ؟.

واستمر الحاج يتحدث فى حماس الأطفال ، وصفية تصغى إليه مسرورة، فهذه

أول مرة تسمع فيها مدحا فى زوجها من أهل بيتها ، وانقضى النهاربهيجا لطيفا ، وجاء مصطفى وكمال وحسين ، فلما رأوا أولاد على ، أقبلوا عليهم يلاطفونهم ، ويظهرون لهم ودهم ، كان أثر مافعله أبوهم لازال عالقا بأذهانهم ، ولكن سرعان مايسدل النسيان ستائره على ذلك الأثر، وسرعان مايتبخر الاعتراف بالجميل من رءوسهم ، فتعود نظرتهم إلى أولاد الرجل الفقير إلى ماكانت عليه ، فماكان ذلك الجميل الذى أسداه إليهم ليغير من طباعهم ، فهم لايصيخون إلا إلى رنين الفضة ، ولايبهرهم إلاضياء الذهب، ولايستولى على احترامهم شىء مثل أكداس أوراق « البنكنوت » .

ـ ٤٨ ـ

فاطمة مسجاة فى فراشها ، ووجهها ذابل تعلوه صفرة ، وشعرها الأبيض بارز من المنديل الذى تعصب به رأسها ، وأولادها يتقاطرون عليها فى الصباح، يستفسرون عن صحتها ، وأولاد على الذين يبيتون معها فى شقتها يغدون ويروحون ، ينظرون إلى الجدة صامتين ، ثم يغادرون البيت إلى المدرسة .

ودخلت زهيرة على أمها، وقالت وهى تحاول أن تظهر الوله والاهتمام :

ـ كيف أنت الآن ياأمى ؟

فقالت فاطمة وفى نظراتها وهن :

ـ أحس مناشير تنشر عظامى ، ومطارق تدق رأسى .

فقالت زهيرة وقد قطبت جبينها ، وعلت وجهها صرامة :

ـ ليتنى أستطيع أن أحمل عنك هذه الآلام .

فنظرت إليها عزيزة نظر استخفاف ، ولولا أمها المريضة لأطلقت للسانها عنانه ، ووخزت ذلك النفاق ، ولما لم تستطع أن تنفس عما فى خاطرها ، نظرت إلى أخواتها ثريا وزينب وحميدة نظرة استخفاف ، كأنما تقول لهن : « اسمعن هذه المرائية » .

وأقبل على وجلس على حافة الفراش ، وقال لها فى رقة :

ـ كيف حالك ؟

فانفجرت شفتاها عن أسنانها ، وقالت :

ـ الحمد لله .

وجاهدت حتى فتحت عينيها ، ورنت إليه رنوة طويلة ، كأنما تتملأ منه . كانت تحبه ، وتحس راحة إذا أقبل عليها يحادثها وتحادثه ، وجاءت صفية تحمل كوبا به قليل من شراب الينسون ، وقالت لها :

ـ اشربى هذا ، فما دخل جوفك شىء من البارحة .

فقالت فاطمة فى ضعف :

ـ لاأقدر.

فأخذ على الكوب من زوجه ، ورفع رأس أمه فى حنان ، وراح يصب لها الينسون وهى تجاهد نفسها ، وترغمها على الشراب حتى ترضيه ، ثم أعاد رأسها على الوسادة فى رفق وهو يقول :

ـ بالشفا إن شاء الله .

واستيقظ حسان من نومه ، فذهب إلى حيث ترقد أمه ، ومال عليها وقال :

ـ لعلك بخير اليوم يا أمى .

فأشاحت بوجهها عنه ، وقد زوت ما بين حاجبيها ، وبان فى وجهها الأسى، فشعر بموجة من الحزن تجتاحه ، وأطرق هنيهة ، وزاد فى تعذيبه أن صك أذنيه صوت زهيرة وهى تقول : دعها الآن يا حسان .

فانسحب من الغرفة وهويحس وخزات من الألم تخز روحه ، واتجهت إلى زهيرة نظرات أخواتها الغضبى تكاد تفتك بها ، ولم تستطع عزيزة أن تكبح جماح لسانها ، فقالت :

ـ لاتحاولى أن تظهرى الود لأمك على حساب حسان ، يكفى حسان ما ناله..

وكادت زهيرة تزل ، فينطلق لسانها بما تحسه نحو أخيها ، كادت تقول : « إنه سكير ، لا يرجى منه خير ، فإذا كانت أمى تبغضه فهى محقة فى ذلك البغض ،

وإنى أشاطرها مشاعرها ». ولكنها صمتت وإن رنت هذه الأقوال فى جوفها ، ثم غلبها طبعها المنافق ، فقالت :

ـ أشفقت على أمى ولم أقصد إساءة حسان .

ونهضت وهى تقول :

ـ إنى ذاهبة إليه أصالحه ، وأطيب خاطره ، فلا يهون على أن يغضب أخى منى .

وخرجت إلى حيث كان حسان ، ومال على على أمه وقال :

ـ بالله يا أمى لاتغضبى على حسان ، إنه يستاهل صفحك .

فغمغمت فاطمة فى حزن :

ـ أقسمت ألا أحادثه ما دام فى نفس يتردد . فضل الخمر على .

فقال على فى صدق :

ـ إنه يستحق العطف فلا تحرميه من عطفك .

فقالت فاطمة فى وهن :

ـ هيهات أن أصفح عنه ، سأموت وقلبى عليه غضبان .

وغرقت الغرفة فى الأسى ، وسادها صمت ، ولو سمعت زهيرة ذلك القرار لتنافرت مشاعرها مع مشاعر الحزن التى انبثقت من الأفئدة ، فهى تنشرح لمصائب الناس ، كأنما بينها وبينهم عداء .

ومر النهار ، ووفد الليل ، واشتد المرض على الجدة ، وحاول حسان أن يمكث إلى جوار أمه ، ولكن الأفكار السود راحت تساوره فى قوة حتى كادت تفتك به ، فخرج إلى الحانة ليخدر نفسه التى تذيقه ألوان الاضطهاد كلما استيقظت أو أفاقت من غيبوبتها .

وفى هدأة الليل جلست صفية إلى جوار الجدة تسهر على راحتها ، حين كانت بناتها فى فرشهن ينعمن بلذاذات النوم ، وفتح الباب ، ودلف منه حسان ، ودخل فى هدوء ، وجلس بالقرب من أمه يرنو إلى وجهها الذابل ، فترقرقت الدموع من مقلتيه .

وفتحت فاطمة عينيها ، فشعرت كأنما تنظر من غشاوة ، ورأت بالقرب منها شبحين ، ميزتهما فى جهد ، كانا حسان وصفية ، فهتفت فى صوت واه :

ـ حسان .. حسان .. أشرب .

فخف حسان إليها بكوب الماء ، وتجرعت منه جرعة ، ثم أسبلت عينيها وألقت رأسها على صدرها ، وسلبت منها الحركة إلى الأبد ، فارتمى حسان على صدرها .. وراح يهتف فى وله ، ودموعه تغسل وجهه :

ـ أمى .. أمى .

وخفت النسوة إلى أمهن وهن يولولن ، ونظرت زهيرة إلى وجهها ، وصاحت لتسمع الجيران ، ليشهدوا لها بالبر والوفاء :

ـ ليتنى فديتك يا أمى .. ليتنى مت قبلك .

والتفتت إليها أخواتها ، كانت نظراتهن تصرخ فيها : « كذابة » ، وشغلن جميعا بتنسيق المكان ، أملا فى النجاة من ألسنة المعزيات ، وياله من أمل عزيز المنال !

وجاء الصباح ، وتقاعس الأولاد فى ارتداء ثياب المدارس ، كانوا يحسبون أن موت جدتهم شفيع لهم فى الغياب ، ولكن ما إن لمحتهم صفية حتى نهرتهم ، وأمرتهم بالذهاب إلى مدارسهم ، فما كانت تقبل أن يقف حائل فى سبيل تحصيل أبنائها علومهم ، وما كانت تعتقد أن موت فرد يستوجب أن تكف عجلة الزمان عن الدوران .

ـ ٤٩ ـ

هبط الأولاد إلى الحارة يلعبون ، فهم فى إجازتهم السنوية ، راح خالد يلعب الكرة ، وهى لعبته المفضلة فى الحارة والمدرسة ، ولولا تعلقه بها ، ورغبته فى الالتقاء بزملائه فى فريق المدرسة لكانت المدرسة عبئا ثقيلا على نفسه ، ولراودته فكرة الفرار منها ، مقتفيا آثار ابنى عمته سيد وسليمان .

وانضم جلال إلى رفاقه ، كانوا يفضلون اللعب « بالبلى » ونوى المشمش ، وقد ظهرت على جلال أعراض المقامرة ، فهو يجازف بكل ما معه من « بلى » أو نوى ، على أمل أن يكسب ما مع الأولاد جميعا ، ولكنه كان غالبا ما يئوب إلى البيت وقد خسر ما معه .

وأخذ سعيد ويحيى يلعبان مع الأطفال الذين كانوا فى مثل سنهما ، كان سعيد يحمل نبلا دائما ، يلتقط الحصى من الأرض ويصوبه إلى العصافير المعششة فى الخربة ، وحول إطارات الشبابيك ، وفى كوات المنازل ، وما كان اللعب يشغله عن رعاية يحيى ، كان ينتظره إذا قصر فى الجرى ، ويأخذ بيده إذا تعثر ، وما كانا يفترقان أبدا ، يعدوان معا فى النهار ، ويشتركان فى فراش واحد إذا ما لف الليل الكون فى ردائه الأسود .

وكان زكريا يعرف طريقه ، إذا ماغادر المنزل ، كان يتجه إلى المسجد ، يقرأ للشيخ الضرير ويناقشه فيما يقرأ ، فقد صار يستشعر لذة روحية كلما قرأ أو ناقش ، وتفتق ذهنه بعد أن أصبح شابا ، وقطع مرحلة طويلة فى المرحلة الثانوية .

كان صوت الكرة يتجاوب فى الحارة ، وصيحات اللاعبين تنبعث حارة حادة ، وخالد يلعب بكل حواسه ، يبذل كل جهده أن لاتطيش منه الكرة ، وكان يضايقه أن يلعب لعبة خاطئة ، لم يكن يثور إذا ما اتهم بالتقصير فى الدراسة ، ولكن كان مرجل غضبه ينفجر إذا ما قيل له ـ ولو على سبيل إثارته ـ إنه تقاعس فى لعبه، أو أن هدف فريقه قد أصيب بسبب خطئه !

هجم خالد على الكرة مندفعا ، وهم بضربها ، ولكنه تيقن أنه لو ضربها لأصاب مباريه الذى تشترك الكرة بينه وبينه فأحجم ، وإذا بالمهاجم يصيبه فى رجله ، فيسيل منها الدم ، فخرج يجففه ، ولمحه جلال ، فقال له:

ـ اصعد وكل ، لتعوض الدم الذى نزف منك .

لم يكن جلال ليعرف غير الأكل لتطبيب الجروح ، ومداواة الأسقام ، ولكن خالدا لم يصغ إليه ، بل جفف دمه ، وعاد إلى اللعب وقد تعلم أن لايحجم إذا هجم، ففى الإحجام إصابته ، بينا فى الهجوم إصابة سواه .

واندمج سعيد فى اللعب ولكنه كان ضيق الصدر ، كان يرى أحد الغلمان يخط على الأرض خطا أبيض ، ويرغم غلاما آخر على عدم تجاوزه ، مهددا إياه إذا ماتخطاه ، والغلام المضطهد ينفذ ذلك فى ذلة وانكسار ، ثار سعيد لذلك الهوان ، وما أسرع أن تتحرك شفقته إذا ما وقعت عيناه على ضعف أو اضطهاد ، فذهب إلى الغلام المطرق فى ذلة ، ووضع يده فوق كتفه ، وصاح فى وجه الاستبداد :

ـ سنتجاوز هذا الخط ، ونذهب حيثما نشاء ، سنرى ماذا تستطيع أن تفعل .

وصمت الأولاد جميعا ، ونظروا وقد اشرأبت منهم الأعناق ، وتقدم سعيد وهويضغط كتف الغلام ، يشجعه ويشد أزره ، فتقدم الغلام وهو يضطرب ، والطفل المستبد يرميه بنظرات يتطاير منها الشرر، ترتجف له فرائصه ، ولكنه أخذ يتقدم لايقوى على النكوص على عقبيه ، فسعيد يجذبه معه فى تقدمه ، لايترك له فرصة الإحجام .

بلغ الغلام المنطقة المحرمة ، فأحس ـ على الرغم من دقات الخوف المدوية فى صدره ـ راحة تكتنفه ، انعكست على وجهه ، وانداحت حتى غمرت الأولاد جميعا، فانبسطت أساريرهم ، إلا ذلك الطاغية الذى أحنقه أن تتحطم كبرياؤه ، وأن يذوب سلطانه ، فاربد وجهه ، وطاش صوابه ، فاندفع صوب سعيد ، وأخذ بتلابيبه ، وقد عقد العزم على أن يعيد هيبته التى تقوضت بضرب ذلك الذى هب يؤلب عليه الضعفاء .

وتلاحم الغلامان ، كل يحاول أن يطرح الآخر أرضا ، وكاد سعيد يتعثر تحت ضغط ذلك المستبد الذى استمات فى القتال ، ولكنه استجمع قواه ، وتحمل الضغط فى صبر ، ساءه أن يتحدى الطغيان ، ثم يكون نصيبه الإخفاق .

ولف سعيد ذراعه حول عنق الغلام ، ووضع ساقه خلفه ثم دفعه بكل قوته فاختل توازنه وسقط ، وسقط سعيد فوقه ، وكان ذلك فصل العراك ، استسلم الطاغية للهزيمة ، فنهض ينفض التراب عن جلبابه فى خزى ، ثم سار مطأطئ الرأس لايلوى على شىء .

وجاء من أقصى الحارة غلام يسعى ، فى يده صحيفة ، وما إن لمح رفاقه

حتى صاح وهو يعدو مرحا :

ـ نجحت .. ظهرت النتيجة .. نجحت !

فخف إليه خالد ، وراح يقلب فى الصحيفة خافق القلب مضطربا ، ثم صاح وهو ينطلق كالعاصفة صوب البيت :

ـ نجحت .. نجحت !

وصعد الدرج قفزا ، ودخل على أمه يصيح :

ـ نجحت !

فرنت صفيه إليه فى حب وقالت :

ـ مبارك !

وانبثقت فى جوفها سعادة ، وانبعث فى ظلام المستقبل بصيص من الأمل ، وهبط خالد منشرحا يزف البشرى إلى من فى الدار، وما كان ينفعل لها أحد، نظرت إليه عزيزة فى استخفاف ، كأنما تقول له ياوكسة ، وتغير قلب زهيرة ، فقد غمرتها موجة من الحسد ، أما عماته الأخريات فما كان أمرنجاحه أورسوبه يعنيهن فى قليل أو كثير .

ووقف فى الحارة بين رفاقه يتحدث ، ورأى سيدا وسليمان قادمين ، فهرع إليهما وقال :

ـ نجحت ! ظهرت نتيجة الابتدائية .

فقال له سيد وهو ينظر إليه فى زراية :

ـ أأنت تتتلميذ لا أكثر وولا أقل ، أأما أنا ففرجل أكسب نقودا .

وقال له سليمان :

ـ تركنا المدارس ، وأصبحنا رجالا ، إن هى إلا شهور تمر ثم نتزوج .

وفى جوف الليل أخذ على وصفية يتناجيان ، كان على يعرف فى قرارة نفسه أن زوجه تنهض بالعبء كله ، وأنه لولاها لتقوض المنزل فوق رأسه ، فما يقدمه لها من مال قد قل ، وإن زادت تكاليف الأسرة ، وماكان ذلك ذنبه ، فقد ضحل رزقه ، حتى لكأنه ينبع من الصخر ، ولولا حسن تدبيرها لقاسوا جميعا ذل

الحرمان . فرأى أن يدفىء صدرها بحرارة الأمل ، فقال :

ـ قابلت اليوم مهندسا فى الحكومة ، أكد لى أن الوزارة شارعة فى شق الشارع الجديد ، إننى أترقب ذلك اليوم لأبيع نصيبى فى البيت ، وأنفقه على تربية الأولاد ، فقد أصبحوا فى حاجة إلى مال كثير ، إننى على ثقة من أن ذلك اليوم قريب .

ولم تحلق صفية معه ، فما كانت تبنى مستقبل أبنائها على الأوهام ،إنها ترى الطريق طويلا ، فبينها وبين تحقيق أهدافها كفاح مرير ، فلن تنال بغيتها إلا بالصبر الطويل ، فقالت لزوجها فى إيمان عميق :

ـ اطمئن ، ولاتطمع إلا فى رحمة الله ، إن الله لا ينسى عباده .

ـ ٥٠ ـ

النجرو جالس على حجر فى الخربة ، يعبث فى السبحة الخشبية الطويلة التى يديرها حول رقبته ، وقد تغبرت لحيته واتسخ قميص الخيش الذى يرتديه ، وشخص بصره إلى الفضاء ، وإذا بورقة يعابثها الهواء ترقص فى إغراء أمام عينيه فتنبسط أساريره ، ويهتف فى انشراح :

ـ رسالة من جورج .

وينهض خفيفا ، ويمسك بالورقة بين يديه ، ويتفرس فيها بإمعان ، فيتقطب جبينه ، ثم تتهلل أساريره ، وسرعان ما يعود إلى التقطيب ، وطوى الورقة الصفراء ووضعها بين صدره وقميصه الخشن ، وسار حتى بلغ حافة الخربة ، ووقف يحدث المارين فى الحارة المنخفضة ، فبدا كخطيب على منبر ، يتأهب لحض الناس على التقشف والزهد ، قال :

ـ أرسلت جورج إلى رسالة تتوسل فيها أن أسافر لمقابلتها ، فهى لاتطيق البعد عنى ، فقلبها يدق بحبى ، إنها لا تستطيع أن تنسى تلك الليلة التى أمضتها بين أحضانى ، ولكنى لن أصغى إلى توسلاتها ، لن أنظر إليها ولو

جاءت من بلادها زاحفة على ركبتيها . حاولت مرة أن تعرض عنى لتذلنى ، ولكننى رجل لا يذل لامرأة ، حتى ولو كانت جورج . أقسمت ألا أنطق أسمها ، وقد بررت قسمى . لم يأت اسمها على طرف لسانى ، فأنا رجل لى كرامة لا أغفر إساءة امرأة ، ولو كانت جورج .

وابتسم الرجال فى استخفاف ، وانطلقوا ساخرين ، وكانت حليمة تصغى إليه، يكاد قلبها يدمى أسى ، فحديثه يحرك أشجانها ، وينفخ فى جمرة الحرمان المتوقدة بين جوانبها ، فتلسع روحها ، إنه يذكرها بهول المناظر والمشاعر التى تجتاحها كلما رأت فى الخربة كلبا وكلبة .

وأخرج النجرو من جيبه الورقة الصفراء ، ونشرها وقال :

ــ تريدون أن تسمعوا رسالتها ؟ اصغوا إلى .

واعتدل فى وقفته ، ولاح الجد فى وجهه ، وذهب للقراءة ، ولكنه صاح فى فزع :

ــ لا ، لن اقرأ رسالتها بنفسى ، أقسمت أن لا أذكر اسمها .

ولم يدر بخلده أنه لايعرف القراءة ، ولكن كبرياءه تيقظت ، فراح يدير عينيه فى الحارة ، يبحث عمن يعهد إليه فى قراءة رسالتها ، فلمح سيدتين سائرتين بالقرب منه ، كانت إحداهما تسير وقورا ، ترتدى ثيابا تألفها أعين الحارة ، وكانت الأخرى تنطلق فى ثياب غالية لاعهد للحارة بها ، فذهب إلى السيدة المتأنقة وقال ، وهو يقدم إليها الورقة الصفراء القذرة :

ــ اقرئى أنت رسالتها .

فاربد وجه جليلة ، ونهرته فى قسوة ، فخفت إليها حليمة تعتذر عنه ، وتلتمس منها أن تصفح عما ارتكبه ، فما يدرى ما يفعله ، فالتفتت جليلة إلى أمها وقالت فى ضيق :

ــ لماذا يترك مثل هذا المجنون يعكر أمن الناس ؟!

وعرجتا على البيت ، وجليلة ضيقة الصدر متبرمة ، كانت تأنف من السير فى الحارة ، بعد أن تبرع زوجها ببعض أموال ومنح رتبة الباشوية ، وصارت زوجة

الباشا ، فما كان للحارة أن تتشرف بها ، لولا اضطرارها لزيارة أختها .

وأقبلت صفية على أمها وأختها ترحب بهما ، وكانت تغادرهما أحيانا ، فقد شغلت عنهما بتدبير أمرغذائهما ، كانت تتمنى أن تقدم لهما أشهى الأطعمة ، ولكنها كانت تعلم أن ماتقدمه لهما على حساب بطون أبنائها ، فإذا بذرت اليوم ، فعليها أن تقترغدا ،

واستدعت خالدا ، وأعطته خمسة قروش ، وطلبت منه أن يشترى سمكا من الصيادين ، فراح الصبى يقطع أميالا ليعود إلى أمه بسمك كثير ، كانت على ثقة بأن ما تقدمه تافه إذا لم تتفنن فيه ، فبذلت كل مهارتها لتقدم لزوجة الباشا طعاما شهيا .

وملئت البطون ، ودخل على إلى فراشه ، ونام ملء جفونه ، ومالت الشمس نحو المغيب ، فانصرفت الجدة وجليلة بعد أن دار الحديث حول الباشا ، ولم تذكر جليلة اسم لبيب مرة ، فحز ذلك فى قلب صفية ، فد كان يسرها أن تسمع من أختها إعجاب الباشا بابنها ، وبما يبذله فى الدائرة .

ونهض على من نومه ، وراح يرتدى ثيابه ، ويتأنق فى مظهره . كان يتأهب للخروج للسهرمع رفاقه ، ومرت به صفية وأصلحت قفطانه ، ووقفت تنظر إليه وهو ينصرف حتى غاب عن عينيها .

ودخلت إلى المطبخ تغسل الأوانى والصحاف ، ثم ذهبت إلى الحمام تغسل الثياب التى اتسخت ، ووقف خالد ينظر إليها فى إعجاب وإشفاق ، فهو يراها تتحمل أعباء البيت وحدها ، حتى أبوه ألقى عبئه ، فهو يضع فى يدها قروشا قليلة ، ثم ينصرف إلى المقهى ناعم البال ، مرتاح الضمير ، وقفزت إلى رأسه فكرة ، فدنا منها وقال :

ــ ما الذى يضطرك إلى أن تحيى هذه الحياة القاسية ؟!! لماذا لاتذهبين إلى بيت أبيك ، لتعيشى هناك عيشة ناعمة ؟

فرنت إليه فى حب ، وقالت وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :

ــ إن من ترزق أولادا مثلكم لاتفكر فى أن تفر من قسوة الحياة وتتركهم

للزمن يطحنهم ، إننى هنا سعيدة ما دمتم أنتم سعداء ، إننى هنا من أجلكم .

وشردت ببصرها ، فلم يكن أبناؤها وحدهم الذين يشدونها إلى هذا البيت ، فقد خفق فيه قلبها بالحب لأول مرة ، كانت تحب زوجها ، تحب فيه بساطته وطيبته وفروسيته ، وتأسى على إخفاقه !

ـ ٥١ ـ

أكب إسماعيل عل الطعام ، كلماملأت له زوجه الصحاف غيب مابها فى جوفه ، ومالت عزيزة تتناول الصحاف الفارغة ، وهى ترمقه فى إنكار ، ثم انطلقت إلى المطبخ حانقة تزمجر :

ـ خرق المحروق بطنه فلم يعد يشبع .

وعادت تحمل الصحاف ، ووضعتها أمامه ، وقالت فى حدة :

ـ بالله قل لى ماالذى تستفيده من الحشيش ؟! خرب جيبك وخرب بيتنا !

فقال إسماعيل ، وهو يأكل ولايدرى :

ـ انسجام ، حتى الحديد « تكيف » .

فقالت عزيزة وهى تحرك ذراعها فى الهواء يائسة :

ـ ياوكسة .

فقال وقد توقف عن الطعام ، وشرد بصره :

ـ وضعت مرة فى فرن القطار قطعة من الحشيش ، فانطلق فى سيره منسجما عاطر الأنفاس ، ماأكثر القطر التى قدتها ، ولكنى لم أر فى حياتى قطارا ينطلق منشرحا كما انطلق ذلك القطار فى تلك المرة .

فقالت عزيزة فى ضجر :

ـ اعقل يا رجل ، سيذهب المحروق بعقلك .

فرنا إليها من بين جفنيه المنكسرين وقال :

ـ احترت معك ، إذا سكرت غضبت ، وإذا حرقت المحروق غضبت ، بالله

قولى لى ماذا أشرب ؟

فقالت عزيزة نافدة الصبر :

ـ أصوت ؟ أصوت ؟ والله إن لم تسكت أصوت وأملأ عليك البيت ناسا .

فقال إسماعيل وهو ينكمش :

ـ خرست .

وأخذ يحيى وابن عمته يعبثان فى الشقة ، كان يحيى يقضى أغلب أوقاته عندهم ، وكان إسماعيل يرسله مع ابنه لشراء « مكيفاته » ، فإذا احتاج إلى الحشيش أمرهما أن يشتريا له مكيف حرف ح . أما إذا أراد شراء أفيون فكان يأمرهما بشراء « شيكولاتة مكيفة » وقد اكتسب الغلامان فى شراء هذه المكيفات خبرة !

وعثر الولدان على قطعة صغيرة من الشيكولاتة اقتسماها وأكل كل منهما نصيبه ، ومر بعض الوقت وإذا بهما ينظران إلى الأشياء فى بلاهة ، وإذا بيحيى يقول لابن عمته فى دهش :

ـ انظر إلى الجمل الخارج من المرآة !

فينظر ابن عمته إلى الصوان المفتوح ويقول :

ـ فخدة لحم معلقة فى صوان الملابس !

ومرت عزيز ة بهما فأنكرت حالهما ، ووقفت تصغى إليهما قليلا ، فحزرت كل شىء ، فأحست ضيقا فى صدرها ، فذهبت ثائرة إلى حيث كان زوجها ، وصاحت فيه :

ـ تعال انظر ماذا فعل أفيونك بالأولاد ، انفلق إذا اردت أن تنسجم أنت وقطارك ، أما الأولاد فلا أسمح أبدا بإفسادهم .

فقال وقد بان الضيق فى وجهه :

ـ كفى صياحا .

ـ سأصوت حتى أجمع الناس عليك ، ليروا ماذا فعلت .. يوه ! يوه !

فقام غاضبا وهو يقول :

ـ ملعون أبو الناس .

وذهب إليها ، ولف شعرها على يده ، وجذبها إلى الأرض وهو يلطمها عل وجهها بيده الأخرى ، وهى تصيح وتصيح :

ـ ياوحش ، ! يا حشاش . ياسكرى . يابن الكلب .

وخف من فى الدار إليهما ، واكتظت الشقة بالأولاد ، ودوت الأصوات، فقالت زهيرة :

ـ هس .. كفى صياحا . سيسمع الناس صوتنا .

وهبت الرياح فى الخارج مزمجرة ، وهطلت الأمطار غزيرة ، فانسل سيد من بين الواقفين ، وهم بالانصراف ، ولفتت حركته الأنظار ، فقالوا له :

ـ إلى أين يا سيد ؟

فقال وهو يهبط فى الدرج :

ـ خخارج .

فقالوا له فى خبث :

ـ فى هذا المطر ؟

ـ إإذا انقض البيت عليكم فمن يبيستدعى الإسعاف غيرى ، ووإذا متم تحت الأنقاض ، ففمن يققوم بيدفنكم غيرى .

وانساب فى الحارة مهرولا ، فما كان يبيت فى البيت إذا هبت عاصفة أو هطل مطر ، كان يخشى أن ينهار البيت فوقه ، فكان يفر بنفسه ، لا يفكر فى أحد سواه .

وهدأت ثورة البيت ، مخلفة الميدان لثورة الطبيعة ، وساء زهيرة أن تستكين أختها بعد ذلك الضرب ، ودنت من حجرتها وأرهفت سمعها ، لعلها تشنف أذنيها بسيل من السباب الذى يشفى الصدور ، ولكنها سمعت ضحكات أختها ، فلوت شفتها فى امتعاض ، وغمغمت فى ضيق :

ـ والله إن أمرك ياعزيزة لعجيب .

ـ ٥٢ ـ

تأهب الليل ليدثر الكون فى ردائه الأسود ، فترك يحيى الحارة ، وذهب إلى البيت ، فهو يخشى الظلام ، ويرتجف إذا ماصعد فى الدرج المعتم وحده ، كان يتوهم أن شخصا سينقض عليه من خلفه ، فتضطرب أنفاسه ، ويتلفت مذعورا وهو يهرول كلما صعد درجة .

وكان يقبع فى الأمسية إلى جوار أمه وإخوته ، لايجرؤ أن يذهب ليشرب أو يطل من نافذة على الحارة ، كان يصور له وهمه أن الشياطين والمردة تمرح فى الخربة ، وكان ينتفض هولا إذا ما سمع فى الليل قصة مفزعة ، فقد كان ذهنة يتفتق للتصورات المرعبة ، فينقبض ويتقلص ومشاعرالخوف تعذبه وتضنيه .

ووضع العشاء ، فهرعوا إليه خفافا ، وبدأ السباق ، وما هى إلا دقائق حتى كانت المائدة خواء ، والصحاف فارغة ، وجلال يترقب مزيدا من الطعام ، فقد قام إخوته وظل جالسا ، وكيف يقوم وهو لايحس ضغط الأكل فى بطنه ، فهو لايقتنع بأنه شبع إلا إذا أحس وطء الكظة .

وراح يحيى يتمسح فى سعيد ، فالنوم يداعب عينيه ، ولكنه لايجرؤ على أن يذهب إلى الفراش ، فهو لاينام وحده ، بل يشارك سعيدا فى سريره، وما كان يدخل للنوم إلا إذا حن عليه أخوه ، وذهب معه إلى الفراش.

وجلس يهوم ، كان جفناه يسبلان برغمه ، ورأسه يسقط على صدره ، ولكنه كان يجاهد أن يقهر الوسن ، فهو يعرف أنه إذا استسلم له ، حملوه ودسوه فى الفراش وحده ، وتركوه فى الغرفة للجن والعفاريت .

ولمحته صفية وهو يتفزع فى جلسته كلما حاول النوم إن يضمه إلى صدره ، فأشفقت عليه ، وقالت لسعيد :

ـ أخوك يغالب النوم ، خذه واذهبا إلى فراشكما .

ونهض سعيد ، وأخذ أخاه من يده يقوده إلى السرير ، فانقاد له وهو مستريح ، واندسا فى الفراش ، والتصق يحيى بظهر أخيه ، ولم يكن ذلك كافيا ليسكن الطمأنينة قلبه الواجف ، فسحب اللحاف وغطى به وجهه ، حتى لا يرى أشباح الأشياء المنعكسة فى ضوء المصباح الواهن على الجدران ، فقد كان يجسمها له وهمه ، فيراها تمد إليه أذرعة قوية بشعة ، تبغى أن تقتلعه من جوار أخيه ، أو تكتم أنفاسه .

ومشى إليه النوم ، وراح فى سبات ، ومر الليل هادئا ، وإذا بصوت سائل يمزق السكون ، ويرن فى هجعة الكون رنين الجرس :

ـ فإذا شكوت إلى العباد فإنما   تزداد من ضرر الهموم وتندم

فهب يحيى على الصوت مرعوبا ، وراح قلبه يقفز فى صدره ، حتى يكاد يفر من فيه ، ولفته رهبة فتعلق فى عنق أخيه ، ودوى الصوت الأجش:

ـ وتنال حرمان المقاصد حيثما   تشكو الأمور إلى الذى لايرحم

وخيل للغلام أن الغرفة ملئت أبالسة وشياطين ، ولم يقو على احتمال ذلك الخوف الذى أريق فى جوفه فصرخ ، وهب سعيد على صراخه ، يسأله فى لهفة :

ـ ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

وأجهش يحيى بالبكاء . وهو يرتجف ، وارتفع الصوت مناديا ،

ـ وقلت للنفس قولا لست تأباه يانفس صبرا عل ماقدر الله

وفطن سعيد إلى ما يرعب أخاه ، فقام إلى النافذة وصاح :

ـ كفى صياحا يا رجل ، اذهب من هنا .

ولكن الرجل رفع عقيرته :

ـ لا ينبغى للقضا هم ولاجزع .

فضايق سعيدا إعراض الرجل عنه ، وعز عليه أن يتجاهل أمره ، فالتفت فى غضب يبحث عن شىء يقذفه به ، فرأى قلة على حافة النافذة ، فاختطفها فى حنق، وصوبها إلى الرجل بكل قوته ، فدوت فى الحارة دويا ، وقفز يحيى فزعا ،

وانهمرت دموعه تغسل وجهه .

وساد الكون سكون عميق بعد أن قرر السائل أن ينسحب فى صمت ، قبل أن تنهال على رأسه الأوانى والقلل ، وعاد سعيد إلى فراشه مطمئنا ، ولكن ولى ذلك الاطمئنان ، لما ألفى يحيى ينتفض ، ويشرق بدموعه .

ـ ٥٣ ـ

الحاج كرم ساهم واجم ، فالليل ينقضى وهو شارد وراء أفكاره ، والنهار يمر وهو منقبض الصدر حانق ، كان يقتر على نفسه ، ويغل يده إلى عنقه ، ليوطد مركز دكانه ، ولكن الكساد طاف به ، وزعزع أركانه ، فإذا لم يتداركه الله برحمته ، انهارت تجارته وأهون شىء على نفسه أن ينكب فى أعز ما عنده إلا فى ماله .

كان الحاج يتفتح كالوردة كلما ربت أرباحه ، وكان ينشرح صدره كلما فكر فى مستقبل أبنائه ، سيترك لهم محلا يضمن لهم حياة رغدة سعيدة ، فلن يخشوا الفقر ، أو يهابوا الحرمان ، أما وقد أصاب تجارته البوار، وراحت أرباحه تتسرب من بين يديه وهو راغم ، فقد ركبه الهم ، وانتابه القلق ، وبات يخشى المسغبة ، ويرتجف فرقا إذا مافكر فى الأولاد ، فذوى وذبل ، وصار حليف السهاد ، لاتغمض عينه إذا هجع الناس ، ولا يستريح رأسه من ترادف الأفكار التى تساوره فى قسوة وإصرار .

ولم يحتمل الجسم الواهن استبداد الذهن الواجف ، فسقط الحاج مريضا، ولزم فراشه ، ولم ترحمه نفسه ، كانت تعذبه بأفكارممعنة فى الدكنة ، تذيب روحه وتهد كيانه ، حتى إذا ما جاء مع المساء أبناؤه مصطفى وكمال وحسين ، ودخلوا عليه مستفسرين عنه ، راح يسألهم فى لهفة عن حال الدكان، ويرشدهم إلى مايفعلونه ، ويأمرهم أن يتركوا مايحسب أنه يستعصى عليهم ، حتى يعود إلى عمله معافى ، بارئا من مرضه .

وازداد ضعفه وهزاله ، وخطرلأبنائه أن يستدعوا طبيبا يعوده ، ولكن لم يجرؤ أحدهم أن ينفذ ما دار بخلده ، أوحتى يعرض عليه الفكرة ، كانوا فى حضرته لا يفكرون ولاينطقون ، فهو الرأس المدبر ، وهو اللسان الناطق، فعليه أن

يشير ، وعليهم أن يلبوا الإشارة دون تدبر أو تفكير، وكان ذلك يرضى كبرياءه ، ولو خطر له أن أحدهم فكر فى أن يفكر لأحنقه ذلك ، وعده جحودا وعقوقا .

وراحت صفية تعود أباها ، وكانت تستصحب معها فى كل زيارة ولدا من أبنائها ، فكان كل منهم يذهب إلى بيت جده وفى قلبه إحساس يخفق به ، وكانت الأفكار والمشاعرمختلفة متباينة ، فزكريا ينطلق إلى ذلك متراخيا متبرما ، ولولا حرصه على أن لايحرج أمه لأحجم عن مصاحبتها ، فهو يرى تقرب أخواله من أبناء خالته ، ونفورهم منه ومن إخوته ، وإن كان ذلك النفور محجبا بحجاب رقيق من المجاملة التى تخدش الكبرياء ، وتخلف فى القلب نقطا سوداء لايمحوها الرياء . إنه ليفطن إلى أن مايجذبهم إلى أبناء خالته هو جاه أبيهم وأمواله ، وإن ماينفرهم منه فقر أبيه ، وإنه ليعجب من ذلك الانجذاب وذلك النفور، فماكان غنى زوج جليلة برافعهم ، وما كان فقر زوج صفية بخافضهم ، ولكنهم كعباد الشمس الذى لا يستطيع أن يتحرر من رقه، أو الوثنى العاكف على صنمه الغارق فى البله والجمود.

وكان خالد يذهب إلى بيت جده متفتح النفس ، منشرح الفؤاد ، كان يقبل على درية ابنة خاله ، يحادثها ويشاركها فى لهوها ، وكان يستشعر راحة بقربها ، حتى إنه لم يكن يفطن إلى ذلك الهوان الذى خدش كرامة زكريا ، ووخز كبرياءه وجعل يفكر أكثر من مرة فى أن يقيم بينه وبين ذلك البيت سدا .

أما جلال فكان بيت جده يتجسم فى مخيلته فى جدته ، فعائشة تحنو عليه ، وتضع أمامه طعاما كثيرا يغيبه فى بطنه .كان يحب ذلك البيت ، وكانت جدته موضع إجلاله وحبه ، فشب يعظم البيت الذى يكتظ بالأطعمة ، ويحترم الناس الذين تحتفل موائدهم بمالذ وطاب .

وراحت صفية تعنى بأبيها ترفعه ليشرب أو يأكل ، على رغم إصراره ، أنه شبعان ولارغبة له فى الطعام ، وتريحه وتغطيه وترشده إلى مايفعله ، وإلى ما لا ينبغى أن يفعله ، فينفذ أشاراتها ، وماكان يقبل أن يشير إليه أحد بكذا وكذا ، وهو السيد فى البيت ، ولكنه كان يطيع صفية ، ويحترم آراءها ، ويحس راحة

إذا أعارها سمعه ، وأصغى إلى حديثها الرتيب .

ورنا إليها بعينيه الواهنتين ، ورفت على شفتيه المرتجفتين شبح بسمة ، ثم همهم :

ـ ليتك ياصفية كنت الرجل ، وكانوا هم البنات .

ولم تنفعه رعاية صفية وعنايتها ، ففى ذات مساء دخل أولاده عليه ليقصوا عليه أخبار الدكان ، ويتلقوا منه أوامره ونواهيه ، فألفوه قد مات ، فوقفوا ذاهلين ، لايدرون مايفعلون ، ليت الروح يرد إليه برهة ، ليأمرهم بما يريد ، وفيما هم فى حيرتهم إذ جاءهم الأمر من صفية ، قالت :

ـ مالكم هكذا تسمرتم فى الأرض ، اخرجوا لملاقاة المعزين .

فغادروا الغرفة مطرقين ، وماقابلوا رجال الأسرة حتى راحوا يتلقفون آراء هذا وذاك ، تعودوا أن يفكرالحاج لهم ، وأن يقودهم إلى الطريق ، فلم يتخلصوا بعد من ربقة الحاج وإن كان قد مات .

ـ ٥٤ ـ

انسلخت أشهر الإجازة الصيفية ، فشغلت صفية بأمر المصروفات المدرسية ، أصبح زكريا وخالد فى المدارس الثانوية ، وجلال وسعيد ويحيى فى المدارس الابتدائية ، فعليها أن تدبر القسط الأول ، حتى يتمكن أولادها من دخول المدارس ، والسير فى الطريق الذى رسمته لهم .

إنها لا تستطع أن تعتمد على زوجها ، فهو يضع فى يدها القروش القليلة التى يكسبها ، وهى تذكر أنها شكت إليه مرة حاجتها إلى نقود ، فأطرق مهموما ، ثم أنبأها أنه صرف على إصلاح البيت مبلغا ، وأنه ليس وحده صاحب هذا البيت ، سيطالب أخواته بنصيبهم فى الإصلاح ، ولما كانت تعرف أنهن لن يدفعن شيئا ، وأن مطالبتهن لن تخلف إلا المرارة فى النفوس ووجع الرأس ، التمست منه ألايفاتحهن فى هذا الأمر، فمن أين تأتى عزيزة وزهيرة وزينب بما يدفعنه له ، وهن

ينفقن كل مايصل إليهن يوما بيوم .

وخطر لها أن تلجأ إلى إخوتها ، فقد ورثت عن أبيها حصة فى بيتين وفى الدكان ، لم تأخذ من ريعها شيئا بعد ، فإخوتها فى ضيق ، وكانت تحب أن تتريث حتى يأتى الفرج ، ولكن مستقبل أبنائها معلق بخيط ، ولا تحسب أن العشرة الجنيهات ، وهى كل ماتحتاج إليه لتفرج ضيقها ، ستزيد من أعباء إخوتها .

وراضت النفس على الذهاب إلى بيت أبيها . وأغراها بالذهاب أنها لن تستجدى أحدا ، فهى تطلب حقا من حقوقها ، وفى الصباح الباكرخرجت لتقابل إخوتها قبل ذهابهم إل الدكان .

ودخلت عليهم ، فقابلوها بالترحاب ، وأخذوا يتوددون إليها فى الحديث ، حتى إذا ما قالت : « إنى فى حاجة إلى عشرة جنيهات » اربدت الوجوه ، وألجمت الألسن ، وساد الوجوم ، وسيطر السكون برهة ، حتى قال مصطفى فى صوت أجش :

ـ لماذا ؟

فقالت صفية فى هدوء ، وإن حزرت موجة القلق التى انداحت فى الصدور :

ـ أريد أن أدفع مصروفات الأولاد .

فقال كمال فى ضيق :

ـ ومتى كانت المرأة مكلفة تعليم أبنائها ، إنك ترهقين نفسك .

فقال حسين فى استخفاف :

ـ إذا كان على لايستطيع أن ينفق عليهم ، فلماذا تحملين نفسك ما لا تطيقين ؟

وانطلقت الألسن من عقالها ، وانهالت الوخزات وصفية تتجلد ، وإن كانت تحس جمرات النار تلسع روحها . ودت أكثر من مرة أن تنفجر فى هؤلاء الذين يلومونها على الإنفاق على أبنائها لينقذوا عشرة جنيهات ليست من حر مالهم ، ولكنها رأت أن تتحمل إساءاتهم فى صبر ، تلك الإساءات التى زادتها عزما وإصرارا . قال مصطفى :

ـ لماذا لا يعمل زكريا ويحمل نصيبه من أعباء البيت ، ولماذا لا يعمل خالد فى دكان بدل جريه فى الحارة ؟

ورأوا فى عينيها إنكارا ، وإن لم تنبس بكلمة ، فقال حسين :

ـ ليس العمل فى الدكاكين عيبا ، فالدكاكين مصير أبنائنا جميعا .

همت صفية أن تقول له إنهم ليسوا مخيرين فى ذلك ، فأبناؤهم لم يفلحوا فى المدارس ، بينا أبناؤها يسيرون فى طريقهم ،،ولكنها كبحت زمام لسانها ، وإن استسلمت للحزن الطاغى ، الذى انتشر بين جنبيها .

وانصرفت ساهمة ، تساورها أفكارها ، فتزيد فى آلامها ، وراودتها فكرة الذهاب إلى أختها ، تفرج عن صدرها ذلك الكرب الذى كاد يكتم أنفاسها ، وتلتمس عونها ، فإذا كانت قلوب إخوتها قست وتحجرت ، فستجد عند أختها برءا لجراح قلبها ، فانطلقت إلى القصر وقد انبثق فى ظلام نفسها بصيص من الأمل .

وفى الغرفة الفاخرة تقابلت الأختان اللتان صنعهما الحظ ، الحظ السعيد والحظ العاثر ، الحظ المقبل والحظ المدبر . وعلى الأريكة البديعة راحتا تتناجيان . قالت صفية وسكين تمزق أحشاءها :

ـ إنى فى حاجة إلى عشرة جنيهات لأدفع مصاريف الأولاد ، وقد ذهبت إلى اخوتى ..

ولم تدعها جليلة تكمل حديثها ، فقالت :

ـ إنك ترهقين نفسك ياصفية ، لافائدة من تعليمهم ، هذه جهود ضائعة ، الأولاد ينزعون لأهلهم ، وأهلهم جميعا من العنابر ، جدهم سائق قطار ، وأزواج عماته سائقو قطر ، وأبوهم رجل مسرات وسهرات ، فلماذا تصرين على تعليمهم ، لن يكونوا إلا كأهلهم ، اسمعى نصيحتى وألحقيهم بالمصانع ، وأعديهم للعنابر ، حرام هذا المال الذى تبعثرينه ، حرام هذا الحرمان الذى تقاسينه من أجلهم .

واندفعت جليلة فى حديثها ، وصفية تشعر بالأرض تميد تحت قدميها ، وأحست قسوة الاستقبال ، فخطر لها أن تنصرف فرارا من تلك السياط التى تلهب كرامتها ، وتطعن كبرياءها ، ولكنها وأدت رغبتها ، خوفا من أن تغضب أختها

التى لم تترفق بها وهى تنحرها .

وانصرفت صفية وأنين روحها يتجاوب بين ضلوعها ، انطلقت حزينة يكاد حزنها يصدع كبدها ، وساءها أن تستسلم لنوازع نفسها ، فرفعت رأسها فى كبرياء، وجمعت أطراف شجاعتها ، ووطنت النفس عل أن تسير بأبنائها فى الطريق الذى رسمته لهم ، وهى أكثرقوة وأشد إصرارا ، عاقدة العزم على أن لاتلتمس العون من أحد ، ولو اضطرت أن تربط على بطنها .حجرا .

ـ ٥٥ ـ

استيقظوا من نومهم مبكرين ، فألفوا ثيابهم مرتبة مطوية عند رءوسهم ، وأحذيتهم عند الصوان تتلألأ ، فراح زكريا يرتدى ثيابه ، وهويفكر فى ذلك الجهد الذى تنفقه أمه فى البيت ، إنها لتمضى سحابة يومها فى تجهيز الطعام ، وغسل الأوانى والثياب ، وكثيرا من ليلها فى رتق الجوارب وتثبيت الأزرار ، وتصليح الملابس وتفصيلها ، وإنه لجهد كبير تنفقه من أعصابها ، فاستشعر إشفاقا ، وقدح ذهنه يفكر فيما يفعلونه ليشاطروها حمل هذا العبء الثقيل ، فوجد أن خير وسيلة لإراحتها ، تشغيل خادم تشاركها فى تنسيق البيت وتنظيفه ، ولكن أين النقود ؟

وراح خالد يرتدى ثيابه فى عجلة لينطلق إلى مدرسته الثانوية ، يلعب مع رفاقه فى الصباح بالكرة ، كانت كرة صغيرة من المطاط أحيانا ، وكانت من الجوارب العتيقة فى أغلب الأحايين . وكان فى العصر لايغادرالمدرسة ، بل كان يمكث بها يشاهد فريق الكرة وهو يتدرب ، يداعبه أمل أن يصبح من أفراد الفريق ، كانت الكرة هى المغناطيس الذى يجذبه إلى المدرسة ويحببه فيها .

وأخذ جلال يرتدى ملابسه فوق جلبابه ، فمدرس الحساب يضربه ضربا مبرحا ، فهو يحاول أن يجعل بين جسمه وبين الخيزرانة درعا من الثياب ، فكان يسيرمحشوا أشبه بكرنبة كثيفة الأوراق .

ووقف سعيد فى الشباك ، فرأى عصفورا على حافة نافذة الجيران ، فأغراه

ذلك أن يشد نبله ، وأن يطلق حصاة لاصطياد العصفور ، وإذا بامرأة تهرول إلى النافذة ، وهى ترغى وتزبد ، وتسب وتصرخ ، فأقبلت صفية تعتذر إليها فى رقة ، ثم انهالت على سعيد ضربا ، وهو يتحمل الأذى صابرا ، لاتدمع له عين ، كان عصى الدمع ، يتلقى الجزاء دون ضجر ، فما كان يتأوه أويبدى تأففا من العقاب ، إذا ما ارتكب ما يستحق عليه الضرب . وخرج الأولاد إلى مدارسهم ، وجلس جلال إلى تمطره هادئا ، كان متفوقا فى اللغة العربية ، فكان يقبل على حصصها مطمئنا ، وأقبل الأستاذ ، وجعل يلقنه خطبة سيلقيها أمام رئيس الحكومة فى حفلة المدرسة السنوية ، فراح جلال يخطب فى ثقة وفرح ، فصدره ينشرح إذا أحس اهتماما به ، وألفى الأنظارتتطلع إليه .

واطمأن الأستاذ إلى إلقائه ، فأخذه إلى غرفة الناظر، وهناك أعاد جلال الخطبة مزهوا ، ومامست أذنيه كلمات الإعجاب التى ترددت حتى انتشى ، وراح قلبه يرقص فى جوفه فرحا .

وعاد إلى فصله مزهوا ، ورأى أستاذه يكتب اسمه على السبورة بالألوان، فغمرته سعادة عارمة ، حتى استشعرأنه يهيم فى عالم وردى من الرؤى العذاب . ودق الجرس ، وانصرف الأستاذ ، وأقبل مدرس الحساب ، ونظر إلى السبورة ، وقرأ الأسم المكتوب عليها مزخرفا جميلا :

ـ جلال على يونس ، من هذا ؟

فقام جلال منتشيا ، وما إن وقعت عينا المدرس عليه ، حتى قال فى إنكار:

ـ انت ؟! ولماذا يكتب اسمك بالألوان ؟

فصاح الأولاد :

ـ إنه قوى فى العربى ، سيلقى خطبة المدرسة أمام رئيس الوزارة .

فقال له المدرس فى حدة :

ـ تعال هنا . وذهب إليه جلال ، فقبض عليه بيد قوية ، وقال له وهو يهزه :

ـ لماذا انت خائب فى الحساب ؟

ولم ينبس جلال بكلمة ، وإذا بالخيزرانة تهوى عليه ، ولم يكتف المدرس بضربه ، بل صاح به :

ـ امسح السبورة .

فسار جلال إلى السبورة وهو حانق ، وراح يمحو اسمه بيده وهو حزين ، يحس خنجرا يغوص فى قلبه ، لم يدعه مدرس الحساب لأحلامه البهيجة ، ضربه وأهانه وأذله ، فجذبه من السماء إلى الأرض ، وكأنما عز عليه أن يتركه فوقها ، فمرغه فى التراب .

وانقضى اليوم ، فرجع جلال إلى أهله مسرورا ، تبخرت إهانة مدرس الحساب وعاد إليه زهوه ، فراح يقص عل أمه وإخوته أنه وقع عليه الاختيار ليلقى كلمة المدرسة أمام رئيس الوزارة ، وأخذ ينقل بصره بينهم ، فلما لمح أنهم يتطلعون إليه فى اهتمام ، ثلج صدره ، واستشعرسعادة غامرة.

وأخذ خالد يروى النبأ لكل من يقابله ، ويتحدث عن جلال ويفخر به ، فقد كان يحس راحة إذا ما تحدث عن إخوته أو أصدقائه وعدد محاسنهم ومناقبهم ، فقد كان يشعر أن تلك المحاسن والمناقب تنعكس إلى نفسه .

ووافى اليوم المرتقب ، يوم الحفل الذى ماكان لجلال حديث غيره ، فذهب على إلى المدرسة وفى جوفه بذور قلق ، كان يشفق على جلال ، ويخشى أن يهاب الموقف ، فيرتج عليه ، ويحبس لسانه ، ومر بين الزينة التى تفننت المدرسة فى إبرازها ، فلم تجذب بصره ، كان مشغولا بالقلق الذى بدأ يزحف فى صدره .

وأقبل رئيس الوزراء ، فراح قلب الوالد يخفق بين جوانحه كجناح حمامة ، لم يكن على ليهاب أن يكتب إلى اللورد كرومر ، أو يرفع شكايته من الشركة البريطانية المتعسفة إلى وزير خارجية بريطانيا العظمى ، أو يقف فى وجه الشيطان، ولكنه يضطرب خشية ألايثبت ابنه أنه أهل لما ندب له .

ووقف جلال مزهوا أمام رئيس الوزراء بينما تضاءل على فى مقعده ، وجلجل صوت جلال ثابتا ، وأريق فى أذنى على حلوا ، فهدأت أنفاسه المبهورة ؛ وعاد

إليه هدوءه ، وفر القلق ليخلى الطريق لمشاعر الفرح الممتزجة بحنان عجيب ، لاتنبع إلا من قلب والد مزهو بولده المتفوق على اقرانه من الأولاد .

وانتهى جلال من خطبته ، فدوى المكان بالتصفيق ، فأحس كأنما صبغ من السعادة ، وفاضت إحساسات على حتى ترقرقت الدموع فى مقلتيه ، وارهفت حواسه ، وتركز بصره فى ابنه ، فألفاه يتقدم إلى رئيس الوزراء ، فيربت عليه ، ثم يمنحه أربعة جنيهات من الذهب ، ، وشاءت مشاعر على الطاغية أن تتبدى ، فسالت عبراته على خده ، فأخرج من جيبه منديله يكفكف به دموع الفرح .

ـ ٥٦ ـ

أولاد الحاج كرم فى حيرة ، لايدرون ماذا يفعلون وقد كسدت التجارة ، وأصبحوا على شفا الإفلاس ، إنهم يرون فى المتجر كل آمالهم ، فإذا ذهب من أيديهم ضربت عليهم الذلة ، وصاروا فقراء ، وإن مجرد فكرة الفقر ترجفهم وتزلزل كيانهم ، وتجعلهم يقدحون زناد أفكارهم للبحث عن طريق للفرار من وجه ذلك الغول البشع الفاغر فاه ليبتلعهم .

وخطرت لهم جميعا فكرة واحدة ، فما كان أمامهم غيرها ، أن يستدينوا مبلغا من المال ينقذون به الدكان ، وقامت فى سبيل إنفاذ هذه الفكرة عقبات ، فمن ذا الذى يقرضهم المال ، ولماذا يقرضهم ، وأين الضمان ، وكادت هذه العقبات تفت فى عضدهم ، وتجعلهم يركنون إلى اليأس ، ولكن شبح الفقر أفزعهم فيما يفعلونه ، ليلوذوا بأذيال النجاة :

ورفع حسين رأسه وقال :

ـ أرى أن نرسل لعلى نستشيره ، ونعرض عليه أمرنا .

فرمقه أخواه فى دهش . كانا يعرفان عنه أنه أكثرهم قدحا فى على ، فهو يحط قدره ، ويتهمه بالخمول والأنانية وتبلد الإحساس ، فما باله يفكر فيه الساعة ، ويقترح أن يضع مستقبلهم بين يديه ؟! ولم يشاءا أن يثيرا جوا من الجدل ، كانا

يتلهفان على الخروج مما هم فيه ، قالا :

ـ فلنبعث إليه .

وجاء على فى جلبابه الصوفى ، وطربوشه الداكن الطويل . وجلس يصغى إليهم ، حتى إذا ما انتهوا من قصتهم ، قال :

ـ صديقى ستاورو يقرضكم المال . ولكن لا بد أن نرهن عنده عقارا .

فقال مصطفى فى قلق :

ـ ولكن العقار ليس لنا وحدنا .

فقال على فى بساطة :

ـ على إقناع صفية بأن تقبل رهن العقار معكم إنقاذا للدكان . ستقبل ذلك ، فأنا أعرف مقدار حبها لكم ، أنتم لها كل شىء .

وقال كمال :

ـ وجليلة ؟

فقال مصطفى فى ثقة :

ـ دعوها لى . أنا قادر على إقناعها .

وانصرف على وقد اتفقوا على أن يجتمعوا فى المساء فى البيت الكبير ، ولما وافى الميعاد ذهب على إلى بيت الحاج كرم ، فألفى كمالا ومصطفى وحسينا يرقبونه فى قلق ، ولمح سحابة من الأسى تكسو وجوههم ، فرأى أن يخفف عنهم ما يقاسونه ، وأن يثلج صدورهم بما عنده من نبأ فقال :

ـ رحبت صفية بالفكرة ، وقالت لو أن فى مقدورها أن تفعل شيئا آخر لفعلته ..

فقال مصطفى فى صوت خافض حزين :

ـ رفضت جليلة أن تذهب إلى المحكمة لتوقع على عقد الرهن .

فقال على :

ـ الأمر سهل ، يذهب الموثق إلى بيتها .

ـ ورفضت أن يأتى أحد إلى قصرها ، ففى ذلك عار لها .

وأطرقوا جميعا صامتين . وعز على على أن يخفق فى إنقاذ أناس ألقوا إليه قيادهم ، فانتشر فى صدره ضيق ، وراح يفكر ليجد مخرجا ، وقفزت إلى رأسه فكرة حمقاء ، ولكنه رحب بها . فأهون عنده أن يرتكب حماقة وأن يقاسى نتائجها وحده ، من أن يخفق فى تحقيق أمنية من لاذ به .

ورفع رأسه وقال :

ـ وجدت حلا .

فنظروا إليه بعيون واسعة ، وقالوا :

ـ ما هو ؟

فابتسم على وقال :

ـ أرى أن توقع صفية على الرهن باسمها وباسم أختها .

فقالوا فى خوف :

ـ ولكن هذه جريمة .

فقال على فى حماسة :

ـ لا شأن لكم بها ، هذا شأنى وشأن صفية .

ولم يعترضوا ، بل أحسوا راحة ، كانت أنفسهم أعز عليهم من على وصفية ، وأنهم على استعداد لأن يضحوا بمن هم أحب إليهم منها ، إذا كان فى تلك التضحية إنقاذ لأموالهم ، وإبعاد لشبح الفقر عنهم .

وذهبت صفية إلى المحكمة ، ووقعت باسمها ، وذهبت مرة أخرى ، ووقعت باسم جليلة ، مضحية بنفسها فى سبيل إخوتها الذين رفضوا أن يقرضوها عشرة جنيهات من مالها ، تنفقها فى تعليم فلذات كبدها !

ـ ٥٧ ـ

مالت الشمس للمغيب ، وبدا القمر كقرص فضى يسبح فى اللجة الزرقاء، لاح قريبا من الأرض حتى أغرى ذلك سعيدا أن يضع فى نبلته حصاة ويصوبها إليه !

وساح الأولاد فى الحارة ، كل يتجه إلى بيته ، فقد أقبل الليل ، كان خالد يتصبب عرقا بعد ذلك الجهد الذى بذله فى اللعب بالكرة ، وجلال يحمل كيسين صغيرين ، فى أحدهما بلى وفى الآخر نوى المشمش ، وسعيد يتلفت يبحث عن شىء يصوب إليه نبله ، ليختتم لعب النهار ، وكان يحيى يلتصق به خوفا ، ويتوسل إليه أن ينصرف إلى الدار ، كان يخشى أن يصعد فى الدرج وحده .

ولمح سعيد بائع العرقسوس وعلى صدره قدر من الفخار ، فعبثت به فكرة ، أشرق لها وجهه ، وتناول من الأرض حصاة وضعها فى النبل، وصوبها إلى القدر ، فصدر منها رنين ، كان صداه فى نفسه أحلى من الأنغام المنبعثة من أنامل فنان !

وارتفعت زمجرة بائع العرقسوس ، وتدفع سبابه ، فولى سعيد هاربا وهونشوان ، وجرى يحيى فى أثره مفزوعا ، لم يكن يخشى أن يبطش به الرجل ، بل كان يرتجف فرقا من الظلام .

واجتمعوا فى الشقة ، وراحوا يطلبون العشاء ، وكان جلال أكثر إلحاحا فى طلبه ، ادعى أنه يريد أن ينام ، ووضع أمامهم الطعام ، وماهى إلا دقائق حتى اختفى ما على الخوان .

وجاءت صفية إلى زكريا وقالت :

ـ جاءتنا الليلة رسالة .

ودفعتها إليه ، فجعل يقلبها ثم قال :

ـ إنها من لبيب .

فقالت صفية فى لهفة :

ـ اقرأها .

ففضها ونشرها وأخذ يقرأ ، وقد ساد السكون :

ـ أبى العزيز .

أبعث إليك وأمى بأشواقى ، وأرجو أن يكون إخوتى بخير ، وبعد فأكتب إليك هذه الرسالة والحزن يملأ جوانحى ، فالباشا زوج خالتى قرر تخفيض مرتبى نظرا لكساد السوق !

حز هذا القرار فى نفسى ، فما كنت أنتظر أن يكون هذا جزائى ، بعد أن أذبت روحى ، وأنفقت عصارة ذهنى فى تنظيم الدائرةالتى كانت مرتعا للفوضى ، ونهبا لذوى الضمائر الخربة من أقارب الباشا ورجاله . إننى سهرت على ماله كما يسهر الإنسان على ماله ، حتى زادت إيرادات الدائرة ، ولم يفكر الباشا فى ذلك الوقت أن يرفع مرتبى ، أما وقد كسدت التجارة ، فقد خفض مرتبى جنيها ، كأنما ذلك الجنيه سيزيد من آلافه .

إنى ضيق الصدر بهذا القرار الظالم ، برم به ، ففيه غبن لى ، أفكر فى أن أترك خدمة زوج خالتى ، وهذه الفكرة تستبد بى ، وتلاقى هوى من نفسى ، فلن أعجز عن أن أجد عملا أفضل من هذا العمل المضنى ، الذى لايلاقى ما يستحقه من تقدير .

وصمت زكريا ، وران الحزن على وجه صفية ، كانت تجاهد أن تتجلد أمام أولادها ، وأن لاتظهر الجزع ، ولكن رسالة لبيب مزقت قلبها ، وهزتها فأفلتت منها ضوابط نفسها ، وانتقل الحزن منها إلى أبنائها ، فجعلوا يتبادلون نظرات قلقة ، وجثم على المكان كابوس ، وأرادت أن تخرج صغارها من ذلك الوجوم ، فقالت :

ـ اذهبوا إلى فرشكم .

فقاموا مطرقين ، وانطلقوا إلى السرر، وناموا إلا زكريا وخالد لم تغمض لهما عين ، كان زكريا يفكر فى مستقبل لبيب إذا ترك خدمة الباشا ، ويوازن بين مستقبله وأمسه ، أما خالد فكانت كلمات أخيه المغبون ترن فى أذنيه ، فتحرك

أوتار قلبه ، وتهيج شجونه ، فتسيل عبراته غزيرة على خديه ، وفكر فى أسرته ففطن لأول مرة أنها تقاسى الحرمان والضيق ، فعقد بينه وبين نفسه أن يجد وأن يبذل غاية ما فى طوقه ، لينتهى من دراسته ، ويحمل على عاتقه بعض أعباء الأسرة .

ـ ٥٨ ـ

سيد ينطلق فى الطرقات يرتدى بذلة متواضعة ، وعلى رأسه طربوش مغبر يميل إلى اليسار قليلا ، إنه منشرح الصدر ، يدندن فى نبرات حلوه ، فيزداد نشوة ، فهو إذا غنى لنفسه انسابت الأغنية عذبة . دون أن يتعثر لسانه أو يتلجلج .

تحققت أمنيته ، فالتحق بالعنابر ، وأصبح رجلا كرجال أسرته ، وإن هى إلا سنوات قليلة حتى يصبح سائق قطر ويتناول أجرا يمكنه من أن يحرق الحشيش ، ويشرب الخمر ، فيلحق بأصله الذى زرع فى مصلحة السكك الحديدية ، وفرّع فى الغرز والحانات .

رأى فتاة لفت جسمها الممتلىء فى ملاءة سوداء ، وأسدلت من فوق أنفها نقابا أسود شفافا ، فخطر له أن يغازلها ، فقد لمحها وهى ترنو إليه بعينيها السوداوين الواسعتين .

دنا منها ، وسار خلفها يسمعها رقيق الغزل .

ـ ننتظرة .. ننتظرة ياغزال .

وأسرعت الفتاة فى سيرها ، فراح يقتفى آثارها ، ويقول :

ـ خخخفة .. خخخفة ووالنبى .

وتمهلت الفتاة قليلا ، فخفق قلب سيد ، وأسرع ليصبح بإزائها ، فقد حسب أنها لانت لغزله وفصاحته !

رفعت الفتاة النقاب عن وجهها ، فدوى قلب سيد دويا ، ثم أحس به يغوص

فى قدميه ، وقالت فى تهديد :

ـ سيد سأقول لأمك .

كانت الفتاة ابنة خالته ، فقدر ما سيقاسيه من سخرية الألسنة الطويلة التى لا ترحم ، فقال لها فى ذلة واستعطاف :

ـ تتتبت .. ووالنبى .

وانصرفت الفتاة وهى تبتسم ، ووقف سيد جامدا مقطب الجبين ، يفكر فى عودته إلى الدار فيرتجف ، ويزيد فى اضطرابه صورة خالته عزيزة ، ولسانها الذى لا يكل ولا يتعب وقد احتلت ذهنه .

وتقدم فى الحارة متمهلا ، فلما بلغ الدار لفته رهبة ، فلم يفطن إلى حليمة القابعة عند الباب ، تتطلع إليه ، فما كان يمر عليها دون أن يحييها ، وصعد فى الدرج خافق القلب ، واستشعر حركة غريبة فى البيت فتضاءل ، دار بخلده أن ابنة خالته قد صنعت من الحبة قبة .

ودلف إلى الشقة ، فلم يهتم به أحد ، فتعجب ، كانوا يمرون بجواره دون أن يكلموه أو حتى يلحظوه ، فتقدم من أخيه سليمان وقال :

ـ ماذا جرى هنا ؟

ـ عادوا بإسماعيل محمولا لاينطق ولايتحرك .

فأحس سيد راحة ، فمرض إسماعيل أنقذه من الهزء والسخرية .

وأقبل حسان يعود إسماعيل ، فجلس إلى جواره ، ونظر إليه ، فألفاه زائغ البصر ، اختفى سواد عينه ولم يبق إلابياضهما ، فاستشعر حزنا ، ولكنه تجلد وشاء أن يرفه عن إسماعيل ، فمال على أذنه وهمس :

ـ ما رأيك فى كأس الآن ؟

ولم تختلج فى وجه إسماعيل خالجة ، لم يسمعه فماعاد يحس شيئا مماحوله . انقبض حسان وأحس كأن يدا قوية تجيد فؤاده ، فراح يرنو إلى إسماعيل ، وقد نسى أن المسجى أمامه قد سلبه كل ما ورثه عن أبيه فى البيت كفاء بضعة كئوس .

وراح الواقع الأليم يخز روح حسان ، فاشتدت آلامه ، ولم يعد يحتملها ، كانت

نفسه تئن فى جوفه فتعذبه وتضنيه ، ورأى أن يفر من وعيه ، فهرع إلى الحانة يعب الكئوس .

وفى جوف الليل شق الصوات السكون ، فهب الناس من نومهم مفزوعين يستفسرون فإذا بإسماعيل قد مات ، فخيم على الحارة وجوم .

وفى الصباح طلبت عزيزة الرجال المختصين بالجنازة ، وقالت لهم :

ـ أريدها جنازة يتحدث الناس بها .

فقال أحد الرجال :

ـ أترغبين فى أن يخرج الأفندية يسيرون أمامه أو يخرج بكرامة ؟

فقالت عزيزة فى توكيد :

ـ يخرج بكرامة .

وأقبل المعزون ، وما إن هبط النعش الحارة ، حتى راح الذين يحملونه يعدون به ، فهرول المعزون خلفهم ، وهم يصيحون ، فقد أخذتهم الجلالة :

ـ الله .. الله .. الله .. الله .

ورأى الفلاحون فى العالية النعش وهو يطير ، فأطلقت الزغاريد ، وباتت الحارة تتحدث عن الكرامة التى أظهرها إسماعيل !

ـ ٥٩ ـ

الأولاد يتعاونون على نظافة البيت ، فخالد يتسلق نافذة ويمسح زجاجها ، وجلال يمسك مكنسة ولكنه لايكنس بها إلا إذا لمح أمه مقبلة عليه، كان يحب أن يلفت الأنظار إليه ويتلقى المديح دون أن يبذل مجهودا يؤهله للمدح والثناء ، وراح سعيد يغسل الخيشة فى دلو ، ثم يمسح بها الأرض ، ويحيى يعدو خلفه يعبث فى الماء .

انطلق خالد إلى رفاقه يلعب الكرة ، وذهب جلال إلى الخربة حيث يجتمع الأولاد للعب بالأكر ونوى المشمش ، ولكنه ألفى صحابة قد هجروا النوى وراحوا

يقامرون بالملاليم المتداولة بين الأيدى الصغيرة ، والزهر العاجى الذى تميزت أسطحه بنقط سود .

وراح سعيد يصوب نبله إلى العصافير والطيور ، ويحيى يهرول خلفه يناوله ما يجمعه من الحصى ، ودفع يحيى فى عدوه صبيا من صبيان الحارة، فقال له الصبى معيرا :

ـ ياأبا سن ذهبية .

فأطرق يحيى خجلا ، سببت له هذه السن متاعب لم تدر بخلده يوم بكى وأمعن فى البكاء ليركب سنا ذهبية ، فالصبيان ينتقدونه كلما رأوه حتى صار يخجل أن يفتح فمه ، صارت له نكدا فى الحارة وفى المدرسة ، فالشيخ يطلب منه أن يقرأ فيحاول أن يفعل دون أن تبدو السن فيتلعثم فينهال على أم رأسه السباب، لقد راودته أكثرمن مرة فكرة خلع هذه السن ، ولكنه كان يخجل أن تسخر أمه منه ، فينبذ الفكرة على مضض .

وعاد الأولاد إلى البيت لما وافى ميعاد الغداء ، ولولا الطعام مادخلوا الدار، والتفوا حول الخوان ، وقد جلس أبوهم بينهم فأحسوا انشراحا ، فما كانوا يقابلونه إلا نادرا ، كانا يذهبون إلى المدارس وهو غارق فى نومه ، ويعودون إلى الدار وقد خرج للسهر .

نظر على إلى زكريا وقال له :

ـ ماذا تنوى أن تفعل إذا حصلت على البكالوريا ؟

خفق قلب زكريا . إنه يعلم مقدار ما تقاسيه الأسرة من ضيق ولولا ذلك النزر اليسير الذى يبعث به لبيب فى كل شهر. والدخل المحدود الذى لايكاد يذكرالذى ورثته أمه ، وذلك الرزق الذى ينبثق من الصخر الذى خص الله به أباه ، لحلت الكارثة بأهله ، وهو يعلم حاجة الأسرة إلى عونه ، ولكن فكرة دخول الجامعة كانت تلح على ذهنه ، وما كان بقادر أن يبوح بهذ الرغبة ، فأطرق دون أن ينبس بكلمة، فقال له على مشرق الوجه :

ـ أرجو أن أراك محاميا تنصر الضعفاء والمظلومين .

فتهللت أسارير زكريا ، ودبت الحياة فيه ، فراحت الكلمات تتدفق منه حارة ، كان يبث أباه آماله ، ويعده أن يبذل غاية جهده ، ليحقق أمله فيه .

وتطرق الحديث عن الكورنيش ، والهمة المبذولة للانتهاء منه ، وكأنما ذلك الحديث أحيا أملا كان قد خبا فى نفس على فقال :

ــ الحكومة مهتمة بتحسين الإسكندرية فى هذه الأيام ، وقد علمت أنها ستشرع فى شق الشارع الجديد ، ستنتهى منه ولا شك قبل أن تصبح محاميا يا زكريا ، وسيطل بيتنا هذا على الميدان وسأخصص لك فيه مكتبا تبدأ فيه عملك، ولو وضعت على هذه الشرفة لافتة كبيرة كتب فيها « زكريا على يونس محام » . فإنها ستجذب أبصار المارين .

وشرد على ببصره ، وفى وجهه بسمة الأمل ، وأطلق الأولاد لأخيلتهم العنان، وحتى صفية التى ما كانت تحب التحليق وراء الأوهام ، هامت فى دنيا الرجاء ، وانداحت فى جوفها إحساسات بهيجة رقص لها قلبها .

وجاء الليل فخرج على إلى رفاقه ، وأكب زكريا وإخوته على دروسهم ، كان خالد يبذل لأول مرة جهدا صادقا فى استيعاب ما يقرأ ، أثرت فيه رسالة لبيب ، حتى أحس أنه قد تبدل ، لم يعد له أن يتراخى أو يركن إلى الكسل ، والأسرة فى حاجة إلى جهودهم مجتمعة .

وانصرم ساعات الليل وصفية جالسة تنظر إليهم ، وينزل التعب بهم ، فينسلون واحدا إثر واحد ، ويبقى جلال يتظاهر بالقراءة ، يحس بهجة لأنه قد لفت نظر أمه إليه ورآها تهوم فى جلستها أكثر من مرة ، فزاد سروره ، فقد تيقن من اهتمامها به ، وعدم رغبتها فى الدخول إلى فراشها لتستريح، قبل أن تطمئن إلى أنه قد انتهى من استذكاره . وأنه قد دخل فراشه ونام .

ــ ٦٠ ــ

صفية منشرحة الصدر ، تستشعر زهوا ، نال زكريا البكالوريا ، ونجح أولادها جميعا فى هذه السنة ، وأرادت أن تعبر لأولادها عن سرورها ، فقالت لهم :

ــ سنمضى الصيف فى المكس .

وارتفعت الأصوات تستفسر فى مرح :

ــ متى نذهب ؟ .. من يذهب معنا ؟ ماذا نأخذ من أثاث ؟

وصفية تجيب عن الأسئلة المتدفقة فى حنان وسعة صدر .

وفى الطبقة الثانية ، اجتمعت عزيزة وزهيرة وثريا ، وبعض أبناء الشيران ، كانوا يتحدثون عن أولاد صفية ، قالت زهيرة :

ــ نال زكريا البكالوريا ، ونجح إخوته جميعا .

وصمتت وهى ترنو إلى عزيزة من بين أهدابها ، تنتظر أن تسمع من أختها تعليقاتها اللاذعة ، ولكن عزيزة لجت فى الصمت ،

وقال سيد :

ــ كككم مرتب الحاصل على البكالوريا ؟

فقال أخوه سليمان :

ــ ستة جنيهات .

فقال سيد وقد امتعض :

ــ يا خسارة التعب ، لو كان معنا فى العنابر ، كان مرتبه الآن سبعة جنيهات ونصف ، أنا آخذ سبعة جنيهات ونصف .

فقال سليمان فى افتخار:

ــ بقيت لأهلى مصروفات المدرسة ، وأنفقت على نفسى .

فقالت زهيرة لتحرك أختها الصامتة على غير عادتها :

ـ لو تقدمتما لخطبة فتاة وتقدم هو لخطبتها لفضله أهلها عليكما .

فأحس سليمان قهرا ، إنه لايفكر إلا فى الزواج ولايعيش إلا على هذا الأمل ، وإذا بخالته تلطمه بهذه الحقيقة ، كان على يقين من أن أهل أية فتاة يفضلون الموظف على العامل ، فحنق سليمان ، كأنما قد توظف زكريا ، وراح ينافسه فى فتاة بعينها ، فقال فى غضب :

ـ إن أهل هذه الفتاة الذين يفضلونه علينا ليس فى وجوههم نظر .

وكأنما شجع هذا الكلام سيدا فقال :

ـ أأليس للخفة ثمن ؟!

ونظرت زهيرة إلى عزيزة منكرة صمتها ، فقالت لها :

ـ مالك ؟ مم تشكين ؟

فقالت عزيزة فى اقتضاب :

ـ لا شىء .

فقالت زهيرة وهى تبتسم :

ـ والله أنت مريضة ، هذا لاشك فيه .

ولم تنبس عزيزة بكلمة ، كانت تقاوم رغبتها فى الثرثرة ، فهى تخشى أن تخدش زكريا وقد كبر ، أصبحت تطمع فى أن تزوجه بنتا من بناتها ، فكانت تجاهد فى كبح جماح لسانها ، وإنه لجهاد عسير .

وهبط أبناء على إلى الحارة يلعبون، وبقى جلال فى الشقة يغدو ويروح ، فرفاقه هجروا اللعب بنوى المشمش والأكر ، وأصبحوا يلعبون بالنقود، خطر له أن يطلب من أمه بضعة قروش ، ولكنه كان على ثقة من أنها لن تعطيه ، فأحس ضيقا ، وأطرق يفكر فيما يفعله ليحصل على النقود.

ولمح جلباب أبيه معلقا فى المشجب ، فألفى نفسه ينجذب إليه ، ويمد يده فى جيبه وهو كالمأخوذ ، ووجد عشرة قروش أخذها خافق القلب مضطربا، ثم انصرف إلى رفاقه يشاركهم فى لعبهم ، أكب على اللعب بكل حواسه ، واستبدت به حمى

القمار ، فراح يجازف بكل ما معه من قروش ، وراح يكسب فكان الكسب يزيد فى جرأته ، ، وما قام حتى كان معه ريال .

ذهب واشترى شيكولاتة وأكلها ، وفكر فى أن يشترى بما بقى معه ما يملأ بطنه ، ويحس كظة فيه ، ولكنه رأى أن يحتفظ ببعض النقود ، حتى يستطيع أن يعاود اللعب فى أيام الإجازة الطويلة

وصعد إلى غرفة نومه ، وراح يبحث عن مكان أمين يخفى فيه ما معه ، فلمح الأريكة وقد صفت فوقها الحشايا ، فذهب ليخفى فيها النقود ، ودخلت أمه عليه وهو يرفع طرف الحشية فقالت له :

ـ ماذا تفعل :

فانتفض مفزوعا ، وقال وهو يتلعثم :

ـ وجدت ريالا فى الحارة ..

ـ أرنى .

فقدم لها النقود ، فتناولتها وفى جوفها ضيق ، ثم قالت :

ـ هذه فكة ، وهل يعقل أن تجد ريالا مفكوكا ؟

فقال ونبراته تنم عن كذبه :

ـ وجدت ريالا اشتريت منه شيكولاته ، وهذا مابقى منه ،

فصاحت فيه فى حنق :

ـ كذاب ، إذا لم تقل لى من أين أتيت به قتلتك ضربا .

فارتجف ولم ينطق حرفا ، فهجمت عليه ، وراحت توسعه ضربا ، وأقبل إخوته ينظرون ، ووجدوه يكاد يغشى عليه من الضرب ، ولكن لم يجرؤ أحدهم على أن يتقدم ليخلصه من يديها ، كانوا يعرفون عنها أنها تغفر لهم كل شىء إلا السرقة .

ـ ٦١ ـ

جلست صفية فى تلك الغرفة الخشبية المتواضعة ، القابعة على شاطىء المكس فى ذلة ، تعد الطعام ، وقد راح أولادها يمرحون مسرورين ، كان خالد يلعب بالكرة على الرمال مع بعض رفاقه ، وجلال وسعيد ويحيى يعومون ، بينما جلس زكريا على كرسى ينظر إلى الماء وإلى السماء ، ويقلب وجهه فى الغادين والرائحين . تعلم سعيد ويحيى العوم فكانا يذهبان حتى البراميل ، بينا قصر جلال فى اللحاق بهما ، ولكنه كان يكره أن يفطن أحد إلى تفوقهما عليه ، فكان يجازف فى العوم ، ويذهب فى آثارهما ، وماكان يعوم فى حرص المبتدئين ، بل كان يحب أن يجذب أبصار المستحمين إليه ، وأن ينساب فى خفة أبطال السباحة ، وهو يتلفت ليطمئن إلى اهتمام الناس به ، كانت نظرات الإعجاب ترضيه وتدغدغ حواسه .

وخاض سعيد ويحيى فى الماء ، وراح جلال يجاهد أن يلحق بهما وأحس تعبا ، وهب حرصه يهيب به أن يعود إلى الشاطىء ولكن كبرياءه صاحت به أن يستمر ، فأطاع كبرياءه ، وأخذ يشق الماء فيضعف وقد نال منه الجهد والإعياء .

وشعر بقواه تخور ، وألفى نفسه ينجذب إلى القاع ، فندت منه صرخة، فالتفتت صفية إلى البحر تنظر ، فألفت جلالا يغرق ، فهبط قلبها فى جوفها ، وراح يدق دقات متتابعة ، وخطر لها أن تهرول صوب البحر ، وأن تصيح تطلب النجدة ، ولكنها تجلدت وقد ثبتت عيناها على ابنها ، وارهفت منها الحواس .

وسمع سعيد ويحيى صرخة جلال ، فخفا إليه ، ورأتهما صفية وهما يدنوان منه ، فازداد وجيب قلبها ، ودار رأسها ولمحتهما وهما يمدان إليه يديهما فلم يفرخ روعها ، بل كان فؤادها يخفق فى جوفها كجناح حمامة ، صارت تخشى أن يجذب جلال أخويه معه ، فيغرق الجميع .

وجذباه حتى إذا بلغا به الشاطىء تركاه ، فاستشعرت أمه نحوه ثورة طاغية ، لم تستطع كتمها ، فذهبت إليه وجذبته من يده وراحت تضربه وتقول له :

ـ إذا كنت لا تجيد العوم ، فما الذى يضطرك إلى العوم معهما . ؟!

فتضايق ، وزاد فى هوانه تطلع الناس إليه ، كان يحب أن ينظروا إليه نظرات إعجاب ، نظرات لاتصوب إلا إلى الأبطال ، أما نظرات الإشفاق التى كانت تسدد إليه ، فهى أبغض النظرات إلى نفسه .

حان وقت الغداء ، فهرعوا إليه خفافا ، قوت نسائم البحر شهوتهم إلى الطعام ، وما كانوا فى حاجة إلى ما يقويها ، وأكب جلال على ما أمامه ، نسى ما أصابه من هوان فى الصباح ، وكان ينسى كل شىء إذا وضع الطعام أمامه ، حتى رغبة جذب أبصار الناس إليه كانت تقلع عنه فى هذه الحالة ، كان يتمنى وهو يأكل أن تعمى عنه العيون .

وانتهى الطعام ، فتمدد زكريا وخالد وسعيد ليريحوا أعصابهم ، وتمدد جلال من ألم الأكل الذى يشعربه فى بطنه ، وخرج يحيى يتمشى على الشاطىء ، فلمح فتاة يونانية ممتلئة الجسم بيضاء البشرة ، صفراء الشعر ، صافية العينين ، فأحس نحوها انجذابا ، كان على رغم صغره تستهويه الأجسام الممتلئة البضة ، فوق بعيدا يرنو إليها فى اعجاب .

وجلست الفتاة على الشاطىء تصطاد السمك ، ومر الوقت ولم تصد سمكة واحدة ، فأشفق يحيى عليها ، وكان صادقا فى شعوره ، وأنعم النظر فى الخيط المتدلى فى الماء فلم يجد به عوامة من الفل ترشدها إلى أن السمكة فى الشص ، فذهب يرشدها إلى ذلك ، فلما دنا منها قال فى براءة :

ـ فى الخيط خطأ .

ولم تشجعه على أن يسترسل فى حديثه ، بل أشاحت وجهها عنه ، وأولته ظهرها ، ولم يفهم ذلك الإعراض ، فقال لها :

ـ لا بد من تثبيت عوامة فى الخيط .

ومد يده فى جيبه وأخرج قطعة من الفل وقال :

ـ عندى عوامة بكنك أن تثبتيها فى الخيط .

فنظرت إليه الفتاة شزرا وقالت :

ـ لاتتدخل فيمالايعنيك .

وصعد الدم حارا إلى وجهه الأبيض ، وارتجفت رمو ش عينيه ، وابتعد عنها مطرقا ، يحس ضيقا ،إبرا تخز روحه ، تزيد فى اضطرابه وضيقه .

ـ ٦٢ ـ

راحت تعد له حقائبه مسرورة ، فغدا يسافر إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة ، وأخذت الأفكار المشرقة تراودها فتزيدها بهجة ، لمحت بسمة الدهر بعد اكفهراره وعبوسه ، ورأت شعاعا من الأمل يخترق ظلام الليل السرمد ، إن هى إلا سنوات ثلاث تنقضى فى كفاح، ثم تجنى ثمار صبرها الطويل ، وجهدها المضنى الشاق ، فلطالما قاست ذلك الحرمان ، لأنها كانت تعيش لذلك اليوم الذى ترى فيه أبناءها رجالا من الصفوة .

وخطر لها أنها نجحت فيما لم ينجح فيه أحد من أسرتها ، فها هو زكريا يذهب إلى الجامعة ، وسيتبعه خالد وجلال وسعيد ويحيى بينا لم تطأ قدم أحد من أسرتها بابها ، حتى أولاد إخوتها الذين يسرت لهم مواردهم العلم ، اختصروا الطريق ، وعرجوا على دكاكين آبائهم التى كانت تنتظرهم، فاستشعرت غبطة ، وملئت عزما على النضال ، حتى تبلغ غاية آمالها .

وجاست خلال غرفة النوم ، فألفتهم يغطون فى نومهم ، فرنت إليهم وقد تدفقت فى جوفها مشاعر الحنان ، فمدت يدها تحكم الأغطية فوقهم . وبلغت زكريا ،، فوقفت تتطلع إليه برهة ،وإذا بدموعها تملأ عينيها ، فتمسحها بظهر يدها وتغادر الغرفة .

وأشرقت الشمس ، وهب الكون من نومه ، وراح زكريا يغدو ويروح قلقا حائرا،

لم يغادر الأسرة من قبل ، فأخذ قلبه يدق بين ضلوعه ، رهبة من المستقبل ، وأحس رغبة فى البكاء ، ولكنه كان يقاوم رغبته ويتجلد ، كان كلما رأى أمه مقبلة تشاغل عنها ، كان يتحاشى أن تتلاقى العيون فتخونه دموعه .

واكبت صفية على عملها ، رافعة رأسها ، باذلة ما فى طوقها لتبدو فى طبيعتها ، كانت تحب أن تظهر أمام أبنائها أبية قوية ، فلم تستسلم لقلبها الخافق ، ولم تركن لمشاعر الحنان الطاغية ، فلم تجلس إليه تبثه نجواها ، بل ظلت فى غدو ورواح تعد طعام الأفطار ، تنظف شقتها وتنسقها ، وإن كانت تذوب شفقة ، ولو طاوعت فؤادها لهرعت إليه تضمه إلى صدرها .

وخرج على من غرفته ، فلما رأى زكريا أقبل عليه يحدثه ، لم يكن فى قوة صفية ، فلم يقو على كبت عواطفه ، أخذ يترجم له عما يحسه فى صدق ، فهو حديثه ابنه ، وملأ صدره حرارة حتى إنه عاهد نفسه على أن يحقق آمال أبيه فيه .

وحانت ساعة الرحيل ، فحمل خالد وجلال الحقائب ، وهبطا بها إلى العربة المنتظرة أمام الباب ، وكأنما كان هبوطهما إنذارا لمن فى الطبقة الثانية ، فخرجوا جماعات إلى السلم ينتظرون توديع زكريا .

صافح أمه وفى حلقه غصة ، ولم ينبس بكلمة ، كان يحبس عواطفه ، ولو حاول أن يحرك لسانه ، لكانت العبرات أسبق من الكلمات ، فانصرف مسرعا وأمه تتبعه ، حتى إذا بدأ يهبط فى الدرج ، قالت له فى صوت مرتجف مضطرب ، فضح مكنون صدرها :

ـ مع السلامة ، فى حفظ الله .

فطفرت إلى عينيه دمعة ، فمسحها سريعا ، وأخفاها كما يخفى الخاطىء زلته .

وهرع إليه أبناء عماته وعماته يصافحونه ، قال له سيد وهو يضغط على يده:

ـ أأنصحك ألا تتخصص فى قضايا المخدرات ، أإنها قضايا مربحة .

فقال له سليمان :

ـ ستموت من الجوع لو سمعت نصيحته ، فلن تترافع إلا عن النازلين فى هذا

البيت ، ولن يعطوك أجرا.

وصافحته عزيزة فى حرارة ، كانت صادقة فى شعورها ، فقد ربط خيالها بينها وبينه ، فلطالما صور لها وهمها أنه سيتزوج بنتا من بناتها ، وصافحته زهيرة ولسانها يقطر عسلا ، بينما كان قلبها يتنزى بالحسد والغيرة. وارتفعت الأيدى المصافحة ، وارتفعت الأصوات المودعة . واستمر فى هبوطه وهو مأخوذ ، حتى إذا بلغ الطبقة الأولى وجد عمه حسان يستقبله وهو باسط ذراعيه ، ثم يضمه إليه ويأخذ فى البكاء ، ثم يتركه ويدلف إلى شقته باكيا ، وسيظل فى بكائه حتى يخرج إلى الحانة ، يغرق نفسه فى الغيبوبة التى تنام فيها مشاعره.

وخرج من باب البيت ، وقبل أن يضع رجله فى العربة ألف حليمة واقفة ترنو إليه ، فمد يده يصافحها ، فمالت عليه وقبلته ، فأفلت منه زمام نفسه ، وجرت دموعه على خديه ، وأسرع إلى العربة ، وركب إخوته معه ، وانطلقت العربة فى الحارة ، وإذا بصوت النجرو يرن :

ـ نظرة يا جورج .. يا جورج نظرة .

ـ ٦٣ ـ

لف الظلام الحارة ، ولكن لم تهدأ الرجل ، بل دبت فيها حياة ، وكثر الغدو والرواح ، لكأنما كانت مقبلة على أمر جليل ، ووقف الصبيان عند الجامع يرقبون ، فلما أضيئت المصابيح المتحلقة بالمئذنة ، أخذوا يصيحون وهم يهرولون :

ـ صيام .. صيام .

وتكونت فى البيوت حلقات للسمر ، كان الموسرون يقدمون فيها اللوز والجوز ، وكان الفقراء من نزلاء الحارة ، يبسطون قراطيس اللب ، فتمتد إليها الأيدى فى خفة وتتابع ، وكانت الأحاديث تتدفق وتتشعب وتتناثر مع قشراللب الذى تلفظه الأفواه دون حرص أو عناية .

وجلست صفية وأولادها يتحدثون ، فقال سعيد :

ـ سأصوم هذا العام .

فالتفتت الأم إلى جلال وقالت :

ـ وأنت ؟

ـ لا أستطيع أن أصوم .

ـ سيصوم سعيد وهو أصغرمنك .

فقال جلال فى يقين :

ـ سأموت إذا مكثت النهار كله دون أن آكل .

فأرادت أن تغريه ، فقالت له :

ـ إذا صمت ضاعفت لك طعامك ؟

فابتهج وقال :

ـ حقا ؟

كان يريد تأكيدا لذلك الوعد قبل أن يعد بالصوم ، فهزت له رأسها تثبت ماقالته ، فقال :

ـ إذن سأصوم .

وراح يحيى يهوم فى جلسته ، لم يكن الخوف وحده يمنعه من الدخول إلى فراشه لينام ، ولكنه كان يترقب السحور ليشاركهم فى الطعام دون أن يصوم .

وتقضى الوقت وهم فى سمر لذيذ ، ومر رجل يضرب بعصاه على طبل ويصيح :

ـ وحدوا الله ، ياعباد الله .

ووقف على باب الدار يهتف :

ـ ياحسان أفندى وحد الله. ياسيد أفندى وحد الله .. يا سليمان أفندى وحد الله .. ياعلى أفندى وحد الله .. ياخالد أفندى وحد الله .

وأرهف جلال سمعه يتأهب لأن يسمع اسمه يجلجل فى الحارة ، فخفق قلبه خفقة فرح ، ولكن الرجل ابتعد دون أن يهتف باسمه ، وراح يقول وهو يضرب الطبل بعصاه :

ـ وحدوا الله يا عباد الله .

فانقبض صدر جلال ، وأحس ضيقا وقهرا ، ولم يحتمل كتمان غيظه ، فقال :

ـ والله لن أصوم حتى ينادى هذا الرجل باسمى .

فقالت له أمه فى إنكار :

ـ أتصوم للناس ؟ !

فقال لها جلال :

ـ إذا كنت سأصوم ، فلماذا لا يعرف الناس كلهم أنى صائم ؟!

فقال له خالد :

ـ هذا نفاق .

فقال جلال فى عدم اكتراث :

ـ نفاق نفاق ، أأحرم الطعام نهارا كاملا ثم لا يعرف الناس

فقال سعيد فى استخفاف :

ـ لاتحزن ، سيعرف كل الناس أنك صائم .

ونهض إلى النافذة وفتحها وصاح فى صوت قوى جلجل فى ذلك السكون العميق :

ـ ياجلال أفندى وحد الله .

ولو كان غيرجلال لأغضبته هذه السخرية ، ولكن جلالا أحس الهتاف باسمه يدغدغ حواسه ، وغشى وجهه بالبهجة وقالت :

ـ غدا سأقابل هذا الرجل ، وأطلب منه أن يهتف باسمى .

فقال له خالد :

ـ إنه غلام شيخ الحارة ، يجلس فى مقهى الصعايدة ، غدا أذهب معك إليه .

ولو أن خالدا كان على ثقة من أن ما يفعله جلال إن هو إلا ضرب من النفاق. إلا أنه كان صادقا فيما عرضه . إنه يستشعر سعادة إذا عاون أخاه أو صديقه على أن يحقق أملا من آماله .

وأقبل على ، فجهزت صفية السحور ، وجلست مع زوجها وأولادها تأكل ، وإذا بصورة زكريا تحتل رأسها ، إنه بعيد عنها ، هناك فى القاهرة وحده ، ترى ماذا يفعل الآن ؟ ومن يعد له سحوره ؟ ومن ذا يهتم بأمره ؟

وراحت الأفكارتلح عليها ، فعافت الطعام ، ولم يفطن أحد إلى ما طرأ عليها من فتور، كانوا جميعا فى شغل عنها بذلك الطعام الآخذ فى النقصان ، حتى على لم يلمح ذلك السهوم الذى لاح عليها .

ـ ٦٤ ـ

وراح على واستاورو ، ذلك المرابى الشيخ القمىء ، يتجاذبان أطراف الحديث ، فى ركن هادىء فى المقهى ، قال استاورو :

ـ سدد أبناء الحاج كرم ديونهم ورفع الرهن عن العقار .

فقال على

ـ فتح الله عليهم .

فقال استاورو فى بساطة:

ـ ماذا ستفعل زوجك بنصيبها ؟

فقال على فى هدوء :

ـ ستبيعه .

ـ تبيعه ؟ لماذا

ـ الأولاد فى حاجة إلى مصروفات كثيرة .

ـ أنامستعد أن أقرض ماتريد .

ـ ليس لى فى هذه الدنيا إلا أولادى يا استاورو ، ولاأحب أن أربيهم بالربا، إننى لم أفعل مايغضب الله فى حياتى ، وإننى على ثقة من أن الله سيبارك لى فيهم .

وشرد بصرعلى ، ورنا إليه استاورو الشيخ فى حب ، كانت بساطته وشهامته

وتلك الفروسية التى اتصف بها تقربه من نفسه ، كان الشيخ يعجب بالصفات الكريمة ، وإن لم يكن يحب أن يتحلى بها !

وساد الصمت برهه ، ثم قطعه صوت استاورو:

ـ وكيف حال الأولاد ؟

ـ زكريا متفوق فى الجامعة ، أعجب الممتحنون به ، حتى أن أحدهم أشار عليه أن يلتحق بالآداب ، ولكنه أخبره أنه سيلتحق بالحقوق بعد نجاحه ،تحقيقا لرغبة عزيز عليه

وأشرق وجه على ، وقال استاورو :

ـ أشرت عليه بالالتحاق بالحقوق ؟

ـ أجل وأرجو أن أراه محاميا نابها .

ـ وخالد ؟

ـ سيتقدم لامتحان البكالوريا .

ـ وماذا تتمنى أن تراه .

ـ كل ما أرجوه من الله أن يوفقهم جميعا فى الحياة .

وأقبل رجل وسلم عليه ، فقال له على :

ـ تفضل .

وأراد أن يكرمه فطلب إليه طلبا ، وجاء آخر فأكرمه على بطلب آخر ، وجاء ثالث فطلب طلبا ، ولم يكن فى جيب على مايسدد أثمان هذه الأطلاب، ولكنه يندفع وراء طبعه ، فيتراكم عليه حساب القهوة ، حتى يرزقه الله من فضله ، فيسدد أول مايسدد هذا الحساب !

واتسعت الدائرة ،وتشعب الحديث ، فبدأت نفس على تتفتح ، كان محدثا لبقا ، يهوى الحديث ، وكان يستشعر راحة كلما تدفق ، كانت هذه الجلسة فى جوف الليل فى ركن من أركان المقهى هى الحياة .

وجاء رجل يسعى ، واتجه إلى على ، ومال عليه ، وأسر فى أذنه كلمات أربد لها وجهه ، فقام على فى انفعال ، واستأذن من صحبه ، وانصرف ، فلما ابتعد عن

المقهى أقبل على الرجل يستفسر :

ـ ومتى قبض عليه ؟

ـ منذ نصف ساعة .

ـ وأين هو الآن ؟

ـ فى القسم .

راح على يضرب فى الظلام ، يغذ السير والرجل يتحدث ، وهو يهرول خلفه ، وما كان على يلتفت لحديثه ، كان مشغولا بالحزن الذى تفجر فى جوفه .

ودخل القسم مندفعا ، فلما وقعت عيناه على أخيه اضطرب ، وقال له فى صوت فيه رنة حزن ولهفة :

ـ حسان ، ماذا حدث ؟ .

فلم ينبس حسان بكلمة ، كانت عبراته أسرع من بيانه ، فأحس على يدا قوية تعتصر فؤاده ، وما هى إلا لحظات حتى اقتيد حسان وأصدقاؤه ، إلى « التخشيبة » ، وأغلق الباب خلفهم ، فانصرف على وسكاكين تمزق أحشاءه ، كان يعرف أن أخاه يتهافت على المخدرات ليفر من الحياة ، فياطول عذابه من اليقظة ، وأية يقظة ؟ يقظة حبيسة بين جدران .

وانطلق على يدثره حزن عميق ودخل على أخواته ، وقال :

ـ قبض عل حسان وهو يحرق مع أصحابه الحشيش .

فندت من النسوة أصوات دهش واستنكار، ثم ساد المكان صمت عميق ، أطرقت عزيزة وماكان فى قلبها أثر للانفعال ، كأنما لم يكن الأمر يعنيها فى قليل أو كثير ، وأطرقت ثريا وزينب وحميدة وفى صدورهن سحب من الأسى، وماكان ذلك الحزن على حسان ، بل على ما سيلحقهم من عار ، وكانت زهيرة أكثرهن تقطيبا ، وإن أحست فى أعماقها راحة ، كانت ترى فى حسان عبئا، وإن لم تكن تمده بشىء وإنها لتستشعر الساعة كأنما انزاح ذلك العبء عن صدرها .

— ٦٥ —

جلال يقلب الصحيفة ، وتثبت عيناه على أنباء الطلبة الناجحين ، الذين دفعوا أجر نشر التهنئة لأنفسهم جنيهات ماأيسرها على أمثالهم من الموسرين ، فتفجرت فى جوفه عوامل الغيرة ، فهو يشتهى أن يرى اسمه مطبوعا فى جريدة يقرؤه الناس ، ولولا يقينه من أن أمه تقاسى فى سبيل توفير الطعام لهم ، لالتمس منها أن تدفع له ثمن الإعلان عن نجاحه ، وتزجية التهانى له .

ونحى الصحيفة عنه ، وشرد يفكر ، فرأى بعين خياله « جلال على يونس » بحروف كبيرة ، فأحس راحة ، واستسلم لخياله ، وإذا بصوت سعيد ينبعث حادا .

— أنا سعيد باشا ، أنا سعيد باشا .

فنظر إليه فى إنكار ، أخرجه من أحلامه ، فحسب سعيد أنه يزدرى آماله ، فقال له فى تحد :

— لماذ تنظر إلى هكذا ؟! أتستنكر على أن أكون سعيد باشا ، ولكنى سأصبح سعيد باشا ، إذا أردت أن تكون شيئا فما من قوة على الأرض تمنعك من أن تكون ذلك الشىء إذا عزمت . فقال له جلال فى استخفاف :

— أنت باشا .

ولم يقبل سعيد هذه السخرية ، فقال فى ثقة :

— سأصنع نفسى بنفسى ، كل إنسان من صنع يديه ، إنى أعرف الطريق ، العمل ولا شىء غير العمل ، وسأعمل حتى أصبح باشا ، سعيد باشا.

فقال له جلال :

— يمكنك أن تكتب ذلك الآن بيدك .

فقال له سعيد :

— سيكتب ذلك الزمن .

كانت صفية فى غرفة قريبة ، يصل إلى مسامعها ذلك الحوار ، فنهضت ودخلت عليهما ، وقالت لسعيد :

— ستكون باشا لو ساعدك الحظ كما ساعد بهاء باشا .

فقال سعيد فى اعتداد :

— لادخل للحظ فى هذا ، عمل زوج خالتى على أن يكون باشا ، فأصبح باشا ، وسأعمل وأحقق ما أريد ، إننى أعرف الطريق .

فقالت صفية فى حنان :

— أرجو يابنى أن تسعد أيامك ، وأن يصفو لك زمانك وأن تحقق ماتريد .

وسمع صوت أقدام تقترب ، فنظرت صفية فى تشوف ، ولاح القادم وإذا به خالد ، وفى يده مسطرة ونشافة وعدة أقلام ، فلما وقعت عيناها عليه خفق قلبها ، ومشى الخوف فى جوفها ، وقالت :

— لماذا عدت من الامتحان ؟

فقال خالد :

— ألغى امتحان البكالوريا والكفاءة ، اتضح أن أسئلة الامتحان تسربت إلى الطلبة .

فصاح سعيد فى انفعال :

— فوضى .. فوضى ، هذه فوضى ، لو كان الأمر بيدى ..

فقال جلال وهو يبتسم فى زراية :

— بيد الباشا ..

فاعتدل سعيد ليقول مايفعله لو كان الأمر بيده ، ولكن خالدا لم يدعه يتكلم ، بل راح يقول لأمه :

— خسارة أن يلغى هذا الامتحان ، كنت مطمئنا إلى إجابتى ، وكنت واثقا من النجاح .

فقال سعيد :

ـ الأمر بيدك لو أردت أن تنجح .

وتحرك خالد صوب الباب ، فقالت له أمه :

ـ إلى أين ؟

فقال خالد وهو منطلق إلى صحابه :

ـ إلى الشارع أرفه عن نفسى ، أحس رأسى يكاد يتصدع .

وهبط خالد إلى الحارة ، وأسرع جلال وسعيد خلفه ، وراحوا يلعبون ، وإذا بسيد يهبط وقد ربط عينيه بشاش أبيض ، يقوده سليمان ، فلما رآهما يحيى هرع إليهما ، فهو يحب أولاد عماته ، ويمضى أغلب وقته عندهم، قال :

ـ إلى أين ؟

فقال سليمان :

ـ إلى المستشفى .

وما ابتعد قليلا حتى خطر لسليمان أن يعابث أخاه ، فقال له وهو يسحبه :

ـ ما رأيك يا سيد لو مررت على المقاهى الآن أتسول بك ؟

فصاح به سيد فى غيظ :

ـ يبيبا مجرم .

فقال سليمان فى همس يبلغ مسامع سيد :

ـ يا رب .. ياكريم .

فثار سيد وصاح :

ـ يبيا سافل .. يبيا منحط .

فقال سليمان فى صوت مرتفع قليلا :

ـ إحسان لله . أحسنوا على العاجز الفقير.

فضاق سيد بعبث أخيه ، وقال فى حنق :

ـ يبيا بن الكلب .

فتركه سليمان فى وسط الطريق وحده ، ولما كان سيد يرتجف على حياته فقد

راح يصيح فى رعب :

ـ يبيا سسسليمان .. يبيا سسليمان .. يبيا بن الكلب .

فعاد إليه سليمان يسحبه ، ولايكف عن مضايقته ، كان يحلو له أن يشاغبه ، وأن يتلقى سبابه منشرحا .

ـ ٦٦ ـ

نجح خالد فى الدور الثانى ، بعد أن قصر فى الدور الأول ، فذهب إلى أمه يناجيها ، قال لها :

ـ أريد أن التحق بالمدرسة الحربية .

فصمتت صفية برهة ، فقد باعت آخر ما ورثته عن الحاج كرم وأنفقته عليهم ، ولو كان عندها مايكفى لمصروفات الحربية لقدمته إليه راضية ، ولكنها تحس الضيق يضيق حلقاته حولها ، حتى يكاد يخنقها ، ومشت موجة من الأسى فى صدرها ، ففكرت فى أن تمنيه حتى لا تصدمه مرة واحدة بالحقيقة ، ولكنها ماكانت تحب أن تدعه يعرج إلى السماء على حبال واهية من الأوهام ، فقالت له فى نبرات حزينة:

ـ هذه المدرسة تحتاج إلى مصروفات كثيرة .

ولم يحزر خالد ما ترمى إليه ، كانت ترجو أن يفهم أنها لاتقوى على الإنفاق على إخوته الذين أصبحوا فى المدارس الثانوية ، وزكريا فى السنة النهائية بكلية الحقوق ، وعليه فى المدرسة الحربية ، كانت ترجو أن يكون لماحا يكفيها مئونة سرد ذلك عليه ، ولكنه قال فى حماسة :

ـ المدرسة الحربية توافقنى وترحب بى . إنها تهتم بالرياضة البدنية ، وأناأحب هذه الرياضة ، وترحب بالرياضيين ، وقد لعبت فى فريق مدرستى ، وفى فريق النادى ، هذه المدرسة تعرفنى وترحب بى .

فقالت له أمه فى رقة :

ـ ولكنها تحتاج إلى مصروفات كثيرة .

فقال لها وهو يحملق فيها :

ـ لن تقبلنى الجامعة مجانا ، فقد نجحت فى الدور الثانى . فإذا كنت سأدفع مصروفات فى الجامعة فالأفضل أن أدفعها فى الحربية .

لم يعد أمامها إلاأن تبصره ، وأن تشرح له حالهم ، وماكانت تحب أن تخوض فى ذلك الحديث ، حتى مع زوجها ، فقالت فى صوت شحن أسى :

ـ لا أستطيع أن أدفع لك مصروفات ياخالد ، إن مايرسله إلينا لبيب لا يكاد يسد جانبا من حاجات البيت ، وإن مايكسبه أبوك أصبح قليلا ، لايكاد يكفى طعامنا ، وهؤلاء إخوتك فى مدارسهم لم يكملوا دراساتهم الثانوية ، لا أستطيع أن أخرجهم من مدارسهم قبل أن ينتهوا من هذه المرحلة ، ولاتزال الطريق أمامى طويلة ياخالد ، لو كان عندى شىء يباع لبعته ، ولكننى بعت كل ما عندى .

وأطرق خالد وقد ران عليه حزن ، وفطن إلى ما يجب عليه أن يفعله، صار عليه أن يعمل كما يعمل لبيب ، ليشاطر فى حمل أعباء الأسرة ، ورفع رأسه ورنا إلى أمه ، وقال :

ـ سأبحث عن عمل من الغد .

فقالت له أمه وهى تبتعد عنه ، حتى لا يرى أثر انفعالها الذى كانت تحاول أن تكبته :

ـ وفقك الله .

وذهب خالد إلى مصلحة السكك الحديدية ، وقدم طلبا ليلتحق بعمل من أعمالها الكتابية ، وراح يمر على مصالح الإسكندرية يبحث عن عمل ، وأخذت الأيام تمر ، وهو فى جريه وبحثه ، حتى دب اليأس إلى قلبه ، واكتنفه ضيق ، وقد رأت عزيزة وزهيرة وعماته فى ضيقه بعض العزاء لهن ، قر فى أذهانهن أنهن كن على صواب يوم أخرجن أولادهن من المدارس وألحقنهم بالعنابر ، أبقين مصروفات المدارس ، وضمن لأولادهن رزقا .

وكان سيد وسليمان يتندران به ، حتى إذا قابلاه عرضا عليه أن يأتى معهما إلى العنابر يشتغل لهما صبيا .

وعاد خالد إلى الدار ذات يوم ، يتصبب من العرق ، ضيق الصدر، باسرالوجه ، يمرر يده على وجهه فى انفعال ، رأته أمه فى قلقه ، فنظرت إليه فى إشفاق ، فاختلط عليه الأمر، وحسب أنها ترنو إليه فى عتاب ، فقال فى ذلة :

ـ ماذا أفعل ؟ مررت على جميع المصالح أستفسر على طلبى ، فلم أفز بشىء ، نفس الجملة فى كل مكتب ، ليس فى المصلحة أماكن خالية ، إننى لم أقصر، بذلت كل مافى جهدى ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟

فقالت أمه لترفه عنه :

ـ إننى على يقين من أنك فعلت كل ماتستطيع أن تفعل ، ولكن لماذا كل هذا الحزن ؟ إننا لانكلفك شيئا . ولانحب أن ترهق نفسك ، واعلم ياخالد أن الله لاينسى الناس .

فقال خالد فى حدة :

ـ أحس أننى أصبحت عبئا عليكم .ها هى ذى سنة قد مرت ولم أجد عملا ، إننى ضقت بما أنا فيه ، أريد أن أعمل ، أن أشتغل أى شىء ، ولو أقطع الحجارة . أصبحت أخجل من الناس ، وصرت أفر من سيد وسليمان كلما لمحتهما فى الطريق، كأنما ارتكبت جريمة . أحس أنى صغرت وتضاءلت كلما صوبت عماتى إلى نظراتهن ، لماذا كل هذا العقاب .. لماذا كل هذا الاضطهاد ؟! إننى لم أقصر، ، ولكنهن معذورات ، فهن يرين شابا قويا مثلى لايعرف كيف يكسب قوته ، إننى أستحق هذه الزراية ، إننى لاأصلح لشىء.

واختنق بالكلمات ، ولمحت صفية دموعه تترقرق فى عينيه ، فانقبضت وراحت تواسيه ، وتمسح على ظهره فى رفق وحنان ، وتقول له :

ـ غدا ينفرج هذا الكرب ، إن فرج الله قريب .

- ٦٧ -

تخرج زكريا فى الجامعة ، وأصبح الأستاذ زكريا ، إنه اجتاز مرحلة الدراسة ولم تكن تلك المرحلة كل شىء ، فأمامه شوط طويل لا بد أن يقطعه قبل أن يتم له تحقيق أمنية أبيه ، ويصبح محاميا .

تلفت زكريا فوجد الأسرة فى ضيقها لاتستطيع أن تنتظر كفاحه حتى يصبح شيئا ، كانت أطماعه واسعة ، وهو قادر على أن يروض نفسه على الصبر حتى يحقق أهدافه ، ولكن هذه الأسرة التى كفلته ترقبه تنتظر منه أن يتقدم ، بعد أن اشتد ساعده ، ليعاون فى حمل بعض أعبائها ، صار من حقها أن تأخذ منه بعد أن حرمت نفسها وأعطته فوق طاقتها .

وراح يفكر ، فألفى أن عونه يكون أثمر لو تريثت الأسرة وتركته يكون نفسه ومستقبله ، ولكن أمن المعقول أن يلتمس من الجائع أن يصبر على جوعه الذى يورده موارد التهلكة ، على أمل تقديم وجبة دسمة فى يوم بعيد ، قد يأتى بعد هلاكه ؟! إن كسرة خبز حاضرة ، خير له وأبقى من أكلة فاخرة ، لاتزال فى طيات الأوهام مغيبة .

وقهر نفسه ، ووأد رغباته ، وفكر فى أن يعمل موظفا ، مضحيا بآماله وأحلامه فى سبيل هؤلاء الذين يحبهم ، وليرفع عن أمه بعض ذلك الحمل الثقيل ، الذى تكاد تنوء تحته ، وما إن قرأ إعلانا عن وظيفة فى مصرف ، حتى تقدم إليها ، وتأهب لامتحان المسابقة الذى سيعقد لاختيار أفضل المرشحين .

وحزن على من أعماقه ، وطوى حزنه ، فما كان يحب أن يرى زكريا موظفا ، فيا طالما رآه بعين خياله فى رداء « روب » المحامين الأسود ، يصول ويجول فى قاعات المحاكم التى يعرفها ، وكانت نشوة الأفكار تغمره وتختلط المشاهد فى

ذهنه، حتى يرى نفسه محاميا يترافع فى القضايا الكبرى ، كان يشتهى أن تتاح له فرصة الدفاع عن المضطهدين والمستضعفين، وكانت نزعة الفروسية المتأصلة فيه، تغذى هذه الشهوة . ولما كان من العسير عليه أن يحقق هذه الرغبة ، كان يخفف عنه ويعزيه أن ابنه سيحققها ، وها هو ذا يرى ابنه يتقدم إلى وظيفة عادية ، فتتقوض صروح آماله ، وتنهارالقصور التى شيدها فى خياله ، فيعتصر قلبه أسى، ولكنه يلج فى صمته كارها ، لاينبس بكلمة .

واستشعرت صفية أن ابنها يضحى بنفسه فى سبيل أهله ، فغامت نفسها بسحب من الحزن ، كانت ترجو له أن يحقق آماله ، ولكنها أكبرت فيه هذه التضحية ، فهى بطبعها تقدر التضحيات وتحترمها، فقد ضحت بآمالها وصحتها فى سبيل أبنائها ، بل كادت تضحى بنفسها فى سبيل إنقاذ إخوتها الذين أبوا أن يقرضوها عشرة جنيهات تقيم عليها مستقبل أبنائها .

ونجح زكريا فى امتحان المسابقة بتفوق ، وتم تعيينه فى المصرف ، فلم يفرح، بل صار حزينا شاردا ، فجع فى آماله ، وبدت لعينيه تضحيته كريهة بشعة ، وجاء أوان خروجه أول يوم إلى مقرعمله ، فراح يرتدى ثيابه فى تراخ ، ولمح خالد فى وجهه الأسى ، فحزر ما يعتمل فى جوفه ، فقال له :

ـ لاتذهب ، لم تخلق للوظيفة ، بل خلقت لتكون محاميا .

فقال زكريا فى صوت واه :

ـ قد تضطرنا الحياة إلى فعل ما لاتصلح له .

فقال له خالد فى انفعال :

ـ لاتضح بنفسك من أجلنا ، صبرنا طويلا ، ونستطيع أن نصبر .

واستمر زكريا فى ارتداء ثيابه ، فهتف به :

ـ إنك كاره هذا العمل يا زكريا ، فلا تذهب ، فما أتعس العيش إذا ذهب الإنسان كل يوم إلى مكان يكرهه !

فقال له زكريا فى ضعف :

ـ أكره هذا العمل ، ولكنى مضطر إليه .

فقال له خالد :

ـ لاتذهب .

وجذب منه الجورب الذى أخذ يدس قدمه فيه ، فذهب زكريا يخلع ثيابه ، ويقول فى عزم :

ـ لن أكون إلا محاميا .

ـ ٦٨ ـ

راودت خالد فكرة التقدم إلى المدرسة الحربية . تصرمت سنة وهو يبحث عن وظيفة ، حتى كلت قدماه ، ودب اليأس إلى قلبه ، وتشبث بهذه الفكرة ، وجد فيها منفذا لآماله ، فلو وفق إلى دخول الحربية ، لتفتحت أمامه أبواب مستقبله ، وأراح نفسه من ذلك التعب الثقيل الذى يقاسيه الباحث عن الوظيفة .

وشجعه عل الاسترسال فى هذا الأمل ، أن النادى الرياضى الذى يلعب له ، وعده المعاونة ، سيوصى عليه ويزكيه ، لأنه من أفذاذ لاعبيه ، ولم تكن أمامه إلاعقبة واحدة ، وهى تدبير المال اللازم لمصروفاته ثلاث سنين !

اعتذرت له أمه أكثر من مرة بذلك الضيق الذى يأخذ بتلابيبها ، فهى تكافح فى سبيل الآخرين ، بعد أن أصبح قادرا عل أن يسلك طريقه وحده كآلاف الشبان من أمثاله ، الذين حصلوا على البكالوريا ، وخطر له أخواله ، فقد استردوا مكانتهم التجارية بفضل تضحية أمه ، وشجاعة أبيه ، ولكنه كان على يقين من أنهم لن يعاونوه ، مادامت المعاونة مادية تستلزم دفع جنيهات ، فلم يجر وراء هذا الوهم طويلا .

وأسدل الستار فى ذهنه على أخواله ، ليفتح عن خالته جليلة ، أصبحت غنية ، غارقة فى الغنى ، على الرغم من ذلك الجنيه الذى استقطعه زوجها مرة ثانية من مرتب لبيب ، بحجة الكساد المالى فى الأسواق ! إنها لوتكفلت بمصروفاته فى هذه السنوات الثلاث التى يقضيها فى الحربية ، مانقصت ثروتها إلا ماينقصه

النهر إذا ارتوى عصفور من مائه ، ولكنه لم يكن يطمع فى أن تتكفل به ، فكل مايرجوه منها أن تقرضه مصروفات الحربية ، على أن يسددها إليها أقساطا بعد أن يتخرج ، ويصبح له مرتب .

وعقد العزم على أن يذهب إلى خالته ، ويلتمس منها العون . وأغراه تفاؤله ذلك ، وأيد فكره ومنطقه ذلك الإغراء ، فما أيسر أن تدفع إليه خالته جليلة ذلك المبلغ ، وخطر له أن يكتب لها صكا ، ولكنه ازدرى ذلك الخاطر ونفاه من رأسه .

وارتدى حلة نظيفة ، وانطلق إلى خالته يداعبه الأمل ، ودخل عليها بقامته المعتدلة ، فانتابته موجة من القلق ، ولاح الاضطراب فى عينيه السوداوين ، وفى صفحة وجهه الأسمر ، ورغب فى وأد مخاوفه ، فأقبل على خالته يحييها .

نظرت إليه خالته وقالت له :

ـ ماذا تفعل الآن ؟

فقال خالد وهو يستجمع قواه ليفضى إليها بماجاء من أجله :

ـ لا شىء ، بحثت عن وظيفة سنة ، ولكن لم أوفق إلى أن أجد عملا .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال خالد :

ـ ضاعت سنة ، ليتنى التحقت فيها بمدرسة أو معهد .

فقالت خالته فى إنكار :

ـ أتمضون أعماركم فى المدارس ؟ هذا حرام .. ارحموا أمكم ، قد ذابت من أجلكم .

وبدأ القلق ينبت فى جوف خالد ، ولكنه راح يجاهده ، وقال :

ـ إننى لم أقصر ، بحثت عن وظيفة حتى كلت قدماى ، فلما يئست فكرت فى أن أعود إلى المدارس .

فقالت جليلة وهى ترمقه :

ـ أتريد أن تلتحق بالجامعة ؟

فقال لها فى حماسة ، وإن تهدج صوته :

ـ أريد أن ألتحق بالحربية ، ثلاث سنوات ، ثم أضمن مستقبلى ، أمى

تـوافق علـى ذلك ، ولـكن لـيس معـهـا مصروفات المدرسة ، وقد جئت أقترض مصروفات هذه السنة ، على أن أسددها إليك عقب تخرجى .

فانفجرت فيه جليلة :

ـ عيبكم يا أبناء صفية أنكم تنظرون إلى فوق ، ترهقون أمكم ، ولاتنظرون إلاإلى أنفسكم ، أصبحت رجلا تستطيع أن تدك الجبل ، فلماذا لاتعمل ، وتخفف عن أمك ماتقاسيه من ضيق ؟ لاتقل لى إنك بحثت عن عمل ، فلو كنت جادا لوجدت أكثر من محل يقبلك ، ولكنك لم تبحث ، استمرأت ما أنت فيه ، ماذا تريد أكثر من هذا ؟ تأكل وتشرب وتلبس وتنام دون أن تنضح قطرة من العرق ، ولكن هذا ليس عيبك ، هذا عيب صفية التى تدللكم وتترككم عل هواكم . اسمع نصيحتى ياخالد ، إذا اردت أن تكون رجلا ، لاتعد إلى أمك قبل أن تلتحق بعمل، أى عمل ، فإنه أكرم لك أن تكون حمالا من أن تكون عاطلا .

وأحس الأرض تميد به ، غصة فى حلقه ودوار فى رأسه ، وأشباح الأثاث تتراقص أمام عينيه ، ووخزات موجعة تخز روحه ، وأنات مكتومة تمزق أحشاءه ، وسياط أليمة تلهب حواسه ، ارتجفت فيه كل خالجة ، وثار كل شعوره ، ولكن لسانه اعتقل فى فمه ، فلم يترجم عن ثورة نفسه الطاغية ، وإن عبر وجهه عن أعمق الأسى والحزن .

وانسل من بيت خالته مطرقا ، كان مذهولا عن كل ماحوله مشغولا بينابيع الألم المتفجرة فى جوفه ، حتى إذا دخل البيت انزوى فى ركن ، وترك نفسه فريسة لخواطره وأوجاعه ، وجاءت صفية ، وما وقعت عيناها عليه ، حتى فطنت إلى عبوسه وتجهمه ، فذهبت إليه ، وقالت له :

ـ ماذا بك ؟

فقال فى حشرجة :

ـ خالتى جليلة .

فخفق قلبها اضطرابا وقالت :

ـ ماذا حدث ؟

وراح يقص لها قصته ، ولكنه لم يقو على الاسترسال فى حديثه ، خنقته عبراته ، ثم انفجر باكيا ، وأمه ترمقه ، وفى جوفها زفرات ، وفى قلبها دموع ، فما كانت تحب أن تبدو أمام ابنائها ضعيفة باكية

ـ ٦٩ ـ

كان على يحس قهرا كلما سمع أن أمنية خالد أن يلتحق بالمدرسة الحربية ، فكانت تثور فى نفسه عوامل السخط ، على الرغم من طبيعته القانعة الهادئة ، كان عميق الإيمان فى القدر ، يترك زمام أموره دون أن يجهد نفسه فى التفكير فى توجيهها، وكان متفائلا دائما ، يعيش على أمل أن الغد أفضل من اليوم ، فكان تفاؤله وقناعته وطبيعته الراضية تتعاون جميعا على إسعاده ، فقلما كان يحنق أو يسخط على الحياة .

وكانت صفية تحمل عنه همومه وهموم أولاده ، فما كان يفكر فى إطعام الأولاد أو كسوتهم أو تعليمهم ، وما كان يفكر حتى فى أمر نفسه ، إنه ليضع فى يدها القروش التى يرزقه الله بها كل يوم ، ثم يصفو ذهنه من متاعب العيش ، بعد أن أدى ماعليه ، وما كانت صفية تحاسبه على تقصيره ، أو ترهقه بطلباتها وشكاياتها ، عاهدت نفسها أن تعتبره ابنا من أبنائها ، ترعى شئونه ، وتقوم بأعبائه ، فزاد ذلك فى سعادته ورضاه .

كان ينطلق كل ليلة إلى المقهى ، صافى الذهن ، خلى البال ، ولكنه خرج الليلة عابسا مقطبا ، بلغه ما جرى بين ابنه وزوجة الباشا ، فانقبض واحنقه ما ذاقه ابنه من ذل وهوان ، لو أن ابن جليلة جاءه ذات يوم يطلب منه مالا ـ يوم كان ذا مال ـ لمنحه ما يطلب عن طيب خاطر ، وإن ابنه لم يلتمس من خالته ما يرهقها ، لم يطلب منها أن تهب له المصروفات ، ولكنه سألها أن تقرضه بضعة جنيهات ، كل ما يطلبه أن تخرج هذه الجنيهات التى يعلوها التراب من خزانتها ، ثم تعيدها ثانية

إلى الخزانة ، فإذا كان يعز عليها فراق هذه الجنيهات سنوات ، فقد كان فى مد العون لابن أختها بعض العزاء عن ذلك الفراق !

وجسم أحزانه أنه يخف سريعا لنجدة الغرباء ، فلما لمس تقاعس الخالة عن نجدة ابن أختها استهول الأمر ، وراح ينفخ فى جمرة غضبه ، ويستسلم لأساه ، ولما لم يكن يطيق وطأة الأحزان ، راح يجد فى السير ليبلغ مقهاه ، ويقابل صديقا ـ أى صديق ـ يفضى إليه بخبيئة نفسه ، ينفس عن صدره تلك الإحساسات التى تمور فيه فوارة ، فتعذبه وتخزه وخزات تؤلم روحه وتضنيه .

وبلغ المقهى ، ولمح استاورو جالسا ، وشعره الأبيض يبدو فوق رأسه كالقطن المنفوش ، فذهب إليه وحياه ، وجلس مطرقا برهة واستاورو يرنو إليه مليا ، ثم يقول :

ـ ماذا جرى الليلة ؟

ارتاح على إلى ذلك الاستفسار ، كان مطرقا يفكر من أين يبدأ حديثه وإذا باستاورو يفتح أمامه الأبواب المغاليق ، قال :

ـ يريد خالد أن يلتحق بالمدرسة الحربية .

ولم يتركه استاورو يتم حديثه ، بل قال وقد اتسعت عيناه :

ـ هذا نبأ جدير بالفرح ، فعلام العبوس ؟

فقال على فى بساطة دون أن يحاول أن يلف أو يدور :

ـ تعلم أننى لا أستطيع أن أدفع له مصروفات المدرسة .

فقال استاورو وهو يمط شفته السفلى :

ـ هذا أمر يسير .

فرنا إليه على فى بلاهة ، ثم قال :

ـ ليس يسيرا بالنسبة لى .

ـ بل أيسر مما تظن ، إننى أقرضه ما يريد .

فقال على فى فزع :

ـ لا .. لا يا استاورو .

ـ لماذا ؟

ـ تعلم أننى لا أحب أن أربى أولادى بالربا .

فرنا إليه استاورو فى عتاب وقال :

ـ ومن قال لك إننى سأقرضه بالربا ؟ !

فقال على فى صوت خافت ، فيه رنة من أسى :

ـ ولكننى لن أستطيع أن أسدد لك هذا الدين .

فقال استاورو فى هدوء .

ـ ولماذا تسدده أنت ؟! يسدده هو وقتما يحلو له ، بعد أن يتخرج .

وأراد على أن يشكره ، ولكنه لم يجد لسانه ، أفعمته نخوة ذلك الشيخ المرابى ، فمد يده إلى يد الشيخ الموضوعة فوق النضد ، وضغط عليها ضغطة ، كانت أفصح من لسانه فى التعبير عما يختلج فى صدره من مشاعر الشكر ، وعرفان الجميل ، فقال له استاورو :

ـ النقود ليست كل شىء فى الحياة .

وانقشعت سحب الغضب من صدر على ، فما أسرع ما يرتد إلى طبيعته الراضية ، واستشعر رغبة فى أن يدخل الفرح على قلب ابنه الحزين ، فاستأذن وانصرف يغذ السير، لينبىء خالدا أن الله قد جاءه بالفرج .

ـ ٧٠ ـ

نهض زكريا من نومه ، وأراد أن يطلب صحيفة الصباح من خالد ، فلم يجد صوته ، وحاول أن يهتف ، فلم يتجاوز هتافه شفتيه ، فارتجف وهب من نومه مفزوعا ، وذهب إلى أمه ، وقال لها فى صوت واه ، كأنما ينبعث من غور سحيق :

ـ حبس صوتى !

اضطربت الأم ، ولكنها جاهدت نفسها ، وقالت له فى هدوء تكلفته :

ـ لاتحزن ، عارض يزول .

وراح قلبها يدق فى رهبة ، ويمد صدرها بمشاعر الحزن والأسى ، وجللت ذهنها الأفكار القاتمة ، فاشتد جزعها ، حتى إنها كانت تفر من أولادها ، وتذهب إلى المطبخ تذرف الدموع .

جاهدت وصبرت ، فلما كاد يثمر جهادها ، إذا بعواصف هوج تذهب بثمرها ، كانت تحلم بنجاح زكريا ، وتتمنى أن تراه محاميا عظيما ، وتستشعر غبطة كلما استسلمت للرؤى العذاب ، وإذا بصوت ابنها يذهب فتندك حصون آمالها .

وأطرق زكريا مهموما ، فراح إخوته يرنون إليه بعيون زائغة ، لم تتحرك شفتا أحدهم بكلمة ، كان الحزن يدثرهم ، وقد انخلعت قلوبهم رهبة ، انهار أمام عيونهم أول أمل من آمالهم .

وخطر لسعيد أن يقول لأخيه ، إن أمر شفائه بيده ، إذا جمع عزيمته وآزرها فى قتال مرضه قهره ، أما إذا ترك ذاته فريسة طيعة لأوهامه ، فسيقهره المرض ، ولكنه ألفى الجو غير مهيأ لفلسفته ، فسكت ولج فى إطراقه وصمته .

واستيقظ على فى الضحى ، ومشى إليه نبأ ابنه ، فاربد وجهه ، ولفه أساه، كان أهون عليه أن يبلغه مرض زكريا بمرض آخر غير انحباس صوته ، فما أعسر عقد الآمال على محام لايسمع صوته ، وانتشر الضيق فى صدره ، فقام وارتدى ثيابه على عجل لينصرف ، فلم يعد يطيق البقاء فى الدار .

وفكر زكريا فى حاله ، فأحس ألما ممضا ، وزاد فى آلامه ذلك الهاتف الذى يهتف فى أعماقه أنه ارتكب جناية فى حق الأسرة ، يوم تبطر على الوظيفة ، فلو أنه قبلها لهان الخطب ، ولكان ذهاب صوته أمرا هينا ، إنه ليلمح الهلع فى الوجوه، ويحس الألم النازل بالأفئدة ، فيربو ضيقه ، ويتكاثف حزنه ، ويحس جمرة متوقدة فى حلقه ، ولولا خجله للاذ بالبكاء من أساه .

وساح فى البيت الخبر ، فخفت عزيزة وزهيرة إليه تستفسران عنه ، وما كان فى قلبيهما ذرة من القلق أو الاضطراب ، كانت الشدائد الهابطة على أبناء صفية تنزل على قلوب العمات بردا وسلاما ، كن يجدن فيها برهانا على أنهن كن على

صواب يوم اختصرن الطريق ، وألحقن أولادهن بالمصانع والعنابر ، لم يكابدن مشقة فى إعدادهم ، وما أسرع ما جنين من الثمار .

وقالت عزيزة وهى تمصمص شفتيها :

ـ حسدوه .

وقالت زهيرة فى رياء :

ـ احزننى والله ذهاب صوته ، ليت صوتى انحبس بدل صوته .

وكأنما خشيت أن يكون الله استجاب لها ، فقالت فى صوت مرتفع ، لتطمئن على صوتها .

ـ أعطيه يا صفية سكر نبات .

فقالت عزيزة فى توكيد :

ـ حسدوه ، حسدوه والله ، فإذا جاء الليل أوقدى المجمرة ، وقصى قطعة ورق « عروسة » واخرقى عينيها بدبوس ، ثم ألقى بها فى نار المجمرة ، ثم بخريه ، يذهب عنه الحسد .

فقالت لها زهيرة ، وهى تتظاهر بالإشفاق :

ـ والله إنى أحب زكريا من كل قلبى ، مسكين ، ياخسارة سهر الليالى وتعب السنين ، افعلى ما قالته عزيزة ، وسيشفى بإذن الله .

فقالت صفية فى إيمان :

ـ الله هو الفعال .

وأتى المساء ، وتأهب الرجال للخروج للسهر ، فقال سليمان لأخيه سيد :

ـ تعال نصعد نسأل عن زكريا قبل أن نخرج .

اضطرب سيد ، إنه يخشى على نفسه هبوب النسيم ، فقال :

ـ للا .. للا .. أأخاف أأن أصاب بالعدوى .

فقال له سليمان وهو يجذبه إمعانا فى مضايقته :

ـ تعال ، انحباس الصوت لا يعدى .

فجذب سيد نفسه منه ، وهبط الدرج مسرعا ، حتى إذا بلغ الحارة ، وقف

وربط بينه وبين انتصاره اليوم ، فرآه بوهمه طالع سعد، وبشير خير ، فرفت على شفتيه ابتسامة رضا، وفكر فى اسم يختاره له ، ولما كان عائدا من معركته منصورا ، فقد قفز إلى رأسه اسم خالد ، وارتاح إلى ذلك الاسم ، فأغذ السير إلى بيت أصهاره ليعود خالدا وأمه .

— ١١ —

شمل الحارة هدوء ، فقد أرخى الليل ستائره السود ، ولاذ الأولاد بدورهم، ولولا الأغانى الصعيدية الخافتة التى تسرى من المقهى البعيد ، كالأنفاس فى الجسد الهاجع ، لبدت الحارة كأنما قد فارقتها الحياة .

وفى ذلك السكون دبت الحركة فى بيت يونس ، ذلك البيت الذى تملؤه الحركة فى النهار ضجيجا ، ويملؤه الرجال فى صدرالليل عجيجا ، وينداح فيه آناء الليل وأطراف النهار غمز النساء وهمسهن ، وصياحهن وتراشقهن بالألفاظ ، تراشق المقاتلة بالسهام الطائشة .

ارتدى الرجال جلابيبهم الصوفية الداكنة ، وهبطوا فى الدرج ، لينطلقوا إلى حلقات السهر المتباين ، وإن اتحدت فى الهدف ، فهمهم أن يقضوا سواد الليل فى غيبوبة ، هاربين من واقع حياتهم ، غارقين فى الرؤى والأحلام .

وقبل أن ينسابوا فى ظلال الحارة الغارقة فى الصمت ، عرجوا على يونس يعودونه ، كان ممدودا فى فراشه ، يشكو ضعفا أصابه ، وكانت فاطمة جالسة إلى جواره ، وجلس قبالته ولداه على وحسان ، وتقاطرت بناته عليه بعد هبوط أزواجهن إليه فغصت الغرفة بمن بها ، وأدار عينيه فيهم ، فأحس نحو الثيران عطفا، ولم يحقد عليهم ، وإن كان على يقين أنهم خارجون مددا لحزب الشيطان يشدون أزره .

جلسوا صامتين لحظة ، وظهر فى وجوههم رغبتهم فى الانصراف إلى

لذاذاتهم ، فأراد أن ييسر لهم أمرهم ، فقال لحسان :

ـ إلى أين أنت ذاهب الليلة؟

فقال إسماعيل وهو يضحك :

ـ ذاهب ليخرج الإنجليز من مصر .

فاربد وجه حسان ، وقال فى حدة :

ـ كان أمر الإنجليز يهون لو خلت مصر من أمثالك ..

فقال إسماعيل فى زراية :

ـ كانوا سيخرجون هربا من لسانك .

فتدخل على ليؤازر أخاه ، ويخفف فى نفس الوقت من حدة المناقشة التى بدت حامية ، تنذر باكفهرارالجو وهبوب العاصفة ، فقال :

ـ لو صدقت نيتنا جميعا عل أن يخرجوا من مصر، لما بقوا فيها لحظة واحدة.

فقال أحد الثيران :

ـ إننا ضعاف لا نستطيع أن نحاربهم ، عندهم مدافعهم وبوارجهم ، ونحن لانملك حتى العصى .

فقال على :

ـ نقاطعهم ، نعلن بعدم رضائنا على احتلالهم بلادنا .

فقال ثور آخر:

ـ نؤذن فى مالطة ، إنهم أقوياء ، ولن يأبهوا لصراخنا .

فقال له على :

ـ أتستطيع أن تبقى فى هذه الغرفة إذا قاطعناك كلنا ، وأبدينا لك كرهنا ؟

ـ لا .

ـ كذلك الإنجليز ، لن يستطيعوا البقاء إذا خاصمناهم كلنا وبدت لهم عداوتنا.

ـ الأمر يختلف ، إذا خاصمناهم منحونا ظهورهم ، وحدثوا فرنسا أو روسيا ، وأصدقاءهم وعبيدهم ، العالم كله لهم .

يدندن بصوته الرخيم ، ليطمئن على صوته .

وبلغ مسامعه رنين موسيقى نحاسية ينبعث من بعيد ، فحزر فى لمح البصر ماسيجرى فى الحارة عما قليل ، ستهبط الزفة من العالية ، وتنطلق فى أمان حتى تصل إلى قهوة الصعايدة ، ثم تبدأ المعركة ، ويعقبها انسحاب مدبر ، يقع بعده الصعايدة فى الكمين ، ثم تطلق الزجاجات المحشوة بالرمل والزلط فى وجوههم ، إنها معركة تقليدية ، يعرف خطوطها ويعلم نتائجها كل من فى الحارة ، إلا الصعايدة ! وخاف سيد أن يصاب فى هذه المعركة المرتقبة ، فراح يبتعد من الحارة مهرولا .

وخيم السكون على الحارة بعد المعركة ، وذهب الناس إلى فرشهم ، وبقيت صفية مهمومة مطرقة ، وألحت عليها نصيحة عزيزة ، فقامت إلى المجمرة وأوقدتها ، وتناولت مقصا وصحيفة وأخذت تقص أكثر من « عروسة » ، وجاءت بدبوس وسحبت أول عروس ، وراحت تخرق عينيها ، وقد قفزت إلى ذهنها عينا زهيرة ، ثم ألقت بالعروس فى النار ، وسحبت عروسة ثانية ، راحت تخرق عينى عزيزة ، وتناولت عرائس بعدد من فى الدار ، وخرقت عيونهن وألقت بالعرائس فى النار ، فلما أتمت تخريق عيون العمات وأولادهن وبناتهن ، وضعت فى المجمرة بخورا ، ثم ذهبت إلى حيث يرقد زكريا تبخره من عيون حاسديه .

ـ ٧١ ـ

فتح باب السجن ، ولفظ أربعة رجال ، ثم أغلق ليطبق على الدنيا العجيبة الشاذة التى تنبض واهنة خلفه ، فتح فى سرعة وأغلق فى سرعة ، كأنما يهاب الحارس أن يتسرب نسيم الحرية إلى داخل السجن فيفسد جوه !

وهرعت نسوة وأطفال إلى ثلاثة رجال ، فتكونت ثلاث حلقات قطب كل منها سجين طليق ، يتلقى الأجسام التى ترتمى فى أحضانه فى شوق ، وقد دمعت عيناه

، وهزته حرارة اللقاء ، وصهرت فى لحظة فى ذاته أيام السجن ولياليه ، وبقى رجل واحد يتلفت فى ذهول ، فلما لم يجد أحدا ينتظره اختلجت أهدابه ثم أطرق ، كان ذلك الرجل حسان .

ورفع رأسه ، ونظر إلى ماحوله قبل أن ينساب فى طريقه ، فإذا بمشاعر الحنان تتدفق فى جوفه ، أحس رغبة فى أن يضم أحدا إلى صدره ، وأن يذرف على كتفه عبراته ، وخطرت فى ذهنة خاطرة ، لو أنه تزوج لجاءت زوجه وأبناؤه يترقبون خروجه فى تشوق ورجاء ، ولارتموا فى أحضانه يطفئون لوعة الشوق ، فتبترد تلك المشاعر الحارة الجوالة فى جوفه ، التى تكاد توورده موارد الهلاك .

وأفزعه ذلك الخاطر ، أكان يرضى لأبنائه وزوجه هذا الهوان ؟ أيرضى لهم أن يقفوا على باب السجن يرصدون خروجه ؟ وزاد فى فزعه أنه يفكر فى الزوجة وفى الأولاد بعد أن قهر نفسه وراضها على أن تقبل العيش وحيدة ، مضحيا بأنانيته ، حتى لا يكون سببا فى أن يأتى إلى هذا العالم البغيض بأبناء يسامون فيه العذاب ، إنه لا يغفر لأبيه زلته ، جاء به إلى هذه الدنيا فى لحظة من لحظات الرغبة ، لاتقاس بما قاساه حسان من عذاب كل هذه السنين الطوال .

وسار وحيدا يضرب فى الطريق المغبر المنساب بين الأنقاض . كان أشبه بطريق حياته ، وكان يوحى باليأس والأحزان ، وإذا بصوت يصرخ فى أعماقه : لماذا حبسوك ؟ ولماذا أطلقوك ؟ وهل أطلقوك حقا ؟ يا للسخرية ! أخرجوك من السجن الذى صنعوه ، إلى السجن الكبير الذى يغيب الناس جميعا فى غياباته ، فكل من على هذه الأرض سجين ، وإن أسدلت عل العيون غشاوات من الوهم والظلال .

وتتابعت الخواطر فى ذهنه ، فلاحت لعينيه صورة أخيه وأخواته ، لم يفكر أحد منهم أن يأتى لزيارته يوما ، حتى يوم خروجه لم يرسلوا إليه من ينتظره ، ولو نفاقا ، ليشعروه أن هناك أناسا يذكرونه . وأحس ضيقا ، وعجب لتلك المشاعر التى تتحرك برغمه . لماذا يغضب على أخيه وأخواته ؟ إذا كانوا لم يأتوا إليه فهم معذورون ، لماذا يأتون ؟

وهتف به هاتف : أصبحت عارا ، ينفر منك أقرب الناس إليك ، وأراد أن

يئد ذلك الهاتف المقيت ، ولكنه غلب على أمره ، استسلم مقهورا لأفكاره : إذا كنت قد سجنت ، فذلك لأننى ضبطت لسوء حظى متلبسا بما اصطلح الناس على اعتباره جريمة ، ولو أن كل من ارتكب جريمة وقع تحت طائلة العقاب ، لزج بالناس جميعا فى السجون ، الناس كلهم عار ، ولست عارا وحدى ، حتى أمى لا أبرئها من الإثم ، ألم ترتكب فى حياتها الحافلة خطيئة ؟! أما أبى فما أكثر خطاياه ، أنجب شقيا وخمس شقيات ، جاءوا إلى العالم بجيش من الأشقياء ، وإنها لخطيئة بشعة لا تغتفر .

وأحس جفافا فى حلقه ، فراح يتحسس النقود التى فى جيبه ، النقود التى ادخرها السجن له ، ليبدأ بها حياة شريفة بعد إطلاقه ، فأغذ السير ، كأنما كان يفر من شبح يجد فى أثره ، حتى إذا بلغ حانة دخل ليتخلص من تلك الصحوة الأليمة، التى امتدت أياما وليالى وأسابيع وشهورا وأعواما ، ويا لها من صحوة أليمة أذاقته صنوف الضنى والعذاب .

وراح يعب الكئوس ، حتى إذا ما استشعر غمامة تظلل ذهنه ، وتحجب بينه وبين الأفكار ، هدأت وساوسه ، وخرج هادئا لينطلق إلى الدار .

ودخل على أخواته ، فما لمحنه صحن فى اهتمام :

ـ حسان .. حسان !

وقامت إليه عزيزة تعانقه ، وراحت زهيرة تقول له فى صوت تحاول أن يبدو فيه التأثر :

ـ حمدا لله على السلامة ، والله أحزننا ماجرى !

وأخذت كل واحدة من أخواته تبثه إحساسها ، فلم تمس كلمة من كلماتهن وترا فى نفسه ، كان يستشف فى كلامهن رنة الرياء ، ولمح صفية ترنو إليه فى عطف ، فوضع يده على فمه ، فما كان يحب أن تشم رائحته وهو سكران ، كان ينظر إليها نظرة إعزاز وإكبار ، وصافحها فى حرارة ، ثم انصرف من البيت ليهيم على وجهه وحيدا ، يفر من نفسه ، ونفسه تجد فى أثره تلهبه بسياط السخط والنقمة والاضطهاد .

ـ ٧٢ ـ

ذهبت صفية وأولادها إلى البيت الكبير ، فلم يحفل بهذه الزيارة إلا الجدة ، كانت فى إقبال وإدبار بين المطبخ والغرفة التى جلست فيها صفية وأولادها ، فلما دخلت بعض زوجات أبنائها لمعاونتها فى تجهيز الغداء ، تركت المطبخ وجلست إلى حفيدتها تتحدث وقد ملئت نشوة .

وجاءت درية وقد صارت شابة فى الثالثة عشرة ، تفتحت وترقرق ماء الشباب فى وجهها ، فأخذ خالد يراقبها ، يهزه شعرها الأصفر الذى طفق ينوس خلفها كلما غدت أو راحت ، ويحس مشاعر الغبطة كلما التفتت نحوه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ، كان يعد حركاتها وسكناتها ، بيناشغلت عنه بالحديث الدائر بين الجميع ، حتى كادت لا تفطن لوجوده .

وأقبلت أختها روحية ، كانت فى الثامنة عشرة ، حلوة جذابة ، وسلمت على الحاضرين ، فصافحتها صفية فى شوق ، وصافحها زكريا فى اهتمام ، فقد كان زكريا وأمه يعرفان أنه سيكون لروحية اليوم شأن فى حياة الأسرة ..

وغصت الغرفة بالشباب والفتيات ، والأمهات والجدة ، فانقسم الموجودون إلى حلقات يتجاذبون الحديث ، وقد حرص خالد على أن يكون فى الحلقة التى فيها درية ، كان يجد روحه تنجذب إليها ، ويستشعر نشوة إذا رنا إليها ، إو مس حديثها أذنيه .

ووفد أولاد الحاج كرم للغداء ، فحيوا صفية ، وارادوا أن يجاملوا أبناءها ، فأخذوا يحادثون زكريا ، حتى فى المجاملة لم تفارقهم عقليتهم الحاسبة فقد أصبح زكريا ، بعد أن تخرج فى الحقوق ، حقيقا بالالتفات ، وإن لم تملأ النقود جيوبه بعد، قال له كمال :

ـ كيف حال صوتك الآن ؟

ـ الحمد لله فى طريقه إلى الشفاء .

وقال حسين :

ـ وماذا نويت أن تفعل ؟

فقال زكريا فى اضطراب :

ـ وجدت مكتبا صغيرا أبدأ فيه عملى .

وقال مصطفى وهو يكاد يضطجع فى جلسته :

ـ أتظن أنك تستطيع أن تكسب من المحاماة ، أكثر من الوظيفة ؟

فقال زكريا فى هدوء :

ـ أرجو ذلك .

ودعوا إلى الغداء ، فلبوا الدعوة خفافا ، وأكب جلال على الطعام لا يلتفت إلى شىء مما يدور حوله ، وطفق خالد يسترق النظر إلى درية بين لحظة وأخرى ، ولم يشغله ذلك عن التهام ما أمامه فى سرعة ، وما هى إلا دقائق لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، حتى كان أولاد صفية قد ملئوا ، ولكن جلالا لم يكف عن الأكل ، بل استمر يأكل ، وإن أحس الكظة .

ورفع الطعام ، فتفرقوا فى الغرف ، وراحت صفية تتحين الفرص لتخلو بحسين ، لتحدثه فيما جاءت من أجله ، وأتيحت لها الفرصة ، ووجدت نفسها وأخاها فى الغرفة وحدهما ، فقالت له :

ـ كبر لبيب ، وهو بعيد عنى ، إنه فى حاجة إلى من ترعى شئونه ، ففكرت فى أن أزوجه .

وطافت بحسين موجة من القلق ، لم يرتح إلى هذه المناجاة ، فصمت وأطرق .

ولم تفطن صفية إلى ذلك السهوم الذى ران على وجهه ، فقالت فى اندفاعها :

ـ وجدت أن روحية خير من تكون له زوجة ، فجئت أستشيرك فى هذا الأمر.

ذعر حسين ، ولم يقو على كتمان مشاعره ، فرنا إلى أخته بعينين واسعتين، فيهما إنكار ورعب ، أيزوج ابنته من ابنها ، وليس له إلا مرتبه الضئيل الذى يعاون

منه أسرته ؟ لماذا تتطلع صفية وأبناؤها إلى فوق دائما ؟! فقال فى جفوة :

ـ روحية لاتزال صغيرة ، لم أفكر فى زواجها .

وغرقت صفية فى الصمت ، ونم وجهها عما يعتمل فى جوفها من أسى ، فما دار بخلدها أن يرفض حسين زواج ابنته من ابنها ، واستشعرت حرجا ، فخطر لها أن تنسحب ، تجرجر أذيال خجلها ، ولكنها لم تستجب لذلك الخاطر ، وظلت فى إطراقها الحزين ، ولم يكتف حسين بالسهم الذى سدده إلى سويداء قلبها ، بل راح يقول لها :

ـ اسمعى نصيحتى يا صفية ، لا تفكرى فى زواج ابنك الآن ، حرام عليك أن تعلقى فى عنقه أسرة ، وهو لايقوى على القيام بتكاليفها ، دعيه حتى يكون نفسه ، هذه نصيحة .

واستمر فى نصحه ، وهى لا تصغى إلى حديثه ، شغلت عنه بأحزانها .

وخرجت صفية إلى أبنائها ، وما وقعت عين زكريا على أمه ، حتى فطن إلى ما جرى بينها وبين أخيها ، فانقبض ، وغامت صفحة وجهه ، ولم يدار عواطفه ، فقال وهو ينظر إلى أخواله :

ـ اسمحوا لنا بالانصراف ، وقد أثقلنا اليوم عليكم .

وانصرفوا ، خالد مسرور بعد أن امتلأ من النظر إلى درية ، وجلال راض كل الرضا ، ما دام قد ملأ بطنه ، وسعيد ويحيى فى غبطة ، وصفية و زكريا يدثرهما الحزن ، يحسان ألم الصفعات التى نالت كرامة الأسرة ، وزاد فى حنق زكريا وأمه أن روحية خطبت فى نفس الأسبوع الذى قال فيه حسين أن ابنته لاتزال صغيرة ، ولايفكر فى زواجها !

ـ ٧٣ ـ

القطار ينهب الأرض ، وخالد متبرم من ذلك الوقت الذى يلوح أنه لن ينقضى، فهو يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه فى الإسكندرية ، إنه فى ثياب طلبة الحربية يستشعر زهوا ، وإنه يتلفت يبحث عمن يعرفه ، ليريه نفسه وهو فى فخره ، ولكنه لم يجد فى القطار أحدا من معارفه ، فأصبح يتطلع فى شوق إلى اللحظة التى يخطر فيها فى شوارع الإسكندرية ، ويرد تحية الأصدقاء والزملاء . ويتخيل دخوله الحارة ، فيخفق قلبه طربا ، فهذه أول مرة يعود فيها إلى أهله ، وأزراره الصفر تتألق ، وشريطه الأحمر يجذب الأبصار .

ووصل القطار إلى الإسكندرية ، فسار خالد مرفوع الرأس وقد تأبط عصاه الصغيرة ، ولكن عينيه كانتا تجولان فى حشود المنسابين من القطار، فإذا لمح أحدا ينظر إليه أشرق وجهه بالابتسام ، وإن لم تنفرج شفتاه .

وركب الترام وهو يحس أنه خلق خلقا آخر ، ففى صدره عزة ، وأمام عينيه آمال ، ومر أمامه قاطع التذاكر ، فانجابت عن ذهنه السنون فى مثل لمح البصر ، تذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مدرسته الابتدائية تذكرى كان تلميذا فيها ، وأقبل يأخذ أوراقه بعد أن نزل إلى معترك الحياة ، وكيف راح يرنو إليه يومذاك فى حب وإعجاب ، فرفت على شفتيه ابتسامة ، ثم حنى رأسه شكرا لله .

وهبط من الترام ، وعرج على الحارة ، فراح قلبه يدق منتشيا ، وسار مسرعا فلما لمحه إخوته هرعوا إليه فرحين ، كان جلال يحييه ، ويتمنى فى قرارة نفسه لو أنه هو العائد إلى الحارة فى ذلك الثوب الرسمى ، فهو كفيل بأن يجذب إليه الأبصار، وكان سعيد راضيا ، لأن خالدا حقق أمنيته بمثابرته ، وهذا يؤيد ما يذهب إليه ، إنه يقول دائما أن الإنسان يستطيع أن يصنع نفسه بيده ، أما يحيى فقد راح

يقفز كما يقفز الأطفال إذا ما أفعموا بالغبطة.

والتف الأولاد حوله بعد أن صافحوه ، ، فوقف يحادثهم وقد ملىء نشوة ، كان نسيج وحده ، الأزرارالصفر تلمع ، والقصب على الأكتاف ، والشريط الأحمر يأخذ بالألباب ، بينا صحبه كانوا فى الجلابيب وقد اتسخت .

وغادرهم واتجه إلى الدار ، فإذا حليمة فى مكانها عند الباب ، نفس قفص الحلوى ونفس الجلسة . ولولا الشعر الأبيض والتجعدات فى صفحة الوجه وتحت العينين ، لحسب الناظر إليها أن الزمن ثابت لايتحرك ، تقضت سنوات طوال مذ جلست فى الحارة أول مرة ، يوم كان عليها مسحتان ، مسحة من فقر ، ومسحة من جمال ، ولكن السنوات ذهبت بالجمال وتركتها بين براثن الفقر تقاسى الذل والحرمان .

التفت إليها وقال وهو يطأ الوصيد :

ـ كيف حالك ياحليمة ؟

ـ الحمد لله ، حمدا لله على السلامة ، اسم النبى حارسك .

ونظرت إليه فى حنان دون أن يكدر صدرها حسد أوغيرة .

وصعد فى الدرج خفيفا ، ودلف إلى حيث كانت عماته وأولادهن ، وإذا بصيحات الترحيب تنبعث من قلوب الصغار حرة طليقة ، وإذا بالكبار يزجون إليه تهنئاتهم مغلفة بالرياء والملق ، مبطنة بالضيق والحسد ، كأنما يسوؤهم أن يبلغ أحد غيرهم ما يحب ومايتمنى .

وراح يرقى فى الدرج ، ودخل على أمه ، وما إن رآها حتى ذاب إليها شوقا ، فهرع إليها يرتمى على الصدر الحنون ، الذى انداحت فيه موجات الفرح ، ولم تقو صفية على كبت عواطفها ، فراحت تكفكف العبرات التى جاشت فى مقلتيها .

ولم يمكث فى البيت طويلا ، فما لبث أن خرج ، فهو يريد أن يمر على أحبابه ومعارفه وأعدائه ، ليعرض عليهم نفسه فى زيه الجديد ليشاطره الأحبة بهجته ، ويكمد شانئيه ، وكان أول بيت خطر له زيارته بيت أخواله ، وقد برز من بين الوجوه الكثيرة النازلة بالبيت الكبير وجه واحد رقيق احتل أقطار رأسه ، كان وجه درية ،

بشعرها الأصفر ، وعينيها الزرقاوين ، وبسمة خفيفة توجت شفتيها ، بسمة ترحيب.

وغادر البيت الكبير وهو فرحان ، كان موضع عطف جدته ، وقد أقبل عليه أخواله ، كان قطب الرحى ، ومحورالحديث ، وزاد فى غبطته أن صور له وهمه أن درية كانت تديم النظر إليه ، وفى عينيها الصافيتين بريق .

وجاء المساء ، ولم ينته بعد من زياراته ، فرأى أن يستأنف ما بدأه فى الصباح، وفى أثناء أوبته إلى البيت قابل عند مدخل الحارة صديقا من أصدقائه ، فقال له وهو يصافحه :

ـ والله إنى مشتاق إليك ياحامد .

فقال له حامد وهو قابض على يده .

ـ أريد أن أحادثك طويلا ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ تعال ، تعال معى نتسامر .

وجذبه حامد ليصعد معه ، وما كان خالد يرفض دعوة صديق ، فسارمعه وإن أخذ يعتذر :

ـ هجم الليل ، ولم أر أبى بعد .

فقال له حامد وهويبتسم :

ـ تعال ، لاتزال أمامنا فسحة من الوقت ، ومتى كان أبوك يعود فى مثل هذه الساعة ؟

وجلس الصديقان يتسامران ، ودخلت سهام ، وهى فتاة فى الثانية عشرة ، ممتلئة الجسم ، أبرز ما فيها شعرها الأسود كليل حالك الظلام ، وعيناهاالسوداوان المتألقان أبدا ، وخفة ودلال ، وأنوثة طاغية ، رنت إليه فى ود ، وأضاء وجهها بالبشر ، ثم قالت له :

ـ التحقت بفريق الكرة ولاشك .

فقال وهو يبتسم :

ـ لولا الكرة ما قبلونى .

فقالت له فى اهتمام :

ـ هل اشتركت فى ناد من أندية القاهرة ؟

ـ لا أستطيع أن ألعب لأندية القاهرة ، لأنى ما زلت مقيدا للنادى هنا .

فقالت وقد ضيقت عينيها ولوت شفتيها :

ـ خسارة ، لو لعبت فى القاهرة للمع نجمك ، ألم تكن ضمن منتخب الإسكندرية فى السنة الفائتة .

ـ نعم .

قال لها أخوها وهو يرنو إليها فى عجب :

ـ من أين لك كل هذه المعلومات ؟

فقالت فى بساطة :

ـ قرأت ذلك فى الأهرام . الصحف تذكرأسماء اللاعبين ، وقد قرأت اسم خالد أكثر من مرة .

ودارالحديث لينا لطيفا ، ثم استأذن خالد وانصرف وقد سره حديث سهام ولكن ما ابتعد عنها حتى قفزت إلى ذهنه صورة درية ، وهى تبتسم له بسمة الترحيب التى خلقها خياله .

وانطلق فى الحارة كالطيف السعيد ، ومس أذنيه أصوات إخوته وأبناء عماته ، فحزر أنهم مجتمعون يتسامرون ، فهرع إليهم ، وما إن رآه سيد حتى قال:

ـ ممرحبا .. ممرحبا .

وارتفعت الأصوات . فلما هدأت قليلا ، عاد سيد إلى الحديث :

ـ الحححمد لله أأنك ضابط جيش .

فقال له خالد وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه :

ـ وإذا كنت ضابط بوليس ؟

ـ للا ... للا .. بيننا وبينهم حد الله .

وجاء على فلمح ابنه فى ثيابه الأنيقة ، أقبل عليه يصافحه منشرح الصدر ، ثم قال له :

ـ لاتخرج فى الصباح ، حتى نخرج معا .

وانقضت الليلة ، وخالد فى غمرة السرور ، ولما أصبح الصباح كان أول ما فعله أن ذهب إلى ثيابه الرسمية يرتديها ، وراح يرقب أباه ، وهو يرجو أن يستيقظ مبكرا ليخرج ، فأمامه أكثر من زيارة يبغى أن يقوم بها قبل عودته إلى مدرسته فى آخر النهار .

وفى العاشرة استيقظ على كعادته ثم قام إلى ثيابه فارتداها ، وخرج على وابنه يغذان السير ، ترفرف عليهما الغبطة ، وانطلقا حتى إذا بلغا استاورو الشيخ اليونانى المرابى ، قال له على :

ـ هذا ابنك خالد .

ثم التفت إلى خالد وقال له :

ـ هذا صاحب الفضل عليك .

فمال خالد عليه ، فقبله الشيخ فى جبهته ، وراح يربت عليه ، وخالد ينظر إليه فى شكر ويغمغم بكلمات غير واضحة ، ولكن كل خالجة فيه كانت تعترف للمرابى بفضله .

وانصرف خالد وقد ترك أباه والشيخ يتسامران ، وفيما هو فى طريقه استشعر رغبة فى أن ينطلق إلى بيت خالته ، إلى بيت الباشا ، واستبدت به هذه الرغبة ، فذهب إلى خالته جليلة ، ليؤكد لها ـ ولو لم يتكلم ـ أنه حقق أمنيته ، وإن بخلت بأن تمد إليه عونا ، وأن أبناء صفية سينظرون إلى فوق دائما .

ـ ٧٤ ـ

غابت الشمس ، وأضيئت القناديل فى الحارة ، وتكدس الأولاد أمام بيت يونس ، وتوافدت النسوة وقد لطخن وجوههن بالأبيض والأحمر ، وارتدين ثيابا زاهية فضفاضة ، فبدين كقردة تزينت .

وانبعثت دقات الطبول ، ونغمات الأيادى المصفقة فى توافق ، وأصوات حادة تردد أغنيات راقصة بلدية ، انتشى بها بعض الصبية ، فطفقوا يرقصون فى الحارة، ويتمايلون فى غبطة ، وإن أحسوا رغبة فى التطلع إلى النسوة الراقصات فى الطبقة العليا .

كانت الليلة ليلة زفاف سليمان ، ظلت أمه تمنيه الزواج وهو صغير ، حتى شب والزواج هدفه ، فلما اشتد عوده أخذ يلح عليها أن تبر بوعدها ، فقررت أن تزوجه وأخاه سيدا فى ليلة واحدة ، فما أكثر الفتيات فى البيت ، ولكن سيدا رفض أن يتزوج ولج فى الرفض ، فعزمت على أن تزوج سليمان ، وأن تقيم له ليلة صاخبة ، كيدا لسيد الذى قهرها برفضه ، ونال منها بعدم الاستجابة إلى نصحها .

وتقاطر زملاء سليمان فى العنابر فقادهم إلى غرفة منعزلة فى الطبقة الأولى، وجلس معهم منشرحا ، يصغى إلى أحاديثهم وهو يضحك ، وأقبل سيد وراح يصافحهم ، فقال له أحدهم :

ـ العقبى لك .

فقال سيد فى فزع :

ـ ككفى الله الشر .

فقال له آخر :

ـ لماذا لا تتزوج ؟

فقال سليمان وهو يبتسم بخبث :

ـ لأنه ليس رجلا .

فاربد وجه سيد ، وقال فى حنق :

ـ ييبا مغفل .. ييبا بن الككلب .

فقال سليمان إغاظة له :

ـ يخشى أن يموت وأن يترك أولاده .

فقال سيد وقد اتسعت عيناه :

ـ ككل ما أخشاه أن تموت أنت وتستريح ، وتترك لى أولادك فى عنقى ، اسمع رأيى من الآن . ألاتعتمد على .. سأتركهم يستجدون .

فقال له سليمان وهو يضحك :

ـ اطمئن ، لن أعتمد على ذلك .

فقال له سيد وهو ينظر إلى الضاحكين :

ـ بيحسب المغفل أن الزواج كأس خمر ، إنه برميل قطران .

فقال أحدهم مستدركا :

ـ فوقه قيراط عسل .

فقال آخر :

ـ لم أجد فى برميلى قطرة واحدة من العسل .

فقال ثالث وهو يضحك :

ـ لعلك فتحته من القعر .

وقال شاب منهم يحاول أن يبدو أنيقا :

ـ الزواج نعمة لماذا تنفرون منه الناس ؟

وشمخ بأنفه وقال :

ـ تزوجت ثلاثة ، وسأتزوج الرابعة ..

فمال أحدهم على زميله وهمس :

ـ الزواج عنده تجارة رابحة ، كلما تزوج زاد رأس ماله ، فهو يشغلهن .

وقال سيد جادا :

ـ ححرام أأن يتزوج ممن كان مثلنا ، الزواج ييحتاج إلى أموال ، لن أتزوج إلا إذا ربحت ورقة يانصيب .

وهم رجل منهم أن يؤيد سيدا ، وأن يذكرمأساته ، ويروى لهؤلاء العابثين كيف يقاسى فى تيسير قصعة الفول كل صباح لأولاده التسعة ، كيف شبت بناته وهو فى حيرة من أمرهن ، فهو كلما فكر فيهن دار رأسه ، لن يتزوجن لأنه يعجز عن أن يجهزهن ، وكيف يجهزهن وهو قاصر عن أن ييسر لهن ثيابا . فتيات جميلات لايدرى ماذا يفعل الفقر بهن . جاشت الكلمات فى فمه ، ولكنه لم يحرك شفتيه ، فطن إلى أنه جاء يشاطر سليمان فرحه ، لا أن يضع على عاتقه هموم الدنيا ، فصمت مطرقا لا يتكلم وإن نطق وجهه بما يقاسى من ألم .

وراح كل منهم يروى مافعله ليلة زفافه فى مبالغة ، ويضفى على نفسه بطولة أمده بها خياله ، كان كل منهم بطلا ، حتى العامل المتأنق طفق يروى مغامراته مع أزواجه الثلاث ، وسليمان يصغى إليه فى إعجاب ، بينا أخذ معارفه يتبادلون النظر ، وتنفرج الشفاة عن بسمات استخفاف ، وتنطلق من العيون غمزات هازئة .

وتصرم الوقت ، والتفت أحدهم إلى سيد وقال :

ـ ألاتغنى لنا فى هذه الليلة السعيد ة ؟ .

فقال سيد دون تكلف :

ـ لللو طظاوعت نفسى ، لأحضرت ندابة .

فقال له سليمان فى غيظ :

ـ يا بن الكلب .. لو كنت رجلا لتزوجت .

وحانت اللحظة االفاصلة بين حياتين ، فقام سليمان منشرحا ، وأسرع إليه رفاقه يحاول كل منهم أن يزجى إليه النصيحة الأخيرة ، فراح الهمس يتناثر :

ـ عندما تدخل عليها .. وإذا دخلت عليها .. وأول ما ..

وانسل سليمان ، وراح يصعد فى الدرج وهو بين جلال وسعيد ، وزغاريد

النسو ة تدوى فى الليلة الصاخبة .

وانصرف الرجال ، وغصت الحارة بالنسوة والأولاد ، وسرعان ماخفت الرجل ، وخيم السكون ، وأقبل حسان مخمورا ، وإذا بالرمل الأصفر أمام الدار ، وقنديل يرسل أشعته الوهاجة ، فاربّد وجه حسان ، وغمغم فى أسى :

ـ ارتكبت الليلة فى هذا البيت جريمة .. جريمة فظيعة على دق الطبول ورنين الزغاريد .

ـ ٧٥ ـ

فتحت أبواب الدور فى البكرة ، واستقبلت الشوارع وفود الكادحين والعاملين، ينطلقون وفى رءوسهم أفكار متباينة ، وفى صدورهم آمال تواضعت ، وآمال شمخت بأنوفها ، وفى قلوبهم مشاعر اختلف مذاقها ، مشاعر حلوة ، ومشاعر مريرة .

وانساب فى الحارة باعة اللبن وأسراب الصعايدة والفلاحين ، الخارجين للبحث عن القوت ولا شىء غير القوت ، وجماعات العمال الذين يمنون النفس بالعودة إلى الدور مع الليل وفى أيديهم بعض الفاكهة الشعبية ، التى تدخل السرور على قلوب العيال ، وزرافات التلاميذ يتخايل لهم المستقبل بساما مشرقا ، لا يعلو وجهه غيرة، ولا يعرف العبوس أو التقطيب .

وانطلق سيد فى الحارة ، ضيقا بفقره ، فهو يستيقظ مع الفجر ، يعمل طوال النهار ، يتصبب عرقه فى سبيل قروش لا تيسر له أن يعيش فى سعة ، إنها لاتكاد تمسك رمقه ، وهو يطمع فى أن يرتدى حلة نظيفة ، وأن ينعم بسهرة ممتعة . وأن يأكل أكله دسمة ، ولكن أجره أضيق من أن يتسع لآماله ، إنه فى حاجة إلى جنيهات يشترى بها سعادته ، فأقبل على ورق اليانصيب ، يقتنى منه ورقة كل يوم، تجدد أمله ، وتجعل لحياته الراكدة هدفا .

وخرج سليمان منشرحا ، يبتسم للكون ، يحسب أن الحياة مشرقة دائما ، فهو

يعب من قيراط العسل الذى يطفو فوق برميل الزواج الممتلىء قطرانا ، كان فى حلة حلية نظيفة ، يزين صدرها منديل أبيض ، يسير فى أناقة المترفين ، كان مظهره يخدع ما دام صامتا ، أما إذا تكلم فما أيسر أن يضعه السامع فى طبقته ، وأن يعيده فى غمضة عين إلى عنابره !

وهبط جلال وسعيد ويحيى إلى الحارة ، فى ثيابهم النظيفة ، يتأبطون كتبهم، جلال وسعيد يتبادلان الآمانى ، فهما فى البكالوريا ، يحلمان بالحصول عليها ، والذهاب إلى القاهرة للالتحاق بجامعتها ، كان هدف جلال أن يكون جامعيا ليزداد فى أعين الناس رفعة ، أما سعيد فهدفه أن يصبح طبيبا ، وهو يعمل لبلوغ الهدف جادا ، ولن يسمح لعقبة أن تقف فى سبيله ، أو تصرفه عن طريقه ، فهو يؤمن أنه قادر على أن يصنع نفسه بيده ، وأن يشكل نفسه بعزيمته كما يشتهى .

وذهب يحيى إلى مدرسته الثانوية ، رأى إخوته يذهبون إلى المدارس ، فسار فى آثارهم ، لا يعرف للحياة طريقا آخر غير ذلك الطريق ، ووقر فى ذهنه أن الذين تنكبوا ذلك السبيل اضطروا إلى ذلك لافتقارهم إلى الاستعداد الشخصى ، لم يفطن إلى قسوة الحياة التى تجرف الناس إلى المسالك الوعرة ، وتتركهم طوال حيواتهم لصراع دائم بينهم وبين الأنواء والأعاصير والزوابع ، شب فوجد الأسرة تنعم ببعض اليسر ، بعد أن اشتغل زكريا بالمحاماة ، فلم يعرف مرارة العيش ، ولم يقاس ذل الكفاح ، فهو إذا رفع عينيه يجد ما يزهو به ، أخوه الأكبر الأستاذ زكريا ، وأخوه خالد طالب فى الحربية ، يتطلع إلى أن يكون طيارا ، وجلال وسعيد فى البكالوريا ، وإن هى إلا أشهر قليلة حتى يلتحقوا بالجامعة ، ولولا أبناء عماته وهذه الحارة التى شب بها ، لحسب أنه من أسرة أرستقراطية ، تعانى بعض الضيق !

وخرج على والأستاذ ، وسارا فى الحارة يتحدثان ، كان على مزهوا بابنه ، انطلق معه إلى المحكمة ، ليصغى إليه وهو يترافع فى أول قضية كبيرة أسندت إليه، كان على يعجب بالمحامين ، وإن إعجابه بابنه الأستاذ أشد وأعظم .

وبلغا المحكمة ، ودلفا إلى قاعتها ، وتقدم زكريا إلى الصف الأول وجلس مرفوع الرأس ، فهو وإن كان ضعيفا فى بدنه ، إلا أنه كان قويا فى ثقته بنفسه ،

وقبع على فى مقعده يرنو إلى ابنه ، وقد مشى فى صدره قلق ، ولكنه قلق لذيذ ، يحاكى ذلك الذى يحسه العاشق وهو يرقب محبوبته .

ودبت الحياة فى القاعة ، وبدأت القضايا وعلى يصغى فى شغف حتى إذا ما وقف زكريا خفق قلبه فى جوفه ، وانبثقت مشاعر الحنان وتفجرت فيه ، فإذا بحواسه ترهف ، وإذا كله عيون وآذان وأعصاب مشحوذة متلهفة .

وتدفق زكريا فى دفاعه ، حتى استحوذ على المحكمة ، فأحس على لذة عارمة ، ولاحظ العيون الشاخصة إلى ابنه ، فأثلج صدره ، واستشعر زهوا يملأ جوانحه ، وما انتهى ابنه من مرافعته ، حتى دوت فى أعماقه صيحة تتردد بين جنباته : « براءة .. براءة » ..

وتأهبت المحكمة للنطق بحكمها ، فنبت القلق فى صدر على ودثرته رهبة ، خيل إليه أن المحكمة تستعد للنطق بحكمها على ابنه ، فلما دوى صوت القاضى «براءة » كاد يصيح فرحا ، ولكنه جاهد نفسه ، وراح يدير عينيه فى القاعة ينظر إلى الوجوه المستبشرة من بين الدموع التى غامت بها عيناه .

ـ ٧٦ ـ

وجاء الصيف ، ورحلت الأسرة إلى المكس ، فكانت صفية تقضى الضحى فى إعداد الطعام لهؤلاء الذين يقوى هواء البحر شهوتهم ، وهى قوية على الدوام ، فإذا ما فرغت منه ، جلست أمام الحجرة الخشبية القابعة فى ذلة على الشاطىء ، وأخذت هى وزوجها يتجاذبان أطراف الحديث ، وما كان يدور حديث بينهما إلا على الأولاد.

وراح سعيد ويحيى يمرحان فى الماء ، فهما يهويان السباحة ، ويجدان فيها لذة ورياضة ، بينما كان خالد يلعب بالكرة مع ثلة من أصحابه على الرمال ، فهو ينجذب إلى حيث تكون الكرة دون تدبر أو تفكير .

وأخذ جلال يذرع الشاطىء جيئة وذهوبا ، ينظر إلى الجالسين والجالسات تحت

الظلال ويتفرس فى وجوه الفتيات ، لعله يلمح نظرة إعجاب تصوب إليه ، فترضى غروره ، وفيما هو فى تجواله ، إذ لمح فتاة تتأود فى مشيتها ، وقد رنت إليه بعينين منكسرتين ، ورفت على شفتيها بسمة ، ثم استأنفت سيرها تتأود وتتثنى .

كانت فى ثوب من ثياب البحر ، ممتلئة قليلا ، وكان أبرز ما فيها دعوة عينيها الصارخة ، ونهديها الشامختين المرتجتين فى رعونة . فأحس جلال دما حارا يتدفق فى عروقه ، وخيل إليه أن كل خالجة فيهما تهتف به أن تقدم ، فخفق قلبه فى صدره ، واستبدت به رغبة محادثتها ، فمد يده وحمل كرسيا ، وكان قد وضعه على الشاطىء ليستريح عليه ، وقدمه إليها وهو يقول فى نبرات فيها رعدة ، لها وقع عذب فى آذان الفتيات :

ـ تفضلى .. استريحى .

وجلست وهى تتلوى ، وقالت وهى ترفع شعرها الأسود بيديها فى دلال ، فيبدو صدرها الناهد مغريا ، يزيد جلالا اضطرابا :

ـ متشكرة .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم وجد جلال لسانه ، فقال :

ـ أرجو أن تسمحى لى أن أعبر عن إعجابى .

وتظاهرت بالإطراق ، وإن كانت ترنو إليه من بين أهدابها ، واستمر فى حديثه منشرحا ، فإصغاؤها إليه دليل على اهتمامها به ، وما دار بخلده أنها مثله تتصيد الإعجاب لترضى غرورها .

ـ فى عينيك صفاء مس قلبى ، وبين جنبيك روح طاهرة هفت إليها روحى ، أحس إليك انجذابا يستولى على نفسى ، بهرنى حسنك ، فأطلق لسانى بالتسبيح بجمالك ، إنك رائعة ، فهذا الشعر الأسود ، وهذا الوجه الصبيح ، وهاتان العينان السودان المتألقتان تحفة ، إنك قطعة رائعة لفنان مبدع .

وتوجت شفتيها بسمة ، كأنما تقول له استرسل فى حديثك ، واستشعر جلال زهوا ، فهو يذكر أنه قرأ مثل ذلك الذى يردده على مسامعها فى قصة لكاتب عاطفى يحبه ، ولكنه يحس الكلمات تتدفق حارة من فمه ، يرى أثرها فى وجه

الفتاة ، الذى كان يشى بسرورها ، فربا سروره ، وجد من تتلذذ بحديثه ، وتهتم لأمره ، وكانت كل أمانيه أن يجذب إليه اهتمام الناس .

وتفرس فى وجهها مليا ، ثم قال :

ـ ما اسمك ؟

فقالت فى ثبات ، دون أن يتهدج صوتها ، أو تتورد وجنتاها بحمرة :

ـ عفاف .

وكان كل ما فعلته أن أشاحت بوجهها فى دلال الخبيرات ، كأنما تقسم له بالله أنها خجلة ، فقال وقد شمخ بأنفه ، معجبا بفتوته التى أسرت فتاة مثل هذه الفتاة الناضجة .

ـ تشرفنا .. وأنا جلال على يونس ، حصلت على البكالوريا هذا العام ، وسألتحق فى أول العام بالجامعة ، سأصبح أستاذا .

ورنا إليها طويلا ، ليترجم نظراتها بما تهوى نفسه ، فما أيسر أن يترجمها بنظرات وله و اعجاب : ثم قال لها :

ـ أين يمكننى أن أجدك ؟

ـ فى شارع محرم بك .

ـ أتقطنين هناك ؟

فقالت وهى تبتسم :

ـ لا .. بل أعمل هناك .

ـ فى محل ؟

فقالت وهى تهز رأسها :

ـ نعم .

ـ ما اسمه ؟

فقالت وقد انفجرت شفتاها عن أسنانها ، وهزت أصبعها أمام عينيها .

ـ لا .. هذا سر .

ـ وكيف أقابلك ؟

فقالت وهى تصلح شعرها فى إغراء :

ـ تنتظر فى أول شارع محرم بك .

ـ فى إيه ساعة ؟

ـ فى الساعة الواحدة ظهرا ، أو السابعة مساء .

وصمتت قليلا ، ثم قالت :

ـ لا تحاول أن تبحث عنى فى محال الشارع ، فلن تعثر على .

فقال لها وهو يبتسم :

ـ سأنتظرك غدا .

فقالت له وهى تنهض عن الكرسى :

ـ إلى الغد .

وانطلقت تتأود وتتثنى ، وجلال يتبعها بنظرة ، وفى صدره راحة وإنشراح ، فهذه الفتاة التى تجذب إليها الأبصار ، اهتمت به ، وانجذب بصرها إليه ، حتى إنها أحبته ، وواعدته اللقاء !

ـ ٧٧ ـ

خالد على الشاطىء يلعب بالكرة ، يجرى فى خفة ، ويقفز فى رشاقة ، على الرغم من ثقل وزنه ، كان عريض الكتفين ، ممتلىء الساقين ، ربعة لا هو بالطويل الأحمق ، ولا بالقصير القمىء ، وكانت سهام جالسة على الرمل ، وقد امتلأ صدرها واستدار وأثرت الشمس فى بشرتها البيضاء ، فاحمر وجهها ، كانت تقبل كل يوم مع أخيها حامد ، فإذا اندمج فى اللعب بالكرة مع خالد وأصحابه ، مدت ساقيها ، وراحت تعبث فى الرمال دون وعى ، وهى ترقب خالد وسكناته ، كانت تستشعر خدرا لذيذا كلما رنت إليه ، أو مس أذنيها صوته .

وهزت رأسها وطوحته إلى الخلف ، لتبعد شعرها الأسود الفاحم ، الذى عبث

به النسيم عن عينيها ، فلمحت فتاة أمامها ترصد الشبان الذين يلعبون بالكرة فى اهتمام ، وصور لها وهمها أنها تتبع خالدا بعينيها أينما ذهب ، فاغتاظت وضاق صدرها ، وتحركت غيرتها ، فأخذت تنهش جوفها .

وراحت ترقب الفتاة ، فربا ضيقها ، كانت فتاة حلوة جذابة ، ذات أنوثه طاغية ، فلم تحتمل أن تظل فى جلستها ترصد حركات عينيها ، خطر لها أن تقبض من الرمل قبضة ، ثم تلقى بها فى وجهها ، لتعمى هذه العيون التى سلبت راحتها، وحركت مخاوفها . فراحت تقبض على الرمل فى حركات عصبية ، ولكنها لم تجرؤ على إنفاذ ما يجول فى رأسها .

وأمدتها غيرتها بفكرة ، فنهضت وسارت ثابتة الخطو ، حتى إذا بلغت مكان الفتاة ، جلست أمامها ، وحجبت بظهرها عينيها ، فحالت بينها وبين رؤيه اللاعبين اللاهين عن كل ما يجرى حولهم ، فقد ركزوا اهتمامهم فى الكرة !

أدارت سهام رأسها ، ورنت من فوق كتفها العاجى تسترق النظر ، فألفت الفتاة قد شخصت ببصرها إلى اتجاه آخر ، فأحست راحة ، وانقشعت مخاوفها ، ولاح الرضا فى وجهها المعبر ، فقد كان مرآة صافية يعكس فى وضوح انفعالات نفسها .

وجلس على وصفية يتناجيان ، كان النسيم اللطيف يداعبهما ، ولولا القلق النابت فى جوفها ، لأنعش الفؤاد ، قال على وجفناه يرتجفان :

ـ يريد أن يلتحق بالطيران ، وإنى أخشى عليه ، والله يا صفية إنى حائر . قلبى لا يطاوعنى إذا فكرت فى نصحه ، ليهجر هذه الفكرة ، يعز على أن أحطم بيدى أمانيه ، وقلبى يعذبنى كلما فكرت فى أننى أدفعه إلى الهلاك بيدى ، الطيران لا يزال خطرا ، فلماذا تهون عليه روحه ، ويرمى بنفسه فى نار المخاطر ! ليته يقلع عن هذه الفكرة من تلقاء نفسه ، فلولا أنه فعل لأراحنى من العذاب الذى أقاسيه .

فقالت صفية ، وهى تلقى ببصرها إلى البحر الساجى :

ـ لن يعود عن فكرته ، إننى أعرف خالدا .

ـ لا أدرى ، لماذا تمشى المخاوف فى جوفى .

ـ خير ما نفعله أن ندع أمورنا لله ، فهو صاحب الأمر ، يصرفنا كما يشاء .

وأقبل قريب لهما ، فصافحهما ، وجلس يحادثهما ، ولم يستطع على أن يند مخاوفه ، أو يطوى صدره على قلقه ، فأقبل على الرجل يناجيه :

ـ يريد خالد أن يلتحق بالطيران ، وقلبى لا يطاوعنى .

فقال الرجل فى فزع :

ـ الطيران ؟ لا .. لا .

ـ ولماذا لا يذهب إلى الطيران ؟

فقال الرجل فى حماسة :

ـ لا أقبل أن نقتله بأيدينا ، أما قرأتم الصحف ؟!

فقال على فى رهبة :

ـ لا . ماذا فى الصحف ؟

ـ سقط على أبو السعود بطائرته وقتل .

ورأن صمت عميق ، وانقبضت صفية ، وأخذ قلب على يخفق فى جوفه كجناح حمامة ، ودثرته رهبة ، وانبثقت منابع الخوف تغذى مخاوفه ، وضايق صفية أن تستسلم للأوهام ، فقالت فى نبرات قوية :

ـ الأعمار بيد الله !

خيل لعلى أن ما قالته صفية شىء جديد ، فإذا بالغشاوة المسدلة على عينيه تتهتك ، وإذا بالقلق الهابط بصدره يتبخر ، وإذا بالمخاوف المتلبدة فى جوفة تنقشع، وإذا بإيمانه يرتد إليه ، فيثلج صدره ، فيغمغم فى راحة :

ـ حقا . الأعمار بيد الله !

- ٧٨ -

تأنق جلال وذهب مرفوع الرأس ، يرقب عفاف فى خيلاء ، كان على ثقة من أن أناقته ستستولى على قلبها وتبهرها ، وراح ينتقى الألفاظ الشعرية الرقيقة التى سيسكبها فى أذنيها ، ليوقظ كوامن الإعجاب فى نفسها ، فهو يفرحه أن يرمق ومضات الإكبار فى العيون ، وإن نظرة وله به ، وبسمة حب من أنثى ترضيه ، وتنزل به بهجة ، يرقص لها قلبه طربا .

وبلغ شارع محرم بك ، فراح يقطعه رشيقا يتلفت ، كان يرجو أن تقع عليها عيناه بين الفتيات الذاهبات إلى الدور للغداء . وأن ينطلق معها يسايرها ، يعرض عليها لباقته وأناقته ، وانسابت أسراب الفتيات فى الطريق ، وهو يتفرس فى وجوههن ، ولم يعثر عليها ، فبدأ قلق ينبت فى جوفه ، خطر له أنه قد لا يراها ، فاستشعر ضيقا ، أحنقه أن يبالغ فى أناقته ، وأن يسرق من ملابس أخوته خير ما عندهم ، ثم يعود دون أن تراه .

ومر الوقت وهو يتلفت وأحس تعبا يدب فى أوصاله ، ولكنه لم يقنط ، فهو إذا كان لم يرها فى ذهابها ، فسيراها فى ايابها ، واستمر يقطع الشارع وعيناه فى وجوه الفتيات تتجول ، وبدأت الفتيات يعدن إلى الشارع زرافات ، حان وقت أوبتهن إلى العمل بعد الغداء ، فدب فيه الأمل ، ورفع يده يصلح رباط عنقه ، والمنديل الأبيض البارز من جيبه ، واستأنف بحثه فى نشاط .

وخفت الرجل فى الشارع ، واختفت العاملات فى المحال وفى الدور ، يتأهبن لاستقبال الحرفاء الوافدين فى الأصيل ، بعد أن تخبو حدة الشمس ، ويهب النسيم ، وظل جلال فى تجواله يجفف عرقه ، الذى كاد يفسد أناقته .

ومر بمقهى على ناصية الطريق ، فدلف إليه وجلس يستريح ، ويرقب مرور

الزمن ، فقد عقد العزم على لقائها ، فإذا كان قد أخفق فى مقابلتها فى الظهر فلن يخفق أن يجدها فى المساء .

وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وبدأت الشمس فى الاحتضار فعادت إليه آمال جديدة ، وما أيسر أن تفرخ آمال الشباب ، وطفق يفكر فيما يفعله حتى لا تفر من عينيه ، كما فرت فى الغدو والرواح ، فاهتدى إلى إن خير ما يفعله أن يقف عند رأس الطريق لا يتحرك ، يفرز الفتيات .

وأرخى الليل غلالة رقيقة سوداء ، كان ينفذ من خللها ضوء النهار الذى لم ينسحب بعد من المعركة المتجددة كل يوم ، بين الليل والنهار ، فغادر جلال المقهى ، ووقف على ناصية الطريق إرصادا لعفاف .

وراح الليل يرخى فوق غلالة ، حتى ساد الظلام ، فأضيئت المصابيح والأنوار ، وسقطت الأضواء الخافتة على وجوه الفتيات ، فزادتهن فتنة ، أثرت فى نفس جلال، وأمدته بخيالات جديدة شاعرية ، زادته رغبة فى لقياها ، ليسمعها أعذب مناجاة .

ولمحها قادمة ، تتثنى فى دلال ، فأشرق وجهه ، وخفق قلبه ، ورفع يده يصلح رباط عنقه ، وهب يخف إليها ، يستقبلها فى بشاشة ، ولكن سرعان ما اربد وجهه، وانقبض قلبه ، واستشعر غضبا ، لم تكن مقبلة وحدها ، بل كانت قادمة وقد تعلقت بذراع فتى ، ليس أوسم منه ، ولا تقارن أناقته بأناقته !

خفق قلبه حنقا ، حتى خطر له أن يرتكب حماقة من حماقاته ، فكر فى أن يتقدم إليها يصافحها ، ثم يعاتبها على إقبالها فى ميعاده فى رفقة شاب آخر ، ولكن قبل أن يستجمع شجاعته لينفذ هذه الوسوسة ، كانت قد اقتربت منه ، فارتبك، وركز كل همه فى أن يلفت نظرها إليه ، ليرميها بنظرة ازدراء .

ومرت بجواره ، حتى كاد كتفها يلمس كتفه ، ولكنها ازورت عنه ، فلم تتلاق العيون ، فتعطل العتاب والازدراء ، فحنق وتصاغرت نفسه ، فأطرق ذليلا ، وسار فى خطا ثقيلة ، ترهقه أفكاره .

ورفع رأسه برغمه ، ينظر إليها وهى تتمايل فى رعونة ، فامتلأ أسى ، كان يطمع فى أن يسير إلى جوارها يناجيها ، وقد شبك ذراعه بذراعها ، فإذا به يسير

خلفها ، وهى تتعلق بذراع آخر ، ينعم باهتمامها وإعجابها !

وضايقته أفكاره ، ونالت من كبريائه ، فراح يغذو السير متبرما ، ثائرا على نفسه ، لاستسلامها لذلك الهوان ، وإن خير ما يفعله أن ينسى ما جرى ، ويمحو آثاره من نفسه ، ولكن كيف ينسى أنه أهين ، وكيف ترضى كبرياؤه هذه الجروح دون قصاص ، فلن يمحو ما لحقه من عار إلا أن يرد لها الإهانة صاعا بصاع ، ولطمة بلطمة ، فما كان ممن يزدرد الإهانات .

ودخل فراشه لينام ، ولكن لم تغمض له عين ، ولم ترحمه هواجسه وأوهامه ، فصار يتقلب تقلبه على الجمر ، طعن فى غروره ، فنبت عنه الراحة ، وجفاه الاطمئنان ، فلج فى قلقه وأرقه ، يفكر فى أن يذيقها الإذلال ، ويمرغ أنفها فى الرغام ، ليسترد ثقته بنفسه التى كادت تتزعزع ، ويعيد إلى ذاته هيبتها ، فما أمر أن تهون نفسه على نفسه .

وقر رأيه أن يخرج فى البكرة ، يترصد قدومها ، فإذا ما قابلها واعدها على اللقاء ، إنه لا يطمع إلا فى أن تلبى دعوته مرة ، وهو على ثقة من النتائج بعد ذلك ، ستتعلق به وتحبه ويشغفها غراما ، وبعدها سيعرف كيف يثأر منها ، ويرضى غروره ، وينفخ فى كبريائه ، فكل ما يبغيه أن تسقط فى شباكه .

وانقضى الليل وهو فى تقلبه ، وقد توافدت إلى رأسه أفكار وأفكار ، وجرت على مسرح ذهنه حوادث وأحداث ، لو قدر لواحدة منها أن تبرز على مسرح الواقعية ، لشمخ بأنفه ، يدق فى جوفه أناشيد النصر ، وأهازيج الظفر .

وبزغ الفجر ، وانداح فى السماء الضوء الفضى الوليد الواهن ، فلم يبهر ضوء الهلال المتألق فى الزرقة الصافية ، ولم يطق جلال صبرا حتى تشرق الشمس ، فقام من فراشة يرتدى ثيابه وفى صدره قلق ، وتجهز للخروج ، ولكنه لم ينطلق من توه حانقا ثائرا ، بل ذهب إلى المرآة ، ووقف يديم إليها النظر ، ليطمئن علي أناقته !

انساب فى الحارة مع باعة اللبن ، والصعايدة الخارجين للعمل من شروق الشمس حتى غروبها لقاء ما يمسك الرمق ، والصيادين الذاهبين إلى البحر يعتمدون على الحظ فى رزقهم ، وكان بهؤلاء أشبه ، فهو خارج للصيد . كل اعتمادهْ على حظه ،

وإن تباين الهدف !

ووقف على محطة سيارات قريبه من شارع محرم بك ، فهى تقبل فى سيارة من هذه السيارات العمومية من بيتها إلى عملها ، التقط ذلك من حديثه معها على الشاطىء ، ولكنه لم ينجح فى أن يعرف مقر عملها ، أو محل إقامتها .

كانت الساعة الخامسة والنصف ، وعلى الرغم من ذلك كان يصعد كل سيارة تمر به يبحث عنها بعينه ، ثم يهبط حين لا يجدها .

ومر الوقت ، ودبت الحياة فى المدينة ، وأقبلت السيارات وقد تكدست ، فكان البحث عنها عسيرا ، ولكنه لم يقنط ، ولم يستسلم ليأسه ، بل ظل فى صعود وهبوط دون أن يتسرب إليه ملل ، أو يفكر فى الارتداد على عقبيه .

وكادت الساعة تكون السابعة ، وراح عقرب الدقائق يجد فى سيره ، وجلال يجد فى تنقيبه ، وتصرمت ساعتان وهو يتفرس فى وجوه ركاب السيارات ، وأخيرا لمحها جالسة ، فخفق قلبه وخف إليها ، وقعد إلى جوارها وهو يهمس :

ـ صباح الخير .

فرمقته بنظرة منكرة ، ورمقته فى دهش ، كأنما لم تره من قبل الآن ، فلم يزعزع ذلك ثقته ، وراح يهمس :

ـ انتظرتك بالأمس ، ولكنك أخلفت الميعاد ، وهذه خصلة سيئة لا أحبها .

ولاح على شفتيها بسمة ، وأسبلت عينيها فى دلال ، كأنما تخشى أن يقرأ فيهما شيئا تحب أن تخفيه عنه ، وشجعه ذلك على الاسترسال :

ـ سأنتظرك اليوم ، فى المساء ، ولا تحاولى أن تفرى منى ، أو تأتى معك ..

وصمت قليلا ، لم يشأ أن ينفرها ، ورأى أن يغير ذلك الحديث ، فقال :

ـ اسمعى . إذا عزمت على شىء فما من قوة فى الأرض تقف فى سبيل إنفاذى له ، وعلى الأخص إذا كان ذلك الشىء مقابلة فتاة . وقد قررت أن أقابلك الليلة .

فقالت له :

ـ سأقابلك فى الواحدة بعد الظهر .

وبلغت مقر عملها ، فنهضت ، ونهض معها ، فقالت له :

ــ أرجو ألا تهبط معى .. إلى اللقاء ..

وابتسمت له ، وهبطت وهى تتمايل وتتثنى ، وهو يرمقها من خلف الزجاج راضى النفس ، حتى غابت عن عينيه .

ووافت الواحدة بعد الظهر ، وهو رابض ينتظرها ، ولكن انقضى الوقت ولم تظهر عفاف ، فحنق ، وزاد فى حنقه أنه ما جاء إلا لإذلالها ، انتقاما لكرامته ، فإذا بها تذله ، وتسفك دم غروره بغير حساب .

ـ ٧٩ ـ

سعيد يجلس منشرحا فى سيارة فاخرة إلى جوار ابن خالته ، ابن الباشا ، السيارة تنهب طريق « الكورنيش » ، والهواء يهب من البحر رخاء ، ينعش الأفئدة، يوقظ المشاعر الرقيقة الحالمة ، فأسبل سعيد عينيه منتشيا ، كأنما يخشى أن تفر منه السعادة الطارئة ، ولم يفطن إلى وجه ابن خالته العابس الجالس خلف عجلة القيادة .

وقطع على سعيد سلسلة تصوراته الرقراقة الصافية ، صوت ابن خالته الأجش، الذى كان أقرب إلى فحيح الأفعى ، قال :

ــ متى نعزيك فى زوج خالتك يا أخى ؟

وزفر فى ضيق ، فانطلق زفيره محموما مقيتا ، يقطر سما ، فالتفت إليه سعيد مذعورا ، وقد اتسعت عيناه دهشا ، فما دار بخلده يوما أن يتمنى موت أبيه وأن يضيق بحياته ، وأن يتعجل وفاته ، إنه يحب أباه من كل قلبه ، بكل جارحة من جوارحه ، على الرغم من أن أباه لم ييسر له حياة هنية رغدة ، كما وفر الباشا لأبنائه تلك الحياة الناعمة المترفة .

وفطن ابن الباشا إلى نظرات الدهش والإنكار المصوبة إليه ، فقال فى زراية :

ــ أبى عجيب فى تحصيل المال ، وفى كسب بغض كل من يتصل به ، إنه

ناجح فى كل شىء ، حتى تنفير الناس منه . نجح فى أن يبث فى قلوب كل من فى بيتنا الكراهية والحقد ، كل واحد منا يشتهى أن يزول الآخرون من طريقه ، أن يذهبوا .. أن يختفوا .. أن يموتوا .

إننا أسرة متنافرة عجيبة ، أسرة متحفزة متربئة على مضض ، كلنا يترقب اللحظة الفاصلة لنثب كالجياع على الأكله الدسمة ، إننا نصبر كارهين ، وما أكثر ما نضيق بالصبر فنثور ، وتهيج عواطفنا المقيتة ، فنتراشق بالسباب تراشق الأعداء بالسهام القاتلة .

إننا متباغضون ، لا يربط بيننا إلا إحساس واحد ، هو خشيتنا أن يطول انتظارنا ، لماذا لا يموت ؟! وما قيمة حياته ؟! إنه حارس على أموالنا ، فلماذا لا يذهب الحارس ، إذا كان من يحرس لهم أموالهم لا يريدونه ، ويمقتون حراسته ؟!

لا تنظر إلى هكذا فى ذعر ولا تتفزع ، فلن تخيفنى نظراتك ، كفانى الرياء الذى نحيا فيه فى البيت ، حياتنا كلها نفاق فى نفاق ، أريد أن أنفس عن صدرى ما يكربه ويضنيه ، وأن أتكلم مرة فى صراحة ، وأن أقول كل ما أريد ، فإننى أخشى إن كتمت حقيقة مشاعرى أن أنفجر ، أن أموت كمدا ، وما أريد أن أموت قبل أن يموت .

وصمت قليلا ، ثم قال وهو يهز رأسه فى استخفاف :

ــ حتى أمى قسا قلبها وتحجر ، تحسب أن كل من فزع إليها يلتمس عونها طامع فيها ، يبغى أن يسلبها نقودها ، هدفه أن يفقرها ، بلغ بها الأمر أن تتحرز منه ، وأن تصرخ فينا أننا نريد سرقتها ، فوأدت فى أفئدتنا بصيص الحنان الذى كان يبدد بعض الظلمات المتراكمة فى نفوسنا طبقات بعضها فوق بعض ، إننا نعيش على أمل واحد ، أن يأتى ذلك اليوم الذى تتحطم فيه سلاسل استرقاقنا ، وأن يعيش كل منا بعيدا .. حرا .. طليقا .. إنه أمل حلو .. ولكن أخشى ما أخشاه أن يطول ترقبه ، ويطول ما نحن فيه ..

ووقفت السيارة أمام محل فاخر من محال الحلوى ، وهبط ابن الباشا ، وبقى سعيد يتلفت ، وهو يعجب من أمر ابن خالته الذى فتح عينيه على دنيا كريهة ،

دنيا تافهة ، ما كانت تخطر على باله ، كان يعتقد ـ لحداثة سنه وحماسته ـ أن الناس يكافحون بأيديهم ليصنعوا أنفسهم ، ما كان يفكر أن هناك ناسا ، لا هم لهم فى الحياة إلا ترقب موت قريب ، ليكونوا شخصيتهم المستقلة ، وفكر فيما كان يفعل لو كتب عليه أن يكون من هؤلاء الناس فامتعض ، وترجم عن امتعاضه ، بأن التفت إلى الطريق وبصق .

ولمح فى الطريق عربة « نفط » يجرها حمار ، ويقود الحمار شاب يعرفه ، إنه ذلك الطفل الذى كان يخط فى الحارة خطا بالجير الأبيض ، ويأمر طفلا آخر أن لا يتجاوزه وإلا نكل بيه ، وفى مثل لمح البصر قفزت إلى ذهنه حوادث ذلك اليوم الذى ثار فيه على ذلك الاضطهاد ، وحطم فيه ذلك الذل ، فرفت على شفتيه ابتسامة ، وتدفقت فى جوفه مشاعر الود ، فهبط من السيارة ، وانطلق إلى الشاب يصافحه فى حرارة ، ويحادثه منشرحا ، إذا بصوت ابن خالته يناديه :

ـ سعيد .. سعيد .

فعاد يصافح الشاب فى شوق ، وذهب إلى السيارة ، وما أن جلس فى مكانه حتى قال له ابن خالته فى زراية :

ـ من هذا ؟

فقال سعيد متهلل الوجه :

ـ صديقى ، زميل من زملاء الطفولة .

وانطلقت السيارة ، وكل منهما يفكر فى ذلك التافة الجالس إلى جواره !

ـ ٨٠ ـ

خالد ينطلق فى الحارة فى ثيابه العسكرية ، ينظر إلى حليمة الثابتة فى جلستها ، وإلى الخربة التى تكدست فيها القمامة ، وصارت مشتلا للذباب والحشرات ، وإلى البيوت العتيقة المتداعية فيستشعر امتعاضا ، إنه يحن إلى هذه الحارة ، يذكر أيام الصبا فيها ، ولكن صار يضيق بقذارتها ، ويتمنى أن تمسها يد الإصلاح فتبدو فى حلة قشيبة ، جديرة بمستقبلة ، إنه يفكر فى أن يشترى يوما سيارة ، فكيف يدخل بها هذه الحارة ؟ وقد يأتى لزيارته زميل ، فيالسوء الأثر الذى ستتركه فى نفسه .

وخطرت له فكرة الشارع الجديد ، ولاحت لخياله كحلم لذيذ ، فراح يجرى وراء أوهامه ، سيطل بيتهم على الميدان المفسح ، الذى تتوسطه نافورة رائعة وتربض به السيارات الفاخرة ، وتقف سيارته بينها ، وكاد يستسلم لتصوراته اللذيذة ، ويتبنى فكرة الشارع الجديد ، كما تبناها أب له من قبل ، ولكن الحقيقة الراهنة لطمته ، مرت عربة الرش إلى جوارة ، فكادت تتلف له ثيابه ، فهبط من سموات الخيال إلى الأرض ، وقد علا وجهه الأسمر عبوس ، بعد أن فرت آثار الرؤى العذاب .

ودلف إلى بيت صديقه حامد ، ووقف أمام باب الشقة يطرقة ، وفتح الباب وإذا سهام فى ثوب أزرق ، محلولة الشعر ، يبدو وجهها ناصع البياض بين هالة سوداء ، فلما رأته ابتسمت عيناها ، وانبسطت أساريرها ، وقالت فى ترحيب :

ـ أهلا وسهلا . تفضل .

ومدت له يدها فصافحها ، وسارت أمامه مرحة تفسح له الطريق ، حتى قادته إلى غرفة متواضعة ، فلما جلس جلست بالقرب منه ، ترنو إليه فى انشراح ، فقال لها :

ـ أين حامد ؟

ـ سيقبل فى الحال .

وساد الصمت قليلا ، ثم قالت سهام فى رعونة :

ـ ماذا فى أصبعك الأصفر ؟

عجب خالد فى نفسه ، عجب لفطنتها إلى العاهة التى أصيب بها فى أصبعه، صافح مئات البشر ، ولم يفطن أحدهم إلى ما به ، حتى درية ، لم تكشف ذلك ، وإن كان يترك يده فى يدها مدة ، وقال فى هدوء :

ـ ضربنى عليه ذات صباح مدرس بالخيزرانة ، فتعقد مذ يومها ، وقد أقسمت فى ذلك الوقت أن أنتقم منه مهما طال الزمن ، لأنه ضربنى دون سبب .

فقالت سهام وهى تبتسم :

ـ أتبر بقسمك لو قابلته الآن ؟

فقال خالد فى جد :

ـ والله لو قابلته لأضربنه ولا أتركه حتى أخلف به عاهة ، كان فظا لا يستحق الرحمة ، آه .. ليتنى أقابله .

ملأ السرور عينيها السوداوين ، وانفرجت شفتاها عن أسنانها النضيدة ، وأشرق وجهها الذى كان أقرب إلى وجوه الأطفال ، وهزت رأسها طربا ، فراح شعرها السبط الأسود ينوس فى رعونة محببة ، وقبل أن تسترسل فى حديثها ، دخل حامد ، وأقبل على خالد يحييه ، وغرقا فى الحديث ، وهى ترقبهما منشرحة .

وتصرم الوقت ، ثم نهض خالد وهو يقول :

ـ لن أتمكن من رؤيتك قبل سفرى ، لأنى مسافر فى الصباح الباكر .

فقال له حامد :

ـ مع السلامة ، نراك فى المرة القادمة طيارا .

وصافح سهام وهو صامت ، فقالت له :

ـ نرجو أن نقرأ عنك فى الصحف كثيرا ..

ورنت إليه رنوة ، لو كان ممن يفهمون لغة العيون لكان تفسيرها هينا ، كانت

تتوسل إليه أن لا ينقطع سيل رسائلة ، ولكنه لم يفهم شيئا ، وقال فى غبطة :

ـ تتبعوا صفحة الألعاب الرياضية .

وخرج ، وراح يجد فى السير إلى البيت الكبير ، وقد نسى ما قالته سهام ، فقد شغل بالتفكير فى درية ، احتلت صورتها أقطار رأسه ، وعبثت عيناها الزرقاوان بأوتار نفسه ، فهفا روحه إليها ، إن قلبه يخفق فى حنان كلما فكر فيها ، فهو يهواها وإن لم تلحظ ذلك الهوى ، وتغمره نشوة كلما كان فى مجالها .

اشتعلت نار حبه وتوهجت لما رأى أنه صار قريبا منها ، وإن هى إلا سنوات قليلة ، ثم يصبح طيارا ، ويتقدم لخطبتها ، وهو على ثقة من أن خاله لن يرفض مصاهرته ، كما رفض لبيبا لما تقدم لخطبة أختها الكبرى .

ودخل على جدته يصافحها ، فرحت به ، ودعته إلى الجلوس عندها ، ولكنه لم يلب دعوتها ، فما جاء يسامرها ، إنه جاء ليرى درية ، فذهب ينقب عنها ، كان إذا أراد شيئا هدف إليه ، لا يحيد عنه ، ولا يدور حوله .

وألفاها جالسة ، وقد ارتدت ثوبا أبيض انتثرت فيه ورود حمر دقيقة ، كان منسجما مع بياضها وصفرة شعرها ، وزرقة عينيها ، وذهب إلى امرأة خاله ، وصافحها ، يهيم فى عوالم من الخيال تلتذ لها روحه ، وتتفتح لها نفسه .

وهجم الليل ، وهو ذاهل عن الزمن الذى كان يتسرب ، وأقبل خاله واشترك فى الحديث الدائر دون رابطة أو ضابط ، وفطن خالد إلى مرور الزمن ، فقام مستأذنا ، وقال وهو يصافحهم :

ـ سأسافر غدا صباحا .

فقالت امرأة خاله :

ـ مع السلامة .

ولم تنبس درية بكلمة ، وانصرف راضى النفس منشرحا ، تزود منها قبل سفره، وخير الزاد نظرة ممن خفق بحبه الفؤاد .

ـ ٨١ ـ

جلال على محطة « الأتوبيس » يترقب ، يصعد فى كل سيارة مقبلة ، ويفرز الركاب بعينيه فى لحظة ، ثم يهبط انتظارا لسيارة أخرى قادمة ، وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى الكون ، تهيب بالناس أن استيقظوا ، وانتشروا فى الأرض ، وسيروا فى مناكبها ، فعجت الطرقات بالكادحين ، والعاملين والمبتغين من فضل الله ، واللاهين والعابثين المنتظرين على محاط الترام والسيارات للذهاب إلى أعمالهم ، أو ترصد الفتيات الرائحات الغاديات .

ولمح عفاف ، فأشرق وجهه بابتسامة ، وسره أن لمحها تبتسم له ، فشجعه ذلك على أن يذهب إليها يصافحها ، ويجلس إلى جوارها يحادثها :

ـ صباح الخير .

ـ صباح النور .

ولم يعاتبها على مواعدته لها وعدم حضورها ، لا يريد أن ينقضى الوقت فى عتاب وخصام ، فكل ما يبغيه أن يلقاها ، ليسترد ثقته بنفسه ، ويرضى غروره قبل أن يبرح الإسكندرية ، فما كان يحب أن يغادرها مهزوما ، فقال لها :

ـ أريد أن أقابلك الليلة .

فقالت له وهى تسبل عينيها فى إغراء :

ـ آسفه لا أستطيع .

وكأنما أراد أن يرقق قلبها ، فقال لها :

ـ هذه آخر ليلة لى هنا .

فرمقته فى دهش متكلف ، ووسعت عينيها ، ورفعت حاجبيها ، وقالت له :

ـ حقا ؟ وأين تذهب ؟

فقال فى اعتداد :

ـ إلى القاهرة ، لألتحق بالجامعة .

فقالت له فى نغمة ، بدت لأذنيه غريبة ، ولكنه لم يعرها انتباهه :

ـ هذه مناسبة تستحق الوداع .

فقال ليغريها بلقائه :

ـ ربما لا أراك قبل مرور سنة .

فقالت وهى تميل عليه فى اغراء :

ـ لا .. ستراني الليلة .

فقال مستبشرا :

ـ متى ؟

ـ فى السابعة مساء .

وأراد أن يستوثق منها ، فقال :

ـ احلفى .

ـ والله ، والنبى ، وأبى العباس .

وبلغت مهبطها فنزلت ، وسارت تترجرج ، وهو يرنو إليها . تصدح فى جوفه موسيقى أعذب من تلك الموسيقى التى تتمايل عفاف على نغماتها كلما سارت أو تلفتت .

وراح جلال يعد ساعات النهار ، ولم يطق الصبر على الانتظار ، فما وافت الساعة الواحدة ، حتى كان على ناصية شارع محرم بك ينتظر مرورها ، ولمحها مقبلة فى رفقة شاب ، فتدفقت الدماء حارة فى عروقة ، وثارت كرامته ، ودارت الأرض به ، وكبح عواطفه ، وانصرف مهموما حزينا ، ولكن لماذا يحزن ، وهو المخطىء ، واعدته على اللقاء فى السابعة ، فلماذا يأتى فى غير الميعاد ؟!

وفكر فى أمره ، فاهتدى إلى أن خير ما يفعله أن لا يذهب فى السابعة ، سينال منها تخلفه ، ويعيد إليه ثقته التي كادت تقتلع من نفسه من جذورها ، إنها فكرة طيبة ، ولكن غروره لفظها ، فما يرضيه أن يقنع من الغنيمة بالإياب ، لن يرضى حتى ينتصر عليها نصرا كاملا مؤزرا .

وفى السابعة كان يذرع شارع محرم بك فى قلق ، يسير خطوة ثم يتلفت ، كان يخشى أن تتركه ـ كعادتها ـ لنفسه تسومه ذل الاضطهاد ، ولمحها قادمة ،

فخفق قلبه ، واجتاحته موجة من السعادة ، ودب النشاط فيه ، فخف إليها منتشيا وزاد فى غبطته همود قلقة ، أتت أخيرا ، ولاحت لعينيه تباشير الظفر ..

صافحها فى شوق ، وسار إلى جوارها خطوات ، فالتفتت إليه وقالت فى دلال:

ـ آن لنا أن ننصرف .

فرنا إليها فى ذعر وقال :

ـ لماذا ؟

فقالت وهى تحرك رأسها فى طيش :

ـ جئت لأودعك قبل سفرك ، ولأننى أقسمت ، وأحب أن أبر بقسمى .

ومدت له يدها تصافحه قبل انصرافها :

ـ مع السلامة ، وإلى اللقاء . أراك بخير .

فقال لها وهو لا يكاد يصدق :

ـ إلى أين ؟

ـ مدعوة لسهرة ، ذاهبة إلى السينما .

وغادرته وسارت ، وتركته وهو حيران ، لا يدرى أجاءت حقا لتودعه ، أم كان لقاؤهما محض مصادفة ، وأنها كانت تدبر أمر فرارها منه ! ترى ، أحزرت أنه ما جاء إلا لينال منها ، فسارعت هى إلى النيل منه ؟! ترى أتسير أم ترقص ؟!!

ـ ٨٢ ـ

أصبحت صفية كثيرة السهوم ، كثيرة التفكير ، سافر خالد إلى أبى صوير ، ليلتحق بمدرسة الطيران بالجيش البريطانى ، والتحق جلال وسعيد بالجامعة ، ذهبوا يجدون خلف آمالهم ، وبقيت هى فى دارها تدبر تحقيق هذه الآمال ، إن لبيب يبعث إليها فى أول كل شهر بما يستطيع أن يستقطعه من مرتبه ، وزكريا يضع فى يدها كل ما يصل إلى يديه من نقود ، فهو يكافح صابرا ليدعم مركزه كمحام ، وما كان

يرضى أن يظل طويلا من الخاملين ، وأصبح لخالد مرتب ينفق أقله على نفسه ، ويرسل باقيه إلى أمه ، لتدفع منه جزءا إلى استاورو ، ذلك الشيخ اليونانى الكريم، الذى تكفل بمصروفات خالد فى الحربية ، وتركه إلى ميسرة ، وتحتفظ بجزء تنفقه فى حرص على الأسرة التى تعددت مطالبها .

فكرت فى جلال وسعيد ، فاستشعرت قلقا . أصبح عليها أن ترسل لهما فى أول كل شهر ستة جنيهات ، يدفعان منها إيجار الشقة ، وينفقان منها على طعامهما ، ويشتريان منها كتبهما ، إنها تحس أن ذلك المبلغ لن يمكنهما أن يعيشا فى يسر فى غربتهما ، وهى على ثقة من أن أيه زيادة تدفعها ترهقها ، فملأها الهم، وطافت بها موجة من القلق استسلمت لها .

وعجبت من نفسها ، ما بالها ترتجف من الغد ، بعد أن زادت موارد رزقها ، وكانت تنظر إلى المستقبل فى أحلك أيامها نظرة مفعمة بالأمل ! كانت تكافح مستبشرة يوم أن كان دخل الأسرة قروشا قليلة يأتى بها على فى آخر النهار ويضعها فى يدها، فلا تكاد تملؤها ، فما بالها ترتجف إذا فكرت فى أبنائها ولبيب وزكريا وخالد يمدونها بأموال تسد حاجتها ؟!

أحست ضعفا فى روحها ، ووهنا يدب فى أوصالها ، وموجات من التشاؤم تغمرها ، فلا تنجلى عنها إلا بعد أن تخلف فى نفسها رواسب من القنوط والقلق ، قنوط لا تدرى مبعثه ، وقلق لا تعرف له علة .

وأرادت أن تعيد الهدوء إلى ذاتها ، فراحت تسخر من مخاوفها ، تقضت أيام الشقاء ، فما عاد لها رجعة ، وشع الأمل ينير المسالك المظلمة ، وانفجرت شفاه المستقبل عن بسمة مشرقة عذبة ، وكادت تركن إلى ما توحيه إلى نفسها من طمأنينة وأمن ، ولكن شاخت روحها بعد ذلك الكفاح الطويل المرير ، ونضب معين حماستها ، فصارت فريسة هينة لمخاوفها .

وخطر لها حسان وهو يحاول أن يخفى فمه بيده ، حتى لا تشم رائحة الخمر الفائحة من فمه ، فانقبضت ، وكانت تشفق عليه كلما قدمت إليه طعامه ، أو ناولته نقودا ينفقها على شرابه ، وكانت مشاعر الحنان تغمرها ، فباتت رؤيتها له

تهيج مخاوفها ، فما يدريها أن القدر سيحالف أبناءها ، ولن يكشر أنيابه ويغدر بهم كما غدر بعمهم ، فماذا فعل حسان حتى يصبح طريدا شريدا ؟!

ودخل عليها يحيى ، وهى شاردة اللب ، وفى يده صحيفة مسائية ، وقال :

ـ سقط خالد بطائرته .

دق قلبها دقات فزع ، وغاض لونها وشحب ، واتسعت عيناها رعبا ، وارتجفت وأحست الأرض تميد بها ، وروحها تنساب من بين جنبيها ، وحاولت أن تصرخ ، تستفسر عما حدث ، ولكنها لم تجد لسانها ، حتى دموعها تحجرت فى مقلتيها ، وفطن يحيى إلى ما اعتراها ، فقال لها يطمئنها :

ـ سقط بطائرته ولم يصبه مكروه .

وغمغمت فى رعب :

ـ ابنى .

ـ إنه بخير والله ، سأقرأ لك الخبر .

ونشر الصحيفة بين يديه وراح يقرأ :

ـ « سقط الملازم الثانى خالد على يونس بطائرته أثناء تدريبه بأبى صوير ، وقد تحطمت الطائرة ، ونجا الطيار ولم يصب بسوء » .

وعرفت الدموع طريقها إلى عينيها ، فسالت عبراتها ، ثم رفعت رأسها إلى السماء ولم تتحرك شفتاها بكلمة ، كان قلبها يبتهل إلى الله فى حرارة أن يوقى أبناءها السوء ، وأن يحفظهم ، ولا يريها فيهم مكروها .

ـ ٨٣ ـ

ماجت الغرفة بالرجال والغلمان والنسوة والفتيات . وراح بعض « الشيران » يتجاذبون أطراف الأحاديث عن العنابر ، وذكريات السهرات الصاخبة ، وجلس فى ركن بعيد سليمان ويحيى يتناجيان فى همس ، فسليمان يروى للصبى قصص الأزواج والزوجات فى تفاصيلها المغرية ، ويحيى يصغى إليه فى لهفة ، فقد كان يجد فى الإنصات إلى ابن عمته لذة ، كانت تفاهاته ومبالغاته أحب شىء إلى نفسه، فكان يقضى أمسيته إلى جواره . متفتح النفس ، يتلقى منه وحيه ، فتتحرك فيه الشهوة الطاغية .

وجلس سيد منطويا على نفسه ، لا يشترك فى الأحاديث الدائرة ، فهو لا يفكر إلا فى ذاته ، إنه ضيق الصدر بعمله ، برم به ، فما يجنى منه إلا قروشا قليلة . وهو يشتهى الغنى ، فكل أمانيه تبنى على عمد من المال ، وهو يحلم بثروة هابطة ترفعه من عالم الضيق البغيض ، إلى عالم رحب مشرق ، مفعم باللذة .

وأخذت عزيزة وزهيرة وأخواتهما يتحدثن ، فقالت عزيزة فى صوت عال ، وهى تنظر إلى الفتيات الجالسات ناهدات الصدور :

ـ لم يعد فى الدنيا رجال ، ماتوا .. ذهبوا .

ورن صوتها فى الغرفة ، فالتفت الجميع إليها ، وقال سيد :

ـ نحن هنا .

فقالت له عزيزة وهى ترفع حاجبها :

ـ يا عار الرجال لماذا لا تتزوج ؟ بارت الفتيات وهن ينتظرن الشيران من أمثالك .

ورأى سليمان الفرصة سانحة ليغيظ أخاه ، فقال :

ـ لو كان رجلا لتزوج .

فثار سيد ، وقال فى حنق :

ـ ييا بن الككلب .

ونظر إليه أبوه ، وفى عينيه ابتسامة ، ورأت زهيرة أن تقهر الهدأ، لتتناثر المهاترات ، ويتراشق الجميع بالسباب ، فترضى نفسها المتعطشة إلى نهش أعراض الناس ، فقالت :

ـ والله لا أدرى يا سيد لماذا لا تتزوج !؟

فقالت ابنه خالته التى غازلها ذات يوم فى الطريق !

ـ وهل يتزوج من كان مثله ، يكفيه أن يسير وراء الفتيات يغازلهن : « ييا فقفقر .. ييبا غغغزال ... » .

فانفجر سيد صائحا :

ـ ييا أولاد الككلب .

فقال سليمان :

ـ اهدأ ، وقل لنا : لماذا لا تتزوج ؟

فقال سيد وهو ينظر إلى أخيه شزرا :

ـ لألأنى لللست مغغفلا مثلك ، الزواج يحتاج إلى مال ... لللن أزوج قبل أن أصبح غغغننيا .

فقال سليمان ساخرا :

ـ اذن ستتزوج فى الجنة ، إن شاء الله ، فى الجنة ونعيمها .

ـ سسأصبح غغغنيا قتقريبا .

ومد يده فى جيبه ، وأخرج ورقة « يانصيب » ، ورفعها إلى فمه ولثمها ، ثم قال :

ـ سسأكسب يوما ، وببعدها أأتزوج ، لا أرضى أأن أأعيش لفقيرا ، ووأموت مممثل هذا المغفل .

وأشار إلى سليمان ، وصاحت عزيزة فى زراية :

ـ يا وكسة .. يا وكسة .. يا وكسة !

فضاق باستخفافها ، وصاح وهو يغادر الغرفة .

ـ ييبامجانين .. ييبا أولاد الكلب .

وخشيت زهيرة أن تخمد النار المشبوبة بعد خروجه ، فأسرعت تحركها :

ـ إذا كان سيد يهرب من الزواج لأنه فقير ، فلماذا لا يتزوج زكريا ، وقد صار رجلا يقدر أن يجرى على أسرة ؟

كانت عزيزة تكافح فى سبيل كبح زمام لسانها ، لأنها كانت تطمع فى أن يتزوج إحدى بناتها ، ولكنه لم يفاتحها فى ذلك ، ولم يلمح إليه ، بل هو يلج فى البعد عنها بعد تخرجه ، ويبدى النفور ، فاستحق أن تطلق فيه لسانها ، وقالت :

ـ يستطيع زكريا أن يحوز امرأة ، حتى يسقط على امرأة غنية .

فقالت زهيرة فى نفاق :

ـ حرام !

فقالت عزيزة فى توكيد :

ـ يا خوفى من شباب اليوم ، كلهم يفعلون ذلك . لو كانت صفية عاقلة ما تركت أولادها يبيتون بعيدا عن عينيها . من يدرى ماذا يفعلون هناك وحدهم !

وأرهفت زهيرة لتشنف أذنيها بما تتأهب عزيزة لسرده ، ولكن ثورة يحيى لإخوته حرمتها هذه اللذة ، فقد هب منفعلا ، وصرخ فيهم :

ـ يا مجانين ، يا أولاد الكلب .

وخرج حانقا ، وقد ترك خلفه وجوما على الوجوه ، ورهبة فى القلوب ، باتوا يخشون أن ينقل يحيى ما حدث إلى أمه فتغضب ، كانوا جميعا على الرغم من بذاءتهم يهابون صفية !

ـ ٨٤ ـ

انطلق جلال وسعيد فى شارع تحت الربع يتلفتان ، كان الشارع يدوى كخلية نحل ، رجال فى جلابيب بيضاء وزرقاء فى غدو ورواح ، ونساء فى ملاءات سود يتهافتن على دكاكين العطارين وسيارات متباينة تمرق فى الزحام ، وحمير وبغال تدق بحوافرها الطريق ، وأصوات المقاطع التى تعمل فى الرخام تنبعث حادة ، وتمتزج بالضوضاء الصادرة من المارة والعربات والسيارات والسيدات ، وحوافر الدواب .

ووقف جزار على باب حانوته وفى يده خرطوم يرش به الطريق ، يتفادى فى مهارة أن تبتل أفواج البشر المتدفقة فى غزارة ، كأنما نفخ فى الصور ، ونشر من فى القبور ، أو أرتال السيارات المنسابة فى جنون ، أو قوافل البغال والحمير التى تتهادى فى وقار ، لا تحفل بالزمن ، ولا تأبه بالعالم العجلان الأرعن ، الذى يعدو مسعورا يتعجل نهايته !!

وأهتديا إلى المنزل الذى سينزلان فيه ، كان خاشعا متواضعا ، يكاد يخر ساجدا من الوهن الذى يسرى فيه ، إنه يرتعد إذا مرت بجواره سيارة ، ويرتجف إذا هبت ريح ، وتصطك شبابيكه التى ملت طول عشرتها للجدران ، ففكرت فى الهجر والانفكاك من الرق الذى طال .

ورث الحاج كرم ذلك المنزل عن أجداده ، وورثه عن الحاج كرم أبناؤه ، إنه شهد التاريخ ، ومن يدرى فقد يكون قد اشترك فى صنعه ، فلعله كان فى أيام شبابه منزلا لمملوك من المماليك ، أو مأوى لجماعة من الثائرين الحانقين المطالبين بحرية الشعوب ، إنه يطوى فى صدره المنهوك سره ، ويفتح بابه مرحبا بالوافدين .

وأدار سعيد عينيه فى المكان ، فألفى الغبار يتراكم طبقات بعضها فوق بعض، فوضع حقيبته ، وخلع ثيابه ، وتأهب ليزيل عن الدار غبار السنين ، تناول مكنسة

وراح يكنس ، وأتى بماء وبدأ ينظف ، وانهمك فى عمله ، ووقعت عيناه على جلال ، فألفاه جالسا ينظر فى استعلاء ، فاغتاظ وصاح به :

ـ قم وشاركنى فى تنسيق الغرفة .

ـ لا . لا يجوز لمن كان فى مثل مركزى أن يقوم بتوافه الأعمال .

فرماه سعيد بنظرة قاسية ، وقال فى استخفاف :

ـ وما الذى يفعله من كان فى مثل مركزك ؟! وما مركزك هذا ؟

فقال جلال وقد شمخ بأنفه :

ـ إننى طالب فى الحقوق ، إنها أربع سنوات ، ثم أصبح بعدها وزيرا .

فقال سعيد فى استخفاف :

ـ لقد هزلت !

ـ أرجو ألا تسخر منى ، جميع الوزراء زملائى ، كلهم من خريجى الحقوق .

واضطجع فى جلسته ، فرماه سعيد بالمكنسة وصاح :

ـ والله إن لم تعمل بيدك هنا كل شىء ، وتسهر على نفسك ، لتموتن جوعا قبل انقضاء الأربع سنين .

فقال جلال مفزوعا :

ـ إننى أحتمل أيه منية ، إلا الموت جوعا .

وتذكر الطعام ، فقال :

ـ من ذا الذى سيجهز لنا طعامنا يا سعيد ؟

ـ سنجهزه بأيدينا .

ـ لا .. إننى لا أطيق مثل هذه العيشة .

ـ وماذا ترى أن نعمل ؟

ـ أن نبحث عن طاه .

ـ طاه ؟ أنت مجنون !

فقال جلال فى هدوء :

ـ لماذا جئنا إلى هنا ؟

ـ لنلتحق بالجامعة ؟ لنبنى مستقبلنا ، وفى سبيل هذا المستقبل كل شيء يهون .

ـ اتفقنا .

ـ على ماذا اتفقنا ؟

ـ على أن نبحث عن طاه ، لأن الدروس لن تدخل رأسى إذا لم أملأ بطنى بطعام شهي لذيذ ، تريد أن تحتفظ بأجر الطاهى ، ولكن معنى ذلك أن أرسب فى الجامعة ، ويذهب تعبنا هباء ، وتضيع فى الهواء الأموال التى يرسلها إلينا أهلنا .

وخرجا يبحثان عن طاه ، يعد لهما طعامهما ، ويتفنن فيه ، لتدخل الدروس رأس جلال ، وجاءا بطاه لم يرض عنه جلال ، لأنه أخفق فى إعداد صنف طلبه منه ، وجيء بثان وثالث ، ولما دخل الرابع المطبخ ، قال جلال لأخيه وهو يحاوره :

ـ دعنى اختبره .

قال جلال للرجل وهو يرنو إليه فى استنكار :

ـ نريد أن تصنع لنا اليوم صينية كنافة .

وجاء الرجل بالكنافة والسمن والفستق واللوز والسكر ، وراح يبالغ فى العناية بصنع الصينية ، وجلال يرقبه متحلب الريق ، ويجاهد نفسه التى توسوس له أن يغيب الفستق واللوز فى جوفه ، ووضع الرجل الصينية على النار ، وأخذ جلال يغدو ويروح ويتعجل اللحظة الحاسمة ، ومر الوقت بطيئا ، وجلال فى ذهاب وإياب، وأخيرا وضعت الصينية أمامه ليصدر حكمه ، فراح ينهش منها متلذذا ، ودخل عليه سعيد ، فصاح به :

ـ اطمئن ، إنها اربع سنوات فقط ، ثم أصبح بعدها وزيرا !

ـ ٨٥ ـ

خرج يحيى فى سكون الليل وقابل زميليه فى الدراسة ، اللذين واعداه اللقاء، وانطلق على الكورنيش ، يملأ رئتيه بهواء الليل المنعش ، فتزداد نفسه تفتحا ، كان ذاهبا لأول مرة فى حياته إلى ملهى ليلى ، فكان جوفه مسرحا لقلق لذيذ ، فالانطلاق إلى شيء أشهى من الوصول إليه .

ودلفوا إلى المكان ، فراح يقلب عينيه فيه كالحالم ، أنوار خافتة ترهف المشاعر، وأخونة متناثرة جلس إليها شبان وشابات ، وموسيقى واهنة تناغى الحواس، واحتلوا مائدة ، وطفقت عيناه تتجولان فى أنحاء المكان وهو نشوان ، كلما وقعتا على فتاة ، وقفتا برهة تتمليان الحسن ، وتنعمان بالجمال ، كان يجد فى كل أمرأة شيئا يستحق الأعجاب .

وغمرته النشوة ، فالتفت إلى زميليه وقال :

ـ ما أروع المكان !

فقالا له فى لهجة العارف :

ـ انتظر .

أحس كأنه يعيش فى عالم من الرؤى والتخيلات ، رجال فى ثياب نظيفة ، ونساء كاشفات عن صدورهن ، حتى بدت الأخاديد الغائرة بين النهود ، مغرية ممعنة فى الإغراء ، كانت المشاهد جديدة لعينيه بعد أن اعتادتا رؤية الحارة والخربة ، ومقهى الصعايدة ، وحليمة فى ثوبها الأسود قابعة أمام الدار ، وقد عبث الزمن بصفحة وجهها ، فخلف فيه تجاعيد وغضونا ، ومسح بيده على شعرها الأسود ، فما تركه إلا أنصع من القطن المنفوش ، والنجرو فى قميص الخيش ، وقد استطالت لحيته وتغبرت واسترسل شعره ، وتدلت على صدره سبحته الضخمة ، التى كانت

حبات من الخشب تزيد القذارة فى حجمها على مر السنين !

ـ أين هذه النسوة المتأنقات من عماته وبناتهن اللاتى كن فى جفاف الشجر !

خطر له اللحظة ، وهو فى غمرة النشوة ، أن عزيزة وزهيرة وثريا وزينب وحميدة ونبيلة رجال فى ثياب الحريم ، أو لعلهن أعمدة جاء بها جده يونس من السكة الحديد !

وانبعثت موسيقى راقصة ، وأطفئت الأنوار ، وأضيئت أنوار المسرح ، وهو يتلفت ، فأحس أحد زميليه يلكزه بكوعه فنظر ، فرأى على المسرح فتاة شبه عارية غارقة فى الضوء ، تتثنى تثنى الغصن الرطيب ، وما أن رأى اللحم الأبيض حتى تدفق الدم حارا فى عروقه ، وغاب عما حوله فى غيبوبة من النشوة ، وجعل يتطلع إلى مفاتنها وقد فغر فاه ، يكاد يلتهمها بعينيه .

وأسدل الستار ، وصفق مع المصفقين ، ثم التفت إلى زميليه وقال :

ـ مكانى هنا كل ليلة .

فابتسم زميلاه ، وقال أحدهما :

ـ لا يأتى إلى هنا كل ليلة إلا الوارثون ، من أين لك أجر الدخول ؟

ولم يشأ أن يعكر صفو السهرة ، فلم يسترسل فى التفكير ، إنه الليلة هنا ، فى الجنة ، وهذا يكفيه .

وترادفت المشاهد ، وتتابعت الرقصات المثيرة ، وتدفقت الدماء حارة فى العروق، وطافت برأس يحيى القصص التى يرويها له ابن عمته سليمان عن الأزواج والزوجات ، فإذا به يحس حنينا غريبا إلى الراقصات ، فيقول لزميله :

ـ لماذا لا تأتى واحدة تجلس معنا ؟

فقال له :

ـ إنهن لا يجالسن المفلسين من أمثالنا .

وقضيت السهرة ، وانصرف الناس ، وبقى يحيى واقفا ، فقال له زميله :

ـ ماذا تنتظر ؟

ـ أريد أن أراهن خارجات .

ـ وما الذى تستفيده ؟

ـ أيخرجن وحدهن أم يخرجن مع من قضين معه السهرة ؟

ـ إنهن غالبا يهربن من المغفلين .

ـ لم أشته الغفلة قبل الليلة ! ليتنى كنت أحد هؤلاء المغفلين .

وانصرفوا ، ويحيى صامت يحلق فى عالم من الرؤى العذاب ، ويبلغ الحارة وانساب فيها ، لا يرى شيئا مما حوله ، كان غائبا فى أفكاره ، وراح يصعد فى الدرج ، وإذا بالنشوة تطير وتتركه للقلق ، فهو يعود فى الثانية بعد منتصف الليل، وهو يخشى مقابلة أمه ، ودخل يسترق الخطا ، ورأى صفية منتصبة فى وسط الردهة ، فخفق قلبه ، ودثرته رهبة ، وانسل من جوارها صامتا ، وكم كانت دهشته أنها لم تعنفه ولم تنهره ولم تنبس بكلمة ، فذهب إلى فراشه وما أن أسلم جانبيه للرقاد ، حتى راح يسبح فى عالم وردى من الرؤى العذاب .

ـ ٨٦ ـ

لمحت صفية أخاها مصطفى مقبلا فى الحارة لزيارتها ، فخفت تنتظره عند باب شقتها ، وصعد مصطفى فى الدرج ، وصوت ترحيب أخته يرن فى أذنيه ، فهى تحب إخوتها ، وصافحته وقد أشرق وجهها بابتسامة ، وظل وجه مصطفى جامدا عابسا عليه غبره ، ودلفا إلى غرفة متواضعة ، ولكن كل ما فيها نظيف مرتب ،

وجلس مصطفى وقالت له صفية :

ـ من أين جئت ؟

فقال ضيق الصدر :

ـ من القاهرة .

فقالت فى حنان :

ـ أرأيت جلالا وسعيدا ؟

وأقبلت عليه تترقب أنباءهما خافقة القلب ، ولكنه قال فى صوت غاضب :

ــ ما جئت إلا لأشكوهما إليك .

وانقبضت وأنصتت ، وقال مصطفى :

ــ لم يكتفيا أن ينزلا فى بيتنا ، دون أن يدفعا إيجار الشقة ، بل راحا يدعوان أصحابهما إليها ، وجدت عندهما صديقا ودراجته ، كأنما قد أصبح فندقا أو حظيرة للبهائم ، إننى لاأدرى لماذا لا يعرف أولادك حدودهم !

وصمت برهة ، صدره يعلو وينخفض من الانفعال ، وصفية مطرقة تحس سياطا تلهب روحها ، فما بال إخوتها يساورون أبناءها مساورة قاسية مريرة مقيتة ، ماذا فعل أولادها حتى يستحقوا كل هذا التقريع ؟ التقط الخال نفسه ، واستأنف هجومه ، قال :

ــ الذنب كله يقع عليك ، أنت التى نفخت فيهم ، قاسيت الحرمان وأرسلت بهم إلى الجامعة ، من فى أسرتهم أو فى أسرتنا دخل الجامعة ؟! انظرى إلى نفسك كيف أصبحت ، صرت خيالا ، أنت فى آخر الأمر الخاسرة ، لو أنهم اشتغلوا بأيديهم كما اشتغل جدودهم قبلهم ، لكان لك دخل موفور ، ولما بقيت فى هذه الحارة الآن .

مصوك ولن تستفيدى منهم شيئا ، غدا يتزوج كل منهم وينشىء له بيتا ويتركونك هنا ، فى هذه الحارة وفى هذا البيت .

انت فى حاجة إلى أن يعولوك ، أن يعاونوك ، لا أن تحرمى نفسك لتنفقى عليهم ، هذا حرام ، أنت لست مكلفة هذا ، لكنى أعود فأقول إن الذنب ذنبك .

وظلت صفية تصغى إليه صامتة ، وإن كان صدرها جياشا بالعبارات الثائرة ، ولو أفلت منها زمام أمرها ، وطاوعت شيطانها ، لانفجرت فيه : « إننى ضحيت من أجلكم ، فماذا جنيت منكم ؟ نكرانا وجحودا ، ومقتا لفلذات كبدى وذوب نفسى ، إننى أضحى فى سبيل أبنائى فهم أولى بتضحيتى منكم . زورت فى سبيل إنقاذكم، وعرضت نفسى للعقاب ، فماذا كان جزائى ؟ بعت نصيبا من ميراثى وأعطيتكم إياه ، فماذا كان جزائى ؟ تنازلت لكم عن نصيبى فى المحل ، فماذا كان جزائى ؟ كان جزائى أن رفضتم تزوج ابنى من ابنتكم ، ثم زوجتموها لمن لا يفضله ،

كان جزائى أنك اليوم تعيرنى أن أولادى نزلوا فى بيتكم دون أن يدفعوا إيجارا ، وما كان ذلك البيت يدر عليكم إلا بضعة قروش ، كأن ما فعلته لكم أحقر من أن يقدر بتلك القروش . عيبكم أنكم تنسون ما يفعله الناس لكم ، ولكنكم تذكرون ما تفعلونه للناس ، ولو كان أندر من حسنات إبليس » .

لم تنبس بكلمة . وظلت صامتة مطرقة ، تقاسى من أخيها الذى لا يرحم ، ومن نفسها التى تصرخ بها أن تثور لكرامتها وكرامة أبنائها التى تهدر دون حساب.

وهب مصطفى واقفا وقال :

ــ لو كنت أعرف أنك تستمعين للنصح ، لقلت لك اسحبى سعيدا وجلالا من الجامعة ، وشغليهما بجوارك ، ولكنى على ثقة من أنك لن تستجيبى لنصحى ، لذلك أقول لك : ابعثى إليهما أن لا يدعوا أحد من أصدقائهما إلى بيتنا ، وإننى لا أريد أن أرى هناك دراجة أو حمارا ، فما كان بيتنا مأوى للأفاقين والبهائم .

وغصت صفية ، ولاح فى وجهها الأسى ، ولكنها كانت تغالب شعورها ، كانت تخشى أن يظهر حزنها على وجهها . فتسىء إلى أخيها ، الذى لم يكتف بهدر كرامتها ، بل جزر إنسانيتها ، كانت كل عاطفة فيها تئن وتدمى أسفا وحزنا .

وراح يهبط فى الدرج ، وهى تقول له :

ــ مع السلامة .

وقد ارتسم على شفتيها ابتسامة باهتة ، تخفى مرارة النفس . خيبة الأمل .

ـ ٨٧ ـ

أجساد الراقصات اللدنة تتخايل لذهن يحيى ، فى أوضاع مغرية ، يخفق لها قلبه ، وتتدفق دماؤه حارة فى عروقة ، وتستبد به رغبة الذهاب إلى الملهى ليطفىء ظمأه ، وكانت صورة راقصة بعينها تطفو على سطح ذهنه ، وتعابث خياله ، إنها فتحية ذات البشرة البيضاء . والجسد الذى تسرى فيه الكهرباء إذا اهتز أو تثنى أو مال .

طاف بالملهى أكثر من مرة ، ورنا إليه من بعيد ، ثم نكص على عقبيه وهو حسير ، لم يكن معه ما يدخل به ، فانطلق على الكورنيش والأجسام اللدنة تتثنى كالأشباح فى رقعة السماء ، وعلى سطح الماء ، وفى الفضاء ، فيفعم بالحنين والرغبة.

وبلغه أن صاحبة الملهى مريضة ، فألفى يفكر فى ذلك ، وأمدته رغبته فى التردد على الملهى بفكرة ، فراح يقلبها ويقلمها ويهذبها ، حتى إذا أطمأن إليها ، نام ملء الجفون .

فلما أصبح الصباح ، ذهب إلى المدرسة مبكرا ، وقابل زميليه وقال لهما :

ـ جاءنا الفرج .

فنظرا إليه فى تساؤل ولم تتحرك شفاهم ، وقال :

ـ صاحبة الملهى مريضة .

فقال أحدهم ساخرا :

ـ هل أوصت لنا « بالكازينو » إذا ماتت ؟

قال يحيى فى حماسة :

ـ فكرت فى أن نشترك فى شراء طاقة ورد وريحان ، ونذهب لزيارتها ، وبذلك

تتوطد بيننا وبينها الصداقة ، فيفتح الكازينو لنا أبوابه .

ورمقاه فى إعجاب ، وقالا :

ـ فكرة .

وجمعوا كل ما معهم ، فكان بضعة قروش ، ثم غادروا المدرسة ، وانطلقوا إليها ، كان عسيرا عليهم أن يتلقوا العلم وصاحبة « الكازينو » مريضة ، ولو أن فكرة الإضراب لأوهى الأسباب كانت قد ذاعت بين الطلبة ، لحرضوا طلبة المدرسة على الإضراب ، والخروج لعيادة المريضة !

وانطلقوا ، يحيى يحمل طاقة الورد ، ويردد على أسماع زميليه ما سيقوله ، وهما يسيران إلى جواره يصغيان إليه ، وفى جوفهما نشوة ، وبلغوا دار فخمة ، لم تكن دارها ، بل كانت دارا لموظف كبير يعطف على الفن والفنانات .

واستأذنوا فى الدخول فأذن لهم ، وانسابوا يتلفتون فى ذهول ، طنافس فاخرة تغوص فيها الأقدام ، وروائع من الفن منتشرة هنا وهناك ، وصحائف فنية تسحر الألباب ، والترف تبدى فى هيئة رياش ، وسجف أرخى فانتشرت الظلال ، فزادت فى روعة المكان ، ولو كان يحيى يسير بين هذه الروائع وحده لانتفض فرقا ، ولخيل له وهمه أن التحف ستنقض عليه من خلفه تخطفه ، وتكتم منه الأنفاس ، ولكنه كان ينطلق خلف نوبى طويل ، وقد التصق به زميله .

ودلفوا إلى غرفة رحبة ، بها سرير فخم تمددت فيه الفنانة الشابة ، كانت الغرفة تحفة بهرت الغلمان ، وكاد يرتج عليهم ، ولكن يحيى لم أطراف شجاعته ، وتقدم صوب السرير ، ومد يده بطاقة الورد المتواضعة ، وهو يقول :

ـ والله لقد آلمنا مرضك ، ففكرنا فى أن نأتى إليك ، نعبر لك عما تكنه لك قلوبنا من حب وتقدير .

وتناولت الطاقة منه ، وقد مس شعور الصبيان وترا فى قلبها . تجشم هؤلاء الأبرياء الصغار مشقة الاستفسار عنها ، لا يدفعهم إلى ذلك إلا حبهم الطاهر لفنها! فالتفتت إلى الخادم النوبى وقالت :

ـ ضع هذا الورد هنا ، بالقرب منى ..

وأقبلت عليهم متفتحة النفس ، تصغى إلى إطرائهم لها مسرورة ، ويزيد سرورها يقينها أن ذلك الثناء ينبعث من قلوب سليمة ، بريئة من الهوى والأغراض ، قلوب صافية لا تعرف الرياء !

ومر الوقت لطيفا ، انتشت بالمديح الذى كان ينسكب عذبا فى أذنيها ، فيدغدغ حواسها ، وفرحوا بالجلسة الشاعرية التى جلسوها ، وبما قدم إليهم من حلوى ومرطبات .

وهموا بالانصراف ، فقالت لهم تؤكد حديثها :

ــ الكازينو يرحب بكم فى الليل وفى النهار ، يسرنى أن أراكم دائما .

وغادروا الغرفة وقلوبهم ترقص طربا ، نالوا بغيتهم ، فتح الملهى لهم أبوابه ، بعد أن خدعوا الغانية ، وعبثوا بعواطفها ، تلك التى لا تعرف فى الحياة إلا خدع الناس ، والعبث بعواطفهم واللعب بقلوبهم .

ـ ٨٨ ـ

خالد يقود سيارته منشرح الصدر ، فقد سدد لذلك الشيخ اليونانى الكريم المبلغ الذى فتح له أبواب الحياة ، ووفر بعض الجنيهات اشترى بها هذه السيارة ، التى أدخلت على قلبه البهجة ، وغرست فى صدره شجرة الأمل ، كانت فكرة شراء سيارة أمنية تداعب خياله ، فإذا به يجد أن الوهم قد يتحقق ، وأن الأيام كفيلة بأن تبرز إلى دنيا الواقع الآمال والأحلام ، فاسترسل فى التمنى ، وراح يجرى بخياله وراء الرؤى العذاب .

ودلف إلى الحارة التى طالما ذرعها على قدميه فى الليل وفى النهار ، فى الصيف وفى الشتاء ، دخلها لأول مرة فى سيارته التى اقتناها ، فأحس قلبه يرقص فرحا ، كان يدخلها ظافرا ، يروى فى انطلاقه بداية قصة نجاح .

ووقف أمام باب الدار ، يتعمد أن يطلق بوق السيارة ، كأنما يهتف بالجيران أن

ينظروا ، وهبط منها جذلان ، فألفى حليمة ترنو إليه وعيناها بالبشر تتألق ، فزادت غبطته ، وحياها فى رقة وغاب فى الدرج .

وأسرع الصبيان إلى السيارة ، هذا يمرر يديه على مصابيحها فى حنان ، وذاك يعبث فى مقابض الأبواب ، وآخر يقنع بالجلوس على سلمها ، ورابع يطمع فى أن يطلق بوقها ، وخامس لا يرضى إلا إذا قادها ، فيصعد إلى أدوات قيادتها يعبث بها ، وتحس حليمة إنها أقرب كل هؤلاء من صاحب السيارة ، فتقوم تنهر الصبية ، وتكفكفهم عنها .

وفى مثل لمح البصر انتشر فى الدار أن خالدا اشترى سيارة ، ففتحت الشبابيك، وأطلت منها رءوس تنظر ، أحست عزيزة غيرة ، كانت تشتهى أن يكون صاحب هذه السيارة ابنا من أبنائها وبناتها ، وتصرخ فيهم لأتفه سبب وبلا سبب .

ونظرت زهيرة ، فانقبضت ، وراح الحسد يرعى فى جوفها ، وينهش قلبها ، استشعرت نارا تسرى فى أحشائها ، ولم تستطع أن تدارى عواطفها ، فلاح فى وجهها الكمد ، ومات الرياء ، فلم تنبس بكلماتها الناعمة ، التى تسدلها لتخفى مشاعرها البشعة ، الجوالة فى كهوف ضميرها .

وأطلت صفية من عليائها ، وكان خالد إلى جوراها ، فإذا بسمة رضا تتوج شفتيها ، وإذا بها تجمجم بعبارات الحمد التى تحفظها ، ولكن ما كانت تحسه فى تلك اللحظة ، تقصر الكلمات عن أن تعبر عنه ، فإذا بها ترنو إلى السماء صامتة ، كأنما تترك روحها تهيم فى العالم العلوى ، تسبح بترانيم الشكر والحمد والرضا .

ولم يطق خالد البقاء فى الدار ، فما جاء إلى الإسكندرية فى إجازة قصيرة ، ليمكث بين الجدران ، إنه يريد أن يمر بسيارته على أصدقائه ، ليشعرهم أنه صار من زمرة الرجال الذين يستطيعون أن يقتنوا سيارة ، فهبط وقد خطر له أن يمر على صديقه حامد ، فذهب إليه ودعاه إلى نزهة على الكورنيش معه .

وركب حامد إلى جواره ، وركبت سهام خلفهما ، وانطلقت السيارة فى الحارة ، وخرجت تتلمس طريقها إلى الكورنيش . وسهام منتشية غارقة فى النشوة ، تثرثر دون أن تتدبر ، تتحدث على سجيتها ، فكان حديثها كله يدور حول خالد ، قالت

وهى تقترب من المقعد الأمامى :

ـ أفزعنا سقوطك بالطائرة ، لقد قرأنا الخبر فى الصحف أكثر من مرة ، لعلنا نستشف شيئا بين سطوره ، ولكن النبأ كان مطمئنا .

وصمتت قليلا تنعم بالنسيم الذى يداعب وجهها ، ويعبث بشعرها الفاحم ، ثم قالت :

ـ كيف سقطت بك الطائرة ؟

وراح خالد يقص قصته ، وهى تصيخ إليه ، تستشعر لحديثه لذة ، خيل إليها أنه يناجيها ، فجعلت ترنو إليه مسحورة ، تنتشر فى صدرها غبطة ، قال :

ـ سمعت صوت المحرك يتغير فجأة ، اتضح به ذلك النشاز الذى يطرأ على اللحن المنسجم ، فاعترانى خوف ؟ وراحت الطائرة تهوى ، وسرعان ما شعرت كأنما حواسى قد تخدرت ، وكأنما عقلى قد كف عن التفكير ، لم أهلع ولم أفزع ، ولكن استسلمت لما تأتى به المقادير .

وارتطمت الطائرة بحقل ، وسارت على الأرض مندفعة ، واعترضتها قناة ، فإذا بها تقفز من فوقها وتجتازها ، كأنما أوتيت حظا من الذكاء ، وإذا بها تستقر على جنبها ، وهبطت منها سليما هادئا ، ولكن ما أن فكرت فيما حدث ، بعد أن مست قدماى الأرض ، حتى دار رأسى ، وراح قلبى يدوى فى جوفى ، وشعرت بغثيان ، وأحسست كأن رجلى لا تقويان على حملى ، وكدت أسقط ، فلولا لطف الله لكنت من الهالكين .

وصمت قليلا ثم قال :

ـ أرواحنا معلقة بخيوط أوهى من خيوط العنكبوت .

وتشعب الحديث ، وراحت سهام تديره جذلانة ، تغمرها سعادة ، كانت تحس بقربه أنها تتفتح تفتح الوردة ، إذا بللها ندى الربيع .

وعادوا إلى الحارة مع الغروب ، ووقفت السيارة أمام الباب ، تنتظر نزول خالد، فقد صعد يتناول بعض الطعام قبل أن يستأنف تجواله ، وذهابه إلى البيت الكبير ، إنه يحن إلى رؤيه درية ابنة خاله ، ويحب أن يحدثها عن سيارته ، وهو يتحدث عن

آماله ، فخياله يربط بينه وبين درية ، كلما هام يستشف المستقبل المجهول .

وأقبل إلى الدار سيد وسليمان ، وما أن رأيا السيارة أمام الباب حتى اضطربا ، وأسرعت الهواجس والمخاوف إلى صدرهما ، فما وقفت سيارة أمام بيتها أبدا إلا إذا مات أحد ، وجاء الطبيب يفحص عنه قبل التصريح بدفنه ، فقال سيد فى قلق :

ـ أأتتسمع صصواتا ؟

فقال سليمان فى اضطراب :

ـ ماذا جرى ؟

فقال سيد وقد اتسعت عيناه فزعا :

ـ فففهمت .. فففهمت .

ـ ماذا فهمت ؟

ـ أأنتشر ففى البيت ووباء .. ممرض .. ففجاء الطبيب ييحملهم كلهم إلى المستشفى .

كان سيد لايخشى على أحد قدر خشيته على نفسه ، فدار على عقبيه ، وولى فرارا .

فقال له سليمان :

ـ إلى أين ؟

ـ لللن أدخل ههذا البيت أأبدا . لست مجنونا لأذهب إلى الموت برجلى .

وراح يهرول مفزوعا فرارا بنفسه من شبح الموت ، الذى يزلزل كيانه إذا طاف برأسه ، أو ذكره به أحد .

ـ ٨٩ ـ

رفع سعيد الكتاب عن وجهه ونظر ، فأربد وجهه وفار دمه فى عروقه ، ووضع الكتاب ثائرا ، وذهب إلى جلال حانقا ، ولطمه على وجهه ، ثم جذب من فمه السيجارة التى أشعلها ، وألقاها على الأرض ، وداسها بقدمه وهو يزأر :

ـ لا تظن أننى أتركك تفسد هنا ، لأننا بعيدون عن البيت .

تصاغر جلال ، ولو أنه كان الأكبر ، وقال معتذرا :

ـ أردت أن أستعين بالتدخين على استذكار دروسى .

فقال سعيد فى حده :

ـ ما أظلمك لدروسك ، تستعين بالأكل على فهمها وتستعين بالتدخين على استذكارها ، ومن يدرى بماذا تستعين غدا على تثبيتها ، أنفقنا الكثير على شراء الكتب ، ولا أظن أن ما يبقى معنا يساعدك على فهم دروسك كما تشتهى ، واستذكارها على طريقتك ، أرجو منك أن تفهمها كما يفهمها الناس ، وأن تستذكرها دون تدخين .

ورفع سعيد الكتاب ، واستأنف دراسته ، وساد الغرفة سكون ، ومر الوقت وهو مكب على القراءة ، وسرى الملل فى نفس جلال ، ودب التعب فى أوصاله ، وصار يقرأ دون أن يفقه مما يقرأ شيئا ، ففكر فى أن يطوى كتبه ، وأن يذهب إلى فراشه يستريح ، ولكنه ألفى سعيدا عاكفا على كتبه ، فوأد الخاطر الذى ولد فى رأسه فى أوانه ، وراح يقرأ وهو يرهق أعصابه ، فيستشعر ألما فى أعماق ضميره ، وتحمله فقد عزم على أن لا يكون أول من يلقى كتابه .

دار رأسه ، وتراقصت الحروف أمام عينيه ، وكاد ينوء من الجهد الذى يبذله ، ولكنه لم يتزعزع عما قرره ، فما كان يهتم بمصلحته ، فكل ما يهمه رأى الناس فيه

، فهو لا يقبل أن يظن أخوه أنه تقاعس عن استذكار دروسه ، أو قصر فى واجبه .

ووضع سعيد كتابه ، وقام يتمطى ، فأحس جلال راحة ، ولكنه لم يضع كتابه، بل ظل ينظر إليه دون أن يرى من حروفه شيئا ، وقال سعيد :

ـ ألا تنام ؟

فقال جلال فى زهو :

ـ نم أنت ، فما يزال أمامى بعض العمل .

وما وضع سعيد رأسه على الوسادة حتى راح فى سبات عميق فنهض جلال وارتمى فى فراشه كجدار منهار ، وراح يغط فى نومه ، وسرعان ما ارتفعت الشمس ، فقام سعيد وطفق يهز جلالا ويصيح :

ـ جلال ... جلال قم . لن تلحق المحاضرة الأولى .

ونهض جلال ، فى وجهه إرهاق ونصب ، وارتدى ثيابه مسرعا ، وانطلق إلى الجامعة ، وأخذ مكانه فى المدرج ، ورأسه يدور ، وأقبل الأستاذ ، وتدفقت العبارات كالأمواج يتبع بعضها بعضا ، وجلال شارد لا يفكر فى شىء ، كان كل ما يحسه أن رأسه خواء أجوف .

وارتفعت فى المدرج صرخة حادة ، وانهار جسم على الأرض ، إنه طالب مصاب بالصرع ، فارتجف جلال وفزع ، وصار يتحامى أن يلتفت إليه ، كان يحس فى أعماقه أنه يريد أن يصرخ ، ولكنه كان يجاهد أن يكبت الصرخة المدوية فى أغواره، وفطن إلى أنه إن مكث فى المدرج لحظة ، فسيسقط مغشيا عليه ، فانسل مضطربا ، وغادر المدرج مرعوبا ، وخرج إلى الفناء الواسع ، وراح يجيل عينيه فى الأشجار الباسقة ، والخضرة الزاهية ، ويستنشق النسيم الذى راح يهب رخاء ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، ورد إليه هدوءه .

وعاد إلى المدرج ، واستقر فى مكانه ، وإذا ببصره ينجذب إلى ذلك الطالب الذى صرخ ثم سقط ، وإذا به ولا هم له إلا مراقبته ، فعاد إليه اضطرابه وقلقه ، وانتهى اليوم الدراسى ، وقفل راجعا إلى البيت ، ووضع الطعام ، فازدرد لقيمات ، ثم قام ، فقد عافت نفسه الطعام ، وأنكره أخوه ، فقال سعيد فى قلق :

ـ ماذا بك ؟

ـ لا شيء .

وقلق سعيد ، فقد لاحظ فى وجه أخيه شحوبا واضطرابا فقال له :

ـ اذهب إلى فراشك ونم ، ولا تجهد نفسك .

واندس جلال فى فراشة ، ولكن لم ترنق له عين ، جافاه النوم ، وحالفه السهاد .

ـ ٩٠ ـ

كان الوقت ضحى ، الطلبة فى مقاعد الدرس ، يصغون إلى أساتذتهم ، وقد لاح فى وجوههم الاهتمام والنصب ، عكفوا على الاستذكار والانتباه ، وحملوا على أنفسهم ، وحملوها فوق ما تطيق ، لأن امتحان آخر السنة قد دنا ، فراحوا يعملون جاهدين ، ليعوضوا عما فاتهم فى أول السنة .

وفى ذلك الوقت كان يحيى وزميلاه فى « الكازينو »» يقومون بتحفيظ الفتيات الأغنيات ، وأدوارهن فى المسرحيات القصيرة التى تمثلها الفرقة ، وجدوا فى جهل الفنانات القراءة فرصة تقربهم منهن ، وتربط بينهم وبينهن الأسباب ، وتوطد أقدامهم فى الملهى .

وأقبلت فتحية فى ثوب بسيط يبرز جمال تكوينها ، كانت منسجمة الأعضاء، ذات عينين واسعتين سوداوين كعيون المها ، ووجهها ينطق ببراءة ، كان أقرب إلى وجوه الأطفال ، وثغرها يفتر دائما عن لؤلؤ منظوم ، وكان كل رأس مالها خصرا دقيقا ، وصدرا ممتلئا ، وساقين كأنما خرطتا من مرمر .

وتقدمت إلى المسرح ، وراحت وهى فى ثوبها تهز أكتافها وأردافها ، وترفع صدرها وتميل برأسها ، فيتهدل شعرها الأسود السبط فيزيدها روعة وجمالا ، وانحسر الثوب عن ساقيها ، فطغت فتنتها ، كانت فى هذه اللحظة أفتن من كل لحظاتها العارية ، التى تبدو فيها تحت الأضواء البراقة .

وراح يحيى ينظر إليها ، خافق القلب ، واسع العينين حار الدم يستشعر

نشوة، وندت منه صيحة :

ـ رائعة !

ومست أذنيها ، فهدهدت غرورها ، فنظرت إليه فى دلال ومنحته بسمة ، وظل يديم إليها البصر ، فاغر الفم ، معجبا لا بالراقصة الفاتنة ، بل باللحم الأبيض .

وهبطت على سلالم المسرح قفزا ، فترجرج ثدياها ، يتصافحان فى سلام ، ويتنافران فى دلال ، فأفعم بمشاعر فوارة لذيذة ، وتقدم منها يتملقها ، قال :

ـ إنك أروع من رأيت فى حياتى وكان صادقا ، فما رأى فى حياته إلا عماته عزيزة وزهيرة وثريا وزينب وحميدة وبناتهن ، الرجال المتنكرات فى ثياب الحريم !

فقالت له وعيناها تأتلقان ببريق :

ـ أعجبتك الرقصة ؟

فقال فى ثبات :

ـ اعجبتنى الراقصة .

وأدامت النظر إلى وجهه الأبيض برهة ، وقالت تداعبه وهى تتثنى :

ـ ياولد !

وشجعته دعابتها ، فنظر إلى خصرها الدقيق ، وصنع بسبابته وإبهاميه دائرة بالغ فى تضييقها وقال :

ـ ما هذا ! والله إنى أشفق على هذا الخصر ، كيف يقوى على حمل ما فوقه، ورفع ما تحته ؟!

وانبعثت منها ضحكة مسرورة ، وهرع إليهما صديقاه ، ليشتركا فى النجوى، قال أحدهما :

ـ يحيى من أسرة غنية ، من أغنى الأسر فى الإسكندرية .

وقال الآخر مؤمنا :

ـ وزوج خالته بهاء باشا .

وانتفخت أوداج يحيى ، واستمر يرنو إليها تداعبة أفكاره ، وفطنت بغريزتها إلى نظراته الحارة ، فقالت له و هى تبتسم :

ـ مالك تنظر إلى هكذا !

فقال لها دون أن يضطرب :

ـ أفكر في التهامك .

فقال أحد زملائه مداعبا :

ـ أتحب أكل الحلو ؟

فقال يحيى فى بساطة :

ـ أحب اللحم ، وأكل اللحم و ..

ورنت ضحكتها عالية وقالت :

ـ كفى ... كفى !

ولكنه استمر فى حديثه :

ـ ولا أشبع منه أبدا .

وهرول زميله مبتعدا فى تهريج ، وقد بالغ فى إظهار رعبة ، فقال له الآخر :

ـ إلى أين ؟

ـ أخاف أن يأكلنى .

فقال يحيى فى هدوء :

ـ اطمئن ، لا أكل اللحم الخشن .

ـ ٩١ ـ

جلال يتلفت فى ذعر ، وبان فى وجهه القلق والاضطراب ، فقد دنا ميعاد ذهابه إلى الجامعة ، وهو يرتجف فرقا كلما هم بالذهاب إليها ، وأخذ سعيد يختلس إليه النظر فيلحظ اضطرابه ، فينتفض ، ولكنه لا يحاول أن يحدثه عن ذلك الخوف الذى يستبد به ، كان يخشى أن تتجسم فى ذهنه الأوهام التى كانت تتراءى له . وخرج جلال واهنا ضعيفا ، يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعا ، كان يتقدم إلى حيث

لا يحب ، ولولا خشيته من أن يفكر أخوه فى أنه يفر من دروسه ، لما خرج إلى الجامعة ، ولا ندس فى فراشة يريح أعصابه المكدودة .

ولاحت لعينيه القبة الجامعية شامخة عالية ، فأحس قلبه ينتفض ، واتسعت عيناه ، ولفه سهوم ، وتقدم خائفا يترقب يحس إحساس الضارب فى الظلام ، وهو يخشى أن ينتفض عليه شبح من الأشباح .

دلف إلى المدرج الكبير ، وجلس غارقا فى الصمت ، ودخل الطالب المصاب بالصرع ، فجعل يرقبه فى قلق ، وراح يجاهد أن يدير عينيه عنه ، ويشيح عنه بوجهه ، ولكنه أخفق ، كانت عيناه تنجذبان برغمه إليه ، فيديم إليه النظر .

وخيل إليه أن هاتفا يوسوس له أن يقوم ويصرخ ، لينفس عن ذلك الكرب الذى يمور فى جوفه ، وراح ذلك الهاتف يغريه أن يسقط على الأرض ، وأن يغيب عن الوجود ، ليستريح من نفسه ففزع ، وراح يستجمع مقاومته ، ليقف فى وجه ذلك الإغراء الذى يكاد أن يستسلم له ضعفه .

واستمرت المعركة بين المقاومة والاستسلام ناشبة فى أعماقه وخانته عيناه أكثر من مرة ، ثبتها على الطالب الذى كانت نظرة إليه تزلزل كيانه ، فتخلخلت ضوابط نفسه ، وهم أكثر من مرة أن يهب صارخا ، وأن يسقط على الأرض مغشيا عليه ، ولكنه تشبث بمقعده ، وإن أحس أنه يدور فى دوامة ، تكاد تقتلعه ، وتلقيه إلى حيث لا يدرى .

وهتف به هاتف يحرضه على مغادرة المدرج ، فقد ضاق نفسه ، ولو أصر على البقاء به ، فسيفلت منه زمام أمره ، فهو يلمح ضبابا يتكاثف حوله ، وأغشية تسدل أمام عينيه ، وفراغا فى رأسه ، فنهض واهنا ، وانفلت يجر رجليه هاربا من المدرج قبل أن ينهار .

انساب فى الطريق وقد خلف الجامعة وراءه ، الأشجار تزهو بخضرتها ، والهواء يهب بليلا ينعش الأفئدة ، والحدائق النضرة تغرى الشباب بالهيام فى عوالم الخيال ، كان الربيع فى زينته ولكنه انطلق منطويا على نفسه ، لا يكاد يحس وجوده .

وبلغ الدار ذاويا ذابلا ، غاضت نضارته ، وجف عوده ، واتسعت عيناه ، وكثر

تلفته الحائر القلق ، وتمدد فى سريره ، وشخص ببصره إلى السماء ، ولكنه لم يسبح فى بحار الأفكار ، بقى ساهما لا ينفعل ، كأنما نسى التفكير ، أو أهيض جناح خياله ، فما عاد قادرا على التحليق فى دنيا الأوهام الرحيبة ، ذلك التحليق الذى ينفس عنه كربه ، وينقله من واقعة الذى يضعضع روحه ، إلى عالم بهيج من الرؤى والتخيلات .

وأقبل سعيد ، يغدو ويروح فى حيوية ، وأعد الطعام ، فلم يهرع جلال إليه ، بل ظل ساهما فى تمدده لا يتحرك ، فدنا سعيد منه وقال له :

ـ ماذا بك ؟

فقال جلال فى فزع :

ـ أحس أننى شخص آخر ، قد تبدلت حتى أصبحت أنكر نفسى ، صار صوتى يفزعنى ، وإننى اضطرب كلما رن فى أذنى ، يخيل إلى أنه صوت آخر ، وبت أخاف الناس كلهم ، أجفل إذا دنا منى أحد ، ولا أجرؤ على بدء أحد بكلام أو سلام أو تحية .

وقال له سعيد :

ـ دع أوهامك وقم ، ألا تملأ رائحة الطعام أنفك ؟!

فقال جلال فى وهن :

ـ حتى الطعام عافته نفسى .

وفطن سعيد إلى شحوبه ، وهزته نظراته القلقة ، فانقبض وقال :

ـ لا بقاء لك هنا .

فقال جلال فى صوت خافت :

ـ وأين أذهب ؟

ـ تعود إلى الأسكدرية .

ـ وكيف أعود ولم يبق على امتحان آخر السنة إلا شهر واحد ؟

ـ أنت مريض وتحتاج إلى راحة وعناية .

فقال جلال فى ضعف :

ـ سأبقى حتى تنتهى السنة . لا أقبل أن تضيع جهودى هباء .

فقال سعيد فى صراحة :

ـ أيهما أفضل أن تضيع جهودك ، أو تضيع أنت ؟

فقال جلال وقد اتسعت عيناه ، وزاغت نظراته :

ـ سأبقى ، ولن أضيع سنة .

فقال سعيد فى إصرار :

ـ بل ستعود اليوم . الآن .

وذهب يعد له حقيبته ، ثم تناول ورقة وراح يكتب ، فقال له جلال :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ أكتب رسالة إلى أمى أنك مريض ، وأنك عائد .

وصمت جلال ولم يعترض ، وظلت نظراته حائرة قلقة ، وإن استشعر بعض الراحة فى أعماقه .

ـ ٩٢ ـ

وقف يحيى وصديقاه يتهامسون فى فناء المدرسة ، وعيونهم تأتلق ببريق النشوة ، وأخرج كل منهم من جيبه بضعة قروش وضعها فى يد يحيى ، فراح يعدها ثم غمغم :

ـ لا بأس .

والتفت إلى أحد صديقيه وقال له :

ـ أحضر مفتاح « الكابينة »» والحق بنا فى « الكازينو » .

وراح الأصدقاء الثلاثة ينسلون من المدرسة هاربين ، هذا يقفز من السور فى غفلة من المشرفين ، ثم يثب إلى الطريق ، وذاك يفر من بين القضبان الحديدية ، التى تحيط بملعب الكرة ، ويحيى ينفلت من الباب وهو يغمز البواب بعينه ، فقد كان يدفع له قروشا قليلة تفتح له باب المدرسة فى كل حين .

وانطلقوا مسرعين ، يحيى وأحد صديقيه إلى « الكازينو » وثالثهم يجد فى

السير ليستعير من أحد أقاربه مفتاح « الكابينة » ، لينفذوا ما دبروه .

وهب نسيم البحر نديا ، فخفف من حرارة الشمس التى كانت فى صعود ، فراح يحيى يملأ رئتيه بالهواء وهو نشوان ، ودنا من « الكابينة » فخفق قلبه سرورا ، ولمح الرجل الجالس عند الباب فحياه ، ثم دخل ثابت الخطو ، كان يعرف طريقه ، فما أكثر ما جاء فى الأصابيح والأماسى .

ومس أذنيه صوت موسيقى هامسة ، وتصفيق يدين تصفيقا متساوقا مع النغم ، وصوت رجل يرن : « واحد .. اثنان .. هب .. واحد .. اثنان .. هب » ففطن إلى أن الراقصات يتدربن على رقصة جديدة ، فأسرع ينظر .

أجساد عارية بيضاء وسمراء فى حركة دائبة ، سيقان ترتفع وأذرع تتموج ، شعور تنوس كلما اهتزت الرءوس ، فراح يحيى يرنو إلى الراقصات وهو نشوان ، لم تهزه الرقصة الفنية ، ولكن أثارته الأجساد العارية ، والنهود البارزة ، والأرادف المترجرجة ، كان يؤمن بالجسد إيمان رجل الغاب .

وأحس يدين ناعمتين تخفيان عينيه ، وصدرا ممتلئا يلتصق بظهره ، فدق قلبه فى رعونة ، ثم قال :

ـ ليت هذه اللحظة تدوم إلى الأبد .

ورنت ضحكة طليقة مرحة ، فعرف صاحبتها قبل أن ينظر ، فقال :

ـ فتحية !!

ثم أقبل عليها يرحب بها ، وظلا يتناجيان ، وكان ينظر إلى الباب بين اللحظة واللحظة ، وفطنت فتحية إلى ذلك ، فقالت له :

ـ ماذا تنتظر ؟

فقال وهو يبتسم :

ـ مفتاح السعادة .

ولمح صديقه مقبلا ، يتفصد منه العرق ، فنظر إليه متسائلا ، فأخرج الصديق من جيبه مفتاح « الكابينة » وهزه فى الهواء مسرورا ، ثم دسه فى جيبه ثانية ، فانفرجت أسارير يحيى ، وراح ينظر إليها مبتسما .

وجاء زميلاه ، واشتركا فى النجوى ، قال يحيى :

ـ ما رأيك يا فتحية فى أكلة سمك معنا اليوم ، أصنعها بيدى ؟

فقالت فتحية فى بساطة :

ـ أين ؟

ـ فى سيدى بشر .

وقال قائل فى زهو :

ـ فى « كابينتنا » .

فقالت فتحية وهى تبتسم :

ـ لا بأس ، وأرجو ألا أموت من الجوع بين أيديكم .

فقال ذلك الذى أتى بالمفتاح .

ـ نشترى لحما إذا كنت لا تحبين السمك .

فقال يحيى وهو ينظر إلى صدرها العارى :

ـ كيف نحضر لحما ، ومعنا أشهى لحم وألذه .

ودفعته فى صدره فى رفق وابتسمت .

وخرجوا معا ، وذهبوا إلى الترام ، وانطلقوا إلى سيدى بشر ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، تلفهم النشوة ، وكانت فتحية تستشعر سعادة حقا ، كانت تترك نفسها على سجيتها ، لا تتصنع ولا تتكلف ، تفعل ما تشتهى ، وتنطق ما يدور بخلدها دون أن تتحرز ، كانت واثقة من سيطرتها عليهم ، فكانت تتدفق خفيفة فى أحاديثها ، تملؤها الغبطة .

وانسابوا على الشاطىء ، يهرولون وترن ضحكاتهم المرحة ، وبلغوا «الكابينة» ، فدخلت فتحية وحدها ، تبدل ثيابها ، ووقفوا على بابها يرقبون خروجها ، وانفرج الباب ، فإذا بها فى ثياب البحر ، قد كشفت عن ساقيها المخروطتين الرائعتين ، وجسمها البديع ، وصدرها الشامخ فى غرور ، وما أن رآها يحيى حتى اتسعت عيناه وشعتا بريقا ، وقال :

ـ اللهم احفظنا من العيون ، إننا والله اليوم لمحسودون !

وأشرق وجهها بابتسامة ، وزاد فهما انفراجا لما لمحت يحيى يغمز لها بعينه وهو فى طريقه إلى « الكابينة » يبدل ثيابه .

ومر الوقت لطيفا ، وأحست فتحية نحوهم ألفة ، ومالت إليهم ، فألفت من الوفاء لإحساساتها أن لا تكبت شعورها ، فأقبلت عليهم تداعبهم ، وتمنحهم من عطفها ، أكثر مما تمنحه لعشاقها الذين يفدون إليها كل ليلة ، ينثرون أموالهم لتجود عليهم بنظرة رضا ، أو بسمة تبعث فى صدورهم الأمل .

وجىء بالطعام فتحلقوا حوله ، وراحوا يأكلون فى شهوة ، والتفتت فتحية إلى يحيى ، وقالت له تعاتبه :

ـ الذنب ذنبك إذا زاد وزنى ٣٠ كيلو .

فقال لها وهو يلتهم سمكة :

ـ ليته يزيد .

فقالت له فى فزع :

ـ أتتمنى خراب بيتى ؟!!

فقال لها صادقا :

ـ لو زاد وزنك لعمر بيتك ، وفتح بابه على مصراعيه ، فالرجال يحبون اللحم المكتنز ، وإن أظهروا ميلهم إلى المشوقات !

ـ لو زاد وزنى لقضى على كراقصة .

فقال يحيى فى خبث :

ـ ولبدأت حياتك كامرأة .

فقالت له وهى تدفعه فى حنان :

ـ اسكت ما أدراك بهذا ؟

فقال أحد زملائه :

ـ الليالى الطويلة التى يقضيها مع ابن عمته سليمان .

فقالت له فتحية فى اهتمام :

ـ لم تحدثنى عن ابن عمتك هذا ؟

فقال يحيى وهو يبتسم :

ـ وماذا أقول لك عنه ، إنه تزوج ولا حديث له فى الحياة إلا عما يفعله الزوج والزوجة ، أتحبين أن أروى لك أحاديثه ؟

فقالت له فتحية ، وهى تضحك :

ـ قص على ما يروى لك .

ـ أحذرك ، إنه كلام فارغ .

فقالت وهى تطوح رأسها ، لتصلح شعرها الأسود المسترسل :

ـ ما أشهى الكلام الفارغ إلى نفسى .

وراح يحيى يقص عليها قصص سليمان ، وهى تصغى إليه منتشية ، وتميل عليه وهى تضحك ، وتضمه إلى صدرها أو تداعبه .

وتمددوا فى « الكابينة » فلما جاء العصر انطلقوا إلى البحر يعبثون ، كان يحيى يجيد السباحة ، فجذبها من يدها ، وانطلق بها إلى عرض البحر ، وهى تتوسل إليه ضاحكة أن يعيدها إلى الشاطىء .

وراح قرص الشمس يغوص فى اللجة ، وقد اصطبغ الأفق بلون الأرجوان ، فخرج الناس من الماء ، وخرجت فتحية يتبعها يحيى وزميلاه ، ودخلت « الكابينة » ودخل يحيى خلفها ، وأغلق الباب وزميلاه يذرعان الشارع جيئة وذهابا ، فى ترقب وقلق .

ـ ٩٣ ـ

جلال قابع فى ركن الغرفة صامت ساهم . وصفية ترنو وقلبها ينصهر ، إنه ذوى وذبل ، وغاضت نضارته ، وانطوى على نفسه ، ولكنها لم تفاتحه فى أمر ضعفه ، أحست بغريزتها أنها تحرك شجونه ، وتزيد علته إذا حدثته عن مرضه ، فكبحت جماح نفسها ، وطفقت ترعاه من بعيد ، وقلبها يكاد ينفطر .

لماذا يعاف الطعام ؟ وما الذى دهاه حتى صار شارد اللب قلقا ؟ ولماذا يجفل من الناس ، ويخشى مواجهتهم ، إنها لا تدرى ، فراحت توفر له الرعاية ، والحنان ، ودنت منه تحادثه لتخرجه من قوقعة نفسه ، قالت :

ـ الجو لطيف اليوم ، وما أحلى المشى على الشاطىء ، اذهب يا جلال وروح عن نفسك .

فنظر إليها فى قلق ، ولم ينطق حرفا ، فراحت تمرر يدها على شعره فى حنان وقالت :

ـ ألا تذهب إلى زكريا فى مكتبه ، وتمكث هناك حتى تعود معه فى المساء. إنك فى حاجة إلى الحركة ، وإلى تبديل الجو حتى لا تسأم .

فقال فى صوت ضعيف فيه رنة خوف وإنكار :

ـ أخرج والليل قد أقبل ؟!

فقالت له وقد انقبض صدرها :

ـ يخرج معك يحيى .

فقال ليرضيها :

ـ لا . سأخرج غدا فى البكرة .

وتصرم النهار ، وانقضى الليل ، وبعث الصباح رسله إلى الكون ، فاستيقظ جلال ، وتذكر وعده لأمه ، فاضطرب ، ولكنه قاوم قلقه ، ونهض يرتدى ثيابه واهنا متراخيا ، ولم ينس حتى فى لحظة ضعفه ، أن يديم النظر إلى نفسه فى المرآة ، ليطمئن إلى أناقته ، فما كان يحب أن يبدو فى هيئة لا يرضى عنها الناس .

وهبط إلى الطريق ، وانطلق على غير قصد معين ، واهنا ذابلا ، وإذا بقدميه تقودانه إلى محطة « الأوتوبيس » ، وإذا بصورة فتاة تزحف إلى ذهنه وهى مغلفة بضباب ، وإذا بذلك الضباب ينجاب ، فتبدو الصورة واضحة جلية لعينى خياله ، إنها عفاف !! ودق قلبه فى شدة ، ودثرته رهبة ، وخطر له أن يفر مذعورا ، كأنما يقتفى أثره شيطان ، ولكنه راح يقاوم رغبة الفرار ، وتشبث بموقفه ، ويصارع مشاعر الخذلان المتدفقة فى جوفه ، فبان القلق فى وجهه ، وكثر تلفته وزاغت

عيناه.

ووقفت أمامه سيارة ضخمة ، فعلا ضجيج قلبه ، حتى كاد يغطى فى أذنيه ضجيج السيارة ، ومد بصره إلى داخلها ، ولم يجرؤ على الصعود ، ليبحث عن عفاف بين الركاب ، وظل ينظر فى قلق واضطراب حتي تحركت السيارة ، وابتعدت عنه .

ومرت سيارات وهو واقف ، ليس له إلا أن ينظر ، وأن يقلق ، وأن يضطرب ، ودنت سيارة ، ووقفت أمامه برهة ، وما نظر فيها حتى راح قلبه يقفز فى جنون ، فارتد إلى الخلف خطوات ، كانت عفاف جالسة ، بجسمها الممتلىء ، وقد نظرت إلى الباب ، فلم يجد فى نفسه الجرأة أن يصعد إليها ، وأن يحييها كما كان يفعل ، بل استبدت به رغبة الفرار ، وصار يخشى أن تلمحه ، فابتعد حتى لا تراه .

واستمر قلبه يخفق فى شدة ، وانتابته رهبة ، كأنما سينقض عليه طير من السماء يقتلعه من الأرض ، وراحت نظراته القلقة تتجول هنا وهناك ولا يرى شيئا ، حتى السيارة بدت لعينيه كأنما غلفت بضباب .

وابتعدت عنه عفاف ، فراح يتبعها بنظره ، ولم يهدأ قلبه كان دائب الخفقان ، ولم يحقد على نفسه لأنه لم يذهب إليها يحادثها ، بل استشعر فى أعماقه راحة ، وبدأت تنتظم أنفاسه .

أقلع عنه خوفه الطارىء ، واضطرابه الذى نشأ عن رؤية الناس ، ويخشى أن يديم إليهم النظر ، انطلق منطويا على نفسه ساهما ، يجد فى السير ، يبغى الأوبة إلى الدار ، لينزوى فى ركن منها ، يلوذ فيه بالصمت ، ويرخى لشروده العنان .

ـ ٩٤ ـ

أقيمت الزينات فى كل مكان ، ودوت الطبول ، وزغردت المزامير ، وصدحت الموسيقا وأذيعت أناشيد الفرح من المذيع ، حتى قهوة الصعايدة فى الحارة اشتركت فى البهجة ، فقام الرجال يطوحون عصيهم ، ويرقصون على أنغام موسيقا القرب و«النقرزان » فقد أوحى الزعماء إلى الشعب أن افرحوا ، فقد وقعت معاهدة صداقة وتحالف بين مصر وبريطانيا ، فاستجاب الشعب لوحى زعمائه، فانطلق نشوان !

ووقف النجرو أشعث أغبر ، يرتدى قميصا من الخيش ، ويلف حول عنقه سبحته الضخمة ، ويعبث فى لحيته المسترسلة ، التى كاد البياض فيها يغلب السواد ، وقد التف حوله بعض الشباب ، يصغون إلى قصته التى كان يرويها ، وقد اتسعت عيناه ، قال :

ـ لا تصدقوا الإنجليز فهم أهل غش ونكران ، لا يعرفون الوفاء ، تنكرت لى فجأة ، وأعرضت عنى ونسيت لحظات الصفاء . أرادت أن تذلنى ولكنى كنت رجلا، لم أمكنها من اذلالى ، تغاضيت عنها ، فبعثت إلى رسلها تسترضينى ، فرددتهم خائبين ، إنك لا تنال احترام الإنجليز إلا إذا نلت من كبريائهم ، ومرغت أنوفهم فى التراب ، احتقرتها فاشتهتنى ، تمنعت عليها فأقبلت تستعطفنى .

ومد يده فى صدره ، وأخرج قصاصات من الصحف الصفراء ، وراح ينشرها ويقول :

ـ اقرءوا رسائلها .. اقرءوا كيف تتوسل إلى ، لعل قلبى يلين لها ، ولكن هذا أمل خائب ، أغلقت دونها قلبى ، وألقيت فى البحر مفتاحه .

وانسل الشباب من حوله ، وهو يروى قصة وهمه ، ثم نظر إلى السماء وصاح :

ـ نظرة ياجورج .. يا جورج نظرة .

وفتح باب البيت ، وخرج منه حسان عابس الوجه ، فزغاريد المزامير تحرك أشجانه ، كان لها فى نفسه وقع النحيب والصوات ، فكان يبتعد عنها وهو يتفزع ، ولكنها كانت تتابعه فى كل مكان ، فى الحارة ، وفى الشارع ، وفى الميادين ، وزاد فى حزنه الأعلام المرفوعة فوق الدور والمحال وفى الشرفات ، إنها تنكأ جرح نفسه الذى لم تتبلد حواسه ، حاول أن يغرق فى السكر ، ليقضى على ضميره ، ولكن ضميره كان يهب فى لحظات صحوه ، يؤلمه ويضنيه ، ما بال هذه الزينات تبدو فى عينيه كالقذى ؟! وما بال قلبه يعتصر حزنا والناس فى بهجة وسرور ؟ إنه يستشعر رغبة جامحة تدفعه إلى أن يقف فى الميدان ويصيح : « بماذا تستبشرون أيها الغافلون ؟ أبقيود الرق والعبودية التى وضعت فى أعناقكم وأنتم راضون ؟ بماذا تحتفلون ؟ بتوقيع صك استذلالكم ، وبإقراركم أن العدو المغتصب أصبح الصديق الحميم ! هيا ثوروا وحطموا هذه الزينات ، التى ستدمغكم بالعار إلى الأبد ، ثوروا فلاخير فى شعب لا يثور » ولكنه كبح جماح رغبته ، وسار تدفعه الحرارة المتأججة فى صدره إلى توسيع خطاه .

ووقف على باب الحانة ونظر ، كانت غاصة بالشاربين المستبشرين ، فدلف منقبضا ، وجلس إلى مائدته المنزوية فى ركن بعيد ، وشرد بذهنه ، وإذا بصوت الحوذى الشيخ يمس أذنيه وهو يدندن بأغنيته التى لا تتبدل ، وإن تبدل كل شيء :

حمامة بيضا ومنين اجيبها

طارت يا نينا عند صاحبها

فاربد وجهه ونضح بضيقة ، ولو طاوع نفسه لخرج ثائرا هائما على وجهه ، ولكنه صمت وطلب ما يسكره ، ويبعده عن ذلك الوجود المقيت .

وراح يعب الكئوس ، فتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، وانطلق لسانه ، فراح يصيح :

ـ استبشروا أيها المخدعون ، فقد تحالف الذئب والحمل ، وتصادق القط والفأر، ونام الطفل مستسلما فى أحضان الغول .

ارقصوا أيها المختالون ، فقد ضمن الغاصب البقاء فى دياركم ، وأنتم راضون.

افرحوا أيها العابثون ، فقد أصبحتم حلفاء الإنجليز ، حلفاء الذين ما جاءوا إلى بلادكم إلا لاسترقاقكم وإذلالكم ، وامتصاص دمائكم ، وحمل خيراتكم إلى بلادهم، ليغتنوا وتفتقروا ، ليشبعوا وتجوعوا ، ليكتسوا وتهيموا على وجوهكم عراة محطمين .

كلكم مغفلون مخدوعون .. كلكم بائسون مساكين .. كلكم .. ووضع رأسه على ذراعيه اللتين وضعهما على النضد ، واستخرط فى البكاء والنحيب .

— ٩٥ —

خالد قد أقبل إلى البيت فى إجازته الصيفية ، أصبح يضيق بالحارة ، ويتمنى صادقا أن يخرجوا منها ما دام حلم الشارع الجديد لم يتحقق ، إنه يستشعر انقباضا كلما انساب بثيابه الرسمية بين البيوت المتداعية الهرمة ، وكلما ملأت خياشمه رائحة الماء الآسن الراكد عند الجدران ، والرائحة العطنة المنبعثة من الخربة ، ولكنه ما كان بقادر على تحقيق أمنيته ، فإذا كان زكريا قد نجح فى المحاماة ، وإذا كان هو قد أصبح ضابطا طيارا ، فما زال جلال وسعيد ويحيى فى المدارس ، وهم فى حاجة إلى نفقة قبل أن يخرجوا إلى معترك الحياة ، إنهم أولى بذلك المال الذى سيدفعونه إيجار لشقة نظيفة فى شارع كبير .

وجلس خالد وسعيد ويحيى يتحدثون ، وبقى جلال صامتا لا يشترك فى الحديث ، ولا ينطق حرفا ، إنه ساهم واجم ، زائغ البصر يحس قلقا لا يدرى سببه ، فيستشعر خوفا ورهبة .

قال سعيد فى حماسة :

ـ نجحت هذا العام ، وسأنجح العام القادم ، والعام الذى يليه ، وسأعمل حتى أصبح طبيبا قديرا شهيرا .

فقال له خالد :

ـ عليك أن تعمل ، وأن تترك المستقبل ، فالمستقبل بيد الله .

فقال سعيد فى حرارة :

ـ إيمانى بالله لا يحد ، ولكننى أقرر أن الإنسان يستطيع أن يصنع مستقبله بيده ، وسأصنع مستقبلى كما أشتهى .

فقال خالد معترضا :

ـ على المرء أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح .

فقال سعيد ساخرا :

ـ عدنا إلى الأمثال العتيقة ، بل على المرء أن يسعى ، وعليه إدراك النجاح، سأنجح ، وإنى أتحدى أيه قوة تقف فى سبيلى .

فقال يحيى حائرا :

ـ والله لا أدرى ، أيستطيع المرء أن يسعد نفسه بيده ؟!

فقال سعيد فى إيمان :

ـ أنى واثق من أنه يستطيع أن يسعد نفسه بنفسه ، وسأسعد نفسى .

ورنا يحيى إلى جلال ، وقال فى صوت خافت :

ـ ها هو ذا جلال لم يدخل الامتحان ، ومع ذلك لم تضع عليه السنة ، قرر قانون النحاس باشا جعل النظام الجديد للحقوق أربع سنوات ، وإن من يرسب فى السنة الأولى ينضم إلى النظام القديم الذى أصبح ثلاث سنوات ، فما فضل جلال فى هذا ؟ لم يدخل الامتحان ولم تضع عليه السنة .

فقال خالد فى ثقة :

ـ إننى أومن أن لكل إنسان طريقا مرسوما فى الحياة لا يحيد عنه .

فقال سعيد فى استخفاف :

ـ فلماذا نتعب أنفسنا إذن ، لماذا نكافح ؟ لماذا نجاهد ؟

فقال خالد :

ـ لتكون أهلا للسير فى ذلك الطريق .

فقال سعيد فى اندفاع :

ــ أعتقد أن فى النفس البشرية ينابيع السعادة ، وينابيع الشقاء ، وأن الإنسان يفجر هذه الينابيع بيده ، فإذا فجر عيون السعادة سعد ، وإذا فجر عيون الشقاء شقى ، وهذا هو جلال ، نزلت فى نفسه عيون القلق فلم يطمرها ، بل عاونها باستسلامه لوهمه على أن يتدفق اضطرابه غزيرا ، فيغمر حواسه ويستبد به ، ويقوده حيث يشاء .

فقال خالد فى ضيق :

ــ ليس لك يد فى مجيئك إلى الحياة ، وليس لك يد فيما ينتظرك فيها .

ولمح خالد دخول امرأة تتردد على أمه ، فقام مسرعا إليها ، وحياها ثم جلس معها يشرب القهوة ، ولما انتهى منها دفع إليها الفلجانة وقد كفأها على الطبق وقال :

ــ انظرى وأخبرينى ماذا تجدين فى الفلجانة ؟

فأخذت الفلجانة ، وراحت تقلبها أمام عينيها ، وهى تنظر فى إمعان ثم قالت:

ــ سقطت بالطيارة ، وتخشى نتائج ذلك السقوط ، ولكن لن يفعلوا لك شيئا يضرك ، سيقف إلى جوارك رجل ليس من دينك ، خواجه ، سيدافع عنك ولن يكتفى بتبرئتك ، بل سيطلب سفرك ..

فقال خالد فى لهفة :

ــ إلى أين ؟

ــ لا أعرف . ولكن أمامى بحرا واسعا ومركبا ضخما ، وأناسا لا يتكلمون بلساننا .

وراح الوقت يمر ، وخالد وسعيد ويحيى فى حوار ، حتى إذا ما توسطت الشمس كبد السماء ، استيقظ على من نومه ، وخرج إلى أولاده ، فالتفت إليه يحيى وقال :

ــ والله يا أبى لم ينصفك زمنك ، كان ينبغى أن تكون من الأمراء !

ـ ٩٦ ـ

النساء واجمات مبالغات فى الحزن ، فقد جلست عزيزة وزهيرة وثريا يحدثن صفية ويذكرن ما فى قلوبهن من أسى على مرض جلال ، كان الحديث يقطر رياء ، عزيزة تتحدث فى صوت خافت على غير عادتها ، وزهيرة لا هم لها إلا الحديث عن عيون الناس ، وشر حسدهم ، ولو فتشت صدرها فى صدق ، لألفيت سموم الغيرة والحسد تتراكم فيه طبقات ، وتتركه ظلمات ، وثريا تتحدث فى حرارة ، كانت تستشعر بعض الرثاء .

قالت زهيرة :

ــ بخريه ، العين فلقت الحجر .

فقالت صفية فى يأس :

ــ والله بخرته .

وقالت ثريا فى صدق .

ــ أعرضيه على طبيب .

فقالت عزيزة فى صوت مرتفع قليلا :

ــ بلا وكسه ، وماذا يفعل الطبيب ؟ إنها أرزاق ، جاء الطبيب يوم مرض إسماعيل ، وأخذ الجنية وانصرف وهو يقول : « ليس به شىء ، غدا يبرأ » . وما ابتعد عن البيت خطوات حتي مات إسماعيل ، اسمعى نصيحتى ، ولا تقعى فى يد طبيب ، دقى له « زارا » .

فقالت ثريا موافقة :

ــ ليس إلا الزار .

وبقى جلال صامتا ، كأنما ذلك الحديث الدائر لا يتعلق به ، لم يوافق ولم

يعترض ، بل استمر فى شروده القلق ، وأطرقت صفية تفكر ، إنها تميل إلى رأى عزيزة ، ولكن من أين لها تكاليف الزار ، ومن حمام ودجاج وخراف ، ومن يدرى ، فقد يشار عليها بذبح عجول .

ورأت أن تعرضه على طبيب ، ذهبت به إلى طبيب أعصاب ، فراح يفحص عنه ، ثم أشار بضرورة سفره إلى إكس ليبان !

إكس ليبان ؟! يا له من طبيب ! من أين لها نفقات سفره ؟ لو كان معها نفقات الزار ما قصدت إليه .

وهاجمتها خواطرها ، لو أبقت على أساورها الذهب ، التى أنفقت ثمنها على إخوتها حين كانوا فى ضيق ، لباعتها وأرسلت ابنها إلى حيث أشار الطبيب ، أو لأنفقتها فى إقامة الزار .

ورأت أن تذهب إلى طبيب آخر ، فوجومه يقلقها ، فأخذته وانطلقت ، وراح الطبيب يفحص عنه وهى ترقبه مضطربة ، ولما انتهى من فحصة قالت له :

ـ ماذا ترى ؟

فقال الطبيب وهو يبتسم :

ـ علاجه فى يده ، لا فى يد أحد غيره .

ونظرت إليه فى دهش ، ولم تفهم ماذا يقصد ، فلم يلتفت إليها ، وقال لجلال:

ـ إننى لا أطلب منك إلا أن ترضى أعصابك ... لا ترهقها ، ولا تحاول أن تكبت رغباتك ، إذا أحسست رغبة فى الخروج فى الليل ، فى أيه ساعة من ساعات الليل ، فلا تتردد فى الخروج وإذا أحسست رغبة فى الخروج فى النهار فى أيه ساعة من ساعات النهار ، فلا تعارض هذذه الرغبة . اخرج .

وإذا شعرت برغبة فى القراءة اقرأ ، وإذا شعرت برغبة فى اللعب العب ، ولا تفكر فى دروسك .

سر على هواك ، افعل ما يروقك ، لا تكبت رغباتك ، وأرض أعصابك ، هذا هو العلاج .

فقالت له الأم :

ـ ألا تكتب له دواء يشربه ؟

فقال لها الطبيب فى هدوء :

ـ دواؤه فى نفسه ، لا أريد منه إلا أن يرضى أعصابه .

وانصرفا ، الأم لا تفهم لماذا أخذ منها الجنية مادام لم يكتب لابنها دواء !! وجلال يصيخ إلى صوت الطبيب الذى يرن فى أذنيه : «سر على هواك ، افعل ما يروقك ، لا تكبت رغباتك ، وأرض أعصابك » ..

ـ ٩٧ ـ

سيارة متواضعة تقف أمام البيت الكبير ، إنها سيارة خالد ، وقد هبط منها ينظر إلى النوافذ ، ثم دلف إلى الدار مسرعا ، فحرارة الشباب تدفعه إلى توسيع خطاه ، وحرارة الحب تجعله يهرول فى الصعود ، كانت نفسه تتفتح كلما وقعت عيناه على درية ابنه خاله ، وكان يستشعر حنانا دافقا كلما حدثها ، فكان يذهب لزيارتها من آن لآن .

وقابلته امرأة خاله هشة بشة مرحبة ، فأقبل عليها يحادثها ، فهو يحبها ويرتاح إليها ، كان بسيطا لا تعقيد فيه ، إذا بش له أحد أحبه ، وإذا عبس فى وجهه أحد غضب وثار .

وجاء خاله حسين فى جلبابه الأبيض النظيف ، وشعره الأسود الذى سواه فوق جبينه الأسمر كنصف قوس . وصافحه ثم جلس ، فراح خالد يحادثه ، ويتودد إليه، وحسين شارد عنه ، وإن كان ينظر إليه ، كان يفكر فيما يتقاضاه ابن أخته من مرتب . ويضاهى بينه وبين ما يكسبه هو فى يومه ، فيجد أن ما يكسبه فى يومه قد يساوى مرتب شهر كامل ، فتنداح فى جوفه بسمة ازدراء ، وإن لم ترتسم على شفتيه .

ودخلت درية ، فى ثوب بسيط ، ولكنه ينطق بذوقها ، كان يتفق مع بشرتها

البيضاء ، وشعرها الأصفر ، وعينيها الزرقاوين ورنا إليها خالد رنوة سريعة ، خفق لها قلبه ، وأحس كأنما يهيم فى حلم ، خيل إليه أن قد شف ، وأن كل ما حوله رقيق جذاب ، يستهوى النفس ، ففتح قلبه ، وجرى حديثه عذبا حنونا ، وراح يسترق النظر إلى من يخفق بحبها فؤاده ، وهو نشوان .

وتمهل فى حديثه قليلا ، ثم قال :

ـ تقرر سفرى إلى إنجلترا فى بعثة ، وإننى أستعد للسفر .

والتفت إلى درية ليرى أثر حديثه فى عينيها ، فألفاها قد غضت بصرها ، فاهتز قلبه لإطراقها ، ورقص طربا ، كان إطراقها أفصح من بيانها ، ولو أنها ناجته أعذب مناجاة لما استشعر السعادة التى غمرته .

وقالت امرأة خاله فى رقة :

ـ صحبتك السلامة !

ولم ينس خاله طبعه ، فسأله :

ـ هل لهذه البعثة أثر فى مرتبك ؟

واتسعت عينا خالد ، كأنما لم يفهم ما يرمى إليه خاله ، فقال حسين موضحا :

ـ هل يزيد مرتبك بعد هذه البعثة ؟

فقال خالد وهو يبتسم :

ـ إذا رقيت إلى رتبة أخرى .

ـ وما فائدة هذه البعثة إذن ؟

ـ أتخصص فى فن من فنون الطيران ، أزيد معارفى وتجاربى .

فلوى خاله شفته زارية ، فالمهم عنده أن يزيد مقدار ما يدخل الجيب من نقود .

ومر الوقت وهو غارق فى النشوة ، فقربه من درية يرفعه إلى عوالم البهجة ، ثم قام وانصرف ، وصورة درية تملأ أقطار رأسه ، وفكر فى العودة إلى الدار ، ولكن ماذا يفعل هناك وحده ، وما انتصفت الساعة التاسعة ؟!

وخطر له أن يمر على حامد ، يتسامر معه حتى يوافى ميعاد نومه ، وما كان ينام قبل أن يدبر من الليل نصفه ، فانطلق بسيارته إلى الحارة ، وأمام باب صديقه

وقف ، ثم صعد ثابت الخطو ، فقد كان يعرف طريقه .

وراح حامد وخالد يتسامران ، وأقبلت سهام ، وقد ربت ونمت وبرزت فتنتها ، فلما رأت خالد أشرق وجهها ببسمة ترحيب ، وتألقت عيناها سرورا ، واشتركت فى السمر منتشية قال خالد :

ـ سأسافر إلى إنجلترا فى بعثة .

فخفق قلب سهام ، وتدفقت غيرتها فى صدرها ، ولم تستطع أن تكبت عواطفها ، فقالت :

ـ غدا تعود وفى يدك إنجليزية .

وضحكت ، ورنت ضحكتها جوفاء ، ففزعت لرنينها ، وزاد فى فزعها ذلك الاضطراب الذى تدفق موارا فى جوفها ، وتعلقت عيناها به ، ترقب شفتيه قال :

ـ اطمئنى ، لن أفعل ذلك أبدا ، إننى سأسافر وأدع قلبى هنا .

وتشعب الحديث ، وسهام سكرى بخمرة النشوة ، تستشعر خفة ، وترنو إليه فى تدله وهيام ، ولو أنه نظر إلى عينيها لقرأ فيهما النداء .

وخرج إلى الطريق ، وخياله لا يبرح رأسها ، وصدى صوته يرن عذبا فى أذنيها . « إننى أسافر وقلبى هنا ، إننى أسافر وقلبى هنا » . وهل بعد ذلك اعتراف ؟ إنه يحبها .. إنها قلبه ، وسيتركها هنا ، ليتها تستطيع أن تسافر معه ، ليته يحملها إلى حيث يشاء .

وسار خالد وقد تبخر من رأسه كل حديث المساء ، واحتلت ذهنه صورة درية ابنة خاله ، وقد أطرقت وأسبلت عينها حياء من أن تتلاقى عيناها بعينيه . كان فؤاده يخفق بحبها ، فكانت أيه حركة منها تملؤه نشوة ، وتجعله يهيم فى عالم عذب من الرؤى والتخيلات .

ـ ٩٨ ـ

جلال أمام المرآة يتأنق ، ويديم النظر إلى وجهه ، عادت إليه نضارته ، وذهبت تلك النظرات الحائرة القلقة ، خطر له أن يخرج ينتظر عفاف عند محطة السيارات ، فقام من فوره ينفذ ذلك الخاطر ، استجابة لنصائح طبيبه ، فما عاد يقاوم رغباته ، وأطلق لنفسه العنان تفعل ما تشاء .

ومر فى الردهة ، فألفى أمه قد أعدت الفطور ، له ولإخوته ، فرنا إلى الطعام برهة ، وإذا بهامس يهمس فى جوفه : « لماذا لا تأكل كل هذا الطعام ، تقدم » ولم يستجب لذلك الوسواس ، أحجم عن ذلك الإغراء ، وبدأ يستشعر قلقا ، وإذا بصدى صوت الطبيب يرن فى أذنيه : « لا تتردد ، أرض أعصابك » ، فجذب كرسيا ، وجلس يلتهم ما على المائدة وحده .

وجاءت أمه ونظرت ، فألفته قد أوشك على أن يلقى على ما أعدت من طعام للأسرة ، فقالت فى حنان :

ـ ماذا تفعل يا جلال ؟

فقال وهو يلوك فى فمه :

ـ أرضى أعصابى .

وابتسمت الأم ، ولم تنطق حرفا .

وخرج جلال ، وانطلق إلى محطة السيارات ، ووقف ينظر هادئا ثابتا ، لم يخفق قلبه ولم يضطرب ، بل كان يصعد كل سيارة مقبلة ، ويجيل عينيه فى الجالسين ، دون أن تختلج فيه خالجة ، ثم يهبط ثابتا ، كأنما ناطت به الشركة أن يفحص عن ركاب خطوطها .

وأقبلت سيارة ، ونظر فيها ، فرأى عفاف جالسة ، فهرع إليها ، واندس إلى

جنبها ، وقال :

ـ صباح الخير .

فقالت وهى تبتسم له :

ـ صباح الخير .

ـ بحثت عنك على شاطىء المكس أياما طويلة ، ولكننى لم أعثر عليك ، فرأيت أن آتى لأقابلك هنا .

فوسعت ابتسامتها ، وقالت :

ـ أمضيت إجازتى على شاطىء آخر .

فقال وهو يرنو إليها فى عتاب !

ـ ومع ناس آخرين .

فقالت وهى تضحك :

ـ الناس فى كل مكان .

فقال لها وهو ينظر إلى عينيها الطائشتين :

ـ وأنا ؟ ألست من الناس ؟!

ـ ها أنت ذا جالس إلى جوارى .

ـ هذا لا يرضينى . أريد أن نجلس وحدنا ، بعيدا عن العيون ، فى نجوى ، أريد أن نتحادث ، أن أودعك قبل أن أرحل ، فإننى عائد إلى القاهرة بعد يومين .

فقالت فى دلال :

ـ ألا يكفيك أن تودعنى هنا ؟

ـ ما جئت لتسخرى منى ، إننى ذاهب ولن أعود إليك أبدا ..

وتحرك لينهض ، فجذبته وهمست :

ـ أقابلك الليلة ، فى السابعة ، انتظرى عند أول شارع محرم بك .

ـ أتأتين ؟

ـ كن على ثقة من ذلك ، سآتى فى السابعة .

ـ لست على ثقة إلا من شىء واحد .

فقالت وقد وسعت عينيها :

ـ ما هو ؟

ـ محافظتك على كذبك .

ـ إننى إذا واعدت بنفسى لا أخلف وعدى .

ـ لا أفهم .

ـ إذا واعدت وأنا راضية ، فاننى أبر بوعدى .

ـ وهل انت راضية .

فقالت وهى تهز رأسها فى إغراء :

ـ طبعا .

ووصلت السيارة إلى المحطة التى تريدها ، فنزلت تتبختر ، وسارت ، وكل جسمها يترجرج ، حتى طرف ثوبها كان يهتز خلفها كرقاص الساعة ، واستمر جلال يرصدها من زجاج السيارة ، حتى اختفت من عينيه .

ووافت السابعة مساء ، وجلال ينتظر عند أول شارع محرم بك ، يتطلع فى اهتمام إلى المقبلات فى الطريق ، لعله يلمحها . كان قد عقد العزم أن يأخذها إلى بقعة هادئة يناجيها ، ويبثها غرامه ، ويترك رغباته تتم على هواها ، ليريح أعصابه !

ومرت ساعة ، ولم يلمح طيفها ، واعدته وأخلفت كعادتها ، فانقبض وزاد فى انقباضه سخريتها منه ، فانطلق مطرقا حزينا ، وخطر له أن ينساها ، وألا يفكر فيها ، ولكن كرامته صرخت فيه ألا يتركها قبل أن يطعن كبرياءها ، كما طعنت كبرياءه .

ـ ٩٩ ـ

كانت ليلة الوداع فى « الكازينو » فغصت القاعة بالمعجبين ، وانتشرت الموائد وقد جلس إليها شبان وشابات ، وانبعث الهمس فى الضوء الخافت ، الذى يضفى على المكان شاعرية تحرك المشاعر ، ودارت الكئوس ، وافرغت الجيوب فى لحظة من لحظات النشوة .

وجلس يحيى وأصدقاؤه يتلفتون ، يبحثون بعيونهم عن فتحية ، وقد جاءوا يودعونها قبل الرحيل ، وتأهبوا لهذه الليلة ، فادعى كل منهم أنه ذاهب ليستذكر عند صديقه حتى الصباح !

وجاءت فتاة ابتسمت لهم فى إغراء ، فبادلوها الابتسام ، ثم قال قائل منهم :

ـ تفضلى .

فأقبلت تتمايل ، ثم سحبت كرسيا وجلست ، ونظرت إليهم فى إغراء ، كأنما تقول لهم : « هأنذا ، ابدءوا الغزل » .

وجاء الساقى ووقف أمامهم ، ينتظر أوامرهم ، فقال يحيى فى هدوء :

ـ قهوة .

وقبل أن يتحرك ، قال يحيى مستدركا :

ـ واحد فقط .

وجاء بائع الفستق فى جلبابه الأبيض ، ووضع أمامهم طبقا كبيرا ، وهو يقول :

ـ نهارنا لبن .

فانقبضت صدورهم ، وانتابهم قلق ، لم يكن معهم ثمن الفستق ، ورنوا إليه فى غضب ، وقد سرى فى جوفهم صوت يهمس :

ـ ليلة أبيك حبر .

وراحت أفكارهم تعمل ، ليتخلصوا من ذلك المأزق دون حرج ، كان عليهم أن يعملوا سريعا قبل أن تمتد يدها إلى الفستق ، فنظر أحدهم إليها فى إنكار وقال :

ـ ماذا فى عينيك ؟ .

فقالت فى حيرة :

ـ ماذا ؟

ـ لا أدرى ، شىء غريب !

فقال لها يحيى ، لما رآها تخرج المرآة :

ـ الضوء هنا ضعيف ، اذهبى إلى حيث النور .

فقامت لترى ما انكروه فى عينها ، وما ابتعدت قليلا حتى صاح يحيى فى بائع الفستق :

ـ ارفع هذا الطبق من هنا .

ومد الرجل يده ليأخذه ، وإذا بصوت يرن فى أذنيه :

ـ لو عدت لمثل ما فعلته الليلة دققنا عنقك .

وانسل الرجل ، وغابت الفتاة برهة ، ثم عادت ، ولكنها راحت تبحث عن صيد آخر ، لا يطلب لها قهوة ، ولا يفزعه ثمن الفستق .

ورفع الستار ، وسلطت الأضواء على المسرح ، وسرت الموسيقى الراقصة تهتز لها الأعطاف ، وظهرت فتحية لا يخفى جسمها إلا غلالة شفافة تزيدها إغراء ، ودوت القاعة بالتصفيق ، وكان يحيى وصديقاه أكثر الناس حماسة ، فانفرج فمها عن أسنانها النضيدة ، وراحت تتثنى وتتمايل ، فتفعم القاعة بعبق الشهوة ، وهمس يحيى :

ـ ما ألذ الاستذكار الليلة .

فقال صديقه :

ـ أحب الهندسة .

وقال ثالثهما :

ـ فلنمضها ليلة بغير حساب .

وأسدل الستار ، ودوى الصفيق ، فانفرج الستار عنها وهى تنحنى ترد التحية ، وإذا بها تلمح يحيى يغمز لها ، فيفتر ثغرها عن بسمة عذبة .

وجاء رجل إليهم ، ووضع أمامهم موزا وشيكولاته ، وفطن الرجل إلى نظرات الدهش التى يرمونه بها ، فقال وهو يبتسم :

ـ من الست فتحية .

ودفع إليهم بقصاصة ورق ، فتناولها يحيى وفضها ، وراح يقرأ :

ـ انتظرونى لنمضى معا ليلة وداع .

ـ ١٠٠ ـ

انتقل جلال وسعيد إلى شقة أخرى بالمنيرة ، بعد أن كثرت شكايات أخوالهما منهما بلا سبب إلا أنهما نزلا فى دارهم المتهدمة تحت الربع ، فرأى الأخوال أن من التبذير أن يتركوا إيجار الغرفتين المتواضعتين اللتين نزل بهما ابنا أختهم ، فراحوا ينتقدون صعودهما وهبوطهما واستدعاء أصدقائهما إلى البيت ، حتى إن صفية فضلت أن تتحمل الضيق المالى ، على ذلك الضيق النفسى الذى يرهقها به إخوتها كلما عادا أحدهم من القاهرة .

وعكف سعيد على كتبه ، يعمل فى صدق ، فهو ذو عزيمة ماضية ، له هدف يرمى إليه ، فقد قر رأيه على أن يصبح طبيبا ، وكان يؤمن فى أعماقه أنه قادر على أن يصنع من نفسه ما يشاء ، فراح يجد ليبلغ أمله ، ويحقق أحلامه .

وراح جلال ينظر من النافذة ، ولا يحاول أن يتظاهر بالاستذكار ، كما كان يفعل ، حتى ينال إعجاب أخيه ، لم يعد يخجل من أن يظهر أمام سعيد بمظهر المقصر المتكاسل ، وجد فى وصية الطبيب منفذا ، فهجر رياءه ، وجعل يفعل ما تهفو إليه نفسه ! إرضاء لأعصابه ! وخطر لجلال أن يأكل ، فلم يفكر فى أن يراود نفسه على الانتظار حتى يأكل مع أخيه ، بل ترك النافذة ، وانطلق نحو المطبخ ،

وفيما هو يقطع الغرفة لمح الوسادة فى مكانها على السرير ، فمد يده وجذبها وكورها . ووضعها فى وسط السرير ، وهم بالسير فى طريقه ، ولمح سعيد ما فعله ، فقال له فى حنق :

ـ أعد الوسادة مكانها .

ـ لن أفعل .

فقال سعيد فى تهديد :

ـ أعد الوسادة مكانها ، خير لك .

فقال جلال فى هدوء :

ـ لن أفعل ، فوضعها هكذا يريح أعصابى .

وكظم سعيد غيظه ، واستأنف قراءته ، وانسل جلال إلى المطبخ ، يعبث فى الطعام ، ويأكل كل ماتهفو إليه نفسه ، دون أن يفكر فى أخيه ، أو يعمل له حسابا.

وعاد إلى حيث كان سعيد يستذكر دروسه ، فلما وقعت عيناه على السرير ، ذهب إليه ، واستلقى عليه مستعرضا ، فتدلى رأسه فى الهواء ، ورفع رجليه على الحائط ، وأخذ يدندن فى صوت خافت ، ضايق سعيدا ، وقطع عليه استغراقه ، فنظر إليه شزرا ، وفكر فى أن يقوم إليه يلطمه ليعيد إليه صوابه ، ولكنه أحجم خشية أن يعود إلى ذهوله وشروده .

ومرت لحظات ، وسعيد يتحلم ، يكبت غضبه الذى يود أن ينفجر ، ونهض جلال ، واتجه إلى النافذة ينظر إلى الطريق ، فتبخر ضيق سعيد ، ورد إلى طبعه ، وعاد إلى كتبه واستغراقه .

ورفع جلال عينيه ، وأجالهما فى النوافذ ، فإذا قبالته فتاة ، فى السابعة عشرة ، يترقرق ماء الحياة فى وجهها ، تتدفق الحيوية من عينيها ، فاستشعر نحوها انجذابا ، فظل يرنو إليها دون أن يحيد بوجهه عنها .

وتلاقت عيناه بعينيها ، فأسبلت جفنيها حياء ، فأحس أنامل رقيقة تعبث بأوتار قلبه ، فتتدفق فى جوفه مشاعر عذبة يرتاح إليها .

ولمحها تسترق النظر إليه ، فرفع رأسه مزهوا ، أرضاه أنه لفت نظرها ، فراح قلبه يرقص طربا ، وخطر له أن يحييها ، أن يبتسم لها ، ولكنه أعرض عن ذلك فإذا به يحس قلقا ينبثق فى أعماقه ، وإذا بصوت عميق يصيح به من أغوارضميره : «حيها وأرض أعصابك» . ولم يقو على عصيان ذلك الصوت ، فتقهقر خطوة ، ثم حنى لها رأسه فى حركة مسرحية ، كأنه فارس من فرسان العصور الوسطى يحيى معبودته ، وتطلع إليها يرصد حركاتها ، فإذا بوجهها الجميل تعلوه غضبة ، ومدت ذراعيها البديعتين ، وأغلقت الشباك فى وجهه فى شدة ، فابتسم وهز كتفيه استخفافا ، وراح يرقب الطريق هادئا مطمئنا ، فقد نفذ رغبته وحياها ، وأرضى أعصابه .

ـ ١٠١ ـ

جاء لبيب يسعى ليودع خالدا قبل سفره ، وجلس صامتا ينظر ، لايحس أنه كان لهذه الأسرة كأساس البيت ، يخفض فى الأرض ويوارى بالتراب ، لتشيد عليه مبان رائعة ، تجذب الأنظار ، وتهفو إليها قلوب الناس .

وأطرق على فى وجوم ، يلوح فى وجهه القلق ، فهو رقيق يحب أولاده ، ولا يستطيع أن يخفى عواطفه ، لقد بكى يوم ودع خالدا وهو فى طريقه أول مرة إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الحربية ، بكى كالأطفال ، حتى إن خالدا التمس منه ألا يذهب معه إلى المحطة بعدها أبدا .

كانت دموعه تترقرق فى مقلتيه كلما فكر أن ابنه سيغيب عنه سنة فى بلاد الغربة ، وغمر حنانه مشاعر الزهو التى ملأته لما علم أن ابنه اختير للسفر دون أقرانه ، فراح قلبه يرفرف خلف ضلوعه فى رقة ، كان يعزف لحنا سماويا من الحب الخالد الذى يسمو بالبشرية .

ودلف زكريا إلى الغرفة وجلس ، وراح يتحدث فى صوته الهادىء ، حديثا

هادئا رقيقا ، لم يكن منفعلا لفراق أخيه ، فكر ودبر ، فوجد أن سفره فى مصلحته سيكسبه خبرة ، ويفتح عينيه على آفاق جديدة ، فكبح جماح عواطفه ، وراح يتحدث حديثا عاديا ، كأنما ليس هناك سفر ولا فراق . وراح يحيى يصغى إلى الحديث الدائر بأذنيه ، بينما شرد فكره ، كان يشتهى فى أعماقه أن يكون هو الذاهب إلى إنجلترا ، لينعم بالأجسام البيضاء المشربة حمرة ، فالحياة فى رأيه جسد امرأة وضحكة .

ولاحت صفية هزيلة شاحبة ، قلقة أرقة ، كانت دائما تشمخ بأنفها فى كبرياء ، وتسيطر على عواطفها فى صرامة ، حتى لا تبدو ضعيفة أمام أبنائها ، إنها لم تذرف فى حياتها دمعة أمام أحدهم ، ولم يفضح وجهها أبدا خبيئة نفسها ، ولكنها تبدو اليوم مهمومة والهة .

وأخذت تغدو وتروح وعبراتها تغسل وجهها ، تستشعر انقباضا ، وتهجس فى صدرها هواجسها ، وتصيح بها أن تتشبث به ، ولا تدعه ينساب من بين يديها ، وطافت بها موجة من التشاؤم ، تصرخ بها مولولة أنها لن تراه بعد يومها هذا ، فانخلع قلبها ، وانطلقت إليه تضمه إلى صدرها ، ودموعها تجرى على خديها ، ونار الوجد تندلع فى جوفها ، فتلسع روحها ، فتئن نفسها أنينا ، تكاد كبدها تتصدع له ، وطغت عواطفها ، حتى كادت تنهار تحت وطأتها .

وحانت ساعة الوداع ، فبدا على المكان قلق ، وأفعم بالعواطف الفوارة الثائرة ، وارتمى خالد على صدر أمه ، ولم يقو على حبس دموعه ، فراحت صفية تجمجم فى حنان دافق :

ـ ابنى . حبيبى .

ولم يستطع على صبرا ، فشرق بدموعه وعلا نشيجه وسحب لبيب خالدا فى رفق وهو يبكى ، وإذا بزكريا لا يرى شيئا فقد حجبت عبراته بينه وبين الرؤية وكفكف دموعه ، فرأى أمه قد انهارت على مقعد قريب ، وانكفأت على وجهها تبكى أحر بكاء .

وهبط خالد فى الدرج مطرقا ، وقد امتدت إليه أكثر من يد تودعه ،

واختلطت فى أذنيه أصوات عماته ، وأولادهم وهو يودعونه .

ـ مع السلامة .. مع السلامة .

وانساب الركب القلق فى الحارة ، وإذا بسهام تطل من النافذة خافقة القلب ، دامعة العين ، مجروحة الفؤاد ، وانطلق الركب إلى الميناء ، فألفى خالد بعض أقاربه وأصدقائه قد جاءوا يودعونه ، فراح يعانقهم فى حرارة ، وعيناه جائلتان تبحثان عن وجه بعينه كان يشتهى أن يراه الساعة ، ولكنه لم يجده بين من خفوا لتوديعه ، فدق قلبه خلف ضلوعه حنانا .

وصعد إلى الباخرة يحف به أبوه وإخوته ، وأذن بالرحيل فراحوا يعانقونه خافقى القلوب ، ثم هبطوا فى سلم الباخرة ، ونشيج على يكاد يمزق أوتار قلب ابنه، الذى كان كوعاء تفجرت فيه مشاعره المتباينة ، فراحت تمور فيه ، تكاد تذهله حتى عن نفسه .

ونظر إلى الذين اخذوا يلوحون له بمناديلهم مودعين ، وقد بدأت الباخرة تبتعد عن الشاطىء رويدا رويدا ، وراح يبحث بعينه بينهم عن وجه بعينه ، فقد كان يرجو أن تقبل درية تودعه ، فصورتها تحتل الساعة أقطار رأسه ، ولم تخطر له سهام على بال !

ـ ١٠٢ ـ

قرب سيد وجهه من المرآة ، ونظر فى إمعان فانقبض ، وسرت فى جوفه رهبة، رأى بعض شعرات بيض تلمع خلال شعره الفاحم ففزع ، فالحياة بدأت تتسرب من قبضته ، دون أن ينهل منها نهلة عذبة ، لم يجن منها إلا الحرمان ، كد وتعب سنوات طوالا لا لشىء ، إلا ليمسك رمقه ، كان مايكسبه لا يكفى قوته ، فأعرض عن الزواج ، لأنه لم يجد ما يتزوج به ، لاالعيب فيه ، كما كان يدعى أخوه ، كلما أراد غيظه ، وما أكثر ما كان يشاكسه .

ووقف ينظر مشدوها ، وراح يفكر كيف يخرج على الناس بهذه الشعرات التى تفضحه ، إنه يفزع من الموت ، ولايحب أن يعترف بحقيقة سنه ، كان يدعى أنه فى السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين حتى أمام أهله ، وكان يحلو لأبيه أن يعابثه ، فكان يخرج شهادة ميلاده من صندوق عنده ، ويدفع بها إلى زكريا ، ويطلب منه أن يحسب عمره ، فإذا قال زكريا إنه قد تجاوز الأربعين ، كان ينظر إلى أبيه ويقول له فى غيظ : « أأسسترحت الآن .. يبيابن .. يبيابن .. » فيبتسم الجميع فى مرح ، بينا يتدفق من فيه السباب ، ويأكله غيظه .

لن يخرج إليهم بهذه الشعرات البيض ، حتى لا يركبوه بسخريتهم ، وأخذ يتلفت فى قلق ، وراح يبحث فى الغرفة حتى عثر على قطعة من الفل ، أحرقها وراح يصبغ بها شعره ، فبدا أحلك من ليلة اختفت نجومها ، ورنا إلى المرآة ، فاستشعر راحة ، كأنما خدع الزمن ، ومحا من عمره سنوات .

وخرج على أهله ، فألفى عزيزة وزهيرة وأمه جالسات يتحدثن فى صوت عال، لم يعد لهن فى الحياة إلا الحديث ، والخوض فى أعراض الناس ، فقال لهن :

ـ ممن يبيقرضنى خمسة قروش ؟

فقالت عزيزة فى حدة :

ـ يا وكسة ، لو وجدناك قرشا لأخذناك .

ـ خمسة قروش حتى الغد .

فقالت زهيرة وهى ترنو إليه فى ازدراء :

ـ حتى يوم الحساب .

وصاحت به أمه :

ـ اذهب من أمامى . اخرج يا خايب .

وخرج سيد حانقا يجمجم ، وانطلق فى الحارة ضيق النفس ، وزاده الظلام الجاثم على كل شىء انقباضا ، كان الليل قد دثر الكون بردائه الأسود ، وسار مهموما لا يدرى إلى أين يذهب ، فليس معه إلا ورقة « يانصيب » ليت صاحب المقهى يقبل أن يأخذها منه ثمن القهوة .

انطلق يضرب على غير هدى ، فاترا يائسا ، حتى الأحلام عزت عليه ، فقد هاضت قسوة الحياة جناح خياله ، لم يعد له هدف فى الحياة إلا أن يسكت صراخ بطنه ، وإلا أن يذهب إلى المقهى يجلس مع صحبه ، يسامرهم ويشاركهم فى ضحكهم فرارا من همومه .

وخطر له أن يكشف عن ورقة « اليانصيب » فذهب إلى دكان يعرفه ، وكل همه أن يقطع الوقت ، فقد ذهب إليه مرات يكشف عما معه من أوراق . ولم يبتسم له الحظ مرة ، أصبح شراء الورق عنده عادة ، وصار الكشف عليه من مقومات حياته ، فهو يعيش بالقرش الذى يدفعه ثمن الورقة ، لحظة فيها أمل وفيها رجاء ، لحظة تشعره أنه لا يزال على قيد الحياة ، يأمل ويرجو وينفعل ، ولكن سرعان ماتنداح كفقاعة الماء .

وأخرج من جيبه الورقة ، وتناول الكشف ينظر ، وإذا به يصبح دون وعى :

ـ كككككسبت ... كككسبت ..

وأريقت فى جوفه دنان النشوة ، وغمره السرور، حتى كاد يذهله عما حوله ، وخف إليه الرجل ينظر ، ثم صاح :

ـ مبارك .. مائتا جنيه .. مائتا جنيه !

ووقف سيد لحظة ، تترقرق فى عينيه الدموع ، وفكر فيما يفعله ، فاهتدى إلى أن يذهب إلى الأستاذ زكريا ، ابن خاله ، ليهديه السبيل ، فراح يعدو كطفل يحس أنه يطير ، ودخل على الأستاذ منفعلا ، وقال وهو يلوح بالورقة :

ـ كككسبت ممائتى جنيه .. كككسبت ممائتى جنيه .

فقال له الأستاذ :

ـ مبارك ! غدا أذهب معك لنقبضها .

فقال فى إنكار :

ـ غـ غـ غدا ؟! أأريد أأن أقبضها الآن .

ـ الآن ؟ فى الليل ياسيد ؟

وكأنما تكشفت أمامه حقيقة لم يكن يعرفها فابتسم ، وغمغم :

ـ غ غ غدا نننذهب معا .

ولم يطق البقاء ، فهو مفعم بالنشوة ، يحس رغبة أن يفضى بالنبأ إلى كل الناس ، فقد أصبح ذا مال ، فقام منفعلا ، وانصرف يجد فى السير ، وهوينكر نفسه ، كان يستشعر أنه خلق خلقا آخر ، ودلف إلى الحارة يهرول ، وانطلق إلى البيت يعدو ،وصعد فى الدرج يصيح :

ـ ككسبت .. ككسبت ممأتى جنيه.. مممأتى جنيه !

وقاموا إليه خفافا يستفسرون .

ـ ماذا تقول ؟

فقال وهو يلوح لهم بالورقة :

ـ ككسبت ... ككسبت ..

وجلس وقد التفوا حوله ، قال قائل :

ـ ماذا ستفعل بهذا المال ؟

وقبل أن ينطق ، قال أخوه سليمان ساخرا :

ـ لو كان رجلا لأشرت عليه بالزواج .

فانفجر سيد فيه :

ـ ييبيا بن الكلب .

وغطى أبوه فمه بيده ، يخفى ابتسامته ، فالسباب يتدفق فى يسر فى هذا البيت ، دون أن يترك أثرا فى النفوس ، وقالت عزيزة متملقة :

ـ كم جنيها ستعطينى يا سيد ؟ عشرة جنيهات ؟

فقال فى خفة :

ـ للو ككككنت ققرشا أخذتك .

واستمر الحديث دائرا حول سيد وجنيهاته التى كسبها ، حتى وافى ميعاد النوم فدخلوا جميعا إلى فراشهم ، واستسلموا للرقاد ، وبقى سيد وحده ساهرا ، لا يمشى النعاس إلى جفنيه ، كان مفعما بالنشوة ، يكاد عقله يذهب من الفرح ، لم يغلق يده يوما على أكثر من قروش ، فإذا به فجأة يجد نفسه مالكا لمائتين من

الجنيهات !

وفكر فيما يفعله بذلك المال ، فطالما تمنى أن يفعل أشياء وأشياء إذا رزقه الله مالا ، وها هو ذا المال يأتى إليه فرأى أن خير ما يفعله أن يحتفظ به ، كان الليلة محط أنظار الأسرة ، وسيصبح غدا موضع احترام النا س ، فإذا أنفقه ذهب عنه الاهتمام والاحترام ، وما كان ليرضى لنفسه ذلك بعد أن ذاق حلاوة أن يصبح ذا قيمة بين أهله وذويه !

ـ ١٠٣ ـ

يحيى فى الطريق يتلفت ، لا هم له إلا متابعة النساء بنظره ، هذه جميلة ، وهذه دقيقة الخصر ، ملفوفة الساقين ، ولو شمخ صدرها قليلا لكانت أروع ، وهذه سمراء ، مفلفلة الشعر ، وهو لايحب السمراوات الغارقات فى السمرة ، وهذه كما وصفها الأعرابى تقبل بأربع وتدبر بثمان ، وهو لا يدرى ماذا يقصد الرجل بالأربع ولابالثمانية ، وكل ما يدريه أنه يريد أن يقول إنها امرأة فخمة ، مكتنزة اللحم والشحم ، وهو يميل فى أعماقه إلى السمنة ، وإن انكر ذلك خشيته أن يقال عنه إنه فى ذوقه كالعمد .

ورفع رأسه ، فرأى فى شرفة لا ترتفع عن الأرض كثيرا ، فتاة مشرقة الوجه، قد عصبت رأسها بعصابة زاهية اللون ، تتدلى منها أهلة تضوى فى الشمس ، فتبهر النظر ، فغمز لها بعينه ، فتوجت شفتيها بسمة ، فوقف لحظة يرميها بنظراته ، وهو يفكر، لو كان بيته هنا لتوطدت بينه وبينها صداقة ، وأنه لعسير على عابر السبيل أن يصادق فتاة من أول نظرة ، ودار بعينيه فى المكان ، فألفى فى الناحية المقابلة لها مدرسة ابتدائية أهلية ، وكوميض البرق التمعت فى ذهنه فكرة ، لو أنه تمكن من أن يعمل فى هذه المدرسة، ولو فى كل يوم ساعة ، لكان من الميسور أن يربط بينه وبين هذه الفتاة ، وأعجبته الفكرة ، فخف إلى المدرسة يسأل عن غرفة

ناظرها .

دخل غرفة متواضعة ، انتشرت فيها مقاعد خشبية يعلوها الغبار ، وفى صدرها مكتب متحطم تكدست فوقه أضابير وأوراق ، وقبع خلف المكتب رجل أشيب ، على عينيه نظارة ، إطارها من فضة ، فرنا إليه رنوة سريعة فاحصة ، ثم ألقى عليه السلام ، وسحب كرسيا وجلس .

ورمقه الناظر الشيخ مستفسرا ، فقال يحيى ، وهويغمض البصر ويفرك يديه :

ـ أنا يحيى على يونس ، طالب فى السنة الخامسة الثانوية ، لا أدرى كيف أمضى ساعات فراغى ! إننى لا أحب الجلوس على المقاهى ، ولا أحب أن أتسكع فى الطرقات كما يفعل الشبان ، ففكرت فى أن أؤدى لبنى وطنى الصغار خدمة ، فكرت فى أن أقوم بالتدريس للتلاميذ ، أن أعاونهم على فهم دروسهم ، وأن أشارك فى خلق جيل جيد .

وأخذ الناظر يحدق فى إنكار ، فقال يحيى :

ـ إننى لا أبغى من وراء ذلك مالا ، فأنا ولله الحمد من أسرة غنية ، وزوج خالتى بهاء باشا ، كل ما أبغيه أن أكون نافعا ، أن أنفق ساعات فراغى فى مصلحة بنى وطنى ، أن أخدم أبناء جيلى ، إننى أميل إلى التدريس ، وأجد فيه لذة .

أطمأن الناظر لما وجده لا يلتمس مالا ، إنه مدرس من الهواء ، وتمنى فى أعماقه لو أن كل مدرسيه مثله ، فأقبل عليه يحادثه بنفس متفتحة ، قال فى حماسة :

ـ أكثر الله من أمثالك يابنى ، لو أن كل الجالسين بلا عمل على المقاهى فكروا أن يؤدوا إلى هذا الوطن خدمة لوجه الله ، كما فكرت ، لما كنا فى مثل حالنا هذا . ما أكثر الخدمات التى يمكن أن يسديها الشباب إلى هذا البلد فى ساعات فراغه

وصفق الناظر ، يطلب لضيفه الكريم قهوة ، ولكن يحيى اعتذر بأنه لايشربها ، فقدم إليه سيجارة ، فقال يحيى :

ـ متشكر ، لا أدخن .

فقال الناظر فى رضا :

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .

وقام يحيى ومد يده يصافح الناظر ، ويقول مؤكدا :

ـ سأحضر كل يوم فى الساعة الثانية بعد الظهر .

فقال الناظر فى ترحيب :

ـ المدرسة ترحب بك فى أية ساعة .

وانصرف يحيى مغتبطا ، تدوى فى جوفه قهقهات مرحة ، وسار حتى إذا بلغ باب المدرسة تمهل ، ووقف ينظر إلى الفتاة فى الشرفة ، فلما تلاقت العيون غمز لها بعينه ، ثم ابتسم ، فانفرجت شفتاها عن أسنانها البيضاء ، ولاح فى عينيها الرضا ، وظلت ترنو إليه بوجهها ، لاتتظاهر بالنفور ، فأشار إليها بيده ، وقد جمع أصابعه ، أى صبرا فموعدنا قريب ، ثم انطلق يتلفت حتى غابت عن عينيه ، ولم تغرب صورتها عن خياله .

ـ ١٠٤ ـ

راح سيد يقطع الطريق فى حذر ، فقد أصبح يخشى الناس ؟ ويرمق كل من يقترب منه فى ريبة ، فمن يدرى ، لعله لص سمع قصة ربحه ، فدنا منه يبغى سرقة نقوده ؟ ورفع يده إلى جيبه يتحسس الأوراق ، فلما ألفاها فى مكانها سرى فى جوفه اطمئنان ، ولكنه اطمئنان قلق ، سرعان ما يفر إذا رماه عابر سبيل بنظرة.

ورن فى أذنيه صدى صوت زكريا وهو يقول له : ضع هذا المال فى صندوق التوفير ، فصم أذنيه عن ذلك الصدى ، فهو يستشعر لذة كلما تحسس جيبه ، وتنزل السكينة قلبه كلما أحس أنه صاحب مال ، أصبح لا يطيق فراق ماله ، ولن يطمئن إذا بعد عنه ، فما الذى يضمن له أن بناء البريد لن يتقوض ، أو يشب فيه حريق ؟

وبلغ الدار ، فألفى حليمة جالسة أمام الباب تنظر إليه وفى عينيها بسمة ، حتى حليمة التى كانت تبدو لعينيه كقطعة جامدة من الحجارة مستها العصا السحرية فتبسمت له ، ارتفعت قيمته فى عينيها ، فسره ذلك ، فقد كان يحسب أن قيمته لم ترتفع إلا فى عين نفسه ، وخطر له أن يمنحها قروشا ، ولكن نفسه الشحيحة زجرته ، وصاحت به أنه سيعود إلى فقره وهوانه على الناس إذا استجاب لنزواته ، فأطفأ بصيص الرحمة الذى شع فى فؤاده ، وسار وإذا به يحس لأول مرة ثقل خطواته .

ودخل غرفته ، وهم بخلع مدرعته ، وبلغ مسامعه وقع أقدام ، ففزع ووضع يده على جيبه ، وتلفت مرعوبا ، فإذا به يرى أخاه سليمان يقترب منه ، وقد علت شفتيه بسمة ، انقبض لها ، وأحس كأنها إبرة تخز قلبه ، حزر ماجاء له قبل أن ينطق حرفا ، قال سليمان فى رقة :

ــ تعلم ياسيد أننى فى حاجة إلى نقود ، إننا فى آخر الشهر، وليس معى ما ننفقه أنا وزوجتى ، فأقرضنى جنيهين حتى أول الشهر .

فقال سيد معتذرا :

ــ ححظك سيىء .. وووضعت المبلغ ففى صصندوق التوفير .

وصمت سيد ، وإن همس صوت ساخر فى جوفه شامتا :

ــ « من قال لك تزوج مادمت لاتقدر عل تكاليف الزواج ، أتتمتع أنت وأدفع أنا ثمن متعتك ؟! »

وانسحب سليمان دون أن يسخر منه على غير عادته ، ودون أن يعيره عدم زواجه ، ويتهمه بأنه ما أحجم عن الزواج إلا لأنه ليس رجلا ، فقد جاء إليه معترفا ، دون أن يدرى ، أنه عاجز عن أن يحتمل أعباء الزواج ، جاء إليه يلتمس منه أن يقرضه ليعيش هو وزوجته .

وفكر فى أن يخلع ثيابه ، وإذا بخالته زهيرة أمامه ، تبتسم له فى رقة ، فغض بصره ، حتى لا يلوح الغضب فى عينيه ، ورن صوتها فى أذنيه ، فخيل إليه أنها تلطمه ، فكاد يصيح فى وجهها ، ولكنه كبح جماح ثورته ، قالت له :

ــ أنت تعرف مقدار معزتى لك ، فيا طالما دعوت الله فى الليل أن يفرج كربك ، وقد استجاب الله لدعائى .

وصمتت قليلا بعد أن أوحت إليه أن ماساقه الله إليه من رزق كان بسبب دعواتها ، وانتظرت أن يكافئها من نفسه عل ذلك ، ولكنه لج فى صمته ، فلم تر بدا من التصريح ، بعد أن تيقنت أن تلميحها لايجدى مع ذلك البغل ، فقالت :

ــ وإننى أستحق أجرا عل دعواتى المباركة .

فحنق ، فما جاءت تلتمس قرضا ، بل جاءت تطلب أجرا فقال فى انفعال :

ــ أأألأجر والصواب عند الله .

فقالت له فى حدة ، كأنما هضمها حقا من حقوقها :

ــ ربنا موجود ، ربنا يكافئك .

وغادرت الغرفة وهى تغمغم :

ــ حكمتك يا رب ، تعطى النعمة من لا يستحقها . وأغلق الباب خلفه ، وأحكم رتاجه ، وخلع ثيابه ، ولكنه لم يطمئن إلى ترك أمواله فى جيبه ، فذهب ودسها تحت وسادة سريره ، وصاح به صوت أنها ليست فى أمان ، فأخذها ودسها تحت الحشية ، ولكن لم يهدأ خوفه ، فراح يفكر ، فاهتدى إلى أن خير ما يفعله أن يخفيها فى جوف « الجاكت » فراح يفتق الخيط ويدس الورق بين القماش وبطانته ، ثم يعيد رتق مافتق ، واستراح إلى مافعل ، فهدأ قلقه ، وتناول قطعة الفل وحرقها ، وراح يسود بها شعره ، وقد أشرق وجهه بالرضا والأمل .

ـ ١٠٥ ـ

سعيد ممدد فى فراشه ، يئن فى صوت خافت ، يحس كربا ، فقد ارتفعت حرارته ، وضاق نفسه ، ومشى الوهن فى أوصاله ، كان يقاسى من الحمى التى سرت فى بدنه ، ويزيد فى كربه إعراض جلال عنه ، فما كان يجلس إليه يواسيه ، بل يتركه فى أنينه ، ويهرع إلى النافذة يتفرج .

وقف جلال فى النافذة ، فإذا بالنافذة المقابلة قد فتحت ، بعد أن أغلقت فى وجهه، وظلت مغلقة أياما ، وإذا بالفتاة واقفة ترنو إليه فى ثبات ، دون أن تشيح بوجهها عنه ، فألفى نفسه توسوس له أن يحييها ، فاستجاب إلى وسواس نفسه ، فحنى لها رأسه محييا ، فإذا بها ترد تحيته بانحناءة خفيفة ، وبسمة رقيقة توجت شفتيها .

استيقظ قلبه من غفوته فخفق ، وتدفقت فى جوفه مشاعر عذبة فانتشى ، وراح يديم إليها النظر ، فألفى فى عينيها سحرا غريبا يجذبه إليها ، خيل إليه أنهما تناديانه ، أنهما تهمسان بأنشودة خالدة رائعة ، تسكر روحه ، وترفعه إلى دنيا جميلة من الرؤى والأحلام .

وخطر له أن يداعبها ، فأشار لها بيده أن تهبط ، ليهيما معا فى الفضاء ، فلم تعبس ، ولم تغضب ، ولم توله كشحها ، ولم تغلق فى وجهه النافذة ، بل ابتسمت ، ورسمت بيديها شاربا ضخما فى الهواء ، فوق شفتها العليا ، ثم أشارت بإصبعها إلى الداخل ، ففهم أن أباها هناك .

وراحا يتبادلان النظر ، فيا لفصاحة عينيها ، كان حديثهما معبرا ، أفصح من حديث اللسان ، فتفتح قلبه لها ، وانسكبت فيه مشاعر رقيقة ، فربت كنوز نفسه ، واستشعر كأنما يهيم فى حلم دائم جميل ، ويسبح فى بهجة مصفاة .

وأرادت أن تداعبه ، فأشارت له بيدها أن تعال ، ولمعت فى عينيها ومضة إغراء ، لم يستطع مقاومتها ، فإذا بوسواسه يصيح به أن يذهب إليها ، وحاول أن يعرض عن ذلك الوسواس ، ولكنه لم يتركه بل جعل يستحثه : « اذهب إليها، وارض أعصابك » .

فغادر النافذة بعد أن أشار إليها أنه قادم ، فحسبته يسترسل فى دعابته ، ورأته يسير فى الطريق ، ويدلف إلى بيتها ، فاشتد وجيب قلبها ، وغاضت نضارتها ، وأحست كأنما الأرض تميد بها ، وهرعت واجفة مضطرب تستقبله فى السلم .

صعد ثابت الخطو ، وإن انداح فى جوفه قلق لذيذ وراح يرقى فى الدرج عدوا، فإذا به يجدها أمامه ، ترتجف كريشة فى مهب الرياح ، وتقول له همسا :

ـ اهبط ، اهبط قبل أن يرانا أحد .

وتلفتت فى فزع ، وقد اتسعت عيناها خوفا ، فقال لها فى هدوء ، وهو يجذبها من يدها :

ـ لنصعد إلى السطح نتناجى .

ـ ارجو منك أن تهبط .

فقال لها فى إغراء وهو يصعد :

ـ تعالى .

فقالت له وهى تبتعد فى رعب :

ـ اهبط .. اهبط .. أبى هنا .

فقال فى همس :

ـ ومتى نتقابل ؟

فقالت فى صوت هامس :

ـ أى وقت آخر .

فقال فى إصرار:

ـ لن أهبط قبل أن تقولى لى متى نتقابل .

ـ غدا .. اذهب .. اذهب . أرجو منك .

وهرولت صاعدة ، فصعد خلفها ، وقال لها :

ـ ما اسمك ؟

فقالت وهى خائفة تترقب :

ـ علية .

ودلفت إلى شقتها ، وأغلقت الباب خلفها فى خفة ، فراح يهبط فى الدرج نشوان ، ولو طاوع وسواسه لصاح فرحا ، إرضاء لأعصابه .

وعاد إلى الشقة يصفر ، فلما رآه سعيد ، التمس منه أن يصنع له شراب الليمون ، فقال له :

ـ إننى لا أجيد التمريض ، سأبعث إلى أمك لتأتى لتمريضك .

وجلس يكتب إلى أمه ، يلتمس منها الحضور ، لأن سعيدا سقط فريسة الحمى ، وأنه فى حاجة إلى رعايتها ، وأغلق الرسالة ، وخرج يلقيها فى صندوق البريد ، وهو يصفر فرحا .

ـ ١٠٦ ـ

التفت يحيى إلى الشرفة قبل أن يدلف إلى المدرسة فلم يجد الفتاة التى جعلته يتطوع للتدريس ، حتى يتمكن من مغازلتها ، فخطر له أن ينطلق فى سبيله ، ولكنه عاد وقرر أن يجرب حظه ، ثم يقرر بعد ما يفعله ، على ضوء ماتأتى به المقادير .

ودخل الفصل ، وذهب توة إلى النافذة يرصد الشرفة ، ثم يعود إلى الأولاد يحادثهم ، وهو يغدو ويروح ، وعيناه لا تفارقان الشرفة ، وكاد يتسرب إلى نفسه الملل ، ففكر فى أن يفر من الفصل ، ولكنه رأى أن يتحلم ، ويصبر على جلبة الأولاد ومضايقتهم ، فما هى إلا حصة واحدة ، ثم بعدها ينصرف .

ولمحها قد خرجت إلى الشرفة ، وقد تألق قرطها الذى كان على شكل هلال ، وراحت عيناها تدوران ، كأنما تبحثان عن صيد ، فسرت فى بدنه نشوة وهرع إلى النافذة ينظر إليها ، وتلاقت عيناها فى تجوالها بعينيه ، فولدت على الشفاه بسمات ، والتمعت العيون بالترحيب ، وامتلأت أذناه بضجيج الأولاد ، فغادر النافذة وقال :

ـ افتحوا الكراسات .

وذهب إلى السبورة ، وكتب : « لا تتدخل فيما لا يعنيك » .

وقال فى صوت صارم :

ـ اكتبوا هذه العبارة عشرين مرة فى كراساتكم ، وإياكم أن ترفعوا رءوسكم عن الكراسات ، فإنى سأدق عنق من يرفع رأسه .

وتظاهر الأولاد بأنهم ينفذون أمره ، وإن كانوا يسترقون النظر إليه ، ويعدون عليه حركاته وسكناته . ذهب إلى النافذة ، وجعل يشير للفتاة أن تهبط لتقابله ، فأخذت تبتسم فى إغراء ، وشجعه ذلك ، فتمادى فى إشارته ، وهى ترنو إليه مغتبطة ، ثم أشارت له أن انتظر ، ومررت يديها على جلبابها ، ثم دخلت وهى تبتسم فى دلال ، ففهم أنها ذاهبة لترتدى ثيابها .

وغادرت النافذة ، فعادت نظرات الأولاد فى مثل لمح البصر إلى الكراسات ، والتفت إلى السبورة ، وقرأ ما كتبه : « لا تتدخل فيما لايعنيك » فإذا بصورة تطفو على سطح ذهنه فى غمرة النشوة ، رأى بعين خياله تلك الفتاة اليونانية الممتلئة الجسم ، التى كانت تصطاد السمك فى المكس ، ورأى نفسه يقترب منها ليرشدها صادقا إلى الخطأ الذى ترتكبه فى الصيد وصك أذنيه صوتها وهى تقول له : لا تتدخل فيما لا يعنيك ، فاضطرب ومشى القلق فى نفسه ، وضايقته تلك الصورة فراح يطردها من خياله . وذهب إلى النافذة ، ينظر فلم يجدها قد عادت بعد، فراحت الأفكار تزحف إلى رأسه ، أفكار لاتسلسل لهاولا منطق ، فكر مرة فى هل تهبط وعلى رأسها تلك العصابة الزاهية التى تلم بها شعرها ، وإذا به يرى أنه يلف ذراعه حول خصرها ويضمها إليه ، وسرعان ما مر بخياله مرور الطيف ، صورته وفتحية وقد اضطجعا فى « الكابينة »

وأرهف الترقب حواسه ، فراح يذرع الحجرة نافد الصبر ، يمد بصره إلى الشرفة بين لحظة ولحظة ، ووقع بصره على السبورة ، فاستشعر قلقا ، فذهب وراح يمحو ماكتبه فى انفعال ، ثم عاد إلى النافذة ، وقد ثبتت عيناه إلى الشرفة .

وظهرت فى زينتها ، لبست ثوبا بسيطا ، أبرزت مفاتنها ، وعقصت شعرها فى إبداع : فزادها إغراء ، ورمته بنظرة واثقة ، وكأنما تهتف به : مارأيك ؟ هل أعجبتك ؟ ورفت على فمها بسمة ، فقد قرأت فى عينيه ما أرضى غرورها .

أدام النظر إلى جسدها المتناسق لحظة ، فخفق قلبه رغبة ، واستخفه الطرب ، فأشار لها : هيا : وماتحركت لتهبط ، حتى راح يغادر الفصل عدوا ، واطمأن الأولاد إلى انصرافه ، فهرعوا إلى النوافذ ينظرون .

راح الأولاد يتزاحمون على الشبابيك ، هذا يجذب ذاك ، وذاك يدفع ثالثا ، فارتفع ضجيجهم ، واشتبكوا يتشاجرون ، وقد انساب يحيى وفتاته فى الطريق ، يتبادلان النظر ولايتحدثان ، كانا يتريثان حتى يبتعدا عن عيون أهل الحى ، ليقتربا فيتهامسان ويتناجيان .

واحتلت رأس يحيى صورة « الكابينة » فهى المكان الذى يخطر له كلما قابل فتحية أو واعدهاعلى اللقاء ، وتذكر أن مفتاحها ليس معه ، وأن الوقت شتاء ، فلوى شفتيه استخفافا ، ثم راح يقترب منها ليحادثها حديثا طويلا تافها ، ولكنه حديث يحرك كوامن النشوة ، وينسكب فى الآذان عذبا ، وتتفتح له القلوب ، وترقص له طربا ، فهو ذخر الحياة ، وهو رصيدها الذى تنفق منه ، إذا أجدبت المشاعر ، وضحلت إحساسات البهجة ، وأطفأت الرزانة جذوة الشباب .

- ١٠٧ -

سعيد يقاسى آلام الحمى فى جوف الليل ، يفتح عينيه فى وهن ، فيجد جلالا عند النافذة يتطلع إلى الفضاء ، يخطر له أن يناديه ، ليجلس إلى جواره يحادثه ، فيخفف عنه بعض آلامه ، ولكنه يستشعر أن ذلك الخاطر ينم عن ضعفه . وماكان يحب أن يبدو ضعيفا ، يستجدى العطف ، فوأد ذلك الخاطر ، وتقلب فى فراشه ضيقا بآلامه ، يئن أنينا مكتوما من الحمى .

ووقف جلال فى النافذة نشوان ، كأن القمر يريق ضوءه الساحر على الكون ، فيكسوه جمالا ، ويكسبه رقة تتدسس فى النفوس ، فتحرك الشاعرية ، وتفسح للخيال آفاقه . واكتملت البهجة . فقد كانت علية فى الشرفة ، تناجيه بإشاراتها التى كانت تناغى حواسه ، وترسل إليه نظرات متكسرة رعناء ، تزلزل كيانه .

وخفق قلبه حنانا ، وأحس رغبة فى أن يناجيها ، أن يبثها لواعج نفسه ، أن يهمس فى أذنيها بحديث فؤاده ، فمشاعره المذخورة تود أن تتنفس ، وطن فى أذنيه صوت نفسه يغريه أن يناديها لتقف إلى جواره يستنشق عبيرها ، ليوسوس لها بمكنون صدره ، ليعيش معها لحظة من اللحظات الخالدة ، التى تزيد فى كنوز النفوس ، فأشار لها بيده فى إغراء : تعالى ، فابتسمت وهزت رأسها فى دلال ، وأشارت له بيدها : تعال أنت ، فأحس كأن ومضات ساحر ة سلطت عليه ، فغادر النافذة ، وانطلق إلى الباب كالمأخوذ .

وهبط فى الدرج يدثره اضطراب لذيذ ، وانساب فى سكون الليل كالطيف ، وانطلق إلى دارها يترقب ، لايفكر فيما يقدم عليه ، فقد استولت على مشاعره فكرة واحدة ، أن يقفا معا فى ضوء القمريتهامسان ، وأن يسمع منها حديث الهوى، الذى يعيد إليه ثقته بنفسه ، ويثبت له أن هناك من يهتم به ، ويجازف من

أجله .

وصعد إليها خافق القلب كالمسحور، وتلاقيا فى الدرج ، ومكثا لحظة فى دهش ، لاينبسان بكلمة ، وإن تحدث الشعور ، وصعدا إلى السطح يحسان من روعة مشاعرهما أنهما فى حلم لذيذ .

ووقفا فى ضوء القمر الفاتن يتبادلان النظر ، فتفتح قلباهما ، وخيل إليهما أن روحيهما يسبحان معا فى عالم من الوجد اللذيذ ، فتمنيا فى أعماقهما لو أن هذه اللحظة تدوم ، ودنا منها والتصق كتفه بكتفها ، ومدا بصرهما إلى الأفق البعيد ، كأنما كانا يؤديان صلاة صامتة عميقة ، صلاة بليغة ، يؤجج حرارتها تسبيح القلوب.

ورأى أن يتكلم ، ولو طاوع نفسه للج فى الصمت ، فقد كان مفعما بالنشوة ، فالتفت إليها وقال لها :

ــ أتدرين أنك جرحت كبريائى ، يوم أغلقت النافذة فى وجهى .

فقالت وهى تبتسم :

ــ أغلقتها فى وجهك ، وجعلت أنظر إليك من خصاصها .

فأرضى ذلك غروره ، فقال لها فى سرور :

ــ حقا ؟ .

وترقب حديثها فى لهفة ، سره أن يرى فتاة مثلها تهتم به ، قالت :

ــ رأيتك قبل أن ترانى ، فأحسست نحوك انجذابا ، شعرت فى أعماقى أن القدر يخفى لنا فى غيبه شيئا ، لعله قد نسج لنا معا من خيوطه قصة ، أولعله يدخرلنا السعادة ، أحسست أن هناك خيطا يريد أن يربط بيننا ، فعزمت أن ألفت نظرك إلى ، فلما تلاقت عيوننا وابتسمت لى ، أغلقت النافذة فى وجهك ، لأؤكد لك أننى أهتم بك . وأخذت أرقبك أياما من خصاص النافذة ، كان قلبى يغرينى أن أفتح النافذة وأحييك ، وأهتف بك أننى أريدك ، ولكننى قاومت إغراءه لأزيدك لهفة ، ولم أقو على الاستمرار فى ذلك طويلا ، ففتحت النافذة ، وأنا أخشى أن تعرض عنى ، انتقاما لكبريائك ، ولكن ما أن انحنيت لى . حتى رددت تحيتك

باسمة الفؤاد .

واستمرت المناجاة بينهما عذبة رقيقة ، وقد غمر جلال السرور، فقد كان يصغى إلى أحب حديث إلى قلبه ، إلى الحديث الذى يدور حول نفسه ، فإلى جواره فتاة جذابة ، تروى له تعلقها به ، واهتمامها بشخصه .

ومرت الساعات كلمح البصر ، وهمست علية :

ــ أرى أن ننصرف ، قبل أن يرانا أحد ، ويسىء الظن بنا .

وانسلت من جواره فى خفة بعد أن ودعته ، وانصرف يترقب ، وقد ملىء نشوة ، وما كان بينهما إلا حديث الهوى .

وفتح الباب فى خفة ودخل ، فمس أذنيه أنين سعيد ، فانطلق إليه يسأله :

ــ ما بك ؟

ــ رأسى يكاد ينفجر، ارتفعت حرارتى ، وطارالنوم من عينى .

فقال جلال وهو يتنهد :

ــ لو قيست حرارتى الساعة ، لكانت أزيد من حرارتك .

وذهب إلى فراشه ، وراح يهيم فى الأحلام .

وأشرقت الشمس ، وقام جلال يرتدى ثيابه قبل الانطلاق إلى الجامعة ، وجعل يغدو إلى النافذة ينظر ، كلما ارتدى قطعة من ثيابه ، وسمع طرقا على الباب ، فذهب وفتح ، وإذا به يصيح فى فرح :

ــ أمى ! مرحبا بك .

وفسح لها الطريق ، فدخلت مهرولة إلى حيث كان سعيد ، ورمته بنظرة أودعتها كل حنانها ، ولم يقو سعيد على مغالبة عواطفه ، فأجهش بالبكاء . كادت دموعها تطفر من مآقيها ، ولكنها غالبت عواطفها كعادتها ، وشمخت برأسها ، وقالت :

ــ ما جئت إليك لتبكى .

وخجل سعيد من ضعفه ، إنه لايذكر أنه بكى قبل الساعة ، فكفكف دموعه بظهر يده ، وأشرق وجهه بابتسامة، كانت كشروق الشمس بعد الغمام .

— ١٠٨ —

ران على الحارة هدوء ، فقد هجعت الأصوات حتى صوت النجرو ، وعاد الناس إلى دورهم ، حتى حليمة انسلت إلى جحرها ، وغرقت الدارفى الصمت ، وإن طوت فى جوفها آلاما ، وآمالا ، ومآسى وأحلاما ، ونبضات حارة ، وأنفاسا هادئة مترددة ، كل غايتها فى الحياة أن تظل فى شهيقها وزفيرها .

ارتمى حسان فى فراشه يغط فى نومه غطيط الخنازير، فهو لا هم له إلا أن يفر من نفسه ، يخشى أن يتلفت خلفه رهبة من ماضيه ، ويهاب أن ينظر أمامه فزعا من مستقبله ، فخير ساعات حياته هى تلك الساعات التى يعيشها فى غفلة من حواسه ، لذلك يحاول دواما ألا يفيق من سكره ، وأن يظل مخدرا غائبا عن الوجود .

ونام على قرير العين ، فقد خلع متاعبه وألقاها على زوجه ، فما عليه إلا أن يعمل ، وأن يضع فى يدها ثمرة عمله ، ويالها من ثمرة لاتشبع ولا تغنى من جوع ، ثم عليها أن تحمل عنه أعباء الأسرة ، وأن تدبر أمرها ، وأن توفر له كل ليلة ماينفقه فى المقهى على نفسه ، وعلى بعض الوافدين عليه من أصحابه ، فهو رجل كريم .

وغفلت عينا صفية ، ولم ينم قلبها ، فهى تفكر فى خالد الحبيب البعيد ، وفى جلال ، وفى سعيد ، وفى لبيب ، فهى لا تدرى كيف أمضوا ليلهم ، وأين ناموا ؟ وماذا يقاسون ؟ فهم هناك ، بعيدا عن قلبها ، والقلب لايشغل إلا بالبعيد .

ولم تعد تلك المرأة القوية ، التى تكبت مشاعرها ، لتبدو وطيدة لاتهزها الأنواء والأعاصير ، ولاتزعزعها الأحداث ، بل أحست الوهن يدب فى روحها فأصبحت فريسة سهلة لأوهامها ، صارت تستسلم لشرودها ، وتنقبض لتصوراتها

وتذرف الدموع لخاطر متشائم يطوف بها .

أنفقت ذوب نفسها فى سبيل أبنائها ، قاست الحرمان وذرفت العرق ، لتراهم رجالا تفخربهم ، فلما دنوا من أهدافهم ، باتت تخشى أن يفجعها القدر فى أحدهم. سافر خالد إلى انجلترة ، وابتعد عنها ، فجعل وسواسها يوسوس لها أنه ذهب ولن تراه ، فعاشت فى قلق دائم لاتدرى منتهاه ، ومرض سعيد بالحمى ، فبكت حتى كادت كبدها تتصدع من البكاء، وخفت إليه مضطربة قلقة ، وإن نجحت أن تبدو أمامه مطمئنة هادئة .

وهجع زكريا ، بعد أن جرى مغتبطا وراء آماله ، صار محاميا معروفا ، وراحت الأحزاب تخطب وده ، وإنه ليجد فى نفسه ميلا إلى السياسة ، ولكنه يرى أن يتريث قبل أن يعلن ميله ، فما كان زكريا يقرر رأيا إلابعد إمعان وروية .

وخطر له قبل أن ينام أن يغادر الحارة ، أن ينتقل بأهله إلى شارع آخر يليق بهم ، ولكنه رأى أن ينتظر حتى يتم جلال وسعيد دراستهما ، فهما فى حاجة إلى نفقة ، والإنفاق عليهما أولى من المظاهر الكاذبة .

ورقد يحيى ، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة هادئة ، فكر فيما فعله فى يومه قبل أن يدخل إلى فراشه ، فعزم على ألايذهب إلى المدرسة التى تطوع للتدريس لتلاميذها خدمة لأبناء جيله ، كما زعم لناظرها ، الذى سره أن يرى معلما مثاليا ، يعمل دون أن يتقاضى منه أجرا ، وعزم على أن ألاينطلق إلى الحى كله ، فقد راحت الفتاة التى تطوع للتدريس من أجلها ، تطالبه بأشياء لم تخطر له على بال يوم فكر فى مغازلتها ، راحت تغريه أن يفرا معا ، وأن يتزوجا بعيدا عن أهليهما ، وأن يعمل ليبنى عشهما الجميل ، فحرام أن يضيع شبابه فى مقاعد الدرس ، فالواجب على من كان مثله أن يشق طريقه فى الحياة بساعده ، وأن يكون له بيت .

إنه لا يميل لمثل هذه الفتاة ، التى تريد أن تتعلق بعنق أول من يغازلها ، كان مرتاحا لصداقة فتحية ، يمضى معها سويعات فى « الكابينة » ، ثم ينصرف كل منهما فى سبيله، دون أن يرتبط أحدهما نحو الآخر بمواثيق وعهود ، ودون أن تحاول

أن تغريه بالفرار من أهله والتزوج بها . وبقى سليمان يقظان ، وإن هجع الناس ، واستغرقوا فى نومهم ، كان يداعب زوجه وتداعبه ، فساعات الليل هى ساعات الهناءة فى حياته ، يعيش لها ويحيا بها ، ولولا لحظات النشوة التى يجسمها وهمه ، لكانت حياته جحيما ، فهو يعمل فى العنابر منذ سنوات دون أن يزيد راتبه قرشا ، وإن زادت أعباؤه بعد أن تزوج . إنه يقاسى الحرمان ، ولولا أن من الله عليه بعدم الخلفة لقاسى الكثير من وطأة الحياة وتكاليفها ، ولكنه لم يحمد الله على هذه المنة، بل كان يشتهى الولد ، وإن قاده ذلك إلى الاستجداء واستكفاف الناس .

ووقف سيد أمام المرآة ، وقد حرق قطعة الفل ، وراح يسود بها شعره ، ليخدع الناس عن حقيقة سنه ، كان هادئا مطمئنا ، يحس أن نظرات الناس إليه قد تبدلت بعد أن ربح ورقة « اليانصيب » ، وإنه ليحس تغيرا فى أعماقه ، أصبح ينظر إلى نفسه فى توقير واحترام ، لقد رفعه المال فى حساب نفسه وفى حساب الناس ، فوطن النفس على الإبقاء على هذه الجنيهات التى كانت كالعصا السحرية .

والتفت إلى « الجاكتة » المعلقة فى المشجب ، فرفت على شفتيه بسمة ، ولكن سرعان ماغاضت البسمة ، ونبت فى صدره قلق ، رأى بطانة « الجاكتة » متهدلة ، فهرع إليها فى فزع ، وراح يتحسس كنزه فلم يجده ، قطعت « الجاكتة » بشفرة حادة وسرق ماله .

ولم يحتمل الصدمة ، خيل إليه أن مطارق هائلة راحت تهوى على رأسه ، وأن أنينا مروعا مكتوما مزق قلبه ، واشتدت آلامه حتى فاضت عن احتماله، ثم أحس كأنما يغيب عن الوجود ، وينهار كجدار يتقوض .

وأشرقت شمس الصباح ، وخرج الناس إلى أعمالهم ، وبقى سيد ممددا شاخصا ببصره الجامد فى رعب نحو السقف ، لم يخرج ليسعى كما يسعى الناس ، ولن يخرج بعدها أبدا ، قضت عليه المفاجأة ، ففاضت روحه ، وفى يده قطعة الفل ، التى أراد أن يخدع بها الزمن .

- ١٠٩ -

سعيد منطلق إلى كلية الطب ، بعد أن برىء من مرضه ، وفيما هو فى سيره شارد اللب ، يفكرفى يومه ، وقعت عيناه على فتاة فى ثياب المدرسة السوداء ، فخفق قلبه واضطرب ، وألفى نفسه يرمقها فى اهتمام .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن كان فيها شىء جذبه إليها ، خيل إليه أن روحه هفا إلى روحها ، وأن وجهها ينضح بصفاء نفسها ، إنه يشتهى أن يظل يرنو إليها ، وانسابت فى طريقها دون أن تتلفت ، فإذا به يتبعها على البعد كالمسحور، وقد راح فؤاده يدق فى جوفه نشوان .

سارخلفها تدثره غيبوبة لذيذة ، يحس إحساسات صافية عذبة ، إحساسات روحية ، لم تشب نقاءها رغبة ، لم يفرز مفاتن جسدها بعينيه ، ولم يستهوه شعرها الأسود السبط ولم يحرك عواطفه صدرها الناهد ، ولم يصوب عينيه إلى ساقيها ، فقد أحس فى أعماقه أنها روح يحب ، وأنه يسعده أن يحيا فى مجالها .

وبلغت المدرسة السنية ، فدلفت إليها كالطيف ، وتسمر فى مكانه لحظة ينعم بمشاعره ، ثم دار على عقبيه ، وعاد من حيث أتى شارد اللب ، هائما فى عالم لذيذ، تسبح فيه حواسه لأول مرة ، خفق قلبه قبل اليوم ، ولكنه لم يخفق خفقانا لذيذا كما يفعل اللحظة ، وسرح فكره ، ولكنه لم يسرح مثل الساعة فى مسارح بهيجة رقيقة ، مفعمة بالغبطة نقلته نظرة من عالمه إلى عالم جديد رحيب ، فتحت مغاليقه فى نفسه ، عالم فرح به وأدهشه ، حتى حسب أنه لم يطل عليه أحد قبله.

وخرج من مجال تأثيرها ، فأفاق إلى نفسه ، وراح يفكر فى أمره ، فقد رأى فى هذا الطريق فتيات كثيرات جميلات ، ولكن لم تجذب إحداهن بصره ، كان يلقى عليهن نظرة عابرة ، وما أسرع ماتختفى صورهم فى ضباب ذهنه ، فما باله اليوم

ينطلق في إثر فتاة مسلوب الإراد ة ، كأنه عباد الشمس يدور في فلك معبوده ؟ إنه لايدري ماذا دهاه ، وكل مايدريه أنه مغتبط بهذا الحنان المتدفق بين ضلوعه ، مسرور بنفسه التي تفتحت فيها آفاق جديدة غنية بالروعة والسحر والجمال .

ووصل إلى قصر العيني ، ودلف إلى حجرة الدرس ، وراح يصغي إلى ما يلقى عليه ، ولكنه لم يقو على تركيز فكره فيما يسمعه ويراه ، كان ذهنه يشرد لحظات ، ويتمثل له الوجه الصافي الذي ينطق بالنقاء ، فيخفق قلبه في حنان ، وتلتمع عيناه سرورا بالانفعالات السارية في كيانه .

ودنا ميعاد انصراف المدارس ، فاشتد وجيب فؤاده ، وراح يقطع الطريق الموصل إلى المدرسة السنية منفعلا ، وقد وسع خطاه، ولاحت المدرسة لعينيه فأحس كأنه غارق في غيبوبة لذيذة ، وراح يغدو ويروح وهو يرقب باب المدرسة وفي جوفه لهفة وتشوق وآمال .

وطن في أذنيه دق الجرس ، فقفز قلبه في رعونة ، ولفه قلق ، ومد بصره مستطلعا ، وقد اقترب من الباب . وتدفقت أسراب الفتيات ، فلم تجذب واحدة منهن بصره ، كان مشغولا عنهن بتلك التي خفق لها قلبه ، وانجذبت إليها نفسه ، وامتزج بها روحه ، وخيل إليه أنه عرفها من أزمان .

وأسرعت ضربات قلبه ، وتتابعت أنفاسه ، وأرهفت حواسه ، وانتابه قلق يشتهى ، وإذا به يراها تنساب بين صديقاتها ، فيسير في أعقابها مشدوها مغتبطا، تدثره سعادة ، وتمرح في جوفه غبطة ، ويستولي عليه الرضا .

وانفصلت عن صويحباتها ، وانسابت في طريق هادىء وحدها فلم يخطر له على بال أن يدنو منها أو يحادثها ، بل ظل يتبعهاعلى البعد ، وهو قانع بالنظر إليها ، يغبطه كل الغبطة أن يكون هو وهي في طريق واحد .

وتمنى من كل قلبه أن يطول الطريق ، وأن تستمر هي في سيرها ، وأن يستمرهو في اقتفاء أثرها ، لتدوم النشوة حتى يسعد بها ، ولكنها عرجت إلى بيت متواضع من البيوت العتيقة التي تطل على قصر العيني ، فأسرع ليلقي عليها نظرة وداع ، وهي في صعودها السلم .

وغابت عن عينيه ، ومشاعره تتدفق حنانا بين حنايا ضلوعه ، ووقف شارد البصر لحظة ، ثم انصرف مغتبطا ، بعد أن تزود منها ، فخير زاد المحبين نظرة تلهب الحواس ، وتطلق للخيال الأعنة .

ــ ١١٠ ــ

وعاد جلال إلى الإسكندرية يمضي نهايةالإسبوع ، أخذه صديقه في سيارته، بينا بقي سعيد في القاهرة ، يحوم حول بيت الفتاة التي وهبت له أجنحة يحلق بها في عوالم مسحورة من النشوة والجمال .

وصل إليها في الليل ، وماستقر في البيت سويعات ، حتى رغب في الخروج، وألفى يحيى يتأهب للهبوط ، فنهض ليخرج معه ، ومرا في نزولهما على سليمان ، فقد كان يحيى يمضي معه شطرا من الأمسية ، ثم ينصرفان ، هذا إلى كتبه ، وذاك إلى زوجه .

وجلسا في مقهى قريب يتسامران ، وراح جلال يرنو إلى « البنطلون » الذي يرتديه سليمان ، كان « بنطلون » سيد ، الذي كان لايفارقه إلاإذا دخل فراشه لينام ، وطافت بجلال موجة من الرقة ، فشرد بذهنه ، يفكر في ذلك البائس ، الذي كانت كل أمنيته في الحياة أن يرزقه الله مالا ليقضي على متاعبه وآلامه ، وليعيش في الدنيا هانئا كما يعيش الناس ، فلما جاءه المال لم يبدد شقاوته ، بل بدد حياته .

وفطن سليمان إلى نظرات جلال ، فقال في هدوء :

ــ الله يرحمه ، مات ولم يسبب لنا متاعب ، ولم يترك خلفه مشكلات ، لم ندخل بسبب تركته المحاكم متخاصمين في ميراث ، ولم نعرف طريق المجالس الحسبية ، ولم تتغير نفوسنا ، فما أيسر تقسيم ماترك . أخذت « البنطلون » وأخذ أبي « الجاكتة » .

فقال يحيى وهو يبتسم :

ـ والحذاء ؟

فقال سليمان ، دون أن يتهدج صوته ، أو يحس فى ضميره وخزا :

ـ تصدقنا به على روحه .

وراحوا يتذكرون نوادره ، وهم يضحكون ، كأنما يتندرون بقصة قرءوها فى كتاب ، وكأنما لم يكن سيد بينهم ، يشاركهم فى بعض الأمسية، وكأنما لم يكن قطعة منهم ، ابتلعها المجهول ، وكأنما الأمرلم يكن يستحق تدبرا أوتفكيرا !

ومضت سويعات ، ثم عادوا إلى الدار ، وذهب جلال إلى فراشه ، وإذا بخاطر ينساب إلى ذهنه فيشغله ، فكر فى عفاف ، فرآها تنطلق فى خياله ، وطرف ثوبها يترجح خلفها فى توافق ، فهى تترقص فى مشيتها ، فيترجرج جسمها الممتلىء ، كأنما يهتز على أنغام موزونة ، ليثير النفوس ويجذب الأبصار.

واقتحمت أفكاره سخريتها به ، واعدته أكثر من مرة ، ولم توافه فى الميعاد ، فتقاصرت نفسه ، واستشعر تضاؤلا ، وثار دمه فى عروقه ، واشتهى لو يوجه لها إهانة قاصمة ، لينتقم لكبريائه ، ويعيد إلى نفسه ثقتها .

وأرخى لخياله العنان ، فتمنى لو أن علية هنا فى الإسكندرية ، إذن لأخذها، وذهب بها إلى شارع محرم بك ، ولتعمد أن تقع عينا عفاف عليهما ، وهما معا ، لتمزق نياط قلبها ، وتطعن كبرياءها طعنة نجلاء ، فقد صار كل ما يرجوه أن يمرغ أنفها فى الرغام .

وأشرقت شمس الصباح فارتدى جلال ثيابه ، وانطلق إلى محطة «الأوتوبيس»، ووقف يرقب قدوم عفاف .

ولمحها فى مقعدها ، فانسل وجلس إلى جوارها ،وقال فى نبرات هادئة :

ـ صباح الخير .

فقالت وهى تبتسم :

ـ صباح الخير ، متى عدت ؟

فقال فى اقتضاب :

ـ أمس ، وسأعود غدا صباحا .

أحست أنه تبدل ، تخيل إليها أنه صار رجلا آخر ، لم تبد فى عينيه لهفة ، حتى نبرات صوته كانت تنذر بالجفاء ، وانتظرت أن يلتمس مقابلتها ، ولكنه لج فى صمته ، وكأنما خشيت أن تفلت منها الفرصة ، فقالت :

ـ ومتى أراك ؟ .

ـ ليس أمامك إلا هذه الليلة .

ورن قوله فى أذنيها غريبا ، ليس أمامها إلا هذه الليلة؟ كأن الأمر يعنيها وحدها ، وخطر لها أن تصمت حتى يتكلم ، حتى يتوسل إليها أن تلقاه ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، فقالت :

ـ انتظرنى فى السابعة مساء .

فقال فى عزم :

ـ ولن انتظر بعدها دقيقة واحدة .

وهبطت وسارت تترقص ، وهو يرقبها من الزجاج ، ثم شرد يفكر فيما يفعله ارضاء لغروره إذا ماوافته فى الميعاد .

وانقضى النهار وهو يفكر فى عدم الذهاب إليها ، انتقاما منها ، ولكنه كان يجد ذلك نصرا رخيصا ، فما يدريه أنها قدمت ولم تجده ، وأن ذلك نال من كرامتها، إنه يريد أن يراها تتحطم أمام عينيه . وفكر فى الذهاب ، ثم الاعتذار إليها ، كمافعلت به مرة ، وينصرف بعد أن يشعل شكوكها ، ولكن ماكانت هذه الأفكارترضيه ، إنه يريد أن يذلها ذلا قاصما ، لاذل بعده

وفى الساعة السابعة مساء ، كان ينتظر وقد انبعث فى جوفه قلق ، خاف أن تخلف وعدها ، فتنتقم منه قبل أن ينتقم منه ، وتزيد فى إذلاله قبل أن يذلها ، ولكن سرعان ماغمرته راحة ، فقد لمحها قادمة .

وانطلقا معا يتسامران ، وبلغا مكانا هادئا ، يدثره ظلام ، فلف ذراعه حول خصرها ، وراح يضمها إليه ، فامتلأت نشوة ، وأحس كأن زغاريد تدوى فى جوفه ، واستمريحدثها حديثا ناعما ، فرنت إليه فى رغبة ، كأنما تهتف به أن يحتويها فى

أحضانه ، ولبى نداءها وضمها إلى صدره ، وهمس فى أذنها كلمات ، فاستسلمت له، وراحت تتخفف من بعض ثيابها .

ورأى لحظة انتقامه قد حانت ، فغادرها وانصرف مهرولا ، وهى ترنو إليه مذهولة محطمة ، تحس كبرياءها تدمى ، وغاب فى الظلام تدثره نشوة ، وتطن فى أذنيه أهازيج النصروالظفر .

ـ ١١١ ـ

قام سعيد فى البكرة يرتدى ثيابه ، تدثره نشوة ، وتملؤه رقة ، وذهب إلى المرآة يحكم رباط « الكرافتة » ، ويمشط شعره الكستنائى ، ثم يذرع الغرفة خفيفا نشطا ، واستيقظ جلال على حركته ، فنظر إليه فى إنكار ، وقال :

ـ إلى أين تذهب الساعة ، ولن تبدأ المحاضرة الأولى قبل العاشرة؟

فلمعت عينا سعيد ، ولم ينطق حرفا ، وقال جلال وهو يتمطى :

ـ لم أعرف قيمة طباخنا إلا بعد أن ذهبت إلى بيتنا ، فلولاه ما شعرت بامتياز الأصناف التى تقدمها أمى .

ولج سعيد فى صمته ، وفطن جلال إلى شروده ، فقال له :

ـ ما بك ؟ أتحب ؟!

فرفت على شفتى سعيد ابتسامة عذبة ، وانفتل من الغرفة خفيفا ، كأنما يهيم فى الفضاء ، وراح يهبط فى الدرج عدوا وانساب فى الطريق ، تدفعه حرارة قلبه إلى توسيع خطاه ، وذهب إلى دارها ، ووقف يرقب هبوطها خافق القلب نشوان.

تدفقت فى الشارع السيارات والمركبات ، وأسراب الفتيات ، وجموع التلاميذ والطلبة ، وخرجت من القصر العينى سيارة إسعاف ،ولكنه صم أذنيه عن هذه الضوضاء ، ولم تجذب بصره الحركة الدائبة النشطة ، كان غائبا عن الوجود فى نفسه، يسعد بإحساساته ، ويركز كل مشاعره فى الباب الذى سينجاب عنها .

ولمحها فى ثوبها الأسود البسيط ، تدرج فى الطريق ، فراحت مشاعر النشوة

تتفجر فوارة بين ضلوعه ، ولفه اضطراب لذيذ ، فراح يتبعها على البعد كالتابع الأمين يسير كالمسحور ، يحس ما يحسه الغارق فى حلم بهيج .

لم يفكر فى أن يقترب منها ، ولم يخطر له أن يجذب بصرها إليه ، ولم توسوس له نفسه ، أن يتفرس فى وجهها ، وأن يحصى محاسن جسدها ، كان راضيا كل الرضا أن يحس وجودها ، وإنه ليرضيه أن ينقضى الزمن ، وهو يرنو إليها من بعيد .

واجتاز قضبان سكة حديد حلوان وماشعر ، فما كان يعيش فى واقعة ، بل كان يهيم فى عالم جميل من مشاعره ، يغلفه ضباب يزيده حسنا ورونقا ، ودنت من مدرستها ، ففاء إلى نفسه ، على دقات قلبه ، فألفاها تتقدم رشيقة كملاك ارتدى السواد تواضعا ، فوقف يرنو إليها فى وله ، وكل خالجة فيه تصيح بها : « مع السلامة » .

وغابت عن بصره فى أعماق البناء الرمادى الضخم ، ولكنه ظل يسعد بماتركته رؤيتها من آثار بهيجة ، وانصرف ليعود إلى الدار ، متفتح النفس ، لايمد بصره إلى شىء حتى يرى فيه جمالا ، رأى مولد النهار رائعا يحرك مشاعره ، والناس فى غدوهم ورواحهم يحسون أوتارالحنان فى نفسه ، كان مبتهجا ، فلاح لعينيه كل شىء بهيجا .

وطرق الباب فى خفة ، وما هى إلا لحظات قصار ، حتى فتح الباب ، ولاح جلال وفى عينيه تساؤل ، ولكن سعيدا لم يفطن إلى شىء ، وانطلق إلى سريره ، وارتمى فيه بثيابه ، ليطلق لخياله عنانه ، يهيم فى عالم الرؤى العذاب .

وطن فى أذنيه صوت جلال :

ـ قابلتها ؟ .

وتألقت عينا سعيد بالرضا ، ولم يتكلم ، فقال له جلال :

ـ وماذا قلت لها ، وماذا قالت لك ؟.

ولج سعيد فى الصمت ، فقال له جلال فى سخرية :

ـ لا .. انت عاشق من عشاق الروايات .

ووضع مضرب الكرة تحت ابطه فى رشاقة ، ووقف يديم النظر إلى نفسه فى المرآة ، ولما اطمأن إلى هيئته ، انطلق إلى الشباك ينظر ، ثم هبط إلى الشارع ، وهو على ثقة من أنه سيجذب إلى نفسه أنظار الفتيات .

وساد الغرفة صمت وجلال ، فشرد سعيد بذهنه ، وأسبل جفنيه ليحلق فى سماء الحب بأجنحة الخيال .

ـ ١١٢ ـ

عاد جلال من الكلية مزهوا ، يحمل مضرب الكرة تحت إبطه ، وقد رفع رأسه إلى النوافذ والشرفات ، ليرى أثر مروره ، فى فتيات الحى ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه أن رشاقته تجذب الأنظار.

ورأى علية فى الشباك تبتسم له ، وقد تألقت عيناها الطائشتان بنداء ، فرفت على شفتيه بسمة ، وخفق قلبه بالرضا عن نفسه ، وحنى رأسه فى رشاقة ، فأشارت له بيدها أن اصعد ، فدار رأسه ، وخارت مقاومته ، وعرج إلى بيتها خفيفا يستشعر غبطة ، وراح يرقى الدرج قفزا ، فألفاها تنتظره ، هادئة مشرقة الوجه مرحبة مبتهجة ، فمد إليها يديه وتناول يديها ، وراحا يتبادلان النظر صامتين وإن تدفقت فى شرايينهما الدماء الفوارة . وجذبها معه وهو يحاول أن يرقى فى الدرج ، فقالت له فى دلال :

ـ إلى أين ؟ .

فقال هامسا :

ـ إلى السطح .

ـ لا .. تعال معى ، خرجوا جميعا وتركونى وحدى . تعال نتسامر .

ودلفا إلى الشقة ، وأغلقا الباب خلفهما ، وراحا يتناجيان مسحورين ، فنسيا فى غمرة النشوة كل شىء ، حتى أنفسهما ، وراح الوقت يعدو ، لايحسان مروره ، وإذا بصوت مفتاح فى الباب يوقظهما من أحلامهما ، ويهبطهما من سمائهما إلى الواقع القلق ، المضطرب ، فإذا بهما يمدان البصر إلى الباب ، وقد اتسعت

عيناهما رعبا ، وتخلخلت مفاصلهما ، وسرت فى جسديهما رعدة ، وكادت روحاهما تفرمن بين ضلوعهما .

وسمع فى الردهة الخارجية وقع أقدام وأصوات ، فلم يفكر جلال فى الفرار ، بل تسمر فى مكانه كتمثال ، يحاول أن يجمع شتات نفسه ، ولكن هيهات ، فقد تفرقت شعاعا ، وغاض لون علية حتى بدت كالأموات .

وارتفع صوت الأقدام ، فرن فى آذانهما رنينا مروعا ، حطم أعصابهما ، حتى كادت علية تنهار ، وبقى جلال مشدوها ، يحس مشاعره القلقة تمور فى جوفه ، حتى تكاد تكتم أنفاسه ، لم يعد يحتمل الانتظار .

ولاح أخوها أمامهما ، فجفلا كأنما ظهرلهما شيطان ، وأخذ الأخ يحدق واضطرب وفغر فاه ، ثم دنا من جلال ، وقال وهو يزأر فى غضب ، وقد راح صدره يعلو وينخفض :

ـ ماذ تفعل هنا ؟ .

فقال جلال فى صوت خافت ، لم يزايله الاضطراب :

ـ أنت شاب مثلى ، وأنت تعرف ماذا أفعل هنا .

أحس الشاب كأن سوطا هوى على وجهه ، فراح يزمجر ، ويئن أنينا مكتوما يمزق فؤاده ، ويقول :

ـ من أنت ؟ . وماذا جاء بك هنا ؟ ياللفضيحة ! .

قال جلال فى زهوه حتى فى هذه اللحظة الحرجة ، الممعنة فى الحرج :

ـ أنا شاب فى كلية الحقوق ، جئت أخطب أختك ، فلم أجد هنا أحدا غيرها ، فانتظرت حتى تعودوا .

فرماه الأخ بنظرة حانقة ، وأحس رغبة فى أن ينقض عليه ، وأن يكتم أنفاسه ، ولكنه كبح جماح ثورته ، خشية أن يسمع أقاربهم ، الذين جاءوا معهم بهذه الفضيحة ، فانسل من الغرفة ، وقد أغلق بابها خلفه ، وماهى إلا لحظة حتى عاد ومعه أمه ، ترتجف من الهول ، كما ترتجف قصاصة الورق ، إذا هبت عليها ريح صرصر عاتية .

ونظرت الأم إلى ابنتها من بين الغمامة التى أسدلت على عينيها ، وقالت لها وهى تولول ، وتصك وجهها فى يأس :

ـ يالعارى يا علية ،.. أين أخفى وجهى ؟ ماذ أقول للناس ؟ يا للعار ! أنت السبب .. لطخت شرفنا بالوحل ، أنت سبب كل هذا ، لولاك لما كان هنا .. ماذا أفعل؟ لك أب يعرف شأنه معك . لك أب .. لك أب .

فقال جلال فى صوت مضطرب خافت :

ـ أين أبوها أحدثه ؟.

فقالت الأم فى فزع :

ـ ماذا تقول له ؟!

ـ أقول له إن ابنته شريفة ، وإننى ما جئت إلى هنا إلا لأخطبها ، وإنه يشرفنى أن أتزوجها ، ويسرنى أن أسمع موافقتكم .

فقال الأخ فى حنق :

ـ كل ما نريده منك أن تذهب الآن ، وأن تقطع صلتك بها .

فقال جلال وهو يبلع ريقه :

ـ أعدك .

وأخذه الأخ ليخرجه فى هدوء ، دون أن يفطن الزوار لخروجه . وما أغلق الباب خلفه ، حتى راحت الأم تلتدم ، ثم انهارت على مقعد قريب ، وهى تجمجم فى صوت تخنقه العبرات :

ـ يا لعارى .. يا لعارى ، أين أخفى وجهى من الناس ؟!

ـ ١١٣ ـ

ترادفت الأيام ، وسعيد يذهب كل صباح إلى شارع القصر العينى ، يرقب هبوطها خافق القلب ، فإذا لمحها تتهادى فى الطريق ، وتنساب فى سبيلها فى ثوبها الأسود ، انطلق فى أثرها نشوان ، يستشعر أمنا ورضا ، حتى إذا غابت فى مدرستها ، قفل راجعا إلى الكلية أو إلى البيت ، مفعما بالغبطة ، يسبح فى خيالات شاعرية ، تهفو إليها نفسه ، ويفرح بها فؤاده .

وكان ينتظرها عند انصراف المدارس ، فإذا خرجت مع صديقاتها ، تبعها كالمسحور، لايفكر فى أن يدنو منها ، أو يلفت نظرها إليه ، فقد كان فى رؤيتها الكفاية ، فإذا ما اطمأن إلى أن البيت السعيد قد احتواها ، انصرف راضى النفس ، يلتذ بخيالاته .

كانت رؤيتها فى الغدو والآصال تغمره بالسعادة ، وتنبت بذرة الحب فى فؤاده ، وكانت مشاعره تسقيها بفيض من الحنان الدافق : فتتعمق جذور الحب فى قلبه وتتشعب فى ضميره ، فتستولى على لبه وتفكيره ، تيقن على مر الأيام أن حبها سرى فيه سريان الدم فى شرايينه ، وأنه يهواها ، وإن لم يتبادلا كلمة أو نظرة، وإن لم يكن يعرف عنها حتى اسمها .

جلس سعيد ، وقد شرد بذهنه ، كان يفكر فيها ، ووقف جلال فى النافذة يرنو إلى الشبابيك التى أغلقت ، ولم تعد تفتح ، فيلوح فى وجهه الكدر ، وينقبض ، مرت شهور مذ فجأه مع علية أهلها ، وهو لايدرى ماذا حدث لها ، عقب ذلك اليوم المشئوم ، كان قلقا بعد أن أرقته هواجسه ، فما يدريه لعل أهلها قتلوها ، فما أكثر حوادث القتل فى سبيل الشرف .

كانت أية حادثة يقرؤها فى الصحف تؤرقه ، وتجعله يقضى ليله مسهدا ،

وراحت حوادث القتل التى سمعها تطفو على سطح ذهنه ، وتزيده فزعا وتقلقلا ، تبلبلت أفكاره ، ولو طاوع نفسه ، لصعد إليهم ، يسألهم عما جرى لعلية ، فهو يحس فى أعماقه ، أنه سبب ضيقها ، وليس من الكرامة أن يتركها تقاسى وحدها.

ولمح امرأة فقيرة كانت تتردد على علية وأهلها ، تقضى لهم بعض حاجاتهم ، تخرج إلى الطريق ، فألفى نفسه يغادر النافذة ، وينطلق يعدو فى أثرها ، فلما لحق بها ، قال فى صوت متهدج ، ينم عن اضطراب وقلق :

ـ أين علية ؟ كيف حالها ؟

فنظرت إليه المرأة فى أسى ، وقالت فى إشفاق :

ـ لو رأيتها ما عرفتها .

ـ ماذا بها ؟

ـ مريضة ، باكية العين ، ذابلة .

وأطرق ، خيل للمرأة أن دمعة حائرة تترقرق فى مقلتيه ، فأشفقت عليه ، وقالت :

ـ والله إنى فى حيرة .

وتركته وانصرفت ، وهى تفكر فى هؤلاء الذين يحبون ويحجمون عن تحقيق أمانيهم ، وخطر لها أنها لو كانت رجلا ، لخطفت من تحب ، وفرت بها بعيدا . كانت فى صباها تشتهى ، وهى فى الريف ، أن يخطفها أحد ، ويفر بها فى الشعاب النائية ، ولكنها تزوجت رجلا ، ما مكث معها سنة حتى فر منها ، خرج من القرية ولم يعد ، فذهبت فى أثره إلى القاهرة تبحث عنه ، فلما لم تجده ، اضطرت إلى أن تعمل فى سبيل قوتها ، ولو أشار لها رجل أن تتبعه لتبعته راضية ، ولكن لن يدعوها أحد ، كانت دمامتها منفرة .

وعاد جلال إلى الدارمطرقا ، وإن انزاح عن صدره بعض متاعبه ، اطمأن إلى أنهم لم يقتلوها ، فلو أنهم قتلوها لما أراحه ضميره ، سيعتبر نفسه شريكا فى مصرعها ، ولو لم يمد إليها يده .

وخطر له أنها سجينة ، وأن أهلها يدعونها تذوى ، حتى يجف ماء الحياة

فيها ، إنهم يبغون قتلها ، دون أن يتركوا أثرا ينم عن جرمهم ، لماذا كل هذا العذاب؟! لو كان قادرا على إنقاذها ما تردد ولكن ماذا يفعل طالب فى الحقوق ، لايملك قرشا ، لينقذ فتاة من براثن شكوك أهلها الظالمة ! ليته كان غنيا ، فلو كان صاحب مال ، ما أحجم عن إنقاذها .

وسمع طرقا على الباب ، فذهب ليرى من هناك ، فإذا به يرى المرأة الفقيرة الدميمة ، تقدم له رسالة مطوية ، فيأخذها منها فى لهفة ، ويفضها مضطربا ، وقد اشتد وجيب قلبه رهبة ، وراح يقرأ ما فيها بنظرات زائغة ، وما انتهى من قراءتها حتى أحس يدا قوية تعتصر قلبه ، وينابيع الأسى تفور فى أعماقه ، كانت الرسالة من أهلها يذكرونه بوعده الذى قطعه ، ويلتمسون منه أن يتقدم ليتزوجها .

وأغلق الباب فى رفق ، وانطلق باسر الوجه مضطربا ، وجلس إلى جوار سعيد، وقد شغل كل منهما بأفكاره ، كان سعيد يهيم فى عالم بهيج كله أمانى وآمال ، بينا راح جلال يتخبط فى دياجير الظلام ، الذى هو فيه ، إنه حائر لا يدرى ماذا يفعل ، قلق لا يعرف لذلك القلق نهاية أو قرار .

ـ ١١٤ ـ

مر شهر ، وسعيد يذهب فى الصباح إلى شارع قصر العينى ، فإذا هبطت فتاته ، سار خلفها حتى المدرسة ، وكان يذهب فى العصر إلى مدرستها يرقب خروجها ، ليحرسها على البعد ، حتى تعود إلى البيت ، كانت رحلة الصباح ورحلة العصر هما أحب شىء إلى نفسه ، فخيل إليه أنه يعيش بهما ولهما .

وراح جلال يرصد النوافذ المغلقة ، لعل نافذة تفتح ، فيرى ما يجرى خلفها ، كان يحس قلقا كلما مد بصره إلى الشبابيك الموصدة ، ويشفق على الفتاة السجينة ، المعذبة ، وفيما هو فى وقفته الحزينة ، سمع طرقا على الباب ، فتحرك فى تراخ ، وما إن فتح الباب ، حتى ألفى المرأة الفقيرة الدميمة تقدم إليه رسالة ،

فتناولها منها وراح يفضها خافق القلب ، مضطربا ، وراح يقرأ وفى جوفه حرارة :

« سنذهب الليلة فى الساعة السادسة مساء ، إلى سينما رويال ، لنشاهد رواية « يحيا الحب » ، أرجو أن ألقاك هناك . ولم يجد توقيعا ، فالتفت إلى المرأة وقال :

ــ من أعطاك هذه ؟

ــ ست علية .

وانصرفت المرأة ، وبقى وحده يفكر فيما يقوله لهاعندما يقابلها ، وازدحم رأسه بأكثر من سؤال ، ما الذى دفعها إلى كتابة هذه الرسالة ؟ أما خشيت أن تقع فى يد أحد من أهلها ، فيزيدوها اضطهادا ؟ مايدرى لعلها أرسلتها بأمرهم ، لتقابله وتستنجزه وعده الذى قطعه على نفسه ، يوم فاجئوه معها ؟ إذ كانوا قد دفعوها إلى الكتابة له ، أيدعوها تقابله وحدها ؟

ووافى ميعاد خروجه ، فراح يرتدى ثيابه ، ويتأنق ، ويديم النظر إلى نفسه فى المرآة ، حتى إذا اطمأن إلى رونقه ، انطلق مرفوع الرأس ، يحس رضا على الرغم من القلق النابت فى جوفه .

فقد أصبح موضع اهتمام أسرة، يسعدها أن تسمع كلمة من شفتيه .

وسار فى الطريق يتلفت ، كان يرجو أن يقابلها ، وهى فى طريقها إلى السينما ، ليتسامرا فى هدوء ، بعيدا عن عيون الناس ، ولكنه لم يجدها ، فراح يغذ السير ، حتى بلغ أوائل شارع إبراهيم ، فألفى الناس يموجون أمام السينما ، فاشتد وجيب قلبه ، ودثره قلق ، وإن تحركت لهفته وشوقه ، فوسع من خطوه ، وقد استشعر رهبة من المجهول .

واندفع يشق الجموع ، وهويتلفت باحثا عنها ، وإذ به يلمحها . فانقبض قلبه، وانبثق حزنه ، ودنا إليها فى ذهول ، رآها بين فتاتين يسندانها ، فكاد ينكرها ، كانت ذابلة ذاوية انطفأ فى عينيها ذلك البريق الذى كان يأخذ بمجامع القلوب ، واستدرت عطفه ، وتحركت عوامل الرقة فى نفسه ، حتى خيل إليه أن يهرع إليها يمسح عنها بحنانه ماكابدت فى سبيله من قسوة ، ولكنه رأى إلى جوارها أخاها ،

فوقف ينظر إليها من بيعد .

وانصرف الأخ ، وترك الفتيات وحدهن ، فتقدمت إليه فتاة ، وهمست له :

ــ نحن فى مقصورة رقم ٥ ، وقد حجزنا لك تذكرة بجوارنا .

فاندفع إلى شباك التذاكر ، يشترى التذكرة المحجوزة .

ودلفوا إلى السينما ، وصعدوا فى الدرج ، كانت علية ترقى فى السلم واهنة بين صديقتيها ، وهو فى أثارهن مشفقا ، ليت صديقتيها تدعانها له ، يأخذ بيدها ، واتجها إلى المقصورة وجلسن ، وذهب إلى مقعده وجلس ، وقلبه ينبض بمشاعرالحنان والشفقة .

وأطفئت الأنوار ، فمال نحوها وهمس :

ــ إن ما نالك يا علية يمزق فؤادى ، لا أستطيع أن أقف ساكنا وأتركك للعذاب والاضطهاد ، فماذا فعلنا حتى تصب علينا هذه النقمة ، كان حبنا طاهرا لم يعرف الدنس ، ولكن من يصدقنا إذا أقسمنا على طهارة حبنا ! رأونا فى خلوة معا ، ويا لقسوة الاتهام إذا اختلى فتى بفتاة .

فقالت فى نبرات حزينة ، مست أوتارقلبه :

ــ أقسمت لهم يا جلال فلم يصدقونى ، ذرفت الدموع فكذبوا دموعى ، صرت يا جلال حطاما بلا أمل ، الموت أهون من نظرات الاحتقار ، التى يرموننى بها .

وأحس نحوها حبا صادقا ، فقال فى حرارة :

ــ لن أتركك ياعلية ، سأحطم الحوائل التى تعترض سبيلنا ، ،سأقوض كل مايقف فى طريق سعادتنا ، سأبر بوعدى .

فقالت فى لهفة :

ــ متى ؟

ــ أقرب مماتحسبين .

ولمح دموعها تترقرق فى عينيها ، فقال لها وهو يغالب دموعه :

ــ كفكفى ياعلية هذه الدموع ، وابتسمى وافتحى منافذ فؤادك ليتسلل إليه الأمل ، ويبدد ماران عليه من ظلام ، غدا يشرق بالنور.

ولم تبدد كلماته أتراحها ، بل هاجت قذى عينيها فغسلت وجهها بالدمع الغزير.

وتقضى الوقت وهما يتهامسان ، وماانصرف من السينما إلا وقد عزم صادقا على أن يبر بوعده ، وأن ينتشل الفتاة مماتقاسيه من كرب وضيق ..

ـ ١١٥ ـ

وراح سعيد يحزم الحقائب ، تأهبا للعودة إلى الإسكندرية ، فقد وافت إجازة نصف السنة ، ووقف جلال فى النافذة يتطلع إلى الشبابيك الموصدة أمامه ، لعله يلمح علية ، فيشير لها أنه مسافر ليحطم الحوائل التى تعترض طريق سعادتهما ، ولكن مر الوقت ولم ير طيفها ، فارتد عن النافذة ضيق الصدر متبرما .

وارتفع صوت نفير سيارة ، فأسرع سعيد إلى النافذة ، ثم قال لجلال :

ـ هيا يا جلال ، لقد جاء .

وهبطا ووضعا الحقائب فى سيارة صادق صديق سعيد ، الذى جاء يحملهما إلى الإسكندرية . وركب جلال ، وعيناه تتجولان فى النوافذ المغلقة ، وقال سعيد وهو يهم بالركوب :

ـ لا أستطيع السفر قبل أن أراها .

فقال جلال :

ـ لقد رأيتها فى الصباح ، وفى هذا الكفاية .

فقال سعيد فى إصرار :

ـ لن سافر قبل أن راها .

فقال صادق فى هدوء ، وهو يعبث بنظارته :

ـ لانستطيع الانتظار إذا أردنا أن نبلغ الإسكندرية قبل هجوم الليل .

فقال سعيد فى حرارة :

ـ أفضل أن أمضى الإجازة هنا ، على أن أسافر دون أن أراها .

ولما كانا يعرفان أن لافائدة ترجى لثنيه عن عزمه ، قال :

ـ ماذا تريد أن نفعل الآن ؟

فقال فى انشراح :

ـ لنذهب إلى مدرسة السنية .

وانطلقت السيارة ، جلال ضيق الصدر يتحلم ، وصادق صامت لا ينطق حرفا ، وسعيد غارق في قلقه اللذيذ ، هائم فى عالم شعرى بهيج ، ووقفت السيارة أمام المدرسة ، فأطرق جلال فى سكون ، وأسبل جفنيه ، وراح صادق يعبث فى نظارته ويمرر يده على شعره ، ويتململ فى جلسته ، بينا سعيد راح يرنو إلى المدرسة ، خافق القلب منشرحا .

وراح الوقت يمر وئيدا بطيئا ، وأخيرا دق الجرس ، فتنفس جلال فى ارتياح ، واشتد وجيب قلب سعيد ، وأرهفت مشاعره ، وبرقت عيناه ، ولاح فى وجهه قلق .

وتدفقت جموع الفتيات إلى الطريق ، فأخذ جلال يجيل عينيه فيهم ، وجعل صادق يتبعه ببصره ، واشرأب سعيد بعنقه يبحث عنها .

ورآها تنساب كالطيف ، رقيقة رشيقة ، فاستشعر نشوة تغمره، وكأن أجنحة خفية ترفعه ليهيم فى عوالم الغبطة ، فأفعم فؤاده بسعادة عارمة ، وراحت تبتعد حتى غابت عن عينيه ، ولم تغب عن خياله ، فالتفت إلى من معه ،وقال :

ـ يمكننا أن نسافر آلآن ، ونحن مغتبطون .

وانطلقت السيارة ، تطوى الطريق الصحراوى الذى بدا كثعبان لا نهاية له ، وترادفت الأفكار فى الرءوس مهوشة متباينة من هنا وهناك ، ولكن أفكار سعيد كانت كلها حول الفتاة ذات الثوب الأسود ، التى كان يراها روحا تجسد .

ونظر من نافذة السيارة إلى الأفق البعيد ، وراح يرقب قرص الشمس المتوهج، وهو يغوص فى الرمال ، وقد تلونت السماء بحمرة زاهية تسحر اللب ، وتبهر النظر، فراح يرنو خافق القلب ، منشرح النفس ، باتت الروعة تحركه ، ويستهويه الجمال .

ولف الليل الكون بعباءته السوداء ، والسيارة تنهب الأرض فى طريق

الكورنيش ، فأفاق جلال من غمرة أفكاره ، وبدأ ينبت فى جوفه قلق ، فقد دنا من اللحظة الحاسمة ، التى يرجو أن يوفق فيها لتحطيم السدود بينه وبين علية .

دلفت السيارة إلى الحارة ، وقد أريق فيها الظلام ، ووقفت أمام الدار، فحمل سعيد الحقيبة ، وحمل جلال حقيبته ، ثم التفتا إلى صادق ، وقالا :

ـ شكرا لك . مع السلامة .

وتحركت السيارة ، وغابا فى ظلام البيت .

أخذ جلال يرقب أمه ، كان يريد أن ينفرد بها بعيدا عن إخوته ، فما كان يطيق أن يتريث حتى الصباح ، فقد راح القلق يرتع فى جوفه ، وهو يبغى أن يفضى إليها بما فى نفسه ، ليسكن الطمأنينة صدره ، ويرتاح مما يحسه من عذاب .

ووجدها فى غرفة بعيدة وحدها ، فذهب إليها ، وقال فى صوت مضطرب خافت :

ـ عندى موضوع أحب أن أعرضه عليك .

فنظرت إليه فى حنان ، كأنما تقول له : « قل ، كلى آذان » ، وراح يقص عليها قصته ، التى لم أطرافها فى الطريق :

ـ لى صديق أستذكر معه دروسى ، وهو من أسرة طيبة ، ولصديقى هذا أخت جميلة ، رأيتها فأحببتها ففكرت فى الزواج منها ، إنى أحس أنها خير زوجة تصلح لى ، أرجو منك أن تذهبى لتريها وتخطبيها على .. إنها فتاة طيبة تعجبك.

ولمح أمه تسبل جفنيها ، ففطن إلى أنها تغضى عن حديثه ، فقال فى اضطراب :

ـ ما رأيك ؟ هل تذهبين ؟

فقالت فى حنان :

ـ لا أستطيع أن أذهب .

ـ لماذا ؟ .

فقالت فى رقة وصدق :

ـ إننى أحب يا جلال أن أسعدك ، كان بودى أن أذهب ، وأن أحقق لك

رجاءك ، ولكن كل الظروف تحول بينى وبين الذهاب ... انظر يا جلال إلى نفسك ، أنت لاتزال طالبا ، ومازال الطريق أمامك طويلا . الزواج يا بنى ليس عبثا ، إنه يحتاج إلى تكاليف كثيرة . من أين تنفق على نفسك وعليها ؟ .

إن ما يدفعه لبيب وزكريا وخالد لا يكاد يكفينا ، فكيف تفكر فى الزواج الآن ؟ أتريد أن ينفق إخوتك عليك وعليها ؟ . !

حتى إذا وافق إخوتك على أن ينفقوا عليك وعليها . فأنا لا أقبل لك أن تعيش أنت وزوجك عالة على إخوتك . إننى بصرتك ، وأنت حر بعد ذلك ، تفعل ما تريد ..

وكأنما أزاحت عن عينيه غشاوة ، فرأى لأول مرة حقيقة حاله ، طالب فى الجامعة ، ينفق عليه إخوته ، فكيف خطر الزواج على باله ؟ وأحس نفسه تقاصرت إليه ، فقال لأمه فى رجاء :

ـ اكتمى على هذا الأمر .

فابتسمت له مطمئنة ، وربتت على ظهره فى حنان ، فانصرف مطرقا يحس خجلا .

ـ ١١٦ ـ

وقف سعيد ويحيى فى النافذة ينظران ، وكان سعيد غائبا عن كل ما حوله ، فهو يعيش بخياله مع الفتاة ذات الثوب الأسود ، التى يهفو إليها فؤاده كلما خلا بنفسه وشرد بفكره ، فهى فى ضميره إذا استيقظ ، وإذا استلقى بين النائم واليقظان .

وراح يحيى يقلب عينيه فيما حوله ، فلا يرى إلا الخربة ، والنجرو فى قميص من الخيش ، وحول رقبته سبحته الضخمة ، وحليمة فى جلستها الخالدة ، وقد خلف الزمن فى سحنتها آثاره ، وفتاة سمراء جف عودها ترتدى ثوبا ينم عن فقر شديد، وما أن نظر إليها حتى ارتد بصره إليه وهو حسير ، وقال فى ضيق :

ـ أين ذلك الشارع الجديد الذى ولدنا ونحن نسمع عنه ، لو أن ذلك الحلم قد تحقق لاسترحنا من هذه المناظر التى تقبض النفس ، ولتمتعنا بأسراب الفتيات الجميلات اللاتى يخطرن فيه ، إننى لا أتمنى إلا أن أرى امرأة مليحة تمر من تحت نافذتنا ، ولكن لا أرى إلا الغربان .

وهمس سعيد وهو فى شرود :

ـ أتمنى أن أكون فى القاهرة الساعة .

فقال يحيى وهو يبتسم :

ـ ما أيسر تحقيق أمنيتك ، أما أنا فيحتاج تحقيق أمنيتى إلى ما لا أدرى من سنين ، وقد لا تتحقق ، فإنى أحس أننى لن أرى ذلك الشارع الجديد أبدا ، ولن أرى الفتيات البيض السمان يخطرن أمام دارنا .

فرنا إليه سعيد وقال :

ـ كيف أكون فى القاهرة الساعة ؟ .

ـ صادق مسافر اليوم إلى القاهرة فى سيارته ، وسيعود فى المساء ، يمكنك أن تذهب معه .

فقال سعيد ، وعيناه تأتلقان ببريق السرور :

ـ حقا ؟ .

فهز له يحيى رأسه مؤكدا ذلك ، فهرع سعيد إلى ملابسه يرتديها ، وانطلق إلى صادق وهو مسحور .

وراحت السيارة تنهب الطريق الصحراوى إلى القاهرة ، وقد شرد سعيد ، وولدت فى صدره حرارة وسبقه خياله ، فراح يرى ما يتمنى أن يكون .

وأمام قصر العينى هبط ، وقلبه يدوى فى صدره ، ومشاعر الحنان تدب فيه دبيب النمل ، والتفت إلى صادق وقال :

ـ اذهب حيث تشاء ، وسأنتظرك هنا .

فقال صادق :

ـ قد أتأخر .

ـ ستجدنى هنا حينما تعود .

ووقف أمام دارها يمد بصره إلى النوافذ والشرفات ، وكل أمنيته أن يتزود منها بنظرة ، أن يمد بصره إلى عينيها اللتين يخيل إليه أنهما ماخلقتا إلا لتناجياه وحده ، أن يعيش فى مجالهما سويعة ، وراح يتلفت وقد مار فى جوفه قلق لذيذ .

وجعل يغدو ويروح ، وماتسرب الملل إليه ، وما فكر فى أن ينصرف مرة ، كان كالعابد الغارق فى التسبيح ، شغل قلبه بعبادته عن نفسه وعن كل ماحوله .

وفتحت النافذة وأطلت منها ، فراح قلبه يقفز فى رعونة ، حتى كاد يطير من صدره ، وتفجرت مشاعر النشوة فملأته ، وفاضت على وجهه بشرا، فرفت على فمه بسمة راضية كل الرضا ، وتعلقت عيناه بها ، وراح يناجيها فى صمت بليغ .

وعاش فى عالم مسحور ، كل ما فيه لذيذ ، هام روحه بروحها ، وشفه الوجد، فخيل إليه أن العالم كله يردد فى أذنيه أهازيج الحب فتفتحت نفسه تفتح الورد إذا مسه ندى الربيع ، ورقصت نفسه فى أنغام سماوية ، لاتصدح إلا للمحبين .

وغادرت النافذة ، فاغمض عينيه ، خشية أن يفيق من الحلم اللذيذ .

ـ ١١٧ ـ

تقلبت صفية فى فراشها واهنة ، وفتحت عينيها ، فألفت يحيى إلى جوارها ، فقالت له فى لهفة :

ـ ألم يرسل خالد أية رسالة ؟ .

فقال لها يحيى معتذرا :

ـ الرسائل تستغرق وقتا بيننا وبين إنجلترا .

وأسبلت صفية عينيها وهى تغمغم بأدعيتها ، كانت تدعو الله من قلبها أن يغنم ابنها السلامة ، وتقضت لحظات وهى تتجه بكل مشاعرها إلى السماء ،

وأحست حركة بجوارسريرها ، ففتحت عينيها ، فألفت زوجها وفى يده صحيفة ، وفى وجهه قلق، فانقبضت وسرت فيها رهبة ، وقالت فى خوف :

ـ أحدث شيء للأولاد ؟!

فقال فى صوت خافت :

ـ لم يحدث لهم شيء ، إنهم بخير .

فقالت له وقد اتسعت عيناها :

ـ قلبى يحدثنى أنه حدث شيء ، ووجهك ينطق بما وقع ، قل لى ماذا جرى !

فقال لها وهو يدنو منها :

ـ والله لم يحدث شيء .. كلهم بخير .

ـ فما هذا القلق الذى فى وجهك ، إننى أعرفك لاتقدر على إخفاء مشاعرك، وجهك يقول إنك قلق ، بالله لاتخف عنى شيئا ، لم أعد تلك الشابة التى تقوى على كبح عواطفها ، على ، لاتعذبنى .. قل لى : ماذا تخفى عنى ؟ .

فقال لها وقد أسبل جفنيه حتى لا ترى ما ترقرق فى عينيه :

ـ قرأت فى الأخبار أن أحد الطيارين المصريين مات فى إنجلترا فأشفقت على خالد .

وساد الصمت ، ورفرف القلق ، ثم قالت فى صوت مرتجف :

ـ أحقا ماتقول ؟ . لم يقع لخالد مكروه ؟ .

فقال وهو يغالب دموعه :

ـ إنه بخير .

ولم تقو على كبح عواطفها ، فأجهشت بالبكاء ، وقالت فى لوعة :

ـ ابنى ..

فدنا منها وقال فى دهش :

ـ صفية ، أتبكين ؟! كفكفى دموعك قبل أن يراك الأولاد .

ومسح عبراتها ، وشردت ببصرها ، ولاح على وجهها سهوم ، وظل على يرنو إليها فى حب ، واستمرت فى تفكيرها القلق ثم قالت فى حزن :

ـ قلبى يحدثنى أننى لن أرى خالدا أبدا .

فقال فى فزع ليطمئن نفسه ، قبل أن ينزل السكينة بقلبها :

ـ سيعود خالد بعد أن تنتهى بعثته سليما معافى ، بإذن الله .

ـ أرجو أن يعود قبل أن أموت .

فوضع يده على فمها فى رقة ، ليمنعها من الحديث وهو يقول :

ـ لا أحب أن أسمع هذا أو يجرى مثل هذا الحديث على لسانك .

ومارفع يده عن فمها حتى عادت تقول :

ـ على .. إننى سأموت ، أحس الفناء يدب فى جسمى .

استشعر على كأن يدا تعصر قلبه ، وأحس رغبة فى البكاء وقال فى ضعف :

ـ بالله لاتقولى هذا ، ما أبشع الحياة لو خلت منك ! .

وطأطأ رأسه ، ولاذ بالصمت ، ثم قال :

ـ أرجو أن تصفحى عنى ياصفية ، إذا كنت حملتك عبئى ، ولكن ما ذنبى؟ كنت أقدر منى على سياسة أسرتنا ، فتركت لك قيادها . وحاولت أن أنهض بنصيبى، ولكن كان رزقى محدودا ، فلم أكفر بنعمة ربى ، ولم أقنط من رحمته ، بل توكلت عليه ، وتركت له مقاليد أمرى ، لم يكن لى يد يا صفية فيما قاسيناه من ضيق .

فقالت صفية وقد شردت ببصرها :

ـ كانت أيامنا حلوة ، ليت أيامنا تدوم .!

وغرقا فى الصمت ، كانت مشاعرها جياشة ، استعصت على التعبير .

ـ ١١٨ ـ

راح حسان يصعد فى الدرج هونا ، حتى إذا بلغ شقة أخيه طرق الباب ، ثم دخل يعود صفية . فألفاها مسجاة فى سريرها وقد غاض لونها ، فأحس انقباضا ، ودنا إليها قليلا فى إشفاق ، ثم قال بصوت خافت رقيق :

ـ كيف أنت الآن ؟ .

فقالت فى صوت ضعيف :

ـ الحمد لله .

وجلس صامتا ، وراحت الأفكار تدورفى رأسه ، ألهذا خلقنا ؟ أيام قصيرة ـ مهما طالت ـ نقضيها فى تعب وشقاء ثم نذهب ؟! من أين جئنا وإلى أين نرحل ؟ ولماذا جئنا ؟ أيحفل الكون لمجيئنا وذهابنا ؟!

أكان يجلس هكذا مطرقا صامتا لو أن هذه المسجاة ، كانت زوجه ؟ زوجه ؟! لو أنها كانت زوجه لذرف عليها الدموع ، ولتقطع نياط قلبه ، ولكن لماذا يفكر فى هذا وماكان ليسمح لنفسه أن يرتكب هذه الحماقة أبدا ، يكفيه مايقاسى فى هذه الدنيا من شقاء .. يكفيه ماهو فيه من هوان ، لو أن له حسنة فى هذه الحياة ، لكانت زهده فى إنجاب أولاد مهما سعدوا فى الدنيا فهم أشقياء ، ماذا للإنسان على الأرض ؟ نصب وكفاح وصراع ، ثم يتخطفه الموت .. ألا يتكلم أحد ليخرجه من هذه الأفكارالتى تستبد به كلما خلت به نفسه .

وران الصمت ورأى أن يفر من أفكاره ، فنهض مستأذنا ، وخرج شارد اللب ، يستشعر جفافا فى حلقه ، وراح يهبط فى الدرج ساهما ، وإذا بصوت زهيرة يرن فى أذنه :

ـ أهكذا تصعد وتهبط دون أن تمر علينا ، أوتسأل عنا ؟

وهم بأن يعتذر ، ولكن صك أذنيه صوت عزيزة :

ـ لا تعاتبيه ، إنه غارق فى سكره ، لايدرى ما يفعل ، إنه لايفيق أبدا .

واربد وجهه ، وأسرع فى هبوطه دون أن ينبس بكلمة ، وإن كانت أفكاره أخذت تصرخ به : إنه لا يفيق أبدا .. إنه لا يفيق أبدا .. ليت هذا كان حقا . لأستريح من لحظات الصحو التى تمزقنى وتزيد آلامى اشتعالا ، ماذا فى دنياكم يستحق أن أكون لأجله صاحيا واعيا ؟ الظلم فيها عام ، بهاء يأكل فلاحيه ، ويستبد بهم ، فيكافأ على استبداده وظلمه ويصبح بهاء باشا ، وسيد المسكين يحلم بالمال ، فإذا ماتحقق حلمه ونال مئتى جنيه لم يترك ليهنأ ، بل سرق منه ما كسب ، فيا للسخرية ، أعطى ما يشتهى أياما ، ثم سلب منه ، وسلبت معه حياته .

وخرج من باب البيت ، فوقع نظره على حليمة جالسة فى مكانها ، وأمامها قفصها رصت فوقه قطع الحلوى ، فإذا بأفكاره تصيح : وهذه من عشرات السنين، كل ماتبغيه من دنياها لقيمات يقمن أودها ، إنها تشقى فى سبيل بطنها ، وقد تلوه ليلة ، وتبيت على الطوى ليلة ، بينا تجد هذه الكلاب الضالة طعامها !

ورمى بنظرة إلى الخربة ، فوجد النجرو فى أسماله ، وحول عنقه مسبحته الضخمة ، والقطط تجرى حوله ، فأشاح بوجهه عنه ، وانطلق فى الحارة يتكفأ فى مشيته ، يحاول أن يهرب من أفكاره الصاخبة الثائرة .

وبلغ الشارع العام ، فألفى الزينات على وجوه المحال تتألق ، فهبت أفكاره تسأل : لماذا كل هذا الفرح ؟ لأن ملك البلاد سيتزوج ! لأن على العبيد أن يفرحوا إذا فرح السادة ! لأن النفاق يقضى أن يدفع الفقراء ثمن الزينات من أقواتهم وأقوات عيالهم ، ليعلنوا بولائهم ، وأن ينفق الشعب الجائع على أصحاب الكروش فى ليلة زفافهم .. فللملوك حق معلوم فى أموال السائل والمحروم !

وراح يهرول ليفر من نفسه ، حتى إذا بلغ الحانة ، أخذ يلقى كئوس الخمر فى جوفه ، ووجم وشرد بصره ، وانبثقت الدموع من عينيه ، ثم أجهش بالبكاء وموسيقى الزفاف تصدح فى كل مكان .

- ١١٩ -

عاد جلال وسعيد إلى القاهرة ، فأخذ سعيد ينسق الغرفة ، وهرع جلال إلى النافذة يسترق النظر ، فألفى نوافذ علية مغلقة ، كانت كأسجاف الجفاء ، أسدلت لتحجب الود المسلوب فاستشعر راحة ، وراح يتطلع إلى الطريق فى هدوء .

كان ممتلئا ثقة قبل سفره أنه قادر على إقناع أمه بالذهاب إلى أهلها لتخطبها له ، وكان مقتنعا أن الزواج بها هو خير مايفعل ، ليصلح ما أفسده ، وليرفع رأس علية ، بعد أن تسربلت الذل ، يوم أن ضبطها أهلها معه فى غرفة واحدة ، ولكن ما إن بصرته أمه بحاله وماإن ذكرته بأنه مازال طالبا يمد إخوته بمايعينه على الدراسة ، حتى تبخرت من رأسه فكرة الزواج ، وحتى تفتحت عيناه على أنها فكرة عابثة ، فوطن النفس على أن يفر من طريق علية ، وأن يقيم بينه وبينها سدا .

أغلق قلبه دونها ، وأقنع نفسه أنه برىء مما نالها ، إنها دعته بنفسها أن يدخل معها يسامرها فدخل ، فإذا كان حظها العاثر قد ساق أهلها فى هذه الساعة ليفجئوهما ، فما كان ذلك من تدبيره ، وما كان عليه أن يتحمل وزر ما جرى ، إنه دعى فلبى فالغرم يتحمله من دعا !

وانتهى سعيد من تنسيق الغرفة ، ووقف أمام المرآة يصلح هندامه ، ثم انسل إلى الطريق يجد فى سيره ، ويرفرف قلبه فى صدره ، فقد كان ذاهبا إلى دارها ، يرصد منافذ الطريق وشبابيكها وكل ما يرجوه أن يلمحها ، أن تكتحل عيناه برؤيتها ، أن يتزود منها بنظرة .

وراح يذرع الطوار بجوار سور قصر العينى ، وقد أخذت عيناه تنتقلان بين مدخل البيت والشبابيك ، واستمر فى غدوه ورواحه ، وهو غارق فى غيبوبة لذيذة ، وكل فكره معلق بها .

وتقضى الوقت وماتسرب إلى نفسه الملل ، وما ضاق بوقفته بل ظل منشرحا

راضيا ، كأنما كان يكفيه أن يكون فى حيها .

ولمحها مقبلة ، فازداد وجيب قلبه ، وسجرت مشاعره ، واضطرب اضطرابا مشتهى ، وسار نحوها كالمسحور، ودنا منها وقد ملأ عبيرها أنفه فاستشعر نشوة، وجعل يرنو إليها فى وله ، وقد هامت روحه فى عوالم رحيبة من الحب والوداد . ودلفت إلى البيت رشيقة كالطيف ، فأرسل بصره خلفها ، حتى إذا ما غابت عن عينيه ، استمر فى وقفته ينعم بالمشاعر اللذيذة ، التى كانت تمور فيه منتشية مزغردة .

وقفل عائدا إلى البيت وهو نشوان ، وراح الليل يرخى ستائر الظلام ستارة إثر ستارة : حتى إذا ما انقضى بعض الليل دخل فراشه لينام ولكن لم تغمض له عين ، كان يفكر فيها ، إن الأيام تمر وهو قانع برؤيتها فى الصباح وفى العصر ، قانع بالسير خلفها على البعد ، قانع برصد حركاتها وسكناتها .

وهفت نفسه إلى محادثتها ، إلى الإصغاء إليها ، إلى مناجاتها ، ولكن كيف يحادثها ؟! يتقدم منها ويقرئها التحية ؟ ولكن هذا محال إنه لن يفعل ذلك أبدا ، فهو لا يرضى لنفسه أن يتسم بما يتسم به الشباب الرقيع ، إنه لن يعترض طريق فتاة ليسمعها عبارات الغزل .

وثارت عليه نفسه ، وراحت تسخر منه ، وتسأله عما يجب أن يفعله لينال بغيته ، أينتظر حتى تتقدم هى وتحادثه ؟! أيتريث حتى تقع المعجزة ؟ إنه يحبها من أعماق قلبه ، وهو يحس إحساسا عميقا أنها له ، وله وحده ، وإنه يعتقد اعتقاد اليقين أنه قادر على أن يصنع مستقبله بيديه ، ولكن ما باله يجد نفسه عاجزا لأول مرة أمام فتاة ، فيا لخجله ! كيف له أن يقهره ؟

ما الذى يجعلها تختاره هو من بين آلاف البشر ؟! حقيقة أنه يحبها ، وأن نظرة منها تجعله يهيم فى متاهات السعادة ، ولكن أيكفى هذا الحب ليجذب بصرها إليه ؟ ليتها تصغى إلى دقات قلبه ، وليت الحب قادر على أن يكشف نفسه بنفسه .

لابد أن يتقدم إليها وأن يشعرها بوجوده ، وأن هناك من يهيم بها ويسعده

رضاها .

ووطن العزم على أن يلفت نظرها إليه ، وطاف به ملاك النوم وطوقه بذراعيه، فراح فى سبات ، وتصرم الليل وما أشرقت الشمس حتى هب من نومه ، وارتدى ثيابه ، وخرج يهول إلى دارها يرقب هبوطها .

ولاحت فى ثوبها الأسود ، ناضرة كزهرة ، رقيقة كالنسيم ، فدق قلبه بين ضلوعه ، وفكر فى أن يسير خلفها ، ويدنو منها يحييها تحية الصباح ، فاشتد وجيب فؤاده ، ومشت رعدة فى أوصاله ، ولفه اضطراب .

وسارت رشيقة ، وهو يقفو آثارها ، يمور فيه القلق ، ولا يجد فى نفسه الشجاعة على أن يقترب منها ، فاستمر يتبعها خاشعا كعابد متبتل ، حتى إذا غابت فى المدرسة ، قفل عائدا إلى البيت ، قانعا بما تزود به من نظرات .

- ١٢٠ -

فى هجمة الليل ، دق الباب دقات متتابعة ، فهب جلال وسعيد من نومهما مذعورين ، وهرع جلال وهو يرتجف إلى الباب ، وذهب سعيد إلى الزر الكهربى وأداره ، ثم اتجه ليرى من الطارق فألفى جلال فى يده برقيه يرنو إليها زائغ البصر مضطربا ، فأخذها منه ، وراح يقرؤها ثم غمغم :

- ماتت ؟ .. أمى ماتت .

وترقرق الدمع فى عينى جلال ، ولاح فى وجهه الأسى ، ولم يذرف سعيد دمعه ، وإن كان يحس فى جوفه وقدة نار ، فقد كان عصى الدمع ، وظلا صامتين يدثرهما الحزن ، وأخذا يرتديان ثيابهما حتى إذا تأهبا للسفر ، هبطا فى الظلام يدوران على بيوت أقاربهما يحملان النبأ الفاجع .

كان الهواء يهب باردا ترتجف له الأوصال ، ولكن ما كانا يحسان قرس البرد ، فقد شغلا بنار الأسى التى اشتعلت فى نفسيهما ، وراحا يبحثان عن سيارة ، فلما

عثرا عليها ، استقلاها مع بعض أقاربهما ، وانطلقت بهم ، وقد أطرقوا جميعا ساهمين ، يجرون وراء أفكارهم الشاردة الحزينة .

وراح الوقت يمر وئيدا ثقيلا ، ولاح كأن الطريق ليس له نهاية ، وتململوا فى مقاعدهم ، ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة ، ولم تتلاق ابصارهم ، أسبلوا الجفون على العيون المحمرة ، وأغلقوا القلوب على ما فيها من شجن ، فراحت المشاعر الحزينة تمور عاتية فى أجوافهم ، حتى لتكاد تعصف بهم .

وهبت الرياح غاضبة مزمجرة ، وآذت وجه سعيد ، ووخزت صدره ، ولكنه كان مشغولا عنها بأفكاره الوافدة على رأسه ، فما أكثر ذكريات أمه التى حفرت فى نفسه ، فياللدنيا ! صارت أمه الحبيبة التى كانت تملأ الكون نشاطا مجرد ذكرى .

وملأت الأنوف رائحة البحر ، وراح الأفق يتفتح عن فجر جديد ، فغمغم صوت خافت :

- وصلنا .

واطبق الصمت ثانية ، ولم يعكره إلا سعال سعيد ، فقد بدأ يسعل .

وانسلت السيارة إلى الحارة ، وراحت القلوب تخفق فى حنايا الضلوع رهبة ، وأرهفت الحواس ، وتنبهت الأسماع ، فلما صك الصوات الآذان ، تمزقت النفوس ، وهيج دمع العيون ، إلا سعيدا فقد قلص دمعه .

وهبطوا من السيارة واجمين ، وراحوا يصعدون فى الدرج مطرقين ، ووقعت عينا جلال على أبيه الواله الحزين ، فانفجر باكيا ، وظل سعيد صامتا يزدرد غصصه ، كأنما يزدرد نارا موقدة .

وعلا عويل على وحسان وجلال ، وراح لبيب يكفكف عبراته ، وأطرق زكريا يجاهد أساه ، وانسل جلال ، وانطلق إلى حيث الجسد المسجى ، وارتمى فوقه ، وهو يصيح لا يرقأ له دمع :

- أمى .. أمى .

وجاء يحيى يبكى ، وجذب أخاه من يده ، فخرج جلال وهو يصيح

- أمى .. أمى .

والقى نظرة أخيرة على أمه الحبيبة التى أنطفأت ، بعد أن أنارت لهم سبيل الحياة .

ـ ١٢١ ـ

أطلت سهام من النافذة ، ومدت بصرها إلى بيت خالد ، فوجمت ، وشردت تفكر فى ذلك الحبيب الذى ماتت أمه دون أن يراها أو تراه ، فاستشعرت حسرة ، وانفجرت فى أعماقها مشاعر الإشفاق والحنان ، وإذا بها تفعم بالرغبة فى الكتابة إليه ، تناجيه وتواسيه .

ياطالما راودتها فكرة الكتابة إليه ، كلما زارها طيفه ، وياطالما هفت روحها إلى مناجاته وسكب مشاعرها على القرطاس ، لتبعث إليه ذوب فؤادها ، ولكن كان خجلها يهب فى وجهها ثائرا ، فتتقلص أمام ثورته ، وتئد رغباتها الموارة فى جوفها، ولكن لم يعد لها الخيار ، ماتت أمه ، فحق عليها أن تبعث إليه بتعزية رقيقة ، ولم يجرؤ خجلها أن يهب فى وجهها ينهاها عن أداء ذلك الواجب ، وهمت بالذهاب لتكتب إليه ، ووصوص فى أغوارها صوت : « لماذا تكتب إليه هى ، ولا يكتب إليه حامد ؟! » وأصاخت لذلك الصوت فاقتنعت ، فخالد صديقه ، وما هى إلا أخت صديقه ، هذا ما يعرفه خالد ، فلو أنه يعرف غير ذلك ما طعن فؤادها ــ دون أن يدرى ــ طعنات ترنحت تحت وطأتها .

وذهبت إلى حيث كان حامد ، وقالت له معاتبة :

ــ ألا تبعث لخالد بتعزية ؟ .

فقال حامد فى ضيق :

ــ ثقيل على نفسى أن يكون أول ما أكتبه إليه تعزية ، فما كتبت له من قبل .

ــ من الواجب أن تواسيه .

ـ ولماذا لا تكتب الآن ؟ .

ـ أحس فتورا .

فقالت ساخرة :

ـ لعلك تنتظر أوبته ثم تعزيه .

ـ ما أثقل الكتابة على نفسى .

ـ سأكتب التعزية ، وما عليك إلا أن توقعها .

فقال حامد فى راحة :

ـ أشكر لك هذه المكرمة .

ودارت على عقبيها ، وقبل أن تتحرك ، قال لها :

ـ أرجو أن تختصرى الرسالة ، فإنى أكره الرسائل المطولة .

فقالت وهى ترنو إليه من فوق كتفها :

ـ أعرف أن قراءتها تتعبك .

وانسلت خفيفة ، يدق قلبها بين ضلوعها ، ستكتب إليه ، تبثه بعض ما يعتلج فى جوفها ، ليتها كانت تبثه لواعج نفسها ، ليتها تصارحه بحبها ، ليت المناسبة كانت أفضل من هذه . وليتها تكتب إليه دون أن تتستر خلف حامد ، ولكن ما كان الأمر بيدها ، إنها لتقف إلى جواره فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، فى الفرح والحزن ، فى الفرج والضيق ، ليته يدرى .

إنه وحده فى بلاد الغربة ، منطويا على نفسه ، يجتر أحزانه ، فمن يدرى لعل هذه الرسالة تخفف شجونه ، وتذهب بلواعج نفسه ، وتوحى إليه أنه ليس وحده ، وأن هناك من يشاطرونه مشاعره وإحساساته .

وأمسكت بالقلم ، وخطر لها أن تكتب : « حبيبى خالد » فرفرف قلبها فى رعونة بين جوانحها ، وأحست كأن أنشودة عذبة صدحت فى فؤادها ، وتدفق الدم حارا إلى وجهها ، وأفعمت بمشاعر رقيقة متحننة ، وكادت تسترسل فى تخيلاتها الحالمة ، ولكنها راحت تجمع شتات نفسها ثم كتبت :

عزيزى خالد :

يحز فى نفسى أن يكون أول ما أكتبه إليك تعزية ، ولكن هذه مشيئة الله ، وهذا قضاؤه .

الرزء فادح ، والمصاب جلل ، وليس لنا إلا أن نتجمل بالصبر وأن نبتهل إلى الله أن يلهمنا السلوان ، وأن يتغمد الفقيدة العزيزة برحمته .

إننا يا خالد نشد على يدك مواسين مشجعين ، وثق أنك لست وحدك ، وأن قلوبنا تحوطك وترعاك ، وتشاطرك أحزانك

تجلد يا خالد ، وكفكف دمعك ، فعزاؤنا أنها ذهبت وقد أدت رسالتها كأحسن ما يكون الأداء ، فلها رحمة الله الواسعة ، ولك طول البقاء .

وغمغمت فى وجد : « يا حبيبى ! » .

ـ ١٢٢ ـ

سكبت الشمس ضوءها من النافذة ، فغمرت الحجرة بالنور ، وقام سعيد من نومه يتمطى ، يحس رأسه يكاد ينفجر ، وحرارته تكاد تشوى وجهه ، ففكر فى أن يعاود الرقاد ، ولكن خطر طيفها فى ذهنه ، فشد ازره ، ونفخ فيه قوة قهرت ضعفه، فذهب يرتدى ثيابه ، وقد شد وسطه يقاوم أن ينهار .

وراح يسعل ، فاستيقظ جلال على سعاله ، وقال له :

ـ ألا تستريح اليوم ؟ لقد لقينا فى سفرنا نصبا .

فقال سعيد وهو يخفى عن أخيه وجهه الشاحب :

ـ لا أستطيع ، فقد دنا ميعاد الامتحان .

واتجه صوب الباب ، فصاح جلال :

ـ ولماذا تخرج هكذا مبكرا ؟ .

لم يحر سعيد جوابا ، وفطن جلال إلى سبب خروجه فابتسم على الرغم من الحزن الثقيل الجاثم على صدره ، وانسل سعيد يجر رجليه ، ويترادف سعاله ،

ولكنه ما كان يشعر بما يقاسى ، فقد كانت رغبة النظر إليها تستبد به ، وتجعله يعيش فى غيبوبة لذيذة تنسيه ما ينتابه من آلام .

وانطلق فى الطريق يتحامل على نفسه ، تتراقص الأرض تحت قدميه ، ولكنه لم يفكر فى أن ينكص على عقبيه ، كانت قبلته ، وكانت رؤيتها غايته ، فسار وكل همه أن يصل إلى دارها ، وأن يسعد بطلعتها لحظات .

وقابلته فى الطريق صديقه صادق ، فقال له :

ـ إلى أين ؟ .

فقال سعيد وقد أشرق وجهه سرورا .

ـ إليها .

فابتسم صديقه ، وسار معه ، وأخذ يثرثر وسعيد يسمع كلامه ، ولا يفقه منه شيئا ، كان ذهنه غائبا ، يسبق الحوادث ويتخيل ما يتمنى .

وبلغا سور قصر العينى ، فوقفا على الطوار ، سعيد يتطلع فى لهفة إلى باب بيتها ، وقد غمرته مشاعر رقيقة حالمة ، وصديقه يتحدث إليه حديثا يجرجر بعضه بعضا ، ولو انصف للاذ بالصمت وترك سعيدا يهيم فى متاهات الخيال .

ولاحت عند الباب بثوبها المدرسى الأسود ، وانتقلت إلى الطريق فى خفه فخفق قلب سعيد ، وامتلأ غبطة ، وهزه الوجد ، فخيل إليه أن روحه رفرفت حولها ، وراحت ترشف منها رحيق النشوة ، فسبح فى بحور السعادة ، وظل يرنو إليها كالمسحور وهى تنساب فى رشاقة حتى غابت عن عينيه .

واستمر فى سهومه ينظر إلى لا شىء ، ولكنه كان يراها بقلبه وذهنه : وينعم بإحساساته ، ونظر إليه صديقه ثم قال :

ـ هيا ، لقد ذهبت .

فأفاق من حلمه ، وانطلقا إلى قصر العينى ، ومادلفا من بابه وسارا فى الممر الطويل الذاهب إلى المستشفى ، حتى راح سعيد يسعل ، ويحس ضعفا يدب فى أوصاله ، ورغبة فى أن ينهار ، فالتفت إليه صديقه وقال :

ـ إنك مريض ، ولابد أن تعرض نفسك على الطبيب الآن .

وذهبا إلى الطبيب ، وما أن فحص عنه ، حتى أمر بإدخاله المستشفى ، فقاده صديقه إلى سريره ، ثم ذهب إلى الدار يحضر له الثياب .

ومر النهار وسعيد ممدد فى فراشه ، يفكر فيها ويناجيها ، ويدير بينه وبينها أحاديث شهية ، كانت ترفعه من دنيا آلامه إلى دنيا بهيجة من نسج الأوهام والخيال، وأقبل الليل ، ووفد صديقه يعوده ، فما أن جلس على حرف السرير حتى مال وقال له وهو يبتسم :

ـ خير دواء لدائك أن أحضرها لك .

فأشرق وجه سعيد ، وقال فى ثقة :

ـ والله لو جاءت الساعة لأقومن من فراشى هذا بارئا معافى .

ـ ١٢٣ ـ

راح على يدور فى الغرف ساهما واجما ، يحس فراغا فى نفسه وخواء فى روحه ، وهما يكاد ينقض ظهره ، بعد أن ذهبت صفية وتركته وحده فى بيت الأحزان .

كان يعيش طليقا قبل أن تذهب ، ينام حتى الضحى ، ثم ينطلق إلى المقهى يتجاذب مع أصدقائه أطراف الحديث ، فإذا جاء أوان الغداء ، عاد إلى البيت يتناول طعامه ، ثم يمضى إلى فراشه يقيل ، حتى إذا أقبل المساء ، خرج يقضى سهرته مع صحبه ، لا يفكر فى شىء ، كانت هى عقله المدبر ، والحارس الساهر على بيته ، الموحى بالطمأنينة والسلام .

إنه يحس أنه بات غريبا فى زحمة الحياة ، لايدرى ماذا يفعل ، وإنه ليفزع إذا ما فكر فى يومه ، وتغيم عيناه بالدمع إذا ما تذكر زوجه ، إنه حائر قلق منزعج مضطرب ، ذهبت نفسه شعاعا ودثرته الآلام .

وأطرق يفكر فيما يجب عليه أن يفعله ، واستمر مطرقا لا يهتدى إلى شىء ،

كان قد ألف حياة الفراغ ، فكان عسيرا عليه أن يفكر فى حياة أخرى ، كلها مسئولية وكفاح .

إيكافح فى الحياة ؟! هو الذى ترك الكفاح ، وركن إلى الدعة بعد أن ألقى عليها العبء كله ، فنهضت به راضية مرضية ، أجل ، ينبغى أن يعاود الكفاح ، وإن يهجر المقاهى والصحاب ، ويقوم بواجبه نحو الأولاد .

وقر رأيه على أن يبحث عن عمل ، يغرق فيه همومه ، ويمكنه من أن يسدى إلى أهله يدا ، فذهابها قد ترك فى الأسرة فراغا كبيرا فعليه أن يبذل ما وسعه البذل، ليسد ذلك الفراغ .

أينجح فى أن يعوض الأولاد عما فقدوه ؟ أن يصب عليهم حنانه ؟! ولكن ما حنان الأب إلا قطرة فى بحر حنان الأمومه الدافق ، أفتطفىء هذه القطرة عطشهم الدائم إلى الحنان ؟!

إن موتها لخسارة ، وإنه وهو الذى أصبح عليه أن يمنح الحنان ، لفى حاجة إلى حنانها ، فمصابه فيها كمصابهم ، بل مصابه أشد وأقسى ، فسرعان ما يبلى حزنهم، بيد أن حزنه عليها لن يبلى ، ستغمرهم الحياة ، وينسون همومهم وهم فى طريقهم إلى مستقبلهم ، ولكنه بلا مستقبل ، سيعيش فى ماضيه ، يجتر ذكرياته المغلفة بالأحزان .

سار إلى باب الشقة مطاطىء الرأس ، وقبل أن يدلف إلى الدرج ، التفت خلفه، وألقى نظرة ملؤها الأسى على السكون الجاثم فى كل مكان ، فاستشعر وحشة ، وأحس كأنما يقف على أطلال ففرت دمعه من عينيه تركها تنحدر على خده، ثم انطلق يسعى وفى جوفه وقدة جمر تتلهب .

وانساب فى الطريق ، وقد ضاقت الدنيا فى عينيه ، لا يدرى أين يذهب ، كان ينطلق دائما إلى المقهى ، ولكنه يريد اليوم أن ينقب عن عمل ، ولكن أى عمل بعد تلك السنين التى تقضت ؟ وتذكر أنه كان يعمل يوما فى حانوت الحاج كرم ، فوطن النفس على أن يذهب إلى هناك .

واتجه إلى الحانوت . وتقدم إليه هونا كأنما يحمل أثقالا ، وأشرف على

الموجودين ، فقال فى صوت خافت :

ـ السلام عليكم .

فردوا السلام ، وفسحوا له مكانا ، فجلس صامتا لا ينبس بكلمة ، وتصرم الوقت وهو فى إطراقه ، وأراد مصطفى أن يخرجه من صمته ، فقال له مواسيا :

ـ هذا حال الدنيا .

فقال على ، وقد انقبض فؤاده :

ـ تركت لى أختك هموم الدنيا ، والله لا أدرى ماذا أفعل بعدها ، وماذا أفعل للأولاد ؟ لهم الله !!

وشرد بصر على ، وقد علا وجهه وجوم ، وقال مصطفى :

ـ كبر الأولاد وزال همهم ، أصبحوا قادرين على أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم .

ولم يصدق على ما يسمع ، فقال فى قنوط :

ـ ماذا يمكننى أن أفعل أنا للأولاد ؟!

ولم يطق المكث ، فنهض وانطلق هائما على وجهه .

ـ ١٢٤ ـ

سعيد فى فراش المرض يفكر فى حاله ، إن روحه تهفو إلى فتاته ولكنه عاجز عن أن ينهض وأن يذهب بضعة أمتار ليلقى عليها نظرة تطفىء لهيب الشوق المتأجج ، إنه فى فراشه لا يفصل بينهما إلا بضع حجرات ، وسور قصر العينى وشارعها الحبيب ، الذى تطل عليه كل نهار وكل مساء .

ترى لو كانت تعرف مقدار حبه ، وأنه قد أصيب بماء فى الرئة ، أكانت تحجم عن عيادته ؟ مستحيل . إنها ملاك ، لو كانت تدرى أنه يتلهف على رؤيتها ، لخفت إليه ، وغمرته بحنانها وملأت قلبه بالأفراح .

إنه يستشعر فى أعماقه أنها له ، وأنه لها ، وأن القدر قد ربط بينهما

الأسباب ، ولكن كيف وهو يكتفى بالنظر إليها من بعيد ، والهيام إليها فى دنيا الخيالات ؟ فلو أراد أن تكون له ، لوجب عليه أن يتقدم إليها وقلبه على كفه ، فما فى الحب من عار .

إنه يؤمن بأنه قادر على أن يخلق نفسه بنفسه ، وأن يصنع مستقبله بيديه ، فلن يدع خجله يزحزحه عن طريقه الذى رسمه ، إنه يحبها .. يهواها ... يهيم بها ، ولن يتركها لأحد سواه .

ورن فى أذنيه صوت خافت ساخر ، « إذا كنت تخلق نفسك بنفسك حقا ، وتصنع مستقبلك بيديك ، فاقهر مرضك ، وتقدم إلى الامتحان غدا وإلا ضاعت هذه السنة هباء » .

وأحس قهرا ، ولكنه لم يركن إلى يأسه ، بل راح يصرخ فى نفسه : « هذا عام من عمرى ، فلن أضيعه هباء ، سأذهب إلى الامتحان ، سأقهر مرضى وأذهب إلى الامتحان » .

واستمر يقلب وجوه الرأى ، ويفكر فيما يفعل ، حتى راح فى سبات ، وانصرم الليل ، ووفد النهار ، ودبت الحركة فى ممار قصر العينى ، وأقبلت الممرضة تعوده ، فقال لها :

ـ أريد أن أذهب إلى الامتحان .

فقالت له فى لطف :

ـ أمر الطبيب ألا تغادر الفراش .

ـ احملونى إلى هناك .

وأصر وأمعن فى الإصرار ، فلم يجد الأطباء أمامهم إلا أن ينزلوا على رغبته، فجىء بنقالة ، وحمل فوقها ، وانطلق الرجال به إلى مقر الامتحان .

نظر الممتحن الإنجليزى ، فألفى شابا ممددا على نقالة يدخل عليه ، فلاح فى وجهه العجب وسأل :

ـ ما هذا ؟

ـ طالب مريض يصر على تأديه الامتحان .

فاقترب الرجل من سعيد ، وقال :

ـ إنك فى حاجة إلى الراحة ، وفى اختبارك إرهاق لك .

فقال سعيد فى حماسة :

ـ امضيت سنتين أستذكر ليل نهار فى انتظار هذه اللحظة .

ـ صحتك أثمن من كل شىء .

ـ جئت لتأدية الامتحان ، وما من قوة على الأرض تثنينى عن عزمى .

فهز الممتحن كتفيه ، وبدأ يلقى على المريض أسئلة ، وسعيد يتدفق فى إجابته ، وزال من وجه الرجل العجب ، ولاح فيه إعجاب ، وما انتهى من اختباره حتى رفت على فمه بسمة رضا ، وقال :

ـ ستكون طبيبا رائعا ، طبيبا عنيدا .

وبدأ الرجال يتحركون بالنقالة ، والرجل الإنجليزى يتبع بنظره الطالب المريض ، الذى يعتقد أن ما من قوة فى الأرض تثنيه عن عزمه ، وعلى محياه آيات التبجيل، وعلى فمه بسمة إعجاب .

ـ ١٢٥ ـ

جلسوا على الشاطىء ساهمين ، فقد جاءوا إلى المكس يمضون الصيف ، كما اعتادوا أن يفعلوا فى كل عام ، ولكنهم كانوا يحسون هذه السنة فراغا وانقباضا ، كانت هذه أول مرة يفدون فيها إلى البحر وقد غابت الأم الحبيبة ، التى كانت تبعث فى مصيفهم الحياة ، وتسربله بالبهجة والانشراح .

وأطرق على يفكر فى زوجه ، وفى قلبه أسى وحنين ، وقد ارتسم على وجهه الشجن ، كانا يجلسان معا يتناجيان ، ويرقبان الأولاد وهما يتجاذبات أحاديث مفعمة بالآمال ، وإذا به اليوم يستشعر وحشة ، إنه وحيد ، وإن كان أولاده يحيطون به ، ويلبون ما يبديه من رغبات .

كانت له صفية كل شىء ، حديثها يرضيه ، ووجودها إلى جواره يملأ نفسه ثقة واطمئنانا ، ورنوه إليها فى صمت ينعش روحه ، ويبعث فيه الحياة ، كانت دنياه ، فلما ذهبت أصبح بلا دنيا ، وفقد كل شىء .

وزحفت إلى رأسه أفكار ، عرض عليه بعضهم أن يتزوج بعد صفية ، فاعتذر بأنه لا يحب أن يضايق الأولاد ، وما كان ذلك حقا ، فقد أصبحت زوجه فى ناظريه رمزا للوفاء ، إنه يحس روحها ترفرف حوله فى كل حين ، فكان يوقن فى قرارة نفسه أن حديث زواجه يدمى روحها ، وما كان يحب أن يخدشها ، أو يعكر عليها ما هى فيه من صفاء ، لذلك كان يمقت أن تخطر له فكرة الزواج ، أو يجرى هذا الحديث على لسان .

وراح زكريا يمد بصره إلى البحر ، ويرقب الموج فى مده وجزره فإذا برأسه يمتلىء بأفكار ، فما ينظر إلى شىء حتى يتحول فى نفسه إلى فكرة ، إنه ليرى الموج فى إقباله وأدباره كالحياة ، عناق وقبلات ، ثم فراق يعقبه إقبال وعناق ، إنه الميلاد فالنمو حتى يتم غايته ، ثم الاضمحلال والفناء ، يعقبه ميلاد جديد ، إنه الحياة والموت والبعث .

وما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما البعث ؟ وما نحن ؟ أحقيقة كل أولئك أم وهم من الأوهام ! وغرق زكريا فى أفكاره فاختفى كل ما حوله عن عينيه .

ورفع يحيى رأسه ، وأخذ يحدق فى الحسان ، فيرفرف قلبه فى جوفه بهجة ، ولا ترف عيناه ، فالدنيا عنده ذراع بضة ، ونهدان كاعبان ، وعينان واسعتان ، وشعر ناعم ، ولحم طرى رجراج .

لمح فتاة ممتلئة ، ناصعة البياض كالشمع ، ينوس شعرها الذهبى خلفها ، وهى تجرى صوب البحر لترتمى فى أحضانه ، فلمعت عيناه ، وسال لعابه ، ولم يقو على أن يكبح جماع نفسه ، فهب منتصبا ، وانطلق يعدو جذلا مبتهجا ، وراح يخوض الماء ، ثم يسبح فى خفه وقد جعل قبلته ذات البشرة الناصعة البياض .

وقام جلال ، وراح يذرع الشاطىء ، وكل ما يعنيه أن يجذب إلى نفسه الأبصار ، وأن يكون محط اهتمام الناس ، كان ينظر إلى الفتيات المستلقيات على

الرمال ، لا ليمتع بصره بمفاتنهن ، ولكن ليقرأ فى عيونهن الإعجاب به ، كان يحس فى قرارة نفسه أنه الدنيا ، وان ما عداه عدم وفناء !

وقعد سعيد كالوسنان ، يفكر فى حاله ، نجح بالرغم من مرضه وما هى إلا بضع سنين ويصبح بعدها طبيبا ، ورأى بعين خياله قصر العينى ، ورأى نفسه مريضا ممدودا فى سريره ، وتذكر أن خالدا أرسل إليه من إنجلترا خمسة جنيهات يستعين بها على مرضه ، فأحس قلبه ينبض بالحب ، وسرعان ما قفز ذهنه إلى دنياه، فراح يفكر فى فتاته ذات الثوب المدرسى الأسود ، والوجه الملائكى الطاهر، ورقة الأطياف .

واسترسل فى أحلامه ، فاحتلت صورتها أقطار رأسه ، ملأت مشاعر الحب أنحاء نفسه ، وراح الحنان يتدفق فى جوفه ، وأفعم بمشاعر جذابة مشتهاة ، واستبد به وجده ، فأخذ قلبه يدق دقات متتابعات .

وخطر له أن يذهب إليها ، أن يغادر الإسكندرية الساعة ، وينطلق إلى القاهرة ، إلى شارع قصر العينى ، إلى بيتها ليسعد برؤيتها ، وينعم بالعيش فى جوها لحظات .

أتستحق تلك اللحظات ما يتجشم فى سفره من متاعب ؟! أجل فما يعيش إلا لهذه اللحظات القصار ، إنها كل حياته ، وما عداها هباء . ووطن النفس على أن ينطلق إليها ، فقام وغادر المكس وذهب ينقب عن سيارة تنقله إلى هناك .

- ١٢٦ -

تكهرب الجو الدولى ، وأطل شبح الحرب بوجهه البغيض ، بعد أن اجتاحت ألمانيا أراضى بولندا ، فأرسلت الحكومة المصرية تستدعى مبعوثيها من الخارج ، فعاد خالد إلى الإسكندرية ، وما أن مست قدماه أرض الوطن حتى أحس حنينا ، فراح يغذ السير ، وقلبه فى جوفه يخفق كجناح حمامة ، يتلفت فى لهفة ، يبحث بعينيه عمن ينتظرونه ، فلما لمح أباه وزكريا ويحيى هزه الفرح ، فراح يلوح لهم مغتبطا ، وهو يهرول نحوهم تكاد صيحات السرور تند منه وتفر من فيه ، كان يكبح جماح عواطفه ، ولو أطلق لها العنان لصاح بأبيه يناديه ، ولقفز فى الهواء طربا كطفل رأى أمه بعد طول غياب .

ورآه أبوه فاغرورقت عيناه بالدموع ، وجمجم بصوت خافت أشاع الحنان فى نفسه : « ابنى » ، وفتح ذراعيه يستقبل خالدا الذى ارتمى فى أحضانه ، وراح يضمه إلى صدره ودموعه تجرى على خديه . وساد الصمت لحظة ، كانت العواطف فيها جياشة فعجز اللسان عن أن يترجم عنها ، وتلاقت العيون فإذا بها تفصح عن أروع ما فى البشرية من مشاعر ، وأخذ خالد يعانق أخويه ، ثم ساروا جميعا يتحدثون ، حتى إذا بلغوا عربة من العربات المنتظرة عند الميناء لنقل الوافدين إلى حيث يبغون ، ركبوا فيها وانطلقت بهم وهم يثرثرون ، كان خالد قطب الرحى ومحور الحديث .

وبلغت العربة الحارة ، وانسابت فيها ، فإذا بالصمت يخيم على الجميع ، وإذا بالوجوه يعلوها وجوم ، وإذا بخالد يشرد بصره ، ويتحامى أن تقع عيناه على عينى أحد منهم ، وغلفت القلوب بغلالات من الحزن ، وتذكروا جميعا أنهم عائدون إلى بيت خلا من بهجته ، بيت غابت عنه ربته ، بيت جف فيه نبع الحنان الصافى

الرقراق ، فأضحى حجارة صماء بعد أن كان نابضا بالحب فياضا بكنوز الرقة والوداد.

وقفت العربة أمام الباب ، فهبت حليمة واقفة تتفرس فى وجوه القادمين وقد أطلت خصلات من شعرها الأشيب من تحت عصابة رأسها ، ولمحت خالدا فأشرق وجهها بابتسامة ترحيب ، وقالت فى صوت خافت كله حياء :

ـ حمداً لله على السلامة .

وتقدمت خطوات ، ولو طاوعت نفسها لضمته إلى صدرها ، رأته طفلا يلعب مع إخوته ، ورأته شابا يقبل عليها ويحييها ، فأحبته كما أحبت أطفال الحارة ، فلما غاب عنها سنين افتقدته ، وهاهو ذا يقبل اليوم ، فتستشعر فى أعماقها كأن ابنا من ابنائها قد عاد .

والتفت إليها خالد ، وقال لها وقد رفت على شفتيه ابتسامة :

ـ كيف حالك ياحليمة ؟

فغمغمت فى رضا :

ـ الحمد لله !

وتقدم يرقى فى الدرج وأبوه إلى جواره ، وزكريا ويحيى خلفهما وقد لفه حزن عميق ، كانت أول مرة يذهب فيها إلى البيت وأمه ليست فيه ، وحزر على ما يقاسيه ابنه ، فانقبض صدره ولاح الأسى فى وجهه ، ولو أرخى لنفس عنانها لانخرط فى البكاء .

ووقفت عماته عزيزة وثريا وزينب وأخواتهن أمام شقتهن يرحبن بمقدمه ، وأخذن يطبعن القبلات على خديه ولكنه لم يحس لقبلاتهن طعما ، كان منقبضا يتملكه شعور مستبد يصرخ فيه أنه بات يتيما بلا أم .

وصعد فى الدرج بخطا متثاقلة وقد طأطأ رأسه ، ودلف إلى الشقة ، وراح يتلفت فيها بعيون زائغة كأنما ينقب عنها ، وصاح صوت من أغواره : « أمى .. أمى » فمزق نياط قلبه وزلزل كيانه وإن لم تسمعه أذناه ، وارتسم على وجهه أعمق آيات الحزن ، ولمح على مايكابده ابنه من أسى فلم يطق أن يرقبه ، فانسل

من أمامه ، وذهب إلى غرفة أخرى يكفكف عبراته التى طفرت من مآقيه .

ـ ١٢٧ ـ

سعيد ضيق الصدر ، حانق على نفسه ، فالسنون تمر وهو يرقب فتاته فى الصباح يرصد هبوطها ، ثم يتبعها على البعد حتى إذا دلفت إلى مدرستها قفل عائدا إلى داره ، أو إلى الكلية ، وينتظرها فى العصر أمام مدرستها ، فإذا ما لمحها مقبلة اضطرب وابتعد عنها ، وراح يقتفى آثارها خافق القلب منتشيا .

لم يعد النظر إليها يطفىء غليله ، إنه يشتهى أن تكون بقربه ، أن يصغى إلى حديثها ، أن يمضى الساعات وهو يرنو إليها وقد شغل بها عن كل ماحوله ، أن يمتزج روحه بروحها ، إنه يهفو إليها ، ويتمنى من كل قلبه أن تربط بينهما الأسباب.

لن يقف مكتوف اليدين بعد اليوم أمامها ، سيتقدم إليها ، وسيقهر ذلك التردد البغيض الحائل بينه وبين سعادته ، إنه قادر على أن يصنع ما يريد ، ولن تقف أية قوة فى سبيل إرادته .

وأطرق يفكر فيما يفعله ، فرأى أن يكتب إليها رسالة يبثها فيها لواعة نفسه ، ويدسها فى يدها ، وأعجبته الفكرة فذهب إلى مكتبه وجلس يسكب على القرطاس ذوب قلبه .

راح يذكر لها أن السنين تقضت وهو خاشع فى محراب حبها ، وأن طيفها كان توءم نفسه ، وإن وجده سرى فى روحه وامتزج بدمه ، وأنه بات لايطيق العيش إذا ما اختفت من حياته ، وأخذ يتوسل إليها أن تجود بالوصال وأن تروى ظمأ فؤاده .

وطفق يقرأ الرسالة وقد لفه قلق لذيذ وامتلأ جوفه بالمشاعر الرقيقة المتدفقة من كنوز مهجته ، واطمأن إلى ما سطره ، فطوى الرسالة ، وخرج منطلقا إلى مدرستها .

كانت جموع الناس تتدفق فى الطريق تدفق السيل ، والترام يضج فى غدوه ورواحه ، والسيارات تعج بركابها ، وهو صاعد هابط على الطوار وقد شغل عن كل

ذلك بإحساساته الفائرة ، وقلقه النابت فى صدره ، وصورتها التى احتلت ذهنه ، والرسالة العزيزة المطوية فى يده .

كان يستشعر فى نفسه خطر ما هو مقدم عليه ، ترى أتقرأ الرسالة إذا ما دسها فى يدها ؟ أترضى عن فعلته أم تحنق عليه ؟ أتبتسم له أم تثور فى وجهه ؟ ودثره قلق ، وسرى فيه اضطراب ، ليتها تعرف ما يكن لها من حب صادق ، فتوقيه ما يكابد من رهبة ، وتذلل له ماهو مقدم عليه من صعاب !

ودق ناقوس المدرسة ، فخيل إليه أن مفاصله قد تفككت ، وأن قلبه يكاد يفر من فيه ، وأن أوعية مشاعره قد تفجرت ، فاختلطت وامتزجت ، فما عاد يدرى أيثبت أم يلوذ بالفرار ، وبدأت أسراب الفتيات تموج فى الطريق ، فاتسعت حدقتاه، وأرهفت حواسه ، ولمحها هابطة فى الدرج الخارجى ، ففارت إحساساته ، وراح يجمع شتات نفسه ، ولكن هيهات ، كان يحس أنه صار كريشة تعابثها الرياح .

وسارت فى ثوبها الأسود ، تحمل فى رشاقة حقيبة كتبها ، رقيقة كالنسيم ، متفتحة كورد الربيع ، شامخة الرأس ، تنطلق فى طريقها لاتتلفت كما تتلفت قريناتها ، فسار فى آثارها خافق القلب ، لايجرؤ على الدنو منها ، وإن كانت هتافات الإغراء تنبعث من أعماقه ، تحثه على أن يوسع من خطوه ، حتى يلحق بها ، ويدس فى يدها رسالته .

وتجاوزت سكة حديد حلوان ، وهو يرصدها على البعد ، إنها تقترب من دارها، فإذا لم يدن منها ، وينتهز ذلك الهدوء المسيطر على الطريق ويدفع برسالته إليها ، فستفلت منه هذه السانحة ، فراح يقهر تردده ، ويجد فى سيره حتى حاذاها وملأ عبيرها الفاغم أنفه ، وراودته فكرة دس الرسالة فى يدها ولكنه أحس هلعا، وشعر كأنما يكاد أن ينهار ، ففر مذعورا حتى تجاوزها ، وهو لايكاد يسيطر على خلجات نفسه .

وتمهل عند ناصية الطريق ، وقد لاح له سور قصر العينى ، وجعل يلتقط أنفاسا مترددة ، وظل لحظات حتى أفرخ روعه ، وبدأ ذهنه يعمل ، فخطر له أن

يعطى بواب البيت الرسالة ، وينفحه بضعة قروش ويلتمس منه أن يقدمها إليها ، ولم يتردد ، فانطلق إلى البواب ومنحه قطعة نقود فضية انبسطت لها أسارير الرجل ، ودفع إليه بالرسالة ، وقال له وهو يومىء إليها ، فقد كانت مقبلة نحو الدار.

ـ أعطها هذه .

ووقف بالقرب من الباب يرقب ما يحدث ، وهو ينتفض ، وقلبه يخفق فى شدة، وأقبلت مرفوعة الرأس ، ودلفت إلى البيت ، فتقدم منها البواب وقدم إليها الرسالة وهو يشير إلى سعيد ، الذى كاد يذوب رهبة وخجلا .

تناولت الرسالة دون أن تدرى ، ولما أفاقت من المفاجأة امتلأت حنقا ، واربد وجهها ، وغامت صفحته الصافية بسحابة من الغضب وانقبضت ، ثم طفرت دموعها من عينيها وانخرطت فى البكاء ، فأحس سعيد أن خنجرا يمزق أحشاءه، ولم يستطع صبرا فإذا به ينطلق إليها ويجذب الرسالة من يدها ، وينصرف خافض الرأس حزينا حانقا على نفسه، لأنه أساء إليها وجرح كبرياءها ، ودلف إلى الطريق يصغى إلى أصوات التأنيب المدوية فى جوفه ، وهى ترنو إليه من خلل دموعها .

ـ ١٢٨ ـ

راودت خالدا فكرة الانطلاق إلى بيت خاله ، فهو يحس حنينا طاغيا إلى درية ، ولو أصغى لهتافات قلبه لعنف فى سيره إليها غب أن مست أرض الوطن قدماه ، كان طيفها يزوره وهو فى بلاد الغربة ، فيؤنس وحشته ويشد أزره ويجعل لحياته هدفا يصبو إليه ، إنه يشتاق إلى التطلع إلى عينيها الزرقاوين ، وإلى وجهها الدقيق القسمات ، وإلى أن يعيش فى مجالها ساعات .

ونهض وذهب إلى المرآة ، ووقف أمامها يتأنق فى ارتداء ثياب الطيران ، ثم وضع طربوشه على رأسه ، وانفتل إلى الدرج يهبط فيه قفزا ، كان يشعر بالحياة

تتدفق فى عروقه ، ومشاعر الوجد الرقيقة تمور فى جوفه ، فترفعه إلى عالم يتألق بالود والحنان .

وانساب فى الحارة ، وقد غلفها ظلام دامس ثقيل لم يقو على هتكه ضوء المصابيح المتدلية على وجوه المنازل ، ونفذ إلى أنفه رائحة الماء الآسن ، وصك أذنيه مواء القطط المنبعث من الخرابة ، وصوت النجرو المجلجل : نظرة يا جورج ، ياجورج نظرة » .. فلم ينقبض صدره ، ولم يضق بالحارة ، ولم تداعب ذهنه أمنية «الشارع الجديد » ، كان مشغولا عن كل ذلك بما يعتمل فى جوفه من مشاعر وإحساسات .

ودنا من بيت خاله ، فرفرفت روحه طربا بين جنبيه ، وعنف فى سيره وقد اشتد وجيب قلبه ، ورفت على وجهه الأسمر إشراقة من الوجد ، وراح يتقدم هونا وهو يجمع شتات نفسه ، يتأهب للحظة التى كان ينتظرها شهورا متعاقبات .

ودق جرس الباب فأحس صداه فى جوفه ، ومس أذنيه وقع أقدام مقبلة ، فتمنى أن ينفرج الباب عن درية حتى يحييها فى اشتياق ، وفتح الباب فإذا بالخادم تفسح له الطريق وهى تقول :

ـ تفضل .

وتقدم إلى غرفة الاستقبال ، يدب الهوى فى وجدانه دبيب النمل وتسرى فيه غبطة قلقة ، وجلس مرهف الحواس يرقب وفود درية فى شوق ، ولمح شبحا مقبلا فنهض متأهبا لاستقباله وقلبه يرفرف كجناح حمامة ، وتبين القادم ، إنها زوجة خاله ، فتوجت فمه ابتسامة ، كان يحبها ويستريح إلى حديثها ، قالت وهى تدخل عليه :

ـ أهلا وسهلا ، حمدا لله على السلامة ! .

وصافحته فى اشتياق ، وجلسا وهى ترحب بمقدمه وتحتفى به ، وماهى إلا لحظات حتى أقبل خاله بقامته الطويلة النحيلة وجلبابه الأبيض ورأسه الحاسر ، يمسك فى يده منديلا أبيض ، وراح يصافحه ، وجلسوا يديرون الحديث بينهم ، وخالد يختلس النظر إلى الباب بين اللحظة واللحظة ، إنه ما جاء إلا ليراها ، وإنه ليتعجل قدومها ، ولولا بقية من حياء لسأل عنها .

ومسّ أذنيه وقع أقدامها ، ففارت دماؤه فى عروقه ، وتهدج صوته ، وشرد ذهنه ، فلم يعد يتتبع حديث امرأة خاله ، وأقبلت درية فى ثوب بسيط تتقدم نحوه على استحياء ، فنهض ومد لها يده ، وتناول يدها فى رقة ، وقد أحس كأن تيارا كهربيا سرى فى بدنه ، فارتجف من قمة رأسه إلى أخمص القدم ، ثم جلس يرنو إلى عينيها الزرقاوين فى هيام ، فيحس كأنه يطير بأجنحة الغرام .

وراح الحديث يجرجر بعضه بعضا ، ودرية لائذة بالصمت لاتنبس بكلمة ، وجال بذهن خالد أن يفاتح خاله فى رغبته فى الزواج من ابنته ، ولكن موجة من الرهبة غمرته . إنه يذكر أن خاله قد رفض أن يزوج ابنته الكبرى من أخيه لبيب ، وإنه ليخشى أن يرفض خاله يده الممدودة إليه ، إنه لو رفض طلبه لقوض أمله الذى يعيش له ، وإنه لعزيز عليه أن يتقوض أعز أمانيه أمام عينيه .

وتقضى الوقت ، ولم يجد خالد فى نفسه الشجاعة على أن يترجم عن رغبته، فقام مستأذنا وانصرف وهو يلتهم درية بعينيه .

وانساب فى الطريق مطرقا يفكر فى حاله ، فسخط على نفسه ، كانت فرصة مواتية فلماذا جبن عن أن يطلب يد ابنة خاله ؟! ومشى إلى الحارة وفى صدره قلق. فعاف العودة إلى الدار ، وقفزت إلى رأسه فكرة زيارة صديقه حامد ، فعرج عليه ، وراح يصعد إليه فى جوف الظلام .

وطرق الباب فى رفق ، وما هى إلا لحظات حتى انجاب عن سهام بجسمها الممتلىء ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الأسود السبط المنتهدل ، وما إن وقعت عيناها عليه حتى صاحت فى فرح :

ـ خالد ! مرحبا بك !

وكادت ترتمى فى أحضانه ، ولكنها مدت له يدها ، فلما صافحها ، قبضت على يده ، وراحت تجذبه فى حنان ، وقلبها بين ضلوعها يرقص طربا ، وقادته وهى تردد :

ـ مرحبا .. مرحبا !

وأجلسته على الأريكة فى غرفة متواضعة : وراحت تصيح فى نشوة

عارمة :

ـ حامد .. حامد . خالد أتى . خالد أتى .

ولم تستطع صبرا ، فهرولت تحضر أخاها ، فأخذ ثدياها الناهدان يترجرجان ، وشعرهاالمسترسل ينوس خلفها ، وخالد مشغول عنها بدرية التى احتلت شغاف الفؤاد .

وجاء حامد ، وتعانق الصديقان ، فغامت عينا سهام بالعبرات فرفعت يدها ومسحت دموعها ، ثم أشرق وجهها ببسمة رقيقة ، وجلسوا فى نجوى ، حامد يسأل وخالد يجيب ، وسهام تتحدث وقد تفتحت وازدهرت ، كوردة مسها الندى فى فجر الربيع .

قال حامد :

ـ أتمكث هنا كثيرا ؟

فقال له خالد :

ـ سأعود إلى القاهرة غدا .

ـ لتستأنف العيش مع جلال وسعيد ؟

ـ أفكر ياحامد أن أعيش وحدى .

ـ أتهجر أخويك ؟!

ـ عزمت على أن أتزوج .

وتألقت عينا سهام ببارق سعادة ، ثم أسبلت عينيها حياء ، وشرد ذهنها ، وراحت تسبح فى بحور من الأوهام ، وتبنى قصورا فى الهواء .

وحان وقت الانصراف ، فنهض خالد وصافح حامد ، ومد يده إلى سهام فصافحته وهى تضغط على يده فى خفة ، وقد توردت وجنتاها ، ولكنه انصرف دون أن يفطن إلى مااعتراها ..

وعادت سهام إلى غرفتها ، وتمددت فى فراشها وأطلقت لخيالها عنانه ، فراح يعدو وراء خالد ، وقد انشرح صدرها ورفت على وجهها سعادة عارمة .

ـ ١٢٩ ـ

انزوى حسان فى ركن بعيد من الحانة ، وقد أرسلت المصابيح الواهنة ضوءها الباهت ، فانعكس ظله على الحائط فازداد المكان ظلاما ، وأخذت أصوات الرجال تطن فى أذنيه :

ـ أسمعت هذا الخبر ؟ دخل جريح ألمانى على ضابط فرنسى ودماؤه تسيل منه ، كان كل مايبغيه أن يضمد جراحه ويسلم نفسه ، ولكن الضابط الفرنسى مات من الهلع لما وقعت عيناه عليه !

ـ يقال إن فى المخزن رقم ١٣ أسلحة سرية يشيب من هولها الوليد .

ـ سمعت أن هتلر اخترع دواء يقلب الرجل امرأ ة ، وأنه سيجرعه جميع الفرنسيين ؟!

ـ ولماذا كل هذا التعب ، والفرنسيون ليسوا فى حاجة إلى مثل هذا الدواء !

ـ أسمعت إذاعة إنجلترا ؟ إنها تقول إنها تحارب فى سبيل حرية الشعوب .

ـ هع . هع !

ـ قيل إن ضابطا ألمانيا هبط « بالبراشوت » وحطم جسرا ، ثم صعد ثانية « بالبراشوت » .

ـ سمعت أن هتلر يضع مصحفا على مكتبه ، وأنه معجب بفرسان المسلمين ، وأنه أنشأ فرقة « العاصفة » على غرار فرسان خالد بن الوليد .

ـ يقال إن هتلر قد أسلم ، وأنه ينتظر حتى يتم له النصر ثم يعلن إسلامه .

ـ سينتصر هتلر على أعدائه ويبيد الإنجليز .

ـ كانت الدبابات الألمانية تمر فوق جثث القتلى ، وقد تكدست فى ساحة القتال ، تشق لها طريقا لتقتفى أثر المهزومين .

وتململ حسان وأحس وخزا يخز روحه ، مابال هؤلاء الناس يتحدثون عن

الحرب هكذا كأنما يتحدثون عن ملهاة ، أوقصة قرءوها فى كتاب ! ما بالهم قد قست قلوبهم فراحوا يتحدثون عن الضحايا والقتلى فى انشراح ، ويتمنون مزيدا من الضحايا والقتلى ؟ لم تند من فم أحدهم كلمة استنكار لهذه الحرب الضروس ، أو حتى كلمة تفيض بالرحمة ، أيدرى هؤلاء اللاهون ما الحرب؟ لو كانوا يعرفون كيف يعيش هؤلاء الذين يتلهون بقصصهم فى الخنادق كالفئران ، فى البرد الزمهرير ، وفى الحر اللافح الذى يكاد يزهق الأرواح ، ينتظرون أن يتخطفهم الموت فى كل لحظة ، لانفجرت عيونهم بالدمع السخين .

ولم يطق حسان مكثا ، فقام حانقا ، واندفع يشق طريقه صوب الباب ، وهو يستشعر رغبة فى أن يصيح فى هؤلاء المثرثرين أن يكفوا عن ثرثرتهم ، وأن يمسكوا لسانهم عن الخوض فى أحاديث إن دلت على شىء فلن تدل إلا على غلظ أكبادهم ، ولؤم البشرية ، ولكنه انسل إلى الطريق وقد أفعم بالضيق .

وانطلق والأحاديث التى يذيعها المذياع تنسكب فى أذنيه فتزيد فى حنقه وغيظه ، كانت أحاديث تبرر الحروب ، وتوهم الشباب أنهم يحاربون فى سبيل مثل عليا تستحق أن يجودوا فى سبيلها بأرواحهم .

حاربوا فى سبيل حرية الشعوب ، هبوا فى وجه الطغيان ، حطمواسلاسل الرق والعبودية ، اروووا الأرض بدمائكم الزكية لتنمو شجرة الحرية ، وتجرى الدماء أنهارا . ثم تنجاب الغمة ، فإذا بالعالم كله كان يجرى وراء سراب ، فلا الشعوب نالت حريتها ، ولاامحق الطغيان ، ولاتحطمت سلاسل الرق والاستعباد ! سلسلة من الأكاذيب البراقة برع الساسة فى تنميقها ليزجوا بشعوبهم فى أتون الحروب ، لتحقيق مجدهم الشخصى .

وانتقل إلى الحارة وهو يعنف فى سيره ، كأنما يحاول أن يفر من نفسه الثائرة ، وبلغ الدار ، وإذا بحليمة لازالت جالسة وأمامها قفص الجريد صنفت فوقه قطع الحلوى الرخيصة ، كانت شاردة بصرها ، غائبة عن كل ماحولها ، حتى لكأنها لم تفطن إلى سقوط الليل ، أو كأنما الأمر لايعنيها ، فأحس نسمة من الرحمة تهب على قلبه ، فدس يده فى جيبه ليعطيها كل ما فيه من نقود ، ولكنه ألفاه خاويا ،

فانسل من جوارها يسترق الخطا ، حتى لا يوقظها من حلمها ، كان يستشعر فى أعماقه أن الأحلام هى كل السلوى لمن كان يعيش بلا واقع ، لمن كان مثله ومثلها .

ودخل حجرته واستلقى على سريره ، وإذا بأنغام موسيقية خافتة تتدسس إلى سمعه ، وإذا بالأصوات النحاسية تتضح فى اقترابها ، وإذا بأضواء باهرة تملأ الغرفة ، ففطن إلى أن زفة عروس مقبلة .

هبط الرجال من العالية إلى الحارة ، يحملون هراواتهم ، وتقدمت الموسيقى خلفهم ، وأقبلت العروس فى عربة ، حولها رجال أشداء يحملون قناديل تفرش الطريق بالنور ، وتقدم الركب صوب حى الصعايدة ، وتجمع الأولاد ينظرون ويرقبون فى اهتمام موكب العروس ، وأفاقت حليمة من حلمها ، فرأت بعض الأولاد يهرولون صوب الزفة فصاحت فيهم وهى تحتجزهم بيديها :

ـ تعالوا هنا ، قبل أن تدور المعركة وتأتى الإسعاف تحمل جرحى الصعايدة .

وبلغت الزفة المقهى ، ولم يتريث الركب لتؤدى الموسيقا التحية للصعايدة ، وكان ذلك نذيرا ببدء المعركة ، فارتفعت الهراوات ، ومشى الرجال إلى الرجال ، وشقت الصيحات الجو ، ودارالقتال ثم بدأ أهل حى العروس فى الانسحاب المنظم . والصعايدة يقتفون آثارهم فرحين ، واعتلى الرجال والنساء أسطح المنازل التى تطل على الخربة ، فلما دنا الصعايدة منهم وهم بانتصارهم فرحون ، انطلقت الزجاجات المحشوة بالزلط من كل سطح ، ومن كل نافذة ، ومن كل فج ، لترتطم برءوس المزهوين بنصرهم ، فيرتفع الصياح والأنين ، وخف حسان إلى الشباك ينظر وهو حانق ، ورفع بصره إلى السماء وصاح :

ـ أحقا يا رب نحن أشرف خلقك !؟ أخلقت هذه السماء لنا ، وهذه الأرض لنا ؟ هذا محال ، إننا وحوش بل أحط من الوحوش .

وراح يغدو ويروح فى الحجرة ، وروحه يئن بين جنبيه ، وسمع رنين جرس الإسعاف ، فزاد ذلك فى حزنه ، فغادر البيت مهموما ، وانطلق ثانية إلى الحانة ليشرب حتى يفقد وعيه ، ويستريح ممايقاسيه ، ويذرف الدمع الهتون ويطفىء به ثورة نفسه ، ومايعتلج فى صدره من مشاعر وإحساسات .

- ١٣٠ -

وقف جلال أمام المرآة يصلح هندامه ، يرنو إلى نفسه فى زهو وإعجاب ، فلم يبق على تخرجه فى كلية الحقوق إلا سنة ويصبح بعدها الأستاذ جلال ، زميل مصطفى النحاس ومكرم عبيد والطويل ، ولن يكون بينهم وبينه فرق كبير ، فالجميع من خريجى معهد واحد ! صحيح أن بعضهم أصبح رئيسا للوزارة ووزيرا خطيرا ، ولكن من يدرى ، فقد يصبح الأستاذ جلال فى ذات يوم وزيرا يشار إليه بالبنان .

كان يحلم بذلك ، كان يفكر فى الوزارة منتشيا ، لا لأنه صاحب مناهج يريد تنفيذها ، ولا لأنه صاحب أفكار فذة قد تعود على مواطنيه بالخير ، بل لأن مركز الوزارة سيجعله محط أنظار الناس ، وإنه ليناغى حواسه ، ويهدهد غروره أن تصوب إليه العيون ، وأن تلقى عليه الأضواء .

صادق بعض زملائه الأغنياء ، وهو ينطلق معهم كل ليلة يقضى الأمسية فى سهرات صاخبة ، وكانت تلك الصحبة ترضيه ، وكان يزيد فى تعلقه بهؤلاء الناس أنه كان يطمع فى أن تذكر المجلات أنباء سهراته إذا ماتحدثت عن أخبار المجتمع وأبناء الذوات ، فأكبر أمانيه فى هذه الأيام ، أن يظهر اسم « الأستاذ جلال على يونس » بحروف الطباعة بين أسماء المدللين من أبناء المثرين .

وأسبل عينيه ، وراح يقرأ بعين خياله مايتمنى أن تكتبه المجلات عنه ، أقيمت حفلة تكريم ساهرة فى الهليوليدو بمصر الجديدة ، تكريما للأستاذ جلال على يونس ، حضرها كبار رجال القانون وعقيلاتهم ، وكانت الآنسات زيزى حكيم ، وفوقية صالح ، وميمى أمير ، زهرات هذه الحفلة التى تعتبر حفلة الموسم بلا جدال » .

وانشرح صدره لهذا الوهم الذى أفعمه بالرضا ، ولم يجهد نفسه فى أن يفكر

فى المناسبة التى أقيمت من أجلها حفلة التكريم !

وأمال طربوشه قليلا على جبينه ، ورفع المنديل الأبيض المتدلى من جيب « الجاكتة » قليلا ، وألقى على نفسه فى المرآة نظرة أخيرة فاحصة ، ثم رفع حاجبه علامة رضاه على حسن هندامه ، ودار على عقبيه ، وسار وهو يصفر فى انشراح .

وخرج ، وساد الغرفة هدوء ، وسيطر الظلام ، ومرت سويعة سمع بعدها صوت إدارة زر كهربى ، وغمر الضوء المكان ، فإذا بسعيد قد أقبل يحمل كتبه ، وجلس يستذكر لايحفل بمرور الزمن .

ومرت ساعتان بعد منتصف الليل ، وإذا بصوت مفتاح يدور فى الباب فنهض سعيد والتفت صوب الباب ، فرأى جلالا يتقدم فى خطوات متعثرة ، فاربد وجهه ، وقال فى ثورة :

ـ أين كنت حتى هذه الساعة؟

ـ كنت .. كنت مع أناس محترمين .

ـ لو كانوا محترمين لماسهروا يشربون حتى مطلع الفجر . إنهم أناس سفلة .

فقال جلال فى اعتراض :

ـ لو رأيت موائدهم العامرة بمالذ وطاب ، لتيقنت أنهم أناس محترمون .. محترمون جدا .

وتطوح جلال وهو يدنو من أخيه ، فصاح فيه سعيد :

ـ لاأسمح لك أن تعود فى مثل هذ الساعة، وأنت سكران .

ـ سكران !؟ أبدا .

ـ إنك تكاد تسقط من السكر .

ـ أنا حر .

وثار سعيد ، ولم يتمالك فرفع يده ولطم جلالا لطمة قوية ، دوت فى الحجرة، ثم أعقبها سكون رهيب ، وظل جلال شارد البصر لايدرى ما يفعل ، ووقعت عيناه على الفراش ، فانسل إليه مطأطىء الرأس وارتمى فيه ، وسار سعيد إلى الزر الكهربى وأداره ، فغرقت الحجرة فى الظلام ، وسيطر عليها سكون عميق أشبه

بسكون الرموس .

ـ ١٣١ ـ

أقبل الصيف ، فهرع المصطافون إلى البحر ، وانتقلت بعض الفرق التمثيلية إلى الثغر ، فخف يحيى إلى « الصالة » يرحب بمقدم الفرقة ، ويحيى صاحبتها في شوق ، وينقب عن فتحية في لهفة ، كان يمنى النفس بأيام حلوة يقضيانها معا فى «الكابينة » وكان قد وطد العزم على ألا يخبر أحدا من أصحابه ، فقد أصبح يريدها خالصة له ، لايشاركه فيها أحد ، إنه كان يقبل مشاركة أصحابه على مضض . «فالكابينة » كانت لأحدهم ، ولكنه قد استعار واحدة ، وها هو ذا مفتاحها فى جيبه.

واستمر ينقل بصره بين وجوه الفتيات ، ويجوس خلال « الصالة » يبحث عنها هنا وهناك ، ولكنه لم يجد لها أثرا ، فاقترب من بائع الفستق وسأله :

ـ ألاتعرف أين فتحية ؟ .

ـ تخلفت عن الفرقة وستستمر فى العمل فى القاهرة ، فالجنود الإنجليز فى حاجة إلى من تفرغ لهم ما فى جيوبهم .

وأطرق يحيى وانصرف كئيبا ، كان يريدها خالصة لنفسه لايشاركه فيها أحد من أصحابه ، فيا لها من أمنية ساذجة قوضتها الحقيقة المريرة ، لم تعد له ولا لأصحابه ، ولا للمصريين جميعا ، ولكن أصبحت للإمبراطورية ، ترى لو قابلته الساعة أتكلمه بالعربية ؟ ..

وانطلق وهواء البحر يداعب وجهه فيمشى الهدوء رويدا رويدا إلى نفسه ، حتى إذا وصل إلى المقهى الذى اعتاد أن يقابل فيه سليمان ابن عمته ، كان الصفاء قد عاد إليه ، بعد أن تبخر الضيق الذى استبد به لحظات .

وطفق سليمان يتحدث حديثه المألوف الذى يكرره كل ليلة ، ويحيى يصغى

إليه منشرحا . كان الحديث يدور حول مايجرى بين الأزواج ، وكان الشرح يطول أحيانا فيستغرق ثلاث ساعات أو أربعا ، وكان سليمان فى شرحه يعقد الأمور حتى إن السامع كان يتوهم أحيانا أنه يصغى إلى شرح عملية جراحية !

تزوج سليمان ولم ينجب أولادا ، فظل على ما كان عليه قبل زواجه : تأنق وفراغ يزجيه فى الحديث عن العلاقات الجنسية ، ولو أنه رزق أبناء لتبدل حاله ، ولأنفق وقته فى التفكيرفى مطالب البيت الضرورية .

أمضى جلال الصيف يخطر فى المكس ، يحصى فى زهو نظرات الإعجاب التى تصوبها الحسناوات إليه ، وقد راودته أكثر من مرة فكرة الانطلاق للبحث عن عفاف ، إنها قد عبثت به أكثر من مرة ولكنه انتقم منها لكبريائه يوم دعاها إلى «الكابينة » ، وتركها تلعق الجرح الدامى الذى أصيبت به كرامتها ، إنها لوعادت إليه بعد كل ماحدث ، لكان نصرا له ، ولأرضى ذلك غروره كل الرضا .

وأعجبته الفكرة ، فانطلق فى الصباح نشيطا تداعبه آماله ، وانتظر عند محطة الأوتوبيس ، وجعل يصعد كل سيارة مقبلة ينقب عنها ، وأخيرا لمحها بجسمها الممتلىء ، وعينيها اللتين لاتختلجان إذا ماصوبت النظرات إليهما ، فابتسم مغتبطا ، ودنا منها ، فلما لمحته اربد وجهها ، ورمقته فى زراية ، وأعرضت عنه ، حتى إنه تضاءل فى مقعده ، ولم يجد فى نفسه الجرأة على محادثتها .

ووصلت إلى مكان عملها ، فهبطت وهبط جلال ، وسارت وثوبها خلفها يترجح كرقاص الساعة ، وهو يرنو إليها ، ولايجرؤ على الدنو منها ، إنه قد تيقن من نظراتها ، أن كل مابينه وبينها قد انتهى .

وراح سعيد يمضى الإجازة على الشاطىء ، كان حاضرا بجسمه أما ذهنه فقد كان مشغولا بفتاته ، إنه يراها بثوبها الأسود تخطر كملاك فى خاطره إذ هو يقظان، وإذ هو نائم ، وإذ هو بين النائم واليقظان .

وكان يهزه الشوق إلى رؤيتها ، فيذهب ينقب عن سيارة ذاهبة ، فإذا ما وجدها سافر خافق القلب مغتبطا يقف عند دارها ساعات حتى يلمحها فى شرفتها ، أو يراها عائدة إلى الدار ، فيعيش فى نعيم لحظات . لقد أمضى الإجازة فى شوق

ثم سافر لإطفاء الشوق ، ثم عاد يعاوده الحنين ، كانت أيامه كلها شوق ، ثم سفرا ثم شوقا يعقبه سفر ، إنه يحس فى أغوار نفسه أنه لايستطيع أن يعيش دون أن تكتحل عيناه برؤيتها أياما ..

وكان زكريا فى مكتبه يشق طريقه ، لقد اتسعت اتصالاته ، وحتى أصبح عضوا فى الهيئة السعدية ، وإنه ليرقب الأيام ليرشح نفسه عضوا فى البرلمان . كان يختلس بعض اللحظات يقضيها مع إخوته ، ولكن مستقبله كان يستغرق كل تفكيره . وكان المصيف يجدد أشجان على ، لقد ذهبت صفية . وتركته لا يدرى ماذا يفعل للأولاد ؟!

ــ ١٣٢ ــ

انتهت الإجازة الصيفية ، فعاد إلى القاهرة جلال وسعيد ، وجاء معهم يحيى فقد أتم تعليمه الثانوى ، والتحق بكلية التجارة بعد أن أخفق فى الالتحاق بالمدرسة الحربية ..

راح يحيى يجوس خلال شوارع القاهرة ، ووفد الليل فتدسست إلى رأسه فكرة الذهاب إلى « الصالة » ، ليرى فتحية ويجدد العهد بينه وبينها ، إنه ليشتاق إليها ويهفو إلى تمضية لياليه معها ، فانطلق إلى « الكازينو » وقد وطن النفس على أن يبيت عندها إذا ما دعته إلى الذهاب معها .

ووقعت عيناه على جموع الجنود البريطانيين وهم فى غدوهم ورواحهم ، فاستشعر ضيقا ، فقد فطن إلى أن هؤلاء لن يدعوا له لحظة يقضيها مع فتحية ، إنهم سيتهافتون عليها تهافت الذباب على قطعة من الحلوى ، وسيصبون ما فى جيوبهم عن طيب خاطر فى جيبها ، بينا لن يستطيع هو أن يقدم لها فلجانة من القهوة .

وخطر له خاطر أعاد إلى نفسه ثقتها ، إنه يحس أن له فى قلبها موضعا ،

وأنها إذا رأته فلن تبخل عليه بأن تفسح له مكانا حول مائدتها ، إنها مائدة مكتظة يتدافع جنود الإمبراطورية ليتحلقوا حولها ، وإنهم ينفقون فى سبيل ذلك أموالهم، فيكفيه أن يروى ظمأه ويشبع نهمه دون أن يدفع لذلك ثمنا .

وتقدم من « الكازينو » وراح يصعد فى الدرجات القليلة الموصلة إلى الردهة التى تقود إلى باب « الصالة » ، ورأى إعلانا ملونا قريبا منه ، فذهب يقرأ أسماء الراقصات اللاتى يعملن فى الملهى ، فقرأ أسماء راقصات لم يسمع بهن من قبل ، ولم يجد بينهن اسم فتحية ، فحسب أنها ترفعت أن يقرن اسمها بأسمائهن ، وتقدم صوب الباب ، وقال للرجل المفتول العضلات الواقف يرقب دخول الناس :

ــ أريد مقابلة الراقصة فتحية .

فقال له الرجل دون أن يحفل به أو ينظر إليه :

ــ سافرت .. سافرت إلى العراق .

وتسللت نظرات يحيى من الباب فرأى راقصات الحرب قد انتشرن فى «الصالة»، وجنود الديمقراطيات قد أقبلوا عليهن مشغوفين ، لا يفرقون فى هذه السوق بين الوسامة والدمامة ، فالنساء فى هذه اللحظات المخمورة سواء ، كانوا يطبقون مبادىء الديمقراطية فى صدق وإيمان ! .

وانسحب وهو يسير فى تثاقل ، كان يمنى النفس بسهرات صاخبة مع فتحية ، وإذا به يكشف أنها ذهبت ، وأنه لن يراها إلى شهور طويلة ، ومن يدرى ماذا تخبئه تلك الشهور .

وقفز فى ذهنه سؤال طفا على كل ما يشغله من أفكار ، ما الذى دعاها إلى السفر إلى الخارج فى هذه الآونة الحرجة ؟ الجنود هنا ، والمال هنا ، وكل فتاة مغامرة تستطيع أن تهز أردافها زحفت إلى « الصالات » وملأت جيوبها الخالية بالذهب النضار ، فلماذا هجرت فتحية كل هذا الإغراء ، وهى الراقصة التى تتمتع بجسم متناسق بديع يسيل اللعاب ؟ لماذا سافرت ؟

ولم يجد جوابا يشفى غليله ، فهز كتفيه ، وإذا بصوت ساخر ينبعث من أغوار نفسه ويرن فى أذنيه : « لعلها سافرت ، لترفع رأس مصر عاليا » ! .

ـ ١٣٣ ـ

سار سعيد فى ممر قصر العينى الطويل وهو يرتدى ثيابه البيض ، فقد كان يمر على المرضى يفحص عنهم ويلقى أوامره على الممرضات اللاتى كن يهرعن إليه وينفذن ما يوصى به فى عناية ، فقد كان وجهه على الرغم من وسامته يوحى بالصرامة والجد .

ودلف إلى غرفة من غرف المرضى الكثيرة المنثورة على جانب الممر ، وما إن تقدم خطوات حتى وقف مشدوها ، وراح قلبه يقفز فى رعونة بين جنبيه ، وكادت صيحة عجب تند من شفتيه ، فقد وقعت عيناه على ممرضة تشبه فتاته ، ولولا الثياب البيض التى ترتديها لحسبها ملاكه .

وتريث قليلا حتى ملك زمام أمره وراح يديم النظر إليها ، إنها فى مثل قامتها ، وإن عينيها تحاكيان عينى ذات الثوب المدرسى الأسود ، ولكن فتاته كانت أكثر رقة ، وأصفى نفسا ، فروحه لا تهفو إلى الماثلة أمامه ، كما تهفو إلى الغائبة عن عينيه الحاضرة فى خياله .

إن رنوة إلى فتاته تفعم نفسه أملا ، وتجعله يهيم فى عالم مسحور من الرقة والشغف ، بينا ينظر إلى الواقفة معه فى حجرة واحدة ثابت الجنان ، هادىء النفس، بعد أن أفرخ روعه وذهب عنه أثر المفاجأة .

واقترب منها وقال لها فى هدوء :

ـ أتعملين معنا هنا ؟

فقالت فى ثبات وهى ترفع وجهها إليه :

ـ نعم ، إننى أعمل فى هذا القسم .

فقال لها وهو يفحص عن مريض :

ـ ما اسمك ؟ .

ـ سنية .

ولاذ بالصمت ، وعكف على عمله منشرحا ، وهى إلى جواره تنظر ما يأمر به ، وقد ملأ أريجها أنفه ولكنه لم يدر رأسه ، إنه ليشم عبير فتاته وهو يتبعها فيحس قلبه يتفتح ، وروحه ترفرف فى أعماقه مغتبطة ، وأتم عمله فى الغرفة فانطلق إلى الممر الطويل وسنية خلفه ، وتمهل فى سيره حتى لحقت به ، فالتفت إليها وقال فى صوت متهدج :

ـ ألك أخت تشبهك ؟ .

وانداح فى صدرها الرضا ، حسبته يريد أن يتبسط معها ويحادثها ، فقالت له :

ـ لا ...

ولكن عينيها كانتا تكذبانها ، كانت تصيح « نعم » ، فقال فى إنكار وقد اتسعت عيناه . ولاح الاهتمام فى وجهه :

ـ أليس لك أخت طالبة فى المدرسة السنية ؟ .

فقالت فى إصرار ، وقد رفت على شفتيها بسمة :

ـ ليس لى أخت فى المدرسة السنية .

فغمغم :

ـ محال .

واتسعت ابتسامتها ، ولاحت أسنانها النضيدة ، فانشرح قلبه ، فقد أيقن أنها أختها ، وأنها تنكر ذلك معابثة ، ووقعت عيناه على الأطباء والزوار الذين كانوا فى غدو ورواح ، فخشى أن يفطنوا إلى ما بينه وبينها من مناجاة ، فوسع من خطوه ، وانطلق وهو يحمد الله فى أعماقه أن قيض له أختها ، لقد ساقتها السماء إليه ، لتيسر ما هو مكتوب فى سجل القدر .

وانصرف وقد ازداد يقينا أن فتاته ذات الثوب الأسود ما خلقت إلا له ، وله وحده ، وأن الظروف تهيىء الأسباب لتربط بينهما ، فشد ذلك أزره ، وزاده إصرارا على أن تكون خالصة له من دون الناس .

ـ ١٣٤ ـ

يحيى يتحدث مع صديق تعرف به فى الكلية ، إنه يعانى من تكاليف العيش فى القاهرة ، فأهله يبعثون إليه بستة جنيهات فى الشهر ، ينفق أغلبها مع إخوته فى البيت ، ويشترى ببعضها بعض مطالب الكلية ، ولا يتبقى له إلا مبلغ قليل لا يكاد يسد حاجاته .. كان أصغر إخوته ، فنشأ بعد أن تقضت أيام الضنك التى قاستها الأسرة ، وشب وقد نعم أهله ببعض اليسر ، فلم يألف شظف العيش ، ومد عينيه إلى مامتع الله به أناسا غيره ، كان يشتهى أن يمضى بعض الأمسيات فى سهرات صاخبة ، تتألق فيها الأجسام الممتلئة البضة !

قال يحيى فى مرارة :

ـ لعن الله الفقر ، لو كان معى نقود ما أمضيت الليل أتسكع فى الشوارع، أرنو إلى السيارات الفاخرة ، وما سرت معك أقتل الوقت ، كأنما بيننا وبين الزمن عداوة .

وصمت يحى قليلا ، وقال له صديقه :

ـ ما رأيك فى عمل لن يكلفك جهدا ، يدر عليك بعض المال الذى يمتعك بوجودك ؟

فقال يحيى فى حماسة :

ـ هذه يدى قدنى إليه الساعة .

فقال الزميل فى ثقة :

ـ تعال .

ـ هيا .

وما انطلقا قليلا حتى عنف يحيى فى سيره ، وقال :

ـ لم تقل لى ما هذا العمل ؟

ـ أيسر عمل تتصوره ، لن تتجشم فى سبيله مشقة ، ولن تسعى إليه ، بل يسعى إليك وأنت فى مكانك .

ـ أحلم أم أحجية ؟!

ـ كل ما عليك أن تفتح عينيك ، وأن تصيخ إلى ما يدور حولك .

فقال يحيى فى قلق :

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تبلغ ما ترى وما تسمع .

فأحس دمه يصعد إلى وجهه وإلى أذنيه ، وقال فى انفعال :

ـ إلى من ؟

ـ إلى القلم السياسى .

فقال يحيى فى صوت واهن :

ـ أعمل جاسوسا ؟! محال .

ـ كل ما ستفعله أن تتحدث مع القلم السياسى اليوم ، بما سيتحدث به الناس غدا !

فقال يحيى وقد اتسعت عيناه :

ـ لا أفهم ماذا تريد أن تقول ؟

ـ ستقول للقلم السياسى : الطلبة مجتمعون اليوم ، وقد قرروا الاضراب غدا، وسيقول الناس فى اليوم التالى : لقد أضرب الطلبة . هذا هو كل عملك الذى ستتخذ عليه أجرا .

فقال يحيى فى صوت فيه رنة هزء :

ـ ثمن الخيانة .

ـ إذا لم تتقاض أنت هذا الأجر ، فسيتقاضاه غيرك .

ـ أن يخون غيرى خير من أن أخون أنا .

ـ لماذا تسميها خيانة ؟ لماذا لا تسميها خدمة للدولة ؟ قد تتمكن من أن تدفع

عن البلد نكبة .

ـ أتظن أن القلم السياسى يهتم بدفع النكبات عن البلد ؟!

فقال له الصديق فى حماس :

ـ أتشك فى ذلك ؟! تعال .

وانطلقا حتى دخلا على ضابط شاب ، ينطق وجهه بالبراءة ، كان أشبه بعذراء، وما كان يدور بخلد يحيى أن يكون مثله من ضباط القلم السياسى ، وجعل الزميل يتحدث ويحيى يصغى ، فلما سمع أن زميله يقول عنه إنه مستعد أن يضع نفسه فى خدمة القلم السياسى ، اضطرب وقال وقد احمر وجهه :

ـ ارجو إعفائى من هذه الخدمة ، فأنا لا أصلح لها .

حاول الضابط أن يقنعه ولكنه أصر على رفضه ، وانتهت المقابلة وانصرفا والزميل يلومه على ذلك الرفض ، الذى ضيع مرتبا ثابتا كان سيعينه على أن يتمتع بشبابه ، ويمكنه من أن يعيش كما يعيش الناس !

وأقبل الليل ، فعاد يحيى إلى الدار بعد أن ذرع شوارع القاهرة وبعد أن مشى التعب إليه ، ودخل إلى فراشه وتمدد فيه وإذا به يفكر فى حديث زميله ومقابلة ضابط القلم السياسى ، وقفز إلى ذهنه سؤال : « لماذا يخون الناس؟ أيخونون لأن بذور الخيانة فى نفوسهم ؟ أم يدفعهم الفقر إلى الخيانة ؟ وزميله لماذا يقبل أن يكون مرشدا ؟ أهو فى حاجة إلى النقود ليمسك رمقه ويستمر فى الكلية ، أم يتطلع إلى أن يحيا كما يحيا الفارغون الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب ؟ وهو لماذا تراوده فكرة العمل للقلم السياسى ؟ أهو فى حاجة إلى نقود ليعيش بها ؟ إنه يأكل كما يأكل إخوته ، ويلبس كما يلبسون ، ولكنه يريد النقود لينفقها على لذاته ، إن أنانيته لتدفعه إلى موارد الهلاك .

ولكن لماذا لا يعمل للقلم السياسى ، ويتناول منه أجرا دون أن يؤدى له عملا؟ إنه قادر على أن يخدم القلم السياسى ولو لأشهر قليلة ، ينعم فيها بما سيقرر له من مرتب ، ولا حرج عليه فى أن يخدع مرة من خدع الناس آلاف المرات » .

واطمأن إلى منطقه فنام وأغرق فى النوم ، وما أشرقت شمس اليوم التالى

حتى كان أمام الضابط الذى كان أشبه بعذراء ، يعرض عليه خدماته ، فقال الضابط فى دهش :

ـ كنت بالأمس رافضا مصرا على الرفض ، فما الذى حدث حتى عدلت عن رأيك ؟

فقال يحيى وهو يبتسم :

ـ لم أشأ أن يعرف صديقى أننى أعمل معكم .

فرنا إليه الضابط رنوة اعجاب ، وما انصرف يحيى حتى كان من القلم السياسى ، وأصبح له راتب يتقاضاه كل شهر ، وسار وصوت تأنيب ينبعث من أغواره يصيح به :

« هذا مال حرام » . وإذا بصوت آخر ينداح فى أعماقه فيغمر صوت الاعتراض : « إذا كان ذلك قد أتى من الحرام ، فسينفق فى الحرام » .

ـ ١٣٥ ـ

سعيد يمر على المرضى فى قصر العينى ، وسنيه إلى جواره تلبى إشارته وتذكره بفتاته ، إنه يحس غبطة كلما حادثها ، فقد كان يعتقد فى أعماقه أنها المفتاح الذى سيفتح له باب جنته .

والتفت إليها فى حنان وقال لها :

ـ ما اسم أختك يا سنية ؟

فقالت وعيناها تبتسمان :

ـ لماذا ؟

فقال وقد أضاء وجهه ، وتهدج صوته :

ـ لأسبح به .

فقالت وهى تفحصه بعينيها :

ـ روحية .

فقال فى حرارة :

ـ إننى يا سنية أحس نحوها عاطفة نبيلة ، عشت سنوات أرقبها فى الغدو والآصال ، وأعيش فى مجالها لحظات هى أسعد لحظات العمر ، إننى أشعر أنها أصبحت قطعة من روحى ، وما أتفه اليوم الذى ينقضى دون أن أراها ، أقول لك صادقا إننى لن أصبح شيئا إذا اختفت من حياتى ، إن كل ما أرجوه أن تيسرى لى لقاءها .

فنظرت إليه بعينين مفتوحتين كأنما تحاول أن تستشف خبيئة نفسه ، وفطن إلى تعبير نظراتها فقال لها فى حماسة .

ـ لست يا سنية من ذلك الشباب الماجن الذى يبحث عن فتاة يلهو بها ، لو كنت عابثا ما عشت سنوات وأنا قانع بالنظر إليها ، لقد ترعرع حبها فى نفسى على مر السنين حتى صارت شيئا مقدسا ، وإن كل ما ابغيه أن أسعدها ، وفى إسعادها سعادتى .

وصمت ، وران السكوت برهة وهى ترمقه حالمة ، أذابت حرارة ألفاظه وصدقها جمودها ، فخفضت له جناح الرحمة وقالت له فى لين :

ـ سنذهب فى العصر أنا وروحية إلى خال لنا فى القبة ، ويمكنك أن تحادثنا فى التليفون .

وأعطته رقم التليفون فأفعم بالغبطة ، وراح قلبه يرفرف بين جنبيه بأجنحة السعادة ، وانصرف جذلان يكاد يرقص سرورا ، فما هى إلا ساعات ويتحقق ذلك الحلم الذى عاش سنين والأمل العذب يحدوه بأنه سيصبح يوما حقيقة واقعة .

وتصرم الوقت وصوت عذب يهمس فى نفسه : « روحية .. روحية .. روحية » وصور بهيجة تترادف فى مخيلته ، ومشاعر رقيقة تمور فى جوفه ، فيحس كأنما يعيش فى ملكوت شاعرى جذاب .

وجاء العصر ، فانطلق إلى التليفون يلفه اضطراب لذيذ ، ومد يده ليرفع السماعة ولكنه أحجم ورأى من الأفضل أن يتريث ، فراح يغدو يروح أمام

التليفون وقلبه يدق فى عنف ، حتى ليكاد يسمع دقاته .

تقدم من التليفون يحس دبيب النمل يسرى فى جسمه ، ورفع السماعة وأدار القرص ، ورن الجرس رنينا متواصلا كاد ينخلع له فؤاده ، وسمع صوتا رقيقا يهمس :

ـ آلو .

فأحس رعدة تسرى فى مفاصلة ، وقال فى صوت خافت متهدج :

ـ الآنسة سنية من فضلك .

ـ أنا سنية .

فقال فى اضطراب :

ـ كيف حالك وأين هى ؟

ـ إنها إلى جوارى وستحدثك .

وقفز قلبه فى رعونة ، وأسند ظهره إلى الحائط ، وراح الوقت يمر وهو يجمع نفسه التى ذهبت شعاعا ، وتقضت لحظات رهيبة لا تقاس فى حساب الزمن ولكنها كانت فى حسابه آمادا ، وسمع سماعة التليفون ترفع ، فأرهفت حواسه ، واتسعت عيناه ، وترددت أنفاسه ، ومس أذنيه الصوت النسوى الرقيق .

ـ آلو . آسفة ، إنها تعتذر عن عدم الحديث معك .

وضع سماعة التليفون فى تراخ ، ولكن لم يتسرب اليأس إلى قلبه ، بل أجج ذلك الرفض نار حبه ، فوطن النفس على أن تكون له وحده ، إنه قادر على أن يفعل ما يريد ، وسيحقق رغبته ، ما أيسر ذلك ما دامت سنية إلى جواره ، تؤمن بحبه لروحية واخلاصه لها .

ـ ١٣٦ ـ

شحب وجه الشمس ، وغاض نور النهار ، وبدأ ظلام الليل ينداح ليغمر الكون ،

وأضيئت المصابيح الزرقاء فى المحال فلم تقو على تبديد الظلمات التى أخذت يتكدس بعضها فوق بعض ، كانت الأوامر قد صدرت بتقييد الإضاءة خشية إغارة الألمان ، فقيدت وخيمت الكآبة على المدينة إرضاء للحلفاء !

وخرجت فراشات الليل ، لا لتحوم حول الأضواء بل لتحوم حول الجنود الفارغين ، الذين كانوا يجوبون الشوارع لا هم لهم إلا الخمر والنساء ، وراحت العربات التى تجرها الخيل تزاحم السيارات ، وقد جلس بعض جنود الإمبراطورية إلى جوار الحوذى وقد ارتدوا الطرابيش ، وزملاؤهم فى العربة يضحكون فترن ضحكات الفتيات المندسات بينهم خليعة تتقزز منها نفوس المارة ، بينما تنشرح لها صدور ذوى الوجوه الحمر ، الذين لعبت الخمر برءوسهم ، فبدلت فيهم الأشياء .

وانطلق خالد فى شارع عماد الدين ، وهو فى طريقه إلى صديق من أصدقائه يمضى الأمسيه عنده ، إنه قد ورث عن أبيه شيئين ، حبه للسهر ، وطيبة القلب ، إنه يعشق حياة الليل ، فكان يمضى ليالى جميلة فى ملاهى القاهرة ، قبل أن تفد جحافل الجيوش وتحتل جميع الملاهى وتحتكر السهرات ، فرأى أن خير ما يفعله أن يبتعد عن موارد الجنود ، وأن يمضى الليل مع السمار فى بيت صديق من أصدقائه ، كان يقبل ذلك الضيق وذلك الحجر دون تبرم أو استياء ، فمن طبعه أن يرضى بما هو واقع ، بل قد يتطوع ويتحمس له .

ودنا منه جندى بريطانى ، وحياه فى احترام ثم همس :

ـ ثلاثة قروش من فضلك ، كل ما أريده ثلاثة قروش يا كابتن .

ونظر إلى الجندى بعينين واسعتين ، ولم يجمجم ، ولم ينطق حرفا ، فقال الجندى فى بساطة :

ـ أريد أن أذهب إلى السينما وليس معى نقود .

فمد يده فى جيبه ، وأخرج القروش الثلاثة ودفعها إلى الجندى الذى تناولها ثم رفع يده بالتحية ، وهو يقول فى انشراح :

ـ متشكر يا كابتن .

وسار خالد ، حتى إذا بلغ نهاية الشارع لمح درية وأختها الكبرى وزوجها

يهبطون من الترو ، فخفق قلبه ، وتفتحت نفسه ، وافعم بالغبطة ، وخف إليهم مسرورا ، فلما دنا منهم هتف فى انشراح :

ـ أهلا .. أهلا .

وراح يصافحهم ، فلما أحس يد درية فى يده أشرق وجهه بابتسامة رقيقة ، وشع من عينيه بريق نم عما يكن لها قلبه ، فقد شغف بها حبا ، فانطلق معهم يحادثهم ، ويرنو إلى عينى درية الزرقاوين فيستشعر كأنما قد ارتفع عن الأرض ، وراحت نفسه تغريه أن ينطلق معهم ، وأن ينعم بالأمسية وهو إلى جوارها ، ولكنه زجر نفسه فما دعاه زوج أختها ، بل كانت حركاته توحى إليه أن يعجل بانصرافه، فاستأذن ، ووقف يتبع درية ببصره وقلبه يرفرف بين جنبيه فى حنان ، حتى اختفت فى الظلام .

واستأنف سيره منشرح الصدر ، تتوافد إلى رأسه أفكار مشرقة تضىء ظلام نفسه ، إنه يحب درية ، يهواها .. يهفو إليها ، فلماذا لا يتزوجها ؟ إنه يحس حنينا إليها .. يشتهيها ويتمنى من كل قلبه أن تملأ فراغ روحه ، أن تملأ حياته التى يشعر بجوارحه أنها خواء .

لو كانت درية إلى جواره ، ما هام على وجهه فى الصيف القائظ والشتاء القارس ، والليل البهيم ، ينقب عن صحبة تجلو عنه الملال .

ما باله لا يتقدم لخطبتها ؟ إنه لا يدرى لماذا يحجم حتى الآن ، فكر أكثر من مرة أن يفاتح خاله فى أمر زواجه من درية ، ولكنه كان يجفل بعد الإقدام .

سيذهب إلى خاله ، وسيطلب منه يد إبنته ، وسيتزوجها ، فما عاد يطيق أن يعيش بعيدا عنها ، بعد أن أججت مقابلة الليلة نار حبه ، وأشعلت ضرام وجده ، وفتحت براعم الآمال .

- ١٣٧ -

سعيد فى قصر العينى دائب الحركة ، وسنية تعاونه راضية مغتبطة ، حتى إذا ما وجدا خلوة راح سعيد يكشف عما يكنه لروحية من هيام فلا يسع سنية إلا أن تقول له إنها ذاهبة وروحية إلى خالهما فى القبة ، فيمكنه أن يطلبهما فى التليفون هناك ، عسى أن تلين روحيه ، وتقبل أن تحادثه ، وأن تصغى إلى حديثه النابض بالحب والوداد .

وتصرم النهار أو كاد ، فخف سعيد إلى التليفون يطلب سنية ، وما مس صوتها أذنيه حتى قال فى لهفة :

ـ سنية ؟! دعينى أحدثها .

ـ آسفة . حاولت أن أثنيها عن رأيها ، ولكنها ترفض أن تحدث أحدا .

قولى لها أن لا فائدة من ذلك الإعراض ، عزمت على أن أحدثها وسأفعل ، فما من شىء يستطيع أن يقف فى سبيلى إذا عزمت .

وساد السكون برهة ، سعيد يتململ فى وقفته قلقا ، ثم تحدثت سنية :

ـ قلت لها ، ولكنها أعرضت عنى وأشاحت بوجهها ، ولم تنطق حرفا .

ـ ليتها تعرف حقيقة شعورى ، لو كانت تعرف مقدار حبى ما أعرضت هذا الإعراض ، أصبحت لا أطيق هذا الصد ، إننى قادم إلى القبة ، قادم لأقابلها وقلبى على كفى ، ولا أظن أنها ترفض قلبا ينبض بحبها فى الليل والنهار .

ـ لا تجهد نفسك ، فلن تجدنا إذا أقبلت ، إننا عائدتان إلى البيت .

ـ سنيه ، قولى لها إننى عشت سنين فى محراب حبها كالعابد المتبتل ، الزاهد فى الوصال ، كان يكفينى أن أسعد بالنظر إليها من بعيد ، لكن العابد يطمع فى رضا المعبود ، وأنا أطمع فى رضاها ، كل ما أريده أن تسكب عذب حديثها فى

آذانى فتطفىء ظمأ روحى ، وأن ابثها ذوب نفسى فأخفف عن صدرى ، ليتها تصغى إلى دقات قلبى ، ليتها تعرف وسوسة روحى ، ليتها تقرأ ما فى ضميرى لتفتح لى قلبها دون تردد أو أحجام ، أحبها يا سنية ولا أستطيع أن أبوح لها بحبى ، فكونى لسانى المترنم بأهازيج الحب ، المسبح بجمال الوصال .

وصمت ، فظلت سنية سا كنة كأنما لا تجد لسانها ، وشرد ذهنه ، فقد لمعت فى رأسه فكرة استراح لها فوضع سماعة التليفون ، وسار يجد فى سيره ، حتى بلغ دار صديقه صادق ، فلما قابله قال له :

ـ تعالى معى .

ـ إلى أين ؟ .

وركبا سيارة صادق ، وانطلقا حتى إذا بلغا ميدان قصر النيل وقف صادق يعبث بنظارته ، وهرع سعيد إلى الطوار ينقب عنهما فى كل ترام مقبل إلى الميدان، وتصرم الوقت وصادق يرنو إليه فى هدوء ، وهو دائب البحث والتنقيب ، ولمحهما جالستين فى الترام فاشتد وجيب قلبه وتدفق الدم حارا إلى وجهه ، ولكنه لم يرتبك ، بل تقدم منهما ، وجذب سنية من يدها ، فهبطت ورنا إلى روحية فى توسل ، فهبطت خلف أختها .

وساروا ، سنية إلى جواره ، وروحية إلى جوار أختها وقد ارتدت ثوبا بسيطا بدت فيه أنيقه ، إنها لتبدو فى هذا الثوب أكثر أنوثة ، وأروع حسنا منها فى الثوب المدرسى الأسود .

وبلغوا السيارة ، ففتح لهما الباب ، فدخلت سنية وتبعتها روحية خافضة الرأس مسبلة الأجفان ، وركب إلى جوار صديقه ، وانسابت السيارة وقد خيم السكون وخفقت القلوب فى الصدور ، وجاشت العواطف وأرهفت الحواس .

ودارت السيارة فى الجزيرة ، ثم وقفت فى ركن هادىء تحت ظلال شجرة ضخمة كانت تحجب ضوء المصباح الخافت أن يفضح المكان ، وفتح الباب وانسل صادق وانسلت سنية فى أثره ، وراح يجمع شتات نفسه وينمق مقالته ، ولكن قبل أن تتحرك شفتاه سمعها تقول له فى صوت أعذب من الموسيقا :

ـ ماذا تريد منى ؟ .

فقال فى حماسة وصدق :

ـ لست كسائر الناس ، إننى أحيا على أمل واحد ، أن نعيش معا أنا وأنت لا يفرق شىء بينى وبينك

وصمت .. وتخضبت وجنتاها بالدم ، ولم ينبس بعد ذلك بكلمة ، كأنما استنفد كل طاقته من الكلام ، ودثرهما سكون عميق ولكنه كان أفصح من البيان .

ـ ١٣٨ ـ

اجتمع الطلاب فى الكلية يتدارسون الموقف ، فالحكومات المصرية المتعاقبة تتنافس فى إرضاء الإنجليز تنفيذا لمعاهدة الصداقة ، إنها لتضع موارد الدولة فى خدمتهم ، وتيسر لهم أن يسلبوا الشعب قوته ، لا لشىء إلا ليرضى الإنجليز عنهم ويتركوهم فى كراسى الحكم الوثيرة .

اشتدت موجة الغلاء ، واختفت السلع من الأسواق ، وبات الفقراء يئنون ويترنحون ، أصبحوا لا يجدون الخبز إلا بشق الأنفس ، قدمت الحكومة إلى الإنجليز كل معونة ، حتى النساء قدمتهن لهم ، وضحى الشعب براحته فى سبيلهم ، وتحمل الضيق والضنك من أجلهم ، أخذوا كل شىء مقابل لا شىء ، كأنما كانت ضريبة المحالفة مفروضة على مصر وحدها ، كأن عليها الغرم ولحليفتها الغنم ، فثارت ثائرة الطلاب ، وقرروا أن يضربوا ، رافعين الصوت فى وجه بريطانيا مطالبين ساستها أن يعلنوا على الملأ استعدادهم للجلاء عن البلاد عقب أن تضع الحرب أوزارها .. كان الطلاب يرون أن تطالب مصر بثمن ما تتحمل من تضحيات بينما كانت الحكومات ترى إغماض العين عن التضحيات ، فهى تقبض الثمن سكوت الإنجليز عنها . !

وحضر يحيى ذلك الاجتماع ، وتحمس له كما تحمس زملاؤه ، ولكن ما انفض

الاجتماع وخلا بنفسه حتى راح صوت يوسوس له : « إنك تقبض راتبا شهريا من القلم السياسى ، فماذا عليك لو رفعت إليه أمر ما قرر الطلاب الساعة ، إنك لو فعلت لبررت حقك فى ذلك المبلغ الذى تتقاضاه » .

ورن فى أذنيه صوت زميله الذى قاده إلى القلم السياسى : « كل ما ستفعله أن تتحدث مع القلم السياسى اليوم ، بما سيتحدث الناس به غدا .. ستقول للقلم السياسى : الطلبة مجتمعون اليوم وقد قرروا الإضراب غدا ، وسيقول الناس فى اليوم التالى : أضرب الطلبة » .

واستمرت الوسوسات تغريه ، وتزين له محادثة ذلك الضابط الذى يذكر وجهه بوجوه العذارى ، إنه إذا انقلب على عقبيه سيفقد ذلك المورد الذى يسر له حياته ، وسيعود إلى حياة التسكع فى الطرقات ، يمد عينيه إلى ما متع الله به أناسا غيره ، لن يقول له إلا أن الطلبة قد قرروا الإضراب غدا ، ولن يكون ذلك جديدا عليه ، فلا بد أن يكون زميله الذى قاده إلى هناك قد بلغ الأمر قبله ، لن ينفع زملاءه سكوته سواء أطلق لسانه أم حبسه .

وسار يبحث عن تليفون بعيد عن الكلية ، وانبثق صوت مزمجر فى أعماقه يصيح به : « خائن .. خائن » وعنف فى سيره ليند ذلك الصوت الزاجر ، ووصل إلى منعطف هادىء ، فإذا مشاهد راسبة فى أغواره تطفو على سطح ذهنه ، رأى نفسه غلاما يلعب على شاطىء البحر في المكس ، ورأى تلك الفتاة اليونانية الصغيرة الممتلئة تحاول أن تصطاد السمك دون أن تضع فى الشص طعما ، وهو يدنو منها ويقول لها ناصحا : « ليس هكذا يصاد السمك » فتقول له زاجره : « لا تتدخل فيما لا يعنيك » فأحس عرقا يتفصد من جبينه ، وشعر بنفسه ضئيلة حقيرة ، فضيق من خطوه ، وهب ضميره يغريه بالعودة من حيث جاء ، فأصاخ له سمعه ، ثم دار على عقبيه وانطلق .

وراح صوت خبيث يتدسس إلى نفسه يوسوس : « انتهى الأمر وفقدت ما رتبه لك القلم السياسى ، فهم لا يتصدقون على الفقراء بأموالهم » . وقبل أن يجهر ذلك الوسواس بالعصيان ، لوى يحيى شفته السفلى ، وهز كتفه زرايه ، وسار وقد

بدا الرضا عن نفسه ينداح فى جوفه ، وغمره سرور عارم لأنه قهر ضعفه ، وانتشل نفسه قبل أن يتمرغ فى الأوحال .

- ١٣٩ -

نقل خالد إلى محطة الدخيلة الجوية ، فعاد يذرع الحارة بثيابه الرسمية ، ويلقى على حليمة القابعة فى مكانها التحية فى الغدو والآصال ، ويطل على الخربة، ويرن فى أذنيه صوت النجرو وهو يصيح فى الظهيرة ، وفى هجعة الليل والناس نيام « نظرة يا جورج .. يا جورج نظرة » ويقابل عماته اللاتى كن فى شكلهن أقرب إلى الرجال ، ويفطن إلى نظراتهن المليئة بالحسد والغيرة ، وعلى الرغم من كل ذلك لم ينقبض صدره ، بل كان منشرحا ، أصبح قريبا من بيت خاله ، إن هى إلاخطوات ويخطب درية .

وأقبل الأستاذ زكريا ، وجلس إلى جوار خالد فى تراخ ، يتنفس فى هدوء ، وينظر أمامه كالحالم ، لم يكن يفكر فى شىء ، بل كان يستريح من التفكير ، فهو يعيش على فكره ، ولفكره .

نظر خالد إليه من طرف عينيه ، وهو يمرر يده على رأسه ووجهه ، كانت هذه عادته إذا شغلته فكرة ، وتأهب للإفضاء بها ، ثم قال وفى صدره حرارة :

- عزمت على الزواج ، وسأخطب درية ، فما رأيك ؟

فاعتدل زكريا ، وقال فى هدوء :

- رأيى أن تبحث عن غيرها .

فاضطرب خالد ، وقال فى قلق ، وهو ضيق النفس :

- لماذا ؟

- يكفى أن خالك قد رفضنا مرة لنعرض عنه ، إننى لا أحب أن تجرح كرامتنا مرة ثانية .

ورنا خالد إليه غير مقتنع ، إذا كان خاله قد رفض أن يزوج ابنته الكبرى من أخيه لبيب فما ذنبه هو ؟ وهم أن يجادل أخاه وأن يقول له إنه يحب درية ، وأن خاله لن يرفضه ، إنه على ثقة من ذلك ، ولكنه آثر أن يلوذ بالصمت ، فهو يعرف أن زكريا يفكر بعقله دائما ، فلن يعترف بسلطان الهوى ، ولن ينصح بالتقدم ما دام هناك احتمال الرفض ، واحتمال أن ينكأ جرح النفس القديم ، وأن تتكرر الإهانات .

وساد المكان صمت عميق ، وشرد خالد ببصره وجاش جوفه بالعواطف ، واستشعر رغبة فى أن ينفس عن صدره وأن يتحدث ، ولكنه ما كان قادرا على أن يعاود الحديث مع زكريا بعد أن اتضحت اتجاهاته ، فنهض وانصرف ليزور صديقه حامدا ، يفضى إليه بما يمور بين جوانحه من مشاعر وإحساسات .

وطرق الباب ، وما هى إلا لحظات حتى انفرج عن سهام ، بقامتها الممتلئة ، ووجهها الأبيض ، وعينيها السوداوين اللتين تنمان عن الخفة ، فلما رأته رفت على شفتيها بسمة عذبة ، والتمعت عيناها سرورا ، وقالت فى ترحيب :

- تفضل .

وقادته إلى الحجرة المتواضعة التى خصصت للزوار ، وهى تسير أمامه تكاد تطير عن الأرض ، وغادرته ثم عادت مع أخيها حامد وجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وسهام تحس نشوة تملأ نفسها ، ومشاعر عذبة تناغى حواسها ، وغبطة تشيع فى جوفها ، واعتدل خالد يتأهب للإفضاء بالحديث الذى ما جاء إلا ليخوض فيه ، فقد كان يجد لذة فى التحدث عنه ، ثم قال :

- نويت أن أتزوج .

فغضت سهام بصرها ، وصعد الدم إلى وجهها ، ونبت فى صدرها قلق ، وقال حامد فى حماسة :

- ممن ؟

وخفق قلب سهام فى رعونة ، حتى خشيت أن يكشف أمرها ، وقال خالد :

- من درية ابنة خالى .

وأحست سهام خنجرا يمزق فؤادها ، وتلوت أحشاؤها ، وجف حلقها ، وكادت

تند منها أنة فزع ، ولكنها كبحتها ، وكادت أن تخونها دموعها ، ولكن العبرات تحجرت فى مآقيها ، ومادت الأرض بها ، وخافت أن يفضحها صمتها ، فقالت وكبدها تتفتت :

ـ أتحبها ؟

فقال خالد ، وقد أشرق وجهه ، وشعت عيناه ببريق ينم عن حبه :

ـ كنت وأنا صغير أرنو إليها وهى تحبو ، وأنا واثق أنها لى ، أنها ملكى وحدى ، وشببت وقد شب معى حبى ، إننى أهواها بكل خالجة من خوالجى ، بكل جوارحى .

فقالت سهام كأنما تدافع عن نفسها :

ـ فكر جيدا قبل أن تقدم فهذا أخطر قرار تقرره فى حياتك ، إنها عيشة العمر كله .

ـ فكرت ، وقد اقتنعت أن فى هذا الزواج هناءتى .

وانفجر فى جوفها صوت يئن : « وأنا ماذا يكون مصيرى ، إننى أهواك ، أحبك ، ولن يكون للعيش طعم إذا اختفيت من حياتى ، فكر فى شقائى ، ارحم شبابى » . وأحست كأن مشاعرها تكاد تعصف بها ، وأن عليها أن تتحدث ..أن تقول شيئا ، فقالت فى نبرات مضطربة :

ـ ما شكلها ؟

فقال خالد منشرحا :

ـ شكلها يعجبنى .

واندكت مقاومتها ،وعجزت أن تتحكم فى ضوابط نفسها ، فانسلت من الغرفة وانطلقت إلى غرفة أخرى تذرف الدمع السخين .

وعاد خالد إلى داره بعد أن أشعل النار فى قلب سهام ، وتركها للسهاد والعبرات والشجون ، ورأى أباه ممددا فى فراشه فذهب إليه وقال :

ـ أريد أن أخطب درية ، فما رأيك ؟

ـ اختيار موفق ياخالد .

ونهض على من رقاده خفيفا وقال :

ـ ماذا تنتظر ؟! هيا بنا إلى بيت خالك .

وذهبا ، وماعادا من هناك إلا وكانت درية خطيبة خالد ، الذى أفعم بالنشوة وراح يحلق فى سموات الخيال ، وما دار بخلده أن فى بيت صديقه فتاة غضة ما كاد قلبها يتنفس حتى هبت أعاصير صدعته ، قد ارتمت على فراشها تبكى الأمانى والآمال وحبها الذى وجدته سرابا وأوهاما .

ـ ١٤٠ ـ

وقف سعيد وقد أسند ظهره إلى السور الحجرى القائم على النيل بالقرب من قصر العينى ، منشرح الصدر يمد بصره إلى الطريق ومشاعر الحنان دفاقة فى جوفه ، كان يرقب وفودها فقد تواعدا على اللقاء ، وكانت تنقضى بين اللقاء واللقاء ليالى وأيام وشهور ، كانا يترقبان اللحظة المسحورة فى شوق ولهفة .

ولمحها مقبلة فى ثوب أبيض تزينه وردة بنفسجية دقيقة ، وقد رجلت شعرها فى بساطة ، فلما وقعت عيناها عليه رفت على شفتيها بسمة عذبة خفق لها فؤاده ، فخف لاستقبالها منتشيا ينظر إليها فى وله ، ثم ينسابان معا يتناجيان ، فيشعر كأنما أنامل حالمة تعبث بأوتار قلبه ، ورقة تتدسس إلى حنايا ضلوعه ، كانت تشع منها ، فقد صيغت ذاتها من الرقة .

كانت الشمس تنحدر خلفهما ، وصفحة النيل تعكس الذهب النضار ، والنسيم يداعب وجهيهما ، والأشجار تمد على الأرض ظلالها ، والعصافير تزقزق عائدة لأوكارها ، والهدوء الشامل الذى يرهف المشاعر ينشر على الشاطىء جناحه فبدا كأن الكون يغنى للمحبين .

وتهادت على صفحة الماء الزوارق وقد رفعت أشرعتها ، وانسابت صوب قرص الشمس المتوهج الذى انحدر ليغوص فى اللجة ، فبدا المشهد لعينيه كلوحة فنية

رائعة ، انتشرت فيها الألوان الحمراء والذهبية والزرقاء فى براعة أخاذة تسلب الألباب ، فخطر له أن يدعوها للنزول إلى زورق من الزوارق المتناثرة على الشاطئ ، ولكن ما التفت إليها ورأى صفاء عينيها حتى تبدد ذلك الخاطر ، ولم يجرؤ على أن يعرض عليها الفكرة .

وتدفق فى حديثه ، وتوردت وجنتاها ، وراحا يهيمان فى سماء الأمانى ، قال فى حماسة :

ـ سأتخرج هذا العام ، وأصبح طبيب امتياز ، ولكن ليس هذا كل أملى . سأنجح بتفوق ، وترسلنى الحكومة فى بعثة إلى إنجلترا ، وسأصبح زميلا فى جمعية الجراحين الملكية بلندن .

وشرد ببصره إلى الأفق البعيد وقال :

ـ أرى كل ذلك واضحا أمام عينى .

فهمست فى صوت موسيقى :

ـ أرجو أن تهب الريح كما تشتهى .

فقال فى حرارة ، وهو يحدق فى عينيها :

ـ ماذا تفعل الأنواء للبحار الماهر ؟ تعوقه قليلا ، ولكنها لا تثنيه عن هدفه ، إننى تعودت أن أصنع مستقبلى بيدى ، وسأصنعه كما أشتهى ، إننى واثق أن لا شىء يستطيع أن يقف فى سبيلى إذا عزمت على أمر ، حقا أن قلبى تعلق بك من سنين ، ولم أتقدم إليك لأكشف عن خبيئة نفسى وأعلن حبى ، إننى آثرت أن أتريث ، ولكن ما من قوة على الأرض كانت قادرة على أن تحول بينى وبينك .

ولاذ بالصمت ليسعد بالإحساسات اللذيذة التى انبثقت من أعماقه ، وران على صفحة وجهها هدوء عجيب ، وإن كانت المشاعر تمور فى جوفها ، أحبته بكل جارحة من جوارحها وإن لم تنبس بكلمة تنم عن ذلك الهوى ، ولم تسمح لملامحها أن تشى بها ، كانت على الرغم من رقتها قادرة على إخفاء لواعج نفسها .

والتفت إليها ولهان وقال :

ـ وأنت ، ماذا عزمت أن تفعلى ؟

فقالت فى همس :

ـ سأكون مدرسة ، أهلى فى حاجة إلى عونى .

فقال فى حماسة ، كأنما أصبح الأمر له وحده :

ـ لا بأس عليك ، سأتركك تعملين ، ولن أحول بينك وبين عونهم .

وفطنت إلى ما يلمح إليه ، فأطرقت وأسبلت جفنيها وإن كانت إحساسات الفرح أخذت تتداح فى جوفها حتى غمرتها .

ـ ١٤١ ـ

اشتدت الغارات على الإسكندرية ، ففرت النساء إلى دمنهور وإلى القاهرة ، وإلى المدن الداخلية ، وبقى الرجال يمارسون أعمالهم ، حتى إذا جن الليل هرعوا إلى الدور يلوذون بها .

وبدا الظلام فى زحفه ، فتقاطر إلى الدار كمال وعلى وحسان وزكريا وجلال ومصطفى وحسين وأبناء الأسرة ، كانوا يبيتون جميعا فى هذا البيت يترقبون الغارات فى قلق ، وكانوا يحسبون أن سيأتى يوم يعز عليهم فيه أن يجدوا الطعام ، لذلك ملئوا البيت بالأطعمة الجافة والجبن والزيتون وحلاوة الطحينية ، وكان الشبان يلتهمون تلك الأطعمة فى غفلة من الكبار ، ولما كانوا يخشون أن ينفد المخزون ، لذلك عينوا مصطفى وزيرا للتموين ، يتصرف فيما يختزنون بحكمة وروية .

كانوا يهرعون إلى البيت مع غروب الشمس ، يمكثون به حتى شروق شمس اليوم التالى ، فكانوا أشبه بتلاميذ المدارس الذين يعيشون فى معاهدهم ، لذلك أطلقوا على هذه العيشة التى يحيونها « الداخلية » .

وجاء أوان الطعام ، فوضع أمام زكريا أكله المسلوق ، وما هى إلا دقائق حتى كان الشباب قد غيبوا الأكل الخاص فى بطونهم ، وقويت شهوتهم ولكن وزير التموين لم يقدم لهم طعاما ، إنه يتلفت فلايجد ابنه قد حضر وأنه لا يقدم طعاما إلا

إذا أقبل ابنه ، أما إذا تأخر فى العودة فإنه يفرض على الجميع صياما أجباريا حتى يثوب .

وتسلل الشباب إلى حيث المئونة ، وراحوا يلتهمون الحلاوة الطحينية وفاجأهم فى حالة تلبس فصاح ثائرا :

ـ كلوا .. كلوا والله ليأتين يوم تموتون فيه جوعا .

وجاء النجل العزيز فبسط وزير التموين يده ، ووضع الطعام فتحلقوا حوله ، وابتدأ الطعام يقل والحديث يتناثر . فقال جلال فى زهوه :

ـ لقد دخل هتلر التاريخ من أوسع أبوابه .

فاعتدل حسان وقال فى حرارة :

ـ هذه هى نكبة البشر ، كل مجنون يجرجر الشعوب إلى مجازر يشيب من هولها الوليد ليذكر اسمه فى سجل التاريخ ، ماذا يهم هتلر بعد موته أن ذكره التاريخ أو نسيه ؟!

قال جلال وهو يرنو إلى عمه فى استخفاف :

ـ إنه الخلود !

فقال عمه فى زراية :

ـ إنه الوهم الكاذب ، الأنانية الطاغية ، إنه الغرور ، ما الخلود إلا كذبة بلقاء تستولى على أفئدة المرتجفين من الفناء ، ماذا كسب نابليون بعد أن أفنى زهرة شباب أمته وحاق بها الدمار ؟ ستقول ذكر اسمه فى التاريخ ، فماذا سيعود عليه من ذلك الذكر بعد أن أصبح رمادا تذروه الرياح ؟! أصبح قصة من القصص أو أسطورة من الأساطير .

فقال جلال فى مكابرة :

ـ إذا قلنا نابليون تجسمت العظمة أمام أعيننا .

فقال حسان وقد لوى شفتيه :

ـ عظمة الجزارين ، وإذا سلمنا جدلا أننا أكبرناه إذا جرى اسمه على لساننا ، فما الذى عاد عليه فى فنائه ؟

فقال جلال يدافع عن رأيه ، فقد عز عليه أن ينتصر سكير على خريج الحقوق :

ـ إن العظماء ليسوا ملكا لأنفسهم ، إنهم ملك للتاريخ ، فإذا درسناهم فإنما ندرسهم لأنهم جزء من التاريخ .

ـ أتصدق التاريخ ؟! إنه سلسلة من الأكاذيب .

فقال جلال فى حماسة :

ـ كيف أنكر التاريخ ؟ هذه الأهرام حقيقة لا شك فيها ، بناها خوفو وخفرع ومنقرع ، أفى ريب أنت من ذلك ؟

ـ هذه هى النواة التى بنيت عليها الأكاذيب .

ـ كيف ؟

ـ لماذا بنيت هذه الأهرام ؟

ـ لتتحدى الزمن ، وتخبر الأجيال بعظمة الفراعين .

ـ هذه إحدى الأكاذيب ، من أدرانا أن هذه هى الحقيقة ؟ لماذا لا تكون هذه الأهرام رمزا للعبودية والذل ؟ ما الذى استفاده الشعب البائس الذى أمضى السنين فى الحر الشديد والبرد الزمهرير ، يقطع الحجارة ويحملها ، والسياط تلهب ظهره ليشيد ذلك الصرح العجيب ؟!

ـ ترك أثرا يتحدث عن عظمته .

ـ عظمة الطغاه ، المغرورين ، الفزعين من الموت ، الملتمسين الأسباب ليغروا أنفسهم بالخلود ، إن ذلك الرجل المجهول الذى صنع القلة أول مرة ، أعظم من هؤلاء المستبدين الذين شيدوا الأهرام ، إنه ترك للبشرية ما يعود عليها بالنفع دون أن يعلن عن نفسه ، بينما أنفق هؤلاء المأفونون الجهود فيما لا يعود بالنفع على أحد، لاشىء إلا ليعلنوا عن جبروتهم وعظمتهم .

وأطلقت زمارات الإنذار ، فأطفئت الأنوار ، وساد القلق والسكون ، وما هى إلا لحظات حتى دوت قنابل الألمان ، فقال كمال وهو يرتجف :

ـ سواء أدخل هتلر التاريخ أم لم يدخله ، إن الذى ندريه حقا أنه أدخلنا الشقوق !

ـ ١٤٢ ـ

هز الشوق خالدا إلى درية ففكر أن يسافر إلى شبراخيت ، حيث فرت نساء الأسرة من الغارات الجوية ، وما أن انتهى العمل فى محطة الدخيلة حتى هرع إلى المحطة واستقل القطار ، لينتهى من زيارته ويعود إلى الإسكندرية قبل أن يسدل الليل أسجاف الظلام ، وقبل أن تنطلق زمارات الإنذار وتلقى الطائرات حممها .

وشرد ببصره ، ونظر من النافذة إلى الحقول المترامية ولكنه لم يكن يرى شيئا من الجمال المبسوط أمامه ، كان مشغولابالأفكار المتزاحمة فى رأسه . انضم الإيطاليون إلى الألمان ، وإنهم ليزحفون فى الصحراء الغربية حتى دنوا من حدود مصر . أوتقف البلاد مكتوفة الأيدى أمام ذلك الزحف ؟ ستدافع عن أراضيهاعلى قدر ما تملك من قوة ما فى ذلك شك ، وسيشترك هو فى القتال ، سيحارب جبابرة الجو، سيطير فى الطائرات العتيقة ليتصدى لطائرات الألمان ، سيقتل ، هذا هو المصير المحتوم ، وإنه لا يستطيع أن ينقلب على عقبيه ، فعليه أن يؤدى للوطن ضريبة الدم .

وتململ فى مقعده ، ولكنه لم يستطع فكاكا من أسر أفكاره ، إذا كان عليه أن يريق دماءه فى سبيل الذود عن وطنه فما ذنب درية ؟ لماذ يطعن فؤادها ، ويسربلها ثياب الحزن ، وهى ماتزال شابة غضة ، أيرضى لها أن تكون أرملة قبل أن تتزوج ؟ ليته ما تقدم لخطبتها ، ليته تريث حتى تضع هذه الحرب البغيضة أوزارها.

ترى ماذا تفعل درية لو دخل عليها الناعى يوما ، وقال لها قتل خالد ؟ إنه لا يدرى حقيقة شعورها نحوه ، إنه يحبها من كل قلبه ، ويسرى حبها فى مسرى الدم ، ولكنها لم تفتح له قلبها يوما ، إذا تحدث إليهاغضت من بصرها ، وإذا تودد

إليها تضرجت وجنتاها بحمرة محببة ، أهذا هو الحب ؟ إنه لم يختل بها ليناجيها وتناجيه ليكشف عن وجده وجواه ، وتفصح عن حقيقة شعورها ، إنه يقابلها فى بيت أبيها ، فى حضور أمها أو إخوتها ، فلا يجد فرصة يبثها فيها مكنون صدره، ويغوص فى أعماقها يتلمس مكانه فى فؤادها .. وغامت صفحة وجهه بسحابة من الأسى ، راح يفكر فى أسر هؤلاء البائسين الذين سقطوا صرعى هذه الحرب المجنونة، كم شابة ترملت ، وكم أم ثكلت ، وكم طفل ذاق ذل اليتم ، وكم أسر تحطمت ، وكم من مدن دكت ، وكم رجال ونساء وأطفال هاموا على وجوههم ، أصبح العالم مسرحا للمآسى والآلام ، فلماذا يجلب الناس لأنفسهم كل هذه الأوجاع ؟!

أكتب على مصر أن تتجرع هذه الكأس ؟! أن يجرى الدمار فيها يعيث فسادا فى أرجائها ؟ أن يعلو الوجوه المؤمنة القانعة غبرة ؟ أن ينزل الحزن الثقيل بالقلوب الخافقة بالبشر ، أن يدثر هذا الوادى الأخضر السواد ، ويجلله الأسى ، واستشعر الشفقة تتفجر فى صدره ، وأحس حرارة فى قلبه ، كان يصلى فى صمت إلى الله أن يجنب بلاده هذه النكبة .

وتهادى القطار ، وأحس حركة بجواره ، فالتفت وأفاق إلى نفسه فألفى الناس يتأهبون للهبوط ، وصلوا إلى شبراخيت ، فهب منتصبا وسار فى ثيابه الرسمية يضرب فى الطريق حتى بلغ البيت المتواضع الذى فرت إليه حبيبة الفؤاد .

دخل على زوجة خاله وحياها فى شوق ، فرحبت به من قلبها ، وأقبلت درية فى ثوب أبيض يزينه وردة حمراء وقد صففت شعرها الأصفر فى عناية ، ومدت يدها تصافحه فى حياء ، فضغط على يدها فى وجد ، فاحمرت وجنتاها وبرقت عيناها الزرقاوان ببريق أخاذ ، سرعان ما اختفى خلف الجفون المسبلة .

ونهضت امرأة خاله ، ذهبت تعد له ما تقدمه له ، وخلا الجو لهما فقال فى صوت متهدج ينم عن الصدق :

ـ جئت يا درية لأقول لك إننا قد نشترك فى الحرب ، وقد أقتل ، وجئت أعرض عليك أن نفسخ الخطبة ، إننى ما أحب أن تتحملى المتاعب بسببى ، لا أريد لك أن تفجعى فى خطبتك ، إن تلبسى السواد بدل أن ترتدى ثوب زفافك،

إننى آسف يادرية ، لم أفكر فيما قد أسببه لك من شجن يوم تقدمت لخطبتك ، أنت الآن حرة من كل قيد ، اختارى ما فيه مصلحتك ، ومصلحتك وحدك ، وثقى أنى سأكون سعيدا بقرارك ، لأن كل ما أبغيه سعادتك .

فقالت درية فى وجد :

ـ لن أتخلى عنك أبدا ، إنك خطيبى وستظل خطيبى .

ـ قد أقتل يا درية .

فقالت وقد رفعت بصرها إلى السماء :

ـ الله موجود ، وهو الذى يرسم مصائرنا ، وإننى أثق فى عدله وأومن بقضائه .

وانصرف خالد من شبراخيت منشرح الصدر ، انصرف وهو يثق بنفسه وبدرية.

ـ ١٤٣ ـ

جلسوا فى الضوء الخافت يتبادلون النظر ، وقد لاحت فى وجه الشباب ثورة ، عادوا إلى « الداخلية » قبل غروب الشمس ، وتصرم النهار وانقضى من الليل شطره ، ولم يقدم لهم وزيرالتموين عشاءهم ، إنهم يحسون الجوع يخرط أمعاءهم ، وهو عنهم لاه لأن ابنه لم يعد بعد ، وما كان قلبه يطاوعه أن يمد المائدة قبل عودته وإن ماتوا جميعا من الجوع .

وضاق صدرالشباب فثاروا ، وقال جلال :

ـ نريد رفع هذا الحجرعنا ، لم نعد نحتمل هذا الاستبداد ، نريد أن نتحرر .

فقال كمال مؤازرا أخاه :

ـ جوعوا تصحوا .

فقال جلال فى غضب :

ـ لعن الله الصحة التى تأتى من الجوع .

ونهض يقتحم التموين ، فهب الشباب خلفه وراحوا يتخاطفون الطعام ،

ومصطفى يصيح فى حنق :

ـ لست مسئولا عنكم بعد اليوم ، لاتلومونى إذا متم من الجوع .

فقال حسان فى استخفاف :

ـ لن يثنيهم هذا التهديد عما هم فيه .

وذهب مصطفى إليهم يزجرهم ، ويكفكفهم عن الطعام وهم لا يأبهون به ، فصاح على :

ـ دعهم ، الجوع كافر .

فعاد مصطفى يزمجر ، ويرغى ويزبد ويقول :

ـ لو طاوعت نفسى لجلدتهم ، هذا لمصلحتهم .

فقال له حسان وهو يبتسم :

ـ لو فعلت ذلك لاحترموك ، إن الناس لايحترمون إلا جلاديهم .

فقال زكريا فى هدوء :

ـ يرهبونهم ولا يحترمونهم .

فقال حسان فى استخفاف :

ـ ليس هناك فرق كبير بين الرهبة والاحترام ، الناس لا يفرقون بين من يبذل روحه فى سبيلهم ، وبين من يزهق أرواحهم فى سبيله ، إنهم قد يعرضون عن الأول وقد يهللون للثانى ويهتفون ، إننى أذكر أيام كنت فى اسطمبول ، قابلت هناك محمد بك فريد ، كان يضحى بكل شىء فى سبيل بلاده ، بماله وراحت وصحتة ، فماذا فعلت له بلاده ؟ لاشىء ، نسيته وهتفت لمن أذلوها وسقوها كأس الهوان .

قال زكريا فى ثقة :

ـ الرجل العامل لابد أن يعرف قدره وإن طال الزمان .

فقال حسان فى مرارة :

ـ انتهت الأيام التى كنا نتعلق فيها بالأوهام .

وجاء الشبان وفى يد أحدهم زجاجة غريبة ، وهم يتساءلون :

ـ ما هذه الزجاجة ؟

فقال حسان :

ـ على بها .

وفتح السدادة ، وذاق ما بها بلسانه فاكتسى وجهه بالرضا ، وسألوه فى لهفة :

ـ ماذا بها ؟

فأشار لهم بيده أن تريثوا ، ورفعها وراح يفرغ ما بها فى جوفه ولم ينبس بكلمة ، فلو نطق حرفا لهجموا عليه ، وانتزعوها منه ، ولما عبها وضع الزجاجة على الأرض فى هدوء ، وعادوا يسألونه :

ـ ماذا وجدت بها :

فقال فى بساطة ، وعيناه تفصحان عن سروره :

ـ الظاهر أنها كونياك .

واربدت وجوه الرجال ، كانوا يصلون جميعا ، وما دار بخلدهم يوما أن يسكرحسان وهو فى « الداخلية » .

ـ ١٤٤ ـ

راح الدكتور سعيد يدور فى حجرات قصر العينى نشيطا ، ممتلئا حماسة ، بعد أن أصبح طبيب امتياز . كان يرى مستقبله مشرقا أمام عينيه ، فكان يبذل غاية الجهد ليبلغ ما يريد ، ويصبح كما يشتهى أن يكون .

كان أشبه بنجوم السينما الذين يقومون بأدوار فاتنى النساء ، فراحت فتيات قصر العينى يرمقنه فى إعجاب ، وبدأت فتاة بعينها ترمى شباكها حوله لتصيده ، ولكنه كان يعرض عنها ويغفل نظراتها الملتهبة ، التى كانت تصوبها إليه .

لاحظت الفتيات مطاردتها له ، فرحن يسخرن منها ، وإن كن فى أعماقهن يخشين أن يسقط فى شباكها ، كانت جميلة جذابة ، ولولا ترامیها عليه لكان من

المحتمل أن تلفت نظره وأن يتودد إليها ، فالرجال لاتهفو أنفسهم إلى الجمال المبذول بغير حساب .

وفطنت سنية إلى أن الفتاة تحاول إغراءه ، وأنها كلما دنت منه حاولت أن تجذبه إليها ، كانت تبذل جهدها أن تلفت نظره إلى مفاتنها وسحرها الجذاب ، فدنت منها وهمست فى أذنيها :

ـ وفرى جهدك ، وحاولى إغراء طبيب آخر ، إنه مشغول عنك ، قلبه ليس معه ، إنه يحب .

فاربد وجه الفتاة وأحست ضيقا ، وقالت فى عصبية :

ـ يحب من ؟

فقالت سنية وهى تبتسم فى زهو :

ـ يحب أختى روحية .

لاح فى وجه الفتاة أسى والتمع الحنق فى عينيها ، وعز عليها أن تهزم فرنت إلى سنية فى تحد ، ورفعت رأسها وانطلقت كأنما تتوعده .

وأرخى الليل أستار الظلام ، وبدأ الهدوء يزحف ليحتوى قصر العينى بين ذراعيه ، ومشى النوم إلى العيون ، فذهب الدكتور سعيد إلى حجرته يهجع بعد تعب النهار .

وانتصف الليل ، وإذا جرس التليفون يدق فى حجرته ، فهب من رقاده ورفع السماعة ، وهمس فى نعاس :

ـ آلو .

وإذا بصوت نسوى ينسكب فى أذنه ، فيطير النوم من عينيه ، وترهف حواسه :

ـ أنا روحية .

فقال فى دهش ، وقلبه يرفرف بين ضلوعه :

ـ روحية ؟ فى هذه الساعة ؟ ماذ جرى ؟

ـ صدمت سيارة قريبا لى ، وأنا معه هنا فى قسم الحوادث .

فوضع السماعة وخرج يعدو فى ممار قصر العينى ، حتى بلغ قسم الحوادث ، فدلف إلى العنبر مبهور النفس ، يبحث بعينيه عنها ولكنه لم يجدها بل وجد الفتاة التى تحاول أن تبذل له نفسها ، فقال فى ضيق :

ـ أنت ؟!

فقالت وهى تبتسم فى دلال ، وتلقى برأسها إلى الخلف ليبرز صدرها الناهد :

ـ أصدقت أنها هى ؟

فقال ليكيدها :

ـ ما جئت مهرولا إلا من أجلها .

فأحست عقارب الغيرة تلسعها ، ولو طاوعت حقيقة شعورها لصمتت وأطرقت مهزومة ، ولكنها قالت فى رنة توحى بالمرارة :

ـ أتحبها إلى هذا الحد ؟

فقال وهو يدور على عقبيه :

ـ ولن أحب سواها .

وانصرف وهى تنظر إليه منطلقا فى ممر قصر العينى الطويل تستشعر كأنما قد لطم قلبها ، وأذل غرورها .

ـ ١٤٥ ـ

تخرج الأستاذ جلال فى كلية الحقوق ، فكان أول ما فكر فيه أن يطبع بطاقة تحمل اسمه وقد زينه بالصفة التى كدح فى سبيلها سنوات طوالا ، ونفذ ما فكر فيه ، وجعل يرنو إلى البطاقة مسرورا ويغمغم مزهوا « جلال على يونس ـ المحامى » فيشمخ بأنفه ويتلفت إلى الناس حوله ، يحس فى أعماقه أنه متفوق عليهم ، وكان هذا الإحساس يدخل البهجة على نفسه ، ولكن ذلك لم يكن يكفيه ، فهو يريد أن يتطلع الناس إليه ، وأن يعترفوا أنه أفضل منهم ، وأنه أستاذ عظيم، كانت هذه أمنية ، وكان يشتهى فى سريرته أن تتحقق الأمنية ، وأن تصبح بين

غمضة عين وانتباهتها حقيقة واقعة يقر بها الجميع .

وفقدت البطاقة على مر الأيام سحرها ، وبدأ شموخه يتقلص ، وراح اليأس يتدسس إلى نفسه ، مرت شهور ولم يعثر على عمل ، وكان وهو طالب يحلم أحلاما عريضة ، يرى نفسه زميلا للنحاس ومكرم وأبى علم والطويل ، فإذا به يدور على مصالح الحكومة ينقب عن وظيفة تصلح لخريج الحقوق .

وعاد إلى الدار يتصبب عرقه ، يلفه حنق وضيق ، وانقضى النهار وهو يتنقل بين الدواوين ، يسأل هذا وذاك ، دون أن تلوح له بارقة أمل ، وكيف يطمع أن تتفتح أمامه الأبواب ، وهو يذهب وحده ، لايشفع له وزير ، أو موظف كبير ، أو ذو سلطان خطير ؟

ونظر زكريا إلى وجهه ، ففطن إلى ما يعانيه من أسى ، كان ينقبض قلبه كلماعاد من جولته ، والإخفاق فى ركابه ، واليأس دثاره ، فقال له ناصحا :

ـ لماذا لا تقبل يا جلال وظيفة صغيرة ، ثم تتدرج حتى تصل إلى ماتصبو إليه ، إن خير ما يصقل المحامى أن يبدأ من أول السلم .

فانتفض جلال ، واعتبر ذلك النصح جرحا لكرامته ، أفى حاجة هو إلى ما يصقله ؟! إنه يثق فى نفسه ، ويعتقد أنه كفء لأخطر المهام ، قال فى إصرار :

ـ لن أقبل وظيفة أقل من النيابة .

رمقه زكريا بعينين واسعتين ، وهم بمجادلته ، ولكنه عاد وآثر الصمت أن يجرحه .

وبدأ همس خافت يوصوص فى سريرته أنه شىء تافه ، لايحفل به الناس، ولا يحس به الكون ، ففزع ، وخاف أن تتضح هذه الوصوصة ، وأن تقوى وتستولى عليه ، فيعيش فى غم . إنه لا يطيق أن يحيا إذا وقرفى نفسه أنه إنسان عادى كملايين البشر ، وإذا ما ازورت الأبصار عنه ، فراح يفكر فيما يفعله ليعيد لنفسه هيبتها ، تلك الهيبة التى كاد هو نفسه يكفر بها وينكرها .

وخطر له أن يكتب فى الصحف والمجلات ، وأن ينشر على الناس آراءه .

وأسبل عينيه ، وتخيل الصحف ، وقد ظهرت المقالات التى تحمل الاسم الغالى :

«جلال على يونس ـ المحامى » فتدفقت الدماء حارة فى عروقه ، وأريقت فى جوفه نشوة ، سقت غروره ، فعاد إليه انشراحه ، الذى كاد يذبله تزعزع ثقته فى نفسه ووهمه أنه لم يعد محل رعاية أهله ومعارفه والأصدقاء .

وعكف على الكتابة ، يسود الصفحات ، ويواظب على إرسالها إلى الصحف والمجلات ، وظهرت له قصة فى مجلة كان صاحبها يعتمد فى تحريرها على الهواة ، فرقص قلبه طربا بين جوانبه ، وتفتحت نفسه ، وأرضى ظهور اسمه بحروف الطباعة غروره ، حسب أنه صار كاتبا معروفا ، وأنه أصبح موضع اهتمام القراء ، فانطلق منتفخ الأوداج ، وراح يمر على أصدقائه ومعارفه يحدثهم عن قصته ، ويدفع إليهم بالمجلة ، ويرقب وجوههم وهم يقرءون اسمه منتشيا ، وقد أفعم بنشوة عارمة .

ـ ١٤٦ ـ

خرج سعيد قبل الميعاد المضروب بينه وبين روحية بساعات ، رأى أن يشترى لها هدية ، بعد أن أصبح يستطيع أن يهدى إليها شيئا ذا قيمة ، فقد صار له مرتب ، عقب أن أضحى نائبا بقصر العينى ، وادخر منه بضعة جنيهات .

وراح يمد بصره إلى واجهات المحال ، ويرنو فاحصا إلى ما يهدى إلى النساء ، وتذكر أن هذه أول مرة يهتم فيها بمثل هذه الأشياء فاغتبط ، وأحس فى أعماقه أنه صار رجلا ينقب عما يشرح صدر أنثاه .

وخطر له أن يشترى لها بعض أدوات الزينة ، ولكن سرعان ما أشاح بوجهه عن هذا الخاطر ، إنها تعد نفسها لتكون مدرسة ، فلن تحتاج إلى مساحيق وأصباغ ، ولن تستعمل العطر النفاذ ، كان فى قرارة نفسه لايحب أن يراها وقد طلت وجهها بالمساحيق ، فصفحة وجهها النقية أروع من كل جمال مصنوع ، وأريجها الفاغم أشهى لنفسه من أطيب الطيب ، وأفضل العطور .

ورأى ساعة دقيقة أنيقة أعجبته ، وزاد فى إعجابه بها أن روحية ستذكره ،

كلما تطلعت إليها تحسب الزمن الباقى على لقائهما ، والزمن الذى انقضى بعد اللقاء ، فدلف إلى المحل واشتراها ، وانطلق إلى الميعاد .

وجاءت روحية رقيقة كالنسيم ، وأقبلت عليه إقبال الأطياف ، فحياها فى رقة ، وانسابا يتناجيان ، كان كلما نظر إلى عينيها رأى دنيا فسيحة من الأمل والبهجة ، وكلما أصغى إلى عذب حديثها ، أحس أنامل حالمة تعبث بأوتار الفؤاد، وكلما ملأ عبيرها أنفه ، اريقت فى جوفه دنان النشوة ، كان الكون يبدو لناظريه جميلا ، رائعا غاية الروعة مادامت إلى جواره ، يرنو إليها ، أو يعيرها سمعه ، أو يبثها آماله وأمانيه .

وجلسا على أريكة صنعت من الحجارة ، على جانب الطريق الهادىء على النيل ، كأنما وضعت لاستقبال العاشقين ، فالماء يجرى هادئا يغرد أنشودة الخلود ، والأشجار المزدهرة المورقة ، تمد ظلها الظليل ، وقد أرخت أغصانها لتحمى أسرار الهامسين ، والشمس تتدسس بين أوراق الشجر، فتتبعثر على الأرض دنانير فضية، تزيد المكان شاعرية وجمالا .

ووقف على الشجرة يمامتان تتناجيان ، فرفع سعيد بصره إليهما ، ونظرت روحية بعينيها السوداوين الواسعتين ، فشع منهما بريق حنان ، وطارت يمامة ولكن سرعان ماعادت إلى أليفها ، تمد منقارها إلى منقاره ، فهمس سعيد فى وجد :

ـ المحبون لايطيقون الفراق .

وساد بينهما سكون بليغ ، ثم التفت سعيد إليها وقال :

ـ إننى مسافر يا روحية إلى الإسكندرية ، فقد عينت فى مستشفى المواساة، عينت نائبا هناك .

وخفق قلبها ، وأحست يدا قوية تعتصر مهجتها ، ولاح الأسى فى عينيها ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، وحزر ماتقاسى ، فقال ليخفف عنها :

ـ ليس هذا فراقا ، سأسافر يا روحية ، وسأعود لأراك ، إننى لا أحتمل العيش إلا إذا لم تسعد عيناى برؤيتك .

وتهدج صوته ، ولاح الهوى فى عينيه ، وجاشت المشاعر فى جوفه ،

واستشعر رغبة فى أن يناجيها ، وأن يترجم عن حبه الجارف ، الذى يملأ جوانحه ، ولكن آثر أن يكتم ما يمور فى صدره ، ومايخفق به قلبه ، كان يرى أن اللفظ مهما سما ، لن يعبر عما يحسه نحوها ، وأن نظرة واحدة ، أو إغضاءة من هدب ، قد تكون أبلغ من مناجاة ، مهما كانت حرارتها فلن تبلغ أثر بسمة عذبة ترف على الشفاه ، أو رنوة صادقة تنفذ كالكهربا إلى سويداء الفؤاد .

ودس يده فى جيبه ، وأخرج الساعة ، وقدمها إليها ، فلاح فى عينيها ذعر، فأسرع يقول فى رقة :

ـ هدية متواضعة ، أرجو أن تقبليها .

فقالت وهى تشيح بوجهها عنه :

ـ أشكر لك جميل عواطفك ، وآسفة لأنى لا أستطيع أن آخذها .

ـ خذيها إكراما لى .

فقالت فى إصرار :

ـ آسفة لا أستطيع أن أقبلها .

فقال فى رجاء :

ـ خذيها ، ذكرى هذه اللحظات الهنية ، خذيها لتذكرك بى .

أحست أنه جرحها ، أفى حاجة هى إلى ساعة لتذكره ، إنها لتذكره فى غدوها ورواحها ، فى نومها ويقظتها ، ترى أيقدم لها هذه الساعة ثمنا للحظات السعيدة التى قضاها معا ؟ فغسقت عيناها ، ولمع دموعها ، فدس الساعة ثانية فى جيبه ، شعر دون تفكير أن خيرما يفعله ألا يلح عليها فى قبولها .

وانقضى الوقت وهما هائمان فى دنيا حالمة ، وحانت ساعة الوداع ، فصافحها وراح يضغط على يدها ، خافق القلب ، وقال لها :

ـ سأكتب لك ، وأرجو أن تكتبى لى حتى نلتقى .

وتطلعت إليه ، وفى عينيها دموع ، وكل خالجة فيها تهتف : « إلى اللقاء»

وانصرف وقلبه يرفرف بين ضلوعه ، يقاوم الرغبة الملحة التى تغريه بالالتفات

إليها ، ووقفت ترمقه وهو فى طريقه ، من خلل دموعها ، وقد راح قلبها يدوى بين جوانحها فى قوة ولهفة .

ـ ١٤٧ ـ

الحارة غارقة فى الضوء ، فبدت الخربة كأنما فرشت بالنور ، وشمخت مئذنة الجامع متألقة فى الليل ، فبهرت النجوم المتلألئة فى زرقة السماء ، وجلست حليمة أمامها قفص الحلوى ، ترقب الأولاد وهم يجرون ويضحكون ، وقد برز شعرها الأبيض من تحت منديلها الكالح اللون ، وكثرت فى صفحة وجهها التجاعيد ، كانت الحارة نابضة بالحياة ، فالليلة زفاف سهام .

كانت سهام فى غرفتها ترتدى ثياب العرس ، شاردة اللب ، أحبت خالدا من سويداء قلبها ، كان رجلها الذى تحلم به ، تتنسم أنباءه وهى طفلة ، وتقرأ صفحة الرياضة لعلها تجد اسمه بين اللاعبين ، أيام كان طالبا يعشق اللعب بالكرة ، وترقب زيارته ، لتهرع إلى حيث يكون ، تعيره سمعها ، ويسعد قلبها باللحظات الهنية ، التى تجمع بينهما فيها غرفة واحدة ، وينشط ذهنهاعقب انصرافه ، فينسج لها أعذب الرؤى ، كانت تحس فى أعماقها بأنه لها ، وكانت تغذى ذلك الإحساس ، حتى تضخم وأصبح فى ناظريها حقيقة دانية القطوف ، فلما أخبرها أنه سيتزوج من درية ابنة خاله ، عصف النبأ بها ، واندكت قصور الأوهام التى شيدتها فى الهواء ، وانزوت وقد صدع الحزن كبدها ، ومزق قلبها .

وخرج خالد من الحارة ليعيش فى بيت الزوجية ، فزاد ذلك فى أسى سهام ، صارت الحارة مبعثا للانقباض ، وقد ران عليها الظلام ، وباتت شاردة حانقة ، فما بال الزمن يطعنها فى أعز أمنية راودت الخيال ؟!

وسعى إلى بيتها الخطاب ، كانت حلوة نامية ، مكتملة الأنوثة ، فيها خفة محببة ، وجاء الرجل الأول ولم يكن مثل خالد عريض الكتفين ، رياضى المظهر ، فأشاحت عنه ، ورفضت أن تتزوج منه ، فلما ألح عليها أهلها بكت ، وأمعنت

وجاء الرجل الثانى ، وقاسته بمقياس رجل أحلامها ، فلما لم يكن يحاكيه رفضته وأصرت على رفضها ، وسقط فى أيدى أهلها ، فهم لايدرون علة ذلك الجموح ، وذلك النفور من الخطاب ، ونبتت وساوس فى صدورهم ، ولكنهم لم يفصحوا عنها ، كانت أثيرة عندهم ، حبيبة إلى نفوسهم ، فلم يقسوا عليها ، ورفض الرجل الثانى ، وبقيت سهام لأحلامها .

وجاء الرجل الثالث وأطرقت سهام تفكر وقد تسرب اليأس إلى قلبها ، لماذا تصر على رفض كل من يتقدم لخطبتها ، أتفعل ذلك من أجل خالد ؟ ولكن خالدا قد تزوج وهو ينعم بزوجه ، بينا هى تقاسى لهيب حبه ونار جواه ، وحيدة حزينة ، لا تكاد يحس بها أحد ، إنها قد انتهت ، تمزق قلبها ، وتبعثرت روحها ، ولم يعد لها فى الحياة ما تأمل فيه ، إن أهلها يرمونها بنظرات قلقة كلما رفضت رجلا يتقدم إليها ، فماذا عليها لو قبلت أى رجل يطلب يدها ، إكراما لأهلها ، فأى رجل سيتزوجها سيحملها إلى داره متاعا ، ولن ينبض بحبه قلبها ، وكيف ينبض بعد أن مات ، ودفنته فى أغوارها ؟

وقبلت سهام أن تتزوج من ذلك الرجل ، ولم يكن أفضل من تقدموا إليها ، ومرت الأيام وحدد موعد الزفاف ، وهذه الليلة ليلة جلوتها ، فخف إليها أترابها ، يقبلنها فرحات ، مشرقات الوجوه مستبشرات ، ولوغصن فى أعماقها ، وكشفن ما فى سريرتها ، لأظلمت الدنيا فى عيونهن ، ولنزت أفئدتهن حزنا وأسى .

وأتمت ارتداء ثوب عرسها ، ونهضت تمد بصرها من خلل النافذة إلى داره ، وإلى الخربة ، وإلى مئذنة الجامع المتألقة فى جوف الليل ، فانقبض قلبها ، ورنقت عيناها بالدموع ، وسارت كسيرة الفؤاد ، وما لاحت للنسوة ، حتى أطلقن الزغاريد المدوية .

وهبطت سهام فى ثيابها البيض ، مطأطئة الرأس ، فى حلقها غصة ، وفى سريرتها شجن ، ودوت الزغاريد عالية مجلجلة ، فخيل لها أنها تصغى إلى صوات .

وخف صبيان الحى إلى السيارات ، يدورون حولها مغتبطين ، وقد لاح فى

وجوههم الفرح ، وأسرعوا إلى الباب يشاهدون العروس ، وذهبت حليمة تنظر ، فأحست إحساس المحروم الذى يرنو إلى مائدة تكدس عليها ما لذ وطاب .

ودلفت سهام إلى السيارة شاردة ساهمة ، ونظرت إليها حليمة ، وقد استشعرت حزنا ، وانطلقت السيارات وقد انسكب الفرح فى القلوب ، بينا كان قلب العروس داميا ، يبكى الحب المفقود ، والأمل الموءود ، وعينا حليمة تسحان الدموع ، على العمر الذى ولى فى ذل وحرمان .

ـ ١٤٨ ـ

عزيزتى روحية :

أبعث إليك رسالتى السادسة ، وماتلقيت منك رسالة واحدة ، تطفىء نار الشوق ، أعيش يا روحية على أمل أن أتلقى منك رسالة تنعش القلب الذى يحن إلى لحظات اللقاء ، التى أحيا على ذكراها كلما انفردت بنفسى ، وأطلقت لخيالى العنان .

أفكر فيك يا روحية فى الصباح إذا ماقمت من نومى ، وفى المساء إذا ماذهبت إلى الفراش ، وفى هجعة الليل إذا ما أطل القمر على الكون ، وغمره بنوره الفضى ، ونفث السحر الحلال ، وفى رائعة النهار، إذا ما رنوت إلى البحر المسجى أو البحرالثائر المتلاطم الأمواج ، وفى الأصيل والشمس فى غروبها ، وقد صبغت الأفق بالأرجوان والذهب النضار ، صارالجمال يهزنى بعد أن خفق بحبك قلبى ، وأصبحت الروعة تذكرنى بك كلما وقع عليها البصر ، واهتز لها الفؤاد . طيفك يا روحية مؤنسى ، لايفارقنى فى الليل والنهار ، ألمحك إلى جوارى فى السيارة وفى الترام ، وأرى وجهك الحبيب إذا ماقلبت صفحات كتاب ، وأرنو إليه فى الفضاء إذا ما سرت فى طريق أو خلوت بنفسى فى مكان ، إنه أنيسى فى وحدتى ولكن أيقنع القلب بالطيف والخيال ؟!

أهفو يا روحية إلى اللقاء . ولو كان أمرى بيدى لطرت إليك على جناح

الغرام ، ولكن ماذا أفعل والعمل فى المستشفى لا يترك لى فسحة للسفر ، لأسعد بأطيب لحظات الحياة ، إننى أقيس عمرى بالسويعات التى عشناها معا ، نحلق فى عالمنا الشاعرى الرائع غاية الروعة ، الجميل غاية الجمال .

اكتبى إلى يا روحية ، اكتبى إلى لتهدأ نفسى القلقة، ويطمئن قلبى الولهان، وتفتح أمامى أفاق جديدة من السعادة ، أرتادها كلما هفت روحى إلى الزاد .

أكتبى إلى يا روحية ، لماذا تحجمين عن المناجاة ؟ لست عاتبا عليك ، فأنا أعرفك أكثر ما تعرفين ذاتك ، إن خجلك يقهرك ، ولكن بالله اخرجى من قوقعة نفسك إكراما لى ، فإنى فى شوق إليك ، فإذا عز علينا اللقاء ، فما أيسر أن ننثر على القرطاس ما يعتلج فى الصدر ، وما انطوت عليه الجوانح .

وفى انتظار رسالتك ، أبعث إليك شوقى ، وخفقات قلبى ، وذوب نفسى .

سعيد

وطوى الرسالة ، وانطلق مغتبطا يضعها فى صندوق البريد .. وتقضت أيام وهو يحيا على أمل أن يتسلم منها كتابا ، وذهب إلى غرفته فى المستشفى يستريح وإذا بالباب يطرق ، وتتقدم منه ممرضة تدفع إليه رسالة ، ففضها خافق القلب ، ونشرها أمام عينيه مضطربا ، وقرأ التوقيع ، فسرت فى نفسه رهبة ، لم تكن الرسالة منها بل من سنية .

راح يقرأ متقطع الأنفاس يدثره قلق :

سيدى الدكتور :

ـ أرجو أن تغفر لى جرأتى على الكتابة إليك ، ولكننى قد رأيت الأمور تكاد تتعقد ، وروحية لاتلذ بالصمت ، فرأيت أن أفزع إليك .

تقدم ابن خالتنا يخطب روحية ، فرحب أهلنا به ، وما فوتحت روحية فى ذلك صعرت خدها ، ورفضت أن تتم هذه الخطبة ، لأنها لاتريد أن تقطع شوط

تعليمها، وأنها لاتحب أن ترتبط بشىء قبل أن تقطع ذلك الشوط .

انفردت بها أحادثها ، لعلها تكشف لى عن خبيئة نفسها ، ولكنها بقيت على الصمت ، لم تقل لى شيئا ، وإن عرفت كل شىء ..عرفت أنها تحبك ، وأنها مارفضت ابن خالتنا إلا من أجلك ، ومن أجلك أنت .

إننى قلقة ، لأننى أعرف روحية ، فهى صامتة ، ولن تئن أو تبوح بماتقاسى من آلام ، وإن رعت النار فى أحشائها ، لذلك أهرع إليك راجية أن تفصح عما نويت ، ففيما ستعلن راحة على أية حال ، فإما تحقيق أمالها وراحة القلب ، وإما راحة اليأس ، فما أقسى أن تتعلق فتاة بأوهام لايشدها إليها إلا حبل واه من الأمل .

وإلى أن أتلقى رسالتك ، تقبل تحياتى واحترامى .

« سنية »

تدفقت الدماء حارة فى عروقه ، وراودته فكرة أن ينهض من ساعته ، ويسافر إليها يخطبها لنفسه ، إنه يحبها ويشعر فى أعماقه أن حياته لوخلت منها ، لكانت خواء ، ليته يستطيع أن يطير إليها الساعة ، ولكن هيهات ، فقد شد إلى العمل ، ولايستطيع فكاكا .

وتناول قلمه ، وراح يكتب إلى سنية أنه يخطب روحية لنفسه ويرجو منها أن تعلن ذلك ، حتى يأتى اليوم ، الذى يحضر فيه وقلبه على كفه ، يقدمه إلى روحية مغتبطا أمام الناس .

ـ ١٤٩ ـ

ذهب جلال إلى المدرسة الحربية ، والتحق بها ليصبح ضابطا احتياطيا ، تخرج فى كلية الحقوق ، وطبع بطاقة باسمه ، أكد فيها أنه « محام » ، ولكن لم تتغير نظرة الناس إليه ، فهم معذورون ، فمن أدراهم أنه يحمل ليسانس الحقوق ، ليرمقوه فى تبجيل واحترام ؟! وراسل الصحف والمجلات ، وظهرت له عدة أقاصيص تحمل اسمه ، فرقص من الطرب قلبه ، وسرعان ما امحى أثر ذلك النجاح فى نفسه ، لما ألفى أكثر معارفه لم يقرءوا ما دبجه يراعه ، ووجد الناس لا يحسون خطورة شأنه ، إنه لو استمر فى الكتابة فقد يصبح اسمه علما من الأعلام ، ولكن ذلك لن يغنيه شيئا إذا ركب الترام ، أو جلس فى مقهى ، أو دلف إلى « سينما » . أو مد بصره إلى الغانيات الغاديات الرائحات . إنه يريد شيئا يجذب أنظار الناس إليه ، ويعلن للملأ أنه شىء يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار ، فوجد أن خير ما يفعله أن يرتدى ثياب الضباط !

دوى البورى فى عماية الصبح ، فهبط جلال مع زملائه الهابطين إلى فناء المدرسة الحربية ، كان يرتدى « قميصا » قصير الأكمام ، و « بنطلونا » أبيض قصيرا ، وحذاء أبيض من المطاط ، ووقف فى الصف مع زملائه ، وجاء ضابط ، مفتول الشارب ، مفتول العضلات ، فى وجهه صرامة ، وبدأ تدريبات الصباح ، وصاح فى صوت جهورى :

ـ ارفع رأسك إلى فوق ، شد وسطك . أمام سر .

وسار الجميع ، وقد بدءوا السير بأرجلهم اليسرى ، إلا جلالا فقد بدأ برجله اليمنى ، فصاح الضابط فى ثورة :

ـ قف .

وصاح وهو يتجه إلى جلال :

ـ قلت أكثر من مرة ابدأ السير برجلك الشمال .

فقال جلال وهو شامخ بأنفه :

ـ وماذا يحدث لو بدأنا السير بأرجلنا اليمنى ، أيخسر الجيش المعركة ؟!

فقال الضابط فى حنق :

ـ اسمع ما تؤمر به ، ولاتتكلم .

فقال جلال وهو ينظر فى عليائه :

ـ هذا رأى .

فصاح الضابط فى ضيق :

ـ ليس لك رأى هنا ، أتحسب نفسك محاميا ؟ إنك جندى بسيط ، تؤمر فتصدع بما تؤمر به .

وصمت جلال على مضض ، وفطن الضابط إلى غروره ، فعزم أن يمرغ أنفه فى الرغام ، فراح يصدر أوامره إليهم فى سرعة :

ـ أمام سر .. قف .. صفا .. انتباه .. خطوة سريعة .. سر ..

وراحت أوامره تترادف ، وهم بين سير ، وهرولة وعدو ، وسطعت الشمس ، وبعثت أشعتها حامية ، فتفصد العرق ، وانبهرت الأنفاس ، وأحس الضابط أنه يكاد يتداعى ، فاستدعى « باشجويش » التعليم ، وأمره أن يحل محله فى تدريب هؤلاء المرفهين ، الذين حسبوا أنهم جاءوا لنزهة خلوية ! وراحت أوامر الرجل تتتابع :

ـ صفا .. انتباه .. خطوة سريعة .. سر .

واستأنفوا العدو ، وراح جلال يجرى وهو يشعر بالدنيا ترقص أمام عينيه ، وبالأرض تكاد تميد تحت قدميه ، وانبهرت أنفاسه ، حتى كان يحس ألما فى صدره ، كلما التقط الهواء ، إنه يريد أن ينهار ، ولكنه يتجلد ويقاوم ، عز عليه أن يكون أول من يسقط من الأعياء .

وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وخطر لجلال أكثر من مرة أن يثور ، ولكنه

كان أوهن من أن يرفع صوته أو يأتى حركة امتعاض ، كان كل ما يبغيه أن يلمس جسمه الأرض ، ودوى صوت الرجل :

ـ انصراف .

فذهبوا إلى حجراتهم ، يجرجرون أرجلهم ، وارتمى جلال فى سريره ، يئن فى صوت خافت :

ـ آه . آه .. آه .

ولم تخطر فى ذهنه صورته وهو فى ثياب الضابط ، يتلفت فى زهو إلى الناس ، فقد تعطل فكره ، ولم يعد يحس إلا ما يقاسيه من آلام .

ـ ١٥٠ ـ

انطلق الدكتور سعيد إلى منزل الأستاذ زكريا ، فقد غادر زكريا بيت الأسرة فى الحارة بعد أن تزوج ، ودلف سعيد إلى غرفة منعزلة فى الطبقة الأولى من الدار، حيث وافاه أخوه هناك ، وراحا يتحدثان ، وفطن زكريا إلى أن الدكتور ما جاء إلا ليفضى إليه بنبأ ، فقال له :

ـ ماذا وراءك ؟

فقال سعيد وهو يجمع شتات أمره :

ـ جئت أخبرك أننى سأتزوج من روحية .

فقال الأستاذ فى دهش :

ـ روحية من ؟

ـ فتاة رقيقة ، تعلق بها قلبى من سنين ، وقد تعرفت بها أخيرا .

فقال الأستاذ فى إنكار :

ـ لن تسعد بهذا الزواج ، فزواج الحب لايدوم .

فقال الدكتور فى حماسة :

ـ لن تسعدنى فتاة سواها ، إننى أحس أن حياتى بدونها هباء .

فقال الأستاذ فى ثقة :

ـ أستطيع أن أرى نتائج هذا الزواج الآن ، ما رأيك فى أن أكتب لك تقريرا ولن تقرأه الساعة ، ثم تضعه فى الخزانة ، على أن أقدم لك هذا التقرير بعد أن يخفق ذلك الزواج ، ويومها ستعرف أننى كنت على صواب .

فقال سعيد وقد التمعت عيناه ببريق أشبه بالكهربا :

ـ اسمع يا زكريا ، لست من هؤلاء الشبان المأفونين ، الذين يجرون وراء الفتيات كلما خفقت أفئدتهم خفقات الاشتهاء ، إننى أعرف نفسى ، أحببت هذه الفتاة من كل قلبى ، و إنه ليسعدنى أن امضى العمر إلى جوارها . لم يجذبنى إليها جمالها ، فما أكثر الفتيات الجميلات ، ولم يحببنى فيها غناها ، فهى من أسرة تكاد تكون معدمة ، ولكننى لما رأيتها أحسست شيئا غامضا يربطنى بها ، إن روحى امتزجت بروحها ، إنها ما خلقت إلا لى ، ولى وحدى دون الناس .

فقال زكريا فى هدوء :

ـ لازلت عند رأيى ، زواج الحب لايدوم .

ورأى سعيد أن لافائدة ترجى من المجادلة ، إنه لن ينثنى عن عزمه ، ولو وقف البشر جميعا فى وجهه ، وإن زكريا لن يحيد عن رأيه ، فنهض مستأذنا ، فقال له زكريا :

ـ على أن أخلص لك النصيحة ، وعليك أن تختار لنفسك ما تشاء .

فقال الدكتور سعيد فى حزم :

ـ لقد اخترت .

وانصرف يحس ضيقا ، إنه يعلم أن زكريا يعيش بذهنه ، وأنه يحاول أن يخضع كل شىء لمنطقه ، لايقيم للعواطف وزنا ، وقد كان على ثقة قبل أن يفاتحه فى الأمر أنه سيرفض ، ويمعن فى الرفض ، وعلى الرغم من ذلك فقد خرج من عنده منقبضا .

وذهب إلى دار خالد ، وقابله ، وأفضى إليه بما فى نفسه ، فقال خالد فى صدق :

ـ تزوجها إذا كنت واثقا أنها الفتاة التى تسعدك .

فقال سعيد منشرحا :

ـ إنها فتاة أحلامى ، وهى آمالى ، إننى أعتقد يا خالد اعتقاد اليقين أننا سنكون أسعد زوجين فى الوجود .

وانصرف مغتبطا ، وجد من يؤازره ، ومن يبارك حبه ، وانطلق إلى لبيب ، وقال له إنه سيتزوج روحية ، فقال له لبيب فى هدوء :

ـ إننى أوافق على هذا الزواج على شرط ...

ـ ماهو ؟

ـ أن تسأل عن أمها ، فإذا كانت سيدة طيبة ، فتقدم على بركة الله ، فالأم مرآة البنت .

ـ ١٥١ ـ

شغلت البلاد بالانتخابات ، بعد هزيمة الألمان فى العلمين ، وإنجياب الخطر عن مصر ، وإقالة وزارة النحاس ، ففكر الأستاذ زكريا أن يخوض غمار المعركة الانتخابية ، وكان يأمل أن يرشحه السعديون عن الدائرة التى ولد فيها ، ونشأ فيها ، وعاش بين ظهرانى أهليها ، ولكن الحزب السعدى الذى انضم إليه لم يرشحه، لأن الأحزاب المعادية للوفد قد ائتلفت ، ورشحت نائبا عن الحزب الوطنى لهذه الدائرة.

كان زكريا يرقب هذه الفرصة ، فرشح نفسه ، على الرغم من قرار حزبه ، فقد كان واثقا من الفوز ، فهو من الدائرة ، يحس إحساس أهلها ، وهو أقدر من يترجم عن آمالهم وآلامهم .

وبدأت الدعاية الانتخابية ، فخرج شيخ الجامع الكفيف ، يدعو الناس إلى انتخاب زكريا ، إنه ليذكر ذلك الطفل ، الذى كان ينسل فى العصر من زقاق الحارة، ويدلف إلى الجامع ، ويقرأ له الأحاديث ، وخطب الجمعة ، كان الشيخ

يعجب بذلك الطفل ، وبسلامة منطقه ، وكان يتنبأ له بمستقبل مزدهر بسام ، وها هى ذى الأيام توشك أن تحقق نبوءته ، فراح يحض الناس فى حماسة أن ينتخبوه نائبا عنهم ، وكان يزيد فى حماسته أنه كان يحس فى أعماقه أن زكريا أفضل من منافسه الذى يستمد كل جاهه من ماله الموفور ، الذى جمعه من عرق الفقراء .

وفتح الشيخ حسن كتابه على مصراعيه ، يستقبل كل ليلة الصعايدة وأهالى الحى الفقراء ، وكان الشيخ يجلس على الحصير يواجه الرجال الذين جلسوا يصغون إليه ، كان يقول لهم إن نجاح زكريا فى هذه المعركة نجاح لهم ، فهو ابنهم وهو أحق بأصواتهم من ذلك الثرى ، الذى سيغلق فى وجوههم أبواب قصره ، إذا ما انتهت الانتخابات ، وكان الشيخ يشعر بزهو وهو يتحدث ، فالأستاذ زكريا مرشح الدائرة، والضابط الكبير خالد ، والأستاذ جلال ، والدكتور سعيد من خريجى هذا الكتاب .

وجاء الأستاذ زكريا فى طوافه اليومى إلى الكتاب ، وجعل يحدث الناخبين فى رقة ، يفتح قلبه لهم ، ويمنيهم الأمانى ، ويبذل لهم الوعود ، فتحمس الصعايدة له ، وعاهدوه على أن يؤازروه ، وانطلقت هتافاتهم مدوية ، لتبلغ عنان السماء .

وراح الدكتور سعيد يطوف على بيوت الحى ، يداوى المرضى ، ويعودهم فى الصباح ، وفى الظهر ، وفى العصر ، وجوف الليل ، فكان أهالى الحى ينظرون إليه كملاك ، تخفق قلوبهم بحبه ، فأحبوا زكريا من أجله ، وأوصى بعضهم بعضا بالالتفاف حوله حتى يفوز .

وأخذ خالد يزور أصدقاءه ومعارفه فى البيوت ، ويتحدث عن زكريا ، وعما يمكنه أن يؤديه للدائرة من خدمات ، كان خالد يتحدث دائما عن إخوته وعن أصدقائه ، فذلك فى طبعه ، لذلك لم يكن جديدا عليه أن يدعو الناس لانتخاب أخيه .

ومرت الليالى والمنافسة شديدة قاسية ، أنصار المرشح الغنى ينشرون المال يؤلفون به القلوب ، وأنصار زكريا يوقدون المشاعل ، وينسابون فى الطرقات

يهتفون للمرشح الذى عاش فى الحارة مثلهم ، وقاسى ما قاسوه ، وتسلل بعض أعوان زكريا إلى منافسه ، وطفقوا يسبون زكريا ويقبضون الثمن ، كانت ألسنتهم عليه ، وقلوبهم معه ، فاستحلوا أموال الغريم !

وجاءت الليلة الفاصلة ، الليلة التى ينبلج بعدها يوم الانتخاب ، فاجتمع زكريا وخالد وسعيد ويحيى يرسمون خططهم ، وقد التف حولهم أنصارهم ، وفيما هم يديرون قداح الرأى بينهم ، جاء رجل يسعى ، وقال لهم :

ــ جاء بأناس كثيرين من دوائر أخرى ، وحشدهم فى فندق حتى إذا لاح الصباح صوتوا له ، لقد تمكن من حجز بطاقات انتخابية كثيرة ، تمكنه من هذا التزوير .

وتبادلوا نظرات حائرة ، ولاح فى وجه الدكتور سعيد حزم ، فالتفت إلى يحيى ، وقال له :

ــ تعالى معى .

فقال الأستاذ زكريا

ــ ماذا ستفعل ؟

ــ اطمئن ودع لى هذا الأمر .

وانساب الدكتور سعيد ويحيى فى جوف الليل البهيم ، وبلغا الفندق والساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وطلب الدكتور صاحب الفندق ، فما جاء إليه قال له :

ــ أريدك فى أمر هام .

وانتحى به يفاوضه ، طلب منه أن يحبس جميع النزلاء فى الفندق ، حتى تنتهى الانتخابات ، فصاح الرجل فى صوت عال :

ــ لا .. أبدا .

وأحس الجنيهات فى يده ، فقال فى صوت واه :

ــ لا .

ونظر إلى الأوراق المالية ، فأشرق وجهه ، وقال وقد اتسع فمه وتوجته

بسمة عريضة :

ــ أنا فى خدمتك .

وأعطى الدكتور مفتاح الفندق ، فأداره فى الباب الخارجى ، واطمأن إلى أن جميع من جاء بهم منافسهم لن يدلوا بأصواتهم ، ودس المفتاح فى جيبه وانصرف .

وأشرقت شمس اليوم المرتقب ، فهرع زكريا وإخوته إلى مراكز الانتخاب ، وبدأت الخطط التى دبرت بالليل تظهر على مسرح الدائرة ، انتشر فى الطرق المؤدية إلى اللجان مائة عامل ضمخوا ثيابهم بالشحم ووقفوا عند مداخل الطرق ، وأقبل رجل يرتدى حلة غالية ، كان من أنصار المرشح الغنى ومن دعاته ، فلما لمحه العمال ، أطبقوا عليه ، وفى مثل لمح البصر فطن إلى ما يراد به ، فنكص على عقبيه ، وأطلق ساقيه للريح لايلوى على شىء .

ووقفت فرق العمال تنفذ دورها ، كانوا يلتفون بأنصار غريمهم ويضيقون عليهم ، فلا يسعهم إلا الفرار إنقاذا لثيابهم .

وانطلقت السيارات تجوب الحارات ، تنقل الرجال لانتخاب الرجل الغنى الذى بسط يده بالمال ، فطفق الرجال يندسون فيها فرحين ، حتى النجرو اندس بين الركاب ، بشعره الأغبر والمسبحة الخشبية الضخمة التى يلفها حول عنقه ، وقميص الخيش الذى يستر جسمه ، ذهب مع الذاهبين ليدلى بصوته ، ويرجح كفة الانتخاب !

ومالت الشمس نحو المغيب ، وجاء الرجال إلى الأستاذ زكريا يهنئونه ، ولكنه كان يترقب إعلان النتيجة خافق القلب مضطربا . ومر الوقت وئيدا وئيدا ، وانقضى الهزيع الأول من الليل ، وهو يترجح بين اليأس والرجاء ، وأعلنت النتيجة ، ففغر فاه دهشة ، لم يكن يصدق أنه صار نائبا فى البرلمان .

التف الصعايدة به يهتفون له ، وأضاءوا المشاعل ، وراحوا يضربون الأرض بعصيهم فى بهجة ، ويقفزون فى حبور ، والتمسوا من الأستاذ أن يسير معهم فى موكب النصر .

وانطلق الموكب يدور فى مناطق الدائرة ، والناس يتوافدون ، يحملون فروع الشجر ، ويقفزون فى الهواء فى ضوء المشاعل كالشياطين ، والأستاذ ذاهل عما حوله ، يسير معهم دون أن يدرى أنه قطع أميالا فى سيره ، وعرج الموكب العظيم إلى الحارة ، فراحت الأضواء تتراقص ، والأصوات تجلجل بالهتاف ، وأطلت النسوة من النوافذ ، وأطلقت الزغاريد ، ونظر على إلى ابنه وهو يسير بين الجموع ، فانهمرت دموع الفرح من عينيه ، وأفعم بالسرور حتى كاد يطير فى الهواء !

ـ ١٥٢ ـ

أقبل موسم الإجازات ، فهرع الدكتور سعيد إلى القاهرة ، ليقابل روحية ، وينعم بالوصال ، إنه يحس روحه تهفو إليها ، وكل خالجة من خوالجه تحن إليها ، فأذناه فى اشتياق إلى عذب حديثها وعيناه تتلهفان إلى الرنو إلى عينيها المعبرتين الساحرتين ، اللتين تنطقان بالحب والهيام ، وقلبه يشتهى أن يترنم بأهازيج الغرام ومشاعره تريد أن تنسكب فى جوفه ، وتلفه بأرق الإحساسات ، كان فى حاجة بعد طول البعاد إلى أن يهيم فى عالم الحب المسحور وأن يحلق فى دنيا الوداد .

انطلق إلى قصر العينى ، ووقف على الطوار المواجه لدارها ، وطفق يمد بصره إلى النوافذ والشرفات لعله يلمحها ، وارتد إليه بصره دون أن يراها ، فتدسست فى رأسه خاطرة أن يصعد ، وأن يطرق الباب ، وأن يسأل عنها، ولكنه أعرض عن ذلك، فماذا يقول إذا فتحت أمها الباب ؟ أيقول إنه خطيب روحية ؟ أتصدق الأم أن خطبة تتم فى رسالة تجعل للخطيب الحق فى أن يقتحم البيوت دون أن يحدد له موعد للزيارة ؟ ورأى أن خير ما يفعله أن يذهب إلى قصر العينى يقابل سنية ، ويلتمس منها أن تخبر روحية أنه يريد أن يراها ، فإذا ماتقابلا اتفقا على مايفعلان .

ودار على عقبيه ، ودلف إلى قصر العينى ، يغذ السير ، ويصعد فى الدرج قفزا ، وينساب فى الطرقات يتلفت ، وينظر فى الحجرات ينقب عنها ، ورآها فى

ثوبها الأبيض تمر بين أسرة المرضى فهرع إليها منشرح الصدر ، يبتسم قلبه من النشوة ، ووقعت عيناها عليه ، فرفت على شفتيها بسمة ترحيب ، وتقدمت منه تصافحه ، ورنت إليه تسأله بعينيها : « ماذا جئت تفعل ؟ » ولم ينتظر حتى تتحدث ، بل قال فى لهفة :

ـ أريد أن أقابل روحية اليوم . إنى فى شوق إليها .

فقالت سنية وهى تبتسم :

ـ آسفة . لن تستطيع أن تقابلها .

فقال فى قلق . وقد اتسعت عيناه :

ـ لماذا ؟

ـ لأننا سنسافر اليوم إلى السويس نمضى الصيف عند أختنا .

ـ ستسافرون جميعا ؟

فأومأت له برأسها ، فقال فى عزم :

ـ سأقابلكم هناك ، ولكن أين أجدكم ؟

ـ على الشاطىء .

ونام الليل يتعجل الساعات الباقية على النهار ، وفى البكرة ذهب منشرحا يستقل سيارة تحمله إلى حبيبة الفؤاد .

ووصل إلى السويس ، ووضع حقيبته فى فندق قريب من المحطة ، ثم هرع إلى الشاطىء خافق القلب ، ولهان . كان الشاطىء ضيقا محدودا ، فما هى إلا جولة حتى لمحها جالسة بين سنية وسيدة وقور ترتدى السواد ، إنها أمهما ولاريب، وتقدم نحوهن وفؤاده يدق فى عنف ، ولمحته فبرقت عيناها ببريق أخاذ أضاء جوفه ، ودغدغ حواسه ..

وارتبكت ، لم تكن تدرى ماذا تفعل ، وإذا بيدها تمتد إلى سنية تهزها ، فنظرت سنية فرأته ، فهبت إليه تصافحه وترحب به ، وتقوده إلى أهلها .

قالت سنية وهى تنظر إلى أمهاوفى عينيها سرور :

ـ الدكتور سعيد .

وراح الدكتور يصافح الموجودين ، وهو يسترق النظر إليها ، ولما صافحها أبقى يدها الصغيرة فى يده لحظة ، فارتجفا كأنما سرى فيهما كهربا ، وأفسحت له مكانا إلى جوارها ، فجلس وقد أفعم بالغبطة ، وشرد ببصره ينظر إلى البحر نشوان .

وانسلت سنية ، ودخلت « الكابينة » وهى تسحب أخاها الصغير فى يدها وترمى أمها بنظرة آمرة بالانسحاب ، فقامت الأم مستأذنة ، واختفت مع أبنائها وبقى سعيد وروحية على الشاطىء وحدهما يتناجيان .

قال سعيد نشوان :

ـ أقرأت الرسالة التى بعثت بها إلى سنية ؟

فأومأت برأسها ، وقد تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ، فقال لها وهو يدنو منها يملأ أريجها أنفه :

ـ ماذا قالت أمك ؟

فأطرق رأسها فى دلال ، ولمعت مقلتاها ببريق عجيب ، اهتز له كيانه ، ولكن سرعان ما أسبلت جفنيها ، لكيلا تنم نظراتها عن تدلهها وشغفها ، كانت ضنينة بإظهارعواطفها ، ولكن هيهات ، فكل جارحة من جوارحها ، وكل لفتة من لفتاتها ، وكل رنوة من عينيها تهمس فى حنان : « أحبك ، وأفتديك بروحى » ، وفطنت إلى أنه ينتظر جوابها ، فقالت فى صوت خافت متهدج :

ـ أحست بغريزتها أن ذلك يرضينى ويريح فؤادى ، ، فوافقت عليه . .

قال وهو يبتسم فى انشراح :

ـ لماذا تقولين : « أحست بغريزتها أن ذلك يرضينى » ، ولاتقولين « أحست بغريزتها أن خطبتنا ترضينى ؟ » أما زلت خجلة ؟! ومم تخجلين ؟

فأشاحت بوجهها عنه فى رقة عبثت بقلبه ، فراح ينظر إليها وقد انداحت النشوة فى صدره ، وهام فى ملكوت كله رقة وسعادة وحنان .

وانقضى الوقت كحلم قصير ، فما أسرع مرور لحظات الهناء ، ومالت الشمس للمغيب ، وقد طوت النهار ، وأصبح ما جرى فيه من الذكريات ، فالتفت

سعيد إلى روحية وقال :

ـ سنذهب الليلة إلى السينما .

ونظرت روحية إلى أمها تلتمس إذنها ، فقالت الأم فى قلق :

ـ لماذا لاتقضيان الأمسية معنا ؟

واربد وجه سعيد ، خيل إليه أن الأم لا تثق به وحزرت الأم ما يفكر فيه ، فقالت معتذرة :

ـ أخشى يا بنى كلام الناس .

كان القلق يسرى فى صدر الأم ، إنها تخشى أن يكون عابثا ، وألا يكون جادا فى أمر الزواج ، وفطن سعيد إلى وساوسها ، فقال فى حرارة :

ـ خطبتها لأننى أريد أن تكون زوجتى ، وماكنت عابثا يوم كتبت إليكم أخطبها لنفسى ، إننى على استعداد أن أعقد عليها الساعة .

رمقته الأم فى دهش ، وسرعان ما انقشع الدهش ، ونزلت بصدرها الطمأنينة، وأحست نحوه ثقة ، فقالت فى صوت خافت :

ـ لا حاجة بنا إلى أن نعقد بينكما الآن ، اذهبا فى رعاية الله .

مس قولها أوتار قلبه ، وانشرح له صدره ، وأراد أن يثبت لها أنه عند حسن ظنها به ، فقال :

ـ لن نذهب إلى السينما إلا إذا جاءت معنا سنية .

فتهللت أسارير الأم ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، والتفتت روحية إلى سنية تغريها بالقيام . وقال لها سعيد :

ـ تعالى معنا ، هيا .

وانطلق الثلاثة ، سعيد إلى جوار روحية ، وسنية إلى جوار أختها ، والأم ترسل خلفهم نظرات كلها حنان ، وقلبها يبتهل إلى الله أن يتم نعمته ، وأن يلهم سعيدا السداد .

- ١٥٣ -

قطف جلال الثمرة ، التى تحمل فى سبيلها ألوان العذاب ، فارتدى الثياب العسكرية ، بعد أن تخرج ضابطا احتياطيا ، ومشى فى الطريق منفوشا كالطاووس، يرنو بصره إلى النوافذ والشرفات ، ويتلفت حوله ، ليرى فى عيون الناس نظرات الإعجاب .

واتجه إلى البيت ، وسار فى الشارع الهوينى ، ليراه كل الجيران ، ثم راح يصعد فى الدرج خفيفا نشيطا ، فقد هزه الطرب لما حياه أصحاب الدكاكين القريبة من الدار فى تجلة واحترام .. وذهب إلى النافذة ، وفتحها ووقف فيها يدير عينيه فيما حوله ، وثبت بصره على شباك علية ، فتذكر أيامها ، كانت تحييه مشرقة الوجه كل صباح ، قبل أن يفجأهما أهلها فى ذلك اليوم المنكود الطالع ، الذى اكفهر بعده وجه الحياة . أغلقت النافذة ولم تفتح إلا بعد أن ترك أهلها الحى ، مطأطىء الرءوس من الهوان ، واستشعر فى أعماقه الأسى ، لا على الفتاة البريئة التى وثقت به ، فحطم قلبها وفر منها ، بل على أنها لم تره وهو فى ثياب الضابط !

ولم يطق المكث فى الدار ، فهبط ثانية ، وأخذ يذرع شوارع القاهرة ، ويمر على أقاربه وأصدقائه ومعارفه ، ولما أقبل الليل انطلق إلى إدارة المجلة ، التى يكتب لها ، وراح يمضى الأمسية هناك ليراه كل الزملاء . كان سروره عظيما ، حصل على ليسانس الحقوق فلم يلتفت إليه أحد ، ولكنه اليوم يلمح فى عيون أقاربه وأقرانه والزملاء نظرات التقدير والإكبار .

يالعظمة الثياب التى يرتديها ! إنها لتعلن أن أهله قد علموه وأنفقوا عليه . أما ثيابه العادية فلا توحى بشىء ، فمن ذا الذى إذا نظر إليه وهو فى حلته المدنية

يفطن إلى أنه حاصل على ليسانس الحقوق ! لماذا لا يحسبونه صانعا أوعاملا أو طاهيا أو حوذيا ، فما أكثر المتأنقين بين الفارغين من الناس ؟!

دخل « السينمات » ودور اللهو والملاهى والمقاهى ، حتى لم يعد فى القاهرة مكان لم يخطر فيه شامخا بأنفه ، تتألق على كتفه نجمتان ، وخطرت له فكرة زيارة الإسكندرية ، فارتاح إليها ، وأخذ يتأهب للسفر ، ثم انطلق إلى المحطة يسير فى خطوات عسكرية .

وصل إلى الإسكندرية فى الصباح ، وأسراب الفتيات العاملات اليونانيات والإسرائيليات والمصريات يتدفقن فى مسارب المدينة ، فى طريقهن إلى المتاجر ، فاختلط بهن ، وسار يرصد عيونهن ، فإذا صور له وهمه أن فتاة رمقته فى إعجاب ، تهللت أساريره ، وانتفخ صدره ، وراح يتلفت فى خيلاء .

واستمر يجوس خلال المدينة ، حتى إذا أحس تعبا يدب فى أوصاله ، عرج على الحى الوطنى ، حيث يقع منزل الأسرة فى الحارة ككلب ذليل ، وانساب يتثنى كالثعبان ، ما يتقدم خطوات حتى ينحرف إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، ثم إلى اليمين ، ووقع بصره على الماء الآسن الراكد بجوار الجدران فامتعض ، ولوى شفته السفلى فى اشمئزاز ، ولكن سرعان ما انشرح صدره ، ورقص قلبه طربا بين جنبيه، لمح عينى حليمة وقد تعلقتا به ، يشع منهما ترحاب وإعجاب ، فابتسم لنفسه ، ودلف إلى الدار ، وخف إلى شقة عماته ، فلما رأينه ، رمقنه فى بلاهة ، ثم رحبن به فى فتور وتكلف ، كأنما يرحبن برجل غرب ، ولاح فى وجه عزيزة حسد ، وما انصرف حتى راحت تصيح فى أبنائها وبناتها :

ـ ياوكسة ! يا وكسة ! والله لن تفلحوا أبدا ، وكيف تفلحون وأنتم « بخ » حشيش .

وظلت ترغى وتزيد ، وصوتها يرن فى الدار .

وجاء المساء ، فخرج جلال يعرض نفسه على المقاهى ، ويدور على بيوت أصدقائه ، حتى إذا هجعت المدينة ، ورنقت العيون ، قفل عائدا إلى الدار ، واندس فى فراشه ، وإذا بخاطرة تطفو على سطح ذهنه ، لماذالايخرج فى الصباح

يرقب عفاف عند محطة الأوتوبيس ؟ ستعض بنان الندم ساعة أن تراه ، وستأسف غاية الأسف على أنها هزأت به فى سالف الأيام . لقد انتقم منها فى المرة الوحيدة التى صدقت وجاءته فى الميعاد ، أخذها إلى « الكابينة » ، ثم أشاح بوجهه عنها لما بذلت له نفسها ، وسمحت له أن يرتوى كما يشاء ، وتركها تلعق جراح الذل والمهانة ، إنه مرغها فى الهوان ، ولكن أيكفى ذلك ؟ أيرضى غروره ؟ إنه يتمنى أن يجرعها كأس الندم ، فى كل لحظة وفى كل ساعة .

وانبثق الضوء فى الأفق ، ثم أريق النور من النوافذ والشرفات ، فقام من نومه يتمطى ، وطفق يرتدى ثوبه العسكرى ، وهو يغدو ويروح أمام المرآة . ومد يده يلمع النجمتين ، ثم انصرف وهو يدندن فى انشراح .

ووقف على محطة الأوتوبيس يرصد إقبالها ، وازدحمت الأفكار فى رأسه ، أيقفز إلى جوارها يحادثها ، أم يجلس أمامها صامتا مترفعا عنها ، متظاهرا أنه لم يرها قبل الآن ؟ وإذا حدثها ماذا يقول لها ؟ ومرت السيارات ، وتصرم الوقت وراحت الشمس تزحف لتحتل كبد السماء . فتسرب إلى قلبه اليأس ، انقض ميعاد وفودها ، ولاأمل فى مجيئها ، من يدرى لعلها تركت عملها إلى عمل آخر أو لعلها تزوجت .

وسخر من ذلك الخاطر فأنكره ، وإذا بخاطر خبيث يتدسس إلى رأسه ، ويهمس فى نفسه فحيح أشبه بفحيح الأفعى « لعل تيار الحرب جرفها ، وعشى بصرها بريق الذهب ، فأصبحت امرأة حرب ، لا هى فتاة ولاهى زوجة ، وملأت صورتها أقطار رأسه ،وهى تسير تترقص ، وطرف ثوبها خلفها يترجح كرقاص الساعة ، فشرد ببصره برهة ، وخفق قلبه خفقات حنان ، سرعان ما وأدها ، وهز كتفيه فى استهانة وانطلق فى الطريق يرقب عيون الفتيات ، فيصور له وهمه أنهن يرمقنه فى إعجاب ، فيبتسم لنفسه .

ـ ١٥٤ ـ

جلس سعيد فى غرفة متواضعة فى بيت خطيبته ، بادى القلق ، كان يمد بصره إلى الباب ، ويدور بعينيه فى الغرفة التى صفت فيها بعض كراسى الخيزران ، ثم ينهض يطل من الشرفة ، ثم يعود زائغ البصر ، يدثره قلق ، فاليوم سيعقد قرانه على روحية ، وقد بعث إلى أبيه وإلى إخوته يدعوهم إلى الحفل ، ويهدد من يتخلف منهم بمقاطعته ما دام فيه عرق ينبض ، ونفس يتردد بين جنبيه .

ومر الوقت وئيدا وئيدا ، وهو يتململ ، خشية أن يعرض إخوته عن الحضور، فيتعكر صفو اليوم ، الذى كان يرقبه فى لهفة وشوق . إنه اختار من يعتقد أنها خير من تشاركه فى حياته ، من يحب أن تكون إلى جواره فى السراء والضراء ، فليس أمامهم إلا أن يباركوا اختياره .

وقام إلى الشرفة ثانية ، ورمى ببصره فى طريق قصر العينى لعله يلمح أحدا منهم مقبلا ، ولكنه لم ير أحدا ، فزاد قلقه ، وعاد إلى مقعده ، يتلفت إلى أقاربها ، ويحييهم ويغتصب الابتسامة غصبا . كان على ثقة من أن أباه سيحضر ، وأن خالدا وجلالا ويحيى لن يتخلفوا ، ولكنه ما كان واثقا من حضور الأستاذ زكريا . ومد بصره إلى الباب فرأى أباه فى جلبابه الصوفى الداكن ، وطربوشه الذى يخفى جزءا من جبينه الناصع ، فهرع إليه مبتسما وصافحه ، وقاده إلى حيث يجلس أقاربها .

ودلف إلى الحجرة خالد وجلال ويحيى ، فهدأ قلب سعيد ، وانبسطت أساريره ، ورفت على فمه بسمة عذبة ، وجلس بين إخوته يحادثهم منشرحا .

وأقبل لبيب والأستاذ زكريا ، فهرع سعيد إليهما ، يصافحهما فرحا مستبشرا ، وراح إخوته يديرون عيونهم فى الغرفة ، فلا يجدون إلا كراسى

الفراش، ولا شيء إلا بعض الأثاث العتيق الذى ينطق برقة الحال ، فلم تنشرح صدورهم ، ولكنهم أطبقوا أفواههم ولم ينبسوا بكلمة .

وراح المأذون يكتب فى سجله السطر الأول لقصة قلبين وهو هادىء لا يفكر فيما سيخطه القدر فى صفحات الكتاب ، الذى كتب عنوانه ، وربط فيه بين بطليه : أتكون قصتهما ملهاة ، أم تكون مأساة ، هذا ما لم يدر بخلده ، ولم يخطر له على بال ، فكل مايهمه من الأمر أن يأخذ أجره ، لايحس خطر الدور الذى يمثله فى المسرحية الأزلية ، ولايشعر بأنه حلم المحبين وغايتهم ، وأنه الباب الذى يلجون منه عالم الأحلام ، إلى دنيا الحقيقة بحلوها ومرها .

ودخل رجل يرتدى قفطانا أبيض ، وقد لف حول وسطه حزاما أحمر ، يحمل صينية عليها أكواب الشراب الوردى ، وراح يدور على الموجودين ، وزغاريد النسوة تتردد بين جنبات الدار ، وأقبل فى أثره رجل آخر يحمل صينية عليها الملبس ، فأخذ المدعوون ينتهبون منها ، وكان ذلك إيذانا بانتهاء مراسم عقد القران، فراح الرجال ينسلون واحدا فى إثر آخر ، ولم يبق فى الغرفة إلا سعيد وأبوه وإخوته وولى أمر العروس ، فقاموا وذهبوا حيث كانت روحية ، فصافحها على وهو بش وقال من قلبه وهو يرنو إليها فى حنان :

ـ بارك الله لك فيه .

والتفت إلى سعيد وقال :

ـ وبارك الله لك فيها .

وجعل إخوته يصافحونها مهنئين ، وهى تكاد تذوب رقة وخجلا ، ولف سعيد ذراعه حولها ، وقال وهو ينظر إلى أمها وعيناه تلمعان فرحا :

ـ الآن نخرج ، ونذهب إلى السينما ، دون أن نخشى أحدا ، أو نلتفت لكلام الناس .

فقالت الأم ، وهى ترنو إلى السماء وقد تخضبت عيناها بالدموع :

ـ اللهم بارك شملهما .

وامتلأ سعيد غبطة ورضا ، صارت روحية له من دون الناس ، قهر ما قام

فى وجهه من صعاب ، ونفذ ما اشتهى ، إنه قادر على إسعاد نفسه ، وأن يصنع مستقبله بيده !

ـ ١٥٥ ـ

غص مكتب الأستاذ زكريا بأصحاب الحاجات من الناخبين ، فقد كانوا يعتقدون أنهم قد اشتروه يوم أدلوا له بأصواتهم ، بل كان بينهم بعض من كانوا يؤازرون خصمه ، كان هؤلاء وهؤلاء بالأمس متخاصمين ، وإذا بهم بعد الانتخابات متحدين على مضايقته ، يقتحمون عليه مكتبه وبيته وخلوته ، يسألونه أن يتوسط لهم فى أشياء ما كانت تدور بخلده يوم رشح نفسه ليكون نائبا عنهم ، يعمل لمصلحة الجميع .

كان يحسب أنهم سيتركونه للمسائل العامة ، يعبر عن رغباتهم لا يهدف إلا إلى مصلحة الأمة ، فإذا بهم لا يعرفون عن النائب إلا إنه ملبى رغبات ناخبيه فى أضيق الحدود .

وأقبل ثلاثة من الصعايدة ، شداد ضخام ، يضربون الأرض بأقدامهم فى غلظة ، واندفعوا صوب باب غرفة الأستاذ ، فهب الكاتب يعترضهم ، ويسألهم عما يريدون ، فكبر ذلك عليهم فعبسوا فى وجهه ، وصاحوا به فى غضب :

ـ أفسح الطريق .

ولما وجدوه مازال واقفا فى وجوههم ، نحوه بأيديهم ، ودفعوا به بعيدا ، وفتحوا الباب ، ودخلوا على الأستاذ مقطبى الجبين ، فقام لهم هشا ، يستقبلهم بالترحيب ، فصافحوه وهم عابسون ، ثم قال أحدهم ، وهم يجلسون :

ـ كيف ينقل حميدة وأنت فى البرلمان ؟!

فقال الأستاذ فى هدوء :

ـ لا . هذا لا يجوز .

فقال أحدهم وهو يهز يده فى وجه الأستاذ :

ـ نقلوه لأنهم يغارون منه ، نقلوه لأنهم يكرهونه ، والله لو عرفت من نقله !

فقال الأستاذ متحلما :

ـ نقلوه إلى أين ؟

ـ إلى بنها ، إلى مدرسة بنها .

ـ وأين كان قبل أن ينقلوه ؟

ـ كان ساعيا فى وزارة المعارف ، ثم نقلوه إلى مدرسة بنها ، آه لو أعرف من نقله !

ـ سأكلم الموظف المختص ليعيده .

فهبوا من مقاعدهم صائحين :

ـ لا .. لن تكلم أحدا فى هذا الأمر إلا الوزير .

فقال ليتفرغ لقضاياه !

ـ سأكلم الوزير .

وخرجوا ، يدقون الأرض بأقدامهم ، وما هى إلا لحظات حتى أقبل رجل فى ثياب بلدية ، سلم ثم جلس ، وراح يقول وهو يمط الألفاظ ، ويهز رأسه وهو يتحدث:

ـ آه ، يريدون أن يخربوا بيتى ، أن يخسفوا بى الأرض ، آه .. تشاجرت مع امرأتى ، فخرجت إلى بيت أهلها غاضبة ، فذهبت إليها أطلب عودتها ، فإذا بأهلها يطلبون منى أن أطلقها .. أطلقها ؟ لماذا ؟ ليخربوا بيتى ؟ ليجرجرونى للمحاكم ، ليرموا بى فى السجون ؟ . آه ، لن أطلقها أبدا ، أريد امرأتى .

فقال له الأستاذ ، وهو يكتم غيظه ، ويحاول أن يبدى البشاشة والترحيب :

ـ وماذا تريد منى أن أفعل ؟

ـ آه ، أن تذهب إلى أهل امرأتى ، تقنعهم بإعادتها إلى البيت فليس للمرأة إلا بيت زوجها ، آه . على رأى المثل ..

فقال الأستاذ له ، قبل أن يضرب أمثاله ، ويضيع الليلة التى يريد الأستاذ أن يتم فيها أعماله ، قبل سفره إلى القاهرة ، لحضور جلسة البرلمان :

ـ سأفعل ، وسأذهب للتوفيق بينك وبينها .

فأشرق وجه الرجل ، وقام مصافحا ، وانصرف وهو يصيح من أعماقه :

ـ هكذا النواب وإلا فلا .

وظل أصحاب المطالب فى دخول وخروج ، هذا يريد أن يلحق بعمل فى الحكومة ، ولايملك المؤهلات التى تؤهله للعمل ، وذاك يريد أن يرفع قضية دون أن يدفع المصاريف ، وثالث يلتمس منه أن يخاطب وزير الأوقاف ، ليرتب له معاشا شهريا ، ورابع يطلب فى إلحاح أن يعفى ابنه من التجنيد ، وخامس وسادس وسابع حتى انقضى الليل ولم ينجز عملا ، فنهض يعد حقيبته ، ويرتب فيها مطالب الناس ، ليدور فى الصباح على المصالح والوزارات ، قبل أن يذهب إلى البرلمان .

وانقضى النهار وهو يرجو هذا وذاك ليلبوا طلبات ناخبيه ، ثم انطلق إلى البرلمان ، يرقب إجابة وزارة الأشغال عن سؤاله ، الذى يستفسر فيه عما تنوى الوزارة عمله بشأن الشارع الجديد .

وتليت الاعتذارات ، وبدىء فى الإجابة عن الأسئلة ، فلما قام ممثل وزارة الأشغال يرد على سؤاله ، أرهف سمعه ، فإذا بالرجل يقول :

ـ أدرجت الوزارة المبالغ اللازمة لشق هذا الشارع فى ميزانية هذا العام ، والوزارة مقيدة بهذا المشروع ، وتأمل أن تبدأ فى تنفيذه قبل هذا العام . فالتفت الأستاذ زكريا إلى جاره وقال :

ـ نرجو أن تصدق الوزارة مرة فى وعدها .

فقال زميله فى بساطة :

ـ مجرد وعود .

— ١٥٦ —

تمدد على فى فراشه واهنا ، وقد ضاق برقاده ، فهو يحن إلى الخروج إلى المقهى ، يمضى النهار مع أصحابه فى حديث ومسامرة ، ولكن ابنه الدكتور أمره بعد أن فحص عنه أن يلزم سريره وألا يغادره .

عافت نفسه الدنيا بعد موت زوجه صفية ، وانزوى فى بيت الأحزان يرتجف من غده ، كان يحسب واهما أن صفية تركت له عبء الأولاد ، ليحمله وحده ، وما كان فى حقيقة الأمر يحمل شيئا فلبيب تزوج وأنجب أولادا ، وزكريا صار نائبا فى البرلمان وأسس بيتا ،وخالد أصبح قائدا لمحطة الدخيلة الجوية ، يعيش مع درية فى صفاء ، وسعيد خطب روحية ، وقد تخرجت ، وستعين فى الإسكندرية ، وإن هى إلا أيام حتى يحملها سعيد إلى بيت الزوجية ، وخالد ويحيى هناك فى القاهرة، يعنيان بشئونهما ، ولكنه ما كان يعترف بهذه الحقيقة ، بل كان يضطرب ، كلما فكر فى أبنائه ، وواجبه فى بذل العطف لهم ورعايتهم .

وضاقت دنياه ، حتى أصبحت محل الحاج كرم والمقهى ، صار كل همه أن يذهب فى الصباح إلى محل الحاج كرم ، يجلس على كرسيه ، ينعم بدفء الشمس فى الشتاء ، ويستروح نسمات الصباح فى الصيف ، وأن يذهب عند الأصيل إلى المقهى ، فإذا جن الليل ، عاد إلى الدار ، يندس فى فراشه ، ويغط فى نومه غطيطا .

واشتدت دنياه ضيقا ، فصارت سريره لايغادره ، وإذا امتدت آماله ، فلن تتجاوز النافذة يطل منها على الحارة ، والخربة والعالية ، ومقهى الصعايدة ، ومئذنة الجامع ، والأولاد يغدون ويروحون فى اسمالهم ، والذكريات التى تطفو على سطح ذهنه ، فيشرد لها بصره ، ثم يمصمص شفتيه حسرة عليها .

ودخل عليه سعيد وهو يبش له ثم قال :

ـ كيف أنت اليوم ؟

ـ الحمد لله .

وفتح سعيد صندوقا معه ، وأخرج منه حزاما أسود ، لفه حول ذراع أبيه ، وجعل يضغط على كرة من المطاط بيده ، ثم يبسطها ثم يعود ويضغطها ، وهو ينظر فى جهاز بالصندوق ، وتغير وجه سعيد ، وراح يفك الحزام من حول يد أبيه وهو صامت ، وأغلق الصندوق ، ومال على أبيه وقال :

ـ ماذا أكلت اليوم ؟

فقال على فى أسى :

ـ لم تعد عندى شهية للأكل .

فقال له سعيد فى قلق :

ـ قل لى ماذا أكلت ؟

ـ رطل ونصف كباب .

فقال سعيد فى ذعر :

ـ رطل ونصف كباب ؟!

فقال على فى هدوء :

ـ ألم أقل لك يا بنى لم تعد عندى شهية للأكل .

فقال سعيد فى حدة :

ـ لا . هذا كثير . يجب أن تمتنع عن أكل اللحم المشوى .

ـ أهذا يعتبر أكلا ، أين هذا مما كنت آكله ؟

ـ يجب ألا تأكل إلا ما أشير عليك به .

ـ أتحجر على ؟

ـ يجب أن تطيع أوامرى .

فقال على فى ذعر وقد اتسعت عيناه :

ـ أنا أطيع أوامرك أنت ؟

- انس أننى ابنك ، واذكر أننى طبيبك الذى يعالجك .

فقال على فى ضيق :

- إننى أدرى الناس بمصلحتى ، إننى أعرف ماينفعنى وما يضرنى أكثرمن الطبيب ، إننى أشعر بتحسن بعد أن آكل الكباب .

واستمر سعيد يجادله ، يحاول أن يقنعه دون جدوى ، فلن يوافق أبدا على هجر اللحم المشوى ، ولن يقبل أن تقل الكمية عن رطل ونصف .

- ١٥٧ -

كان سعيد وروحية يجتمعان فى عش الزوجية كعشيقين ، فهى تخرج فى الصباح الباكر إلى مدرستها ، وينطلق هو إلى المستشفى فإذا جاء أوان الغداء هرعا إلى الدار مسرعين ، يتناولان طعامهما على عجل ، ويتناولان قبلات المحبين، ثم ينصرفان إلى عملهما حتى إذا ما انحدرت الشمس للمغيب ، آبا إلى العش السعيد ، فيدخل الدكتور إلى غرفة استذكاره ، يمضى الساعات بين كتبه وتبقى هى هادئة ، لاتقطع عليه خلوته ، تمضى الوقت فى تنسيق عشها ، أو مراجعة كراسات التلاميذ ، أو فى قراءة كتاب ، فإذا ما سمعت وقع أقدامه رنت إليه والهة ، فينظر فى عينيها الناعستين السوداوين ، ثم يضمها إليه فى وجد، ويهمس فى حنان :

- أسعيدة أنت يا روحية ؟

فتهمس وهى تلقى برأسها على صدره :

- سعيدة ما دمت إلى جوارى .

ويغيبان عن الوجود فى عالم من السحر والهيام .

وجاءت الليلة التى يمضيها فى المستشفى ، فراح يرتدى ثيابه ، وهى تعاونه فى ارتدائها ، وسار صوب الباب ، وهى تسير خلفه ، وقبل أن يذهب ، جذبها

إليه ، وضمها إلى صدره ، وقال لها :

- أريد أن أتزود لهذه الليلة .

وراح يمطرها قبلاته ، ثم قال لها وهو ينصرف :

- أراك بخير ياحبيبتى فى الصباح .

وانطلق إلى المستشفى ، وقد لف الظلام الكون بردائه الأسود ، ودلف إلى حجرته ، وارتدى معطفه الأبيض ، وراح يمر على المرضى ، ثم عاد إلى غرفته وتناول كتابا راح يقرأ فيه .

ومر الوقت ، وانقضى الهزيع الأول من الليل ، وإذا بممرضة تأتى إليه وتقول :

- هناك طالب يئن ويتلوى من الألم .

فقام معها يغذ السير فى ممر المستشفى ، ودخل حيث يرقد الطالب ، فألفاه يتأوه والعرق يتفصد منه ، فراح يفحص عنه ، وضغط على جانبه الأيمن ، فضج بالصراخ ، فاربد وجه سعيد ، كان الفتى يتلوى من الزائدة الدودية ، إنها ملتهبة فإذا تركه حتى الصباح ، فقد تنفجر وتقضى عليه .

وشرد ببصره يفكر ، أيتركه حتى الصباح ، ثم يبلغ إدارة المستشفى لتجرى له العملية ، كما تقضى بذلك الأوامر ، أم يعمل على إنقاذ الفتى ولو كان فى ذلك مخالفة ؟ ووقف مترددا ، وإذا بصورة روحية تتماثل أمام نظره ، وهى تبتسم له . من يدرى قد تكون له أم تحبه ، وتبذل روحها فداء له ، وقد تكون له خطيبة كروحية تنتظره ، فعليه أن ينقذه للأحبة ، والتفت إلى الممرضة فى عزم وقال لها :

- جهزوا غرفة العمليات .

فتطلعت الفتاة إليه فى دهش ، وقد تسمرت فى مكانها ، فصاح بها :

- قلت جهزوا غرفة العمليات .

وراحت الفتاة تهرول ، تنبىء زميلاتها ، وماهو إلا بعض ساعة حتى كان الفتى ممددا على عربة ، يدفعها رجل يرتدى البياض ، إلى غرفة العمليات .

ودخل إلى الغرفة ثابت الخطو ، وغسل يديه بالمطهر ، ثم مدها إلى فتاة ،

راحت تلبسه القفاز ، وتلثم باللثام الأبيض ، وتقدم إلى حيث وضع الفتى ، وقد سلطت عليه الأضواء .

وبسط يده ، فوضعت فتاة فيها المشرط ، وراح يجرى العملية وقلوب الفتيات تدق رهبة ، كن جميعا يخشين أن يموت الفتى ، فتكون الطامة ، ولن يشفع لهن محاولة الطبيب إنقاذ حياة .

وراح الوقت يمر بطيئا بطيئا ، وقد أرهفت الحواس ، وتوترت المشاعر ، ودوت القلوب بين ثنايا الضلوع ، وتعلقت العيون بالمثانة التى كانت فى انتفاخ وانقباض كلما زفر أو استنشق الهواء ، كانوا يرتجفون أن تكف المثانة عن النبض ، وتكون المأساة .

وتمت العملية ، فرفع اللثام عن وجهه ، وخلع القفاز ، وراح يغسل يديه ويغير ثيابه ، ودفع الرجل العربة إلى غرفة الشاب ، فتنفست الفتيات الصعداء ، ولكن لم يفرخ روعهن ، ولم تسكن الطمأنينة إلى صدورهن .

وعاد سعيد إلى غرفته ، وتناول الكتاب ، وراح يستأنف قراءته ، هادىء النفس مطمئنا ، وتصرم الليل ووفد النهار ، فتأهب للعودة إلى الدار ، وإذا برجل يأتى إليه ، ويقول له :

ـ المدير يريد أن يراك .

فذهب إلى حيث كان مدير المستشفى ، ودخل عليه ، وألقى تحية الصباح فى هدوء ، ولكنه حزر أن المدير عابس ، فوقف صامتا وإذا بالمدير يقول له :

ـ لماذ أجريت بالأمس عملية بالليل دون أمر من المستشفى ؟

فقال سعيد فى هدوء :

ـ كانت حالة المريض مخطرة ، كان من المحتمل أن يموت قبل أن يصدر الأمر.

ـ ألاتعلم أنك ارتكبت مخالفة ؟

ـ أعلم . لكن حياة المريض أهم من كل شىء .

ـ آسف يا دكتور سعيد ، إنى مضطر إلى أن أشكل لك مجلس تحقيق .

وانصرف سعيد وهو منقبض الصدر واتجه إلى البيت ، فألفى روحية قد

ذهبت إلى المدرسة ، فخلع ملابسه ، وذهب إلى الفراش يستريح ، فراح فى سبات، واستيقظ على قبلاتها ، فنهض وقال لها :

ـ ستشكل لى لجنة تحقيق .

فقالت وقد اتسعت عيناها ولاح فيهما الاضطراب ، وإن حاولت أن تتكلف الهدوء :

ـ لماذا ؟

ـ لأننى أنقذت شابا ، لأننى أجريت له عملية دون أذن من المستشفى . كانت المستشفى تفضل أن يموت ، على أن أنقذه دون إذنها .

فقالت له وهى تحوطه بذراعيها :

ـ أأنت آسف على ما فعلت ؟

ـ أبدا ، ولو أتيحت لى فرصة أخرى كهذه لأنقذ حياة ، فلن أضيعها .

فقالت له وهى تبتسم :

ـ فلا تهتم بما سيكون مهما جاءت النتائج .

فضمها إليه وقال :

ـ لن أهتم بشىء مادمت معى .

ـ ١٥٨ ـ

صار جلال وكيلا للنيابة بفضل جهود الأستاذ زكريا فاستشعر رضا ، وأرضى ذلك زهوه ، فالمتهمون تتعلق عيونهم به ، يصغون إليه دون أن تفوتهم من حديثه شاردة ، وإذا خاطبوه وجهوا إليه عبارات التملق والتبجيل ، أصبح محط أنظار من يقابلونه ، فتحققت بذلك أمانيه التى كانت تداعبه منذ كان طفلا صغيرا.

وأحب عمله ، فأكب عليه يبذل فيه كل جهوده ، كان يمضى سحابة النهار يستجوب المتهمين ، ويمضى جزءا من الليل فى جمع خيوط القضية التى يحقق

فيها، وما كان يتبرم بعمله مهما تحمل فى سبيله من متاعب ، كان يكفيه شعوره أنه أصبح شيئا هاما ، يجذب العيون .

واسندت إليه قضية قتل غامضة ، كان المتهم فيها رجلا أرخى لحيته ، ولا هم له إلا أن يتمتم ببعض آيات القرآن فى هدوء عجيب ويصلى على النبى فى صوت مسموع ، ويحاول أن يكسو وجهه التقى والورع ، ولكن عينيه كانتا تصيحان أنه مجرم كبير .

راح جلال يستجوبه ، فإذا بالرجل ينكر كل شىء ، ويصر على الإنكار ، ويظهر دهشة من أن توجه مثل هذه التهمة إلى رجل ورع مثله ، وأخذ جلال يضيق عليه بأسئلته ، ولكن الرجل لم يفقد أعصابه ، ولم ينبس بكلمة تفيد التحقيق .

وسافر جلال إلى أماكن مهجورة فى الدلتا ، ليجمع خيوط الجريمة ، ويصغى إلى الشهود ، كان البرد قارسا ، والمطر يهطل مدرارا ، وهو على ظهر حمار يجوب الفضاء ، يبحث عن بصيص من النور ، ينير له ظلام القضية الدامس ، ونال من نفسه التعب ، فأحس حقدا على ذلك الرجل الذى أغلق فمه ، وجشمه المصاعب ، فجعل يجمع ضده القرائن وهو يشعر بسعادة ، كلما أغلق فى وجهه ثغرة قد ينفذ منها .

وعاد إلى حيث كان الرجل ، وفى جعبته قرائن تكفى لإدانته واستدعاه من سجنه ، وهو يطمع أن يواجهه بما جمع ، فلا يملك إلا أن يعترف ، كان كل أمله أن يتوج جهوده باعتراف الرجل .

وأقبل الرجل يتمتم بآيات القرآن ، ووقف هادئا ، وراح جلال يسرد على مسامعه ما وصل إليه ، ويمطره بأسئلته ، ويضيق عليه الخناق ، والرجل هادىء ، منكر للواقع ، ممعن فى النكران ، يصلى على النبى ، كأنما الأمر لا يعنيه ، وكأنما حبل المشنقة لايترجع أمام عينيه .

وضاق جلال به ذرعا ولاح فى وجهه الضيق ، وفطن الضابط إلى ما اعتراه ، فالتفت إليه وقال :

ـ دعه لى ، إننى أعرف كيف أنتزع منه الاعتراف .

واقتيد الرجل إلى السجن ، وما هى إلا لحظات حتى شق أنينه السكون المخيم على المكان ، وارتفع صراخه ، فانقبض جلال ، واستشعر وخزا يخز روحه ، وكاد يصيح بالضابط أن يكف عن تعذيب الرجل ، ولكنه كان يغالب شفقته ، كان ينبغى أن يتوج مجهوده بالاعتراف .

ومرت لحظات قاسية بغيضة ، وهو يذرع المكان قلقا ، وقد تقلصت عضلات وجهه ، وارتسم فيه الأسى العميق ، وتحركت إنسانيته ، ولكن كان عليه أن يقهر ضعفه ، وأن يميت ضميره ، إذا أراد أن يكلل تحقيقه بأقصى ما يطمع فيه محقق من نجاح .

وجىء بالرجل وهو ذليل ، يتلوى من الألم ، ويئن أنين كلب جريح ، وبدأ جلال يضيق عليه بأسئلته ، ولكنه استمر فى انكاره ولم ينبس بكلمة تدينه ، أو تفيد التحقيق ، فضاق جلال به ذرعا ، وأمر بإعادته إلى سجنه ، وهو يتوعده باستئناف التعذيب .

وانصرف جلال وهو يفكر فى ذلك الرجل العجيب ، إن جميع القرائن تدينه ، ومع ذلك لايريد أن يعترف ويريحه ، وراح يقلب الرأى فيما يفعله ، لينتزع منه الاعتراف .

وانقضى الليل وهو يجرى وراء أفكاره ، لا ينام إلا غرارا ، وأقبل النهار فذهب إلى مكتبه ، وما استقر فيه حتى طلب محام مقابلته فأذن له ، فدخل عليه رجل وقور ، وخط الشيب رأسه ، ولاح فى وجهه كأنما عرك الحياة وعركته ، فأشار جلال إلى كرسى بجواره ، وقال للرجل :

ـ تفضل .

وجلس الرجل فى وقار ، ولما رأى جلالا يرمقه ، ينتظر أن يبدأ الحديث فيما جاء من أجله اعتدل وقال :

ـ جئت أحدثك فى أمر ذلك الرجل الذى تحقق قضيته ، إننى لست موكلا عنه، ولكننى رأيت أن أزجى إليك نصيحة ، وأرجو أن تقبلها من رجل حنكته التجارب ، لا يبغى إلا مصلحتك . إنى أجد من الأمانة أن نسدى لكم النصح ،

لتجنبكم المتاعب اللى قاسيناها ، فمن حقكم أن تستفيدوا من تجاربنا ، فتختصروا الطريق ، وتتأهبوا لتجارب جديدة ، يستفيد منها الجيل الصاعد بعدكم .

بلغنى أنك التجأت إلى العنف لتنتزع من ذلك الرجل اعترافا ، يؤيد الحقائق الدامغة التى وصلت إليها ، وهب الرجل اعترف تحت ضغط الإرهاب ، ووضع فى عنقه حبل المشنقة ، فماذا يعود عليك ؟ أو يرضى ضميرك عن مثل ذلك الاعتراف؟

لماذا لاتترك المتهم والحقائق التى وصلت إليها إلى هيئة المستشارين وأنت مرتاح الضمير ؟ اعتراف المتهم ليس الدليل القاطع فى القضية ، فلماذا تغتصبه من المتهم عنوة ؛ إننى أقول ذلك لمصلحتك ، فما زلت فى أول الطريق ، والطريق شاقة طويلة ، فلا تحاول يا بنى أن تصل إلى ما تصبو إليه بالضغط والإرهاب . فالنائب العام لن يرسل لك كتاب شكر إذا ما التف حبل المشنقة حول عنق المتهم ، أد واجبك ودع الآخرين يؤدون واجباتهم ، فتريح وتستريح .

وهب المحامى الوقور واقفا ، وهو يقول :

ـ أرجو يا بنى ألا تضيق بما قلته لك ، فوالله ما أردت إلا أن أنير أمامك الطريق .

فقال جلال فى صدق :

ـ أشكر لك نصيحتك ..

وانصرف الرجل ، وشرد جلال يفكر ، فتقاصرت إليه نفسه ، وأحس تضاؤلا لأول مرة فى حياته ، فهب ضميره يؤنبه على ما فعل .

ـ ١٥٩ ـ

عاد الدكتور سعيد إلى الدار مطرقا ، يحس الأسى ينهش فؤاده ، والضيق فى صدره ، كان الحزن يستبد به ، حتى إنه لم يقو أن يبتسم لروحية ، فرنت إليه قلقة ، ودنت منه تسأله فى رقة :

ـ مابالك متجهم الوجه ؟ ماذا جرى ؟

ـ قرر مجلس التحقيق خصم خمسة عشر يوما من مرتبى عقابا لى .

فقالت تواسيه ، على الرغم من انقباضها :

ـ لاتحزن ! فليقرر المجلس مايشاء .

فقال منفجرا :

ـ يحزننى أن يديننى المجلس ، لأننى أنقذت حياة ، ماذا جنيت حتى أستحق هذا العقاب ؟ لم أستأذن المستشفى قبل إجراء العملية ؟ وهل كنت أعلم أننى سأضطر إلى إجرائها ، أكانوا يفضلون أن أتركه يموت على أن أخرق أوامر ماأنزل الله بها من سلطان . ماذا كانوا يا ترى يفعلون بى لو أن الشاب قد مات؟!

استحققت هذا العقاب لأننى أنقذت حياة من براثن الموت ، أما الآخرون الذين يأتون بأقاربهم وأصدقائهم وعملائهم ويملئون بهم المستشفى ، فلا جناح عليهم ، أما هؤلاء الذين يسلبون حقوق الفقراء ليمنحوها معارفهم ، فلا يسألون شيئا ، فهم يعرفون كيف يرضون الأوامر والتعليمات .

ضقت بهذا المستشفى ذرعا ، لاأدرى كيف يسير ، فتيات رقيعات كل مؤهلاتهن التأود والتمحك بالرؤساء ، يتقدمن زميلاتهن العاملات المجدات ، وزملاء لاهم لهم إلا تلبية إشارات الإدارة ، نجدهم فى الصدارة . إننى لا أطيق هذه الحياة .

فقالت وهى تمرر يدها على رأسه :

ـ هون عليك .

ـ لا يا روحية ، هذه حياة لاتطاق . لن أعود إلى هذا المستشفى أبدا .

فقالت له ، وهى تضمه إلى صدرها كطفل مدلل :

ـ افعل ما تراه .

فقال فى حماسة :

ـ لست خاملا ، أستطيع أن أعمل ، وأن أجاهد ، وإن أصنع مستقبلى بيدى، سأقدم استقالتى الآن .

ونهض ثائرا ، وذهب يكتب استقالته ، فألفاها واقفة صامتة ، لا تبدى حراكا ، فقال لها فى دهش :

ـ ألا تثقين فى ؟!

ـ أثق فيك كل ثقة ، إنك كفء لأى عمل .

ـ سأستقيل ، وسأفتح عيادة ، وسأكافح فى الحياة .

فقالت له مشجعة :

ـ خير لك أن تعمل لنفسك ، وأن تبنى مستقبلك بيديك .

وراح يكتب استقالته ، فتركته وذهبت إلى غرفة أخرى ، ثم عادت ووضعت أمامه جنيهات قليلة ، وقالت :

ـ خذ هذه حتى تتم تأثيث العيادة .

فتبخرت مشاعر الحنق ، وبرأ صدره من غضبه ، وإذا به يحس أنامل رقيقة تعبث بأوتار قلبه ، فرنا إليها فى إكبار ، وظل صامتا برهة ، ثم قال وهو يعيد إليها نقودها :

ـ أشكر لك شعورك .

فقالت له فى رجاء :

ـ خذها . سنكافح معا أنا وأنت . مرتبى لك حتى تنتهى من تأثيث العيادة .

ـ أرجو أن ترسلى هذه النقود إلى حيث كنت ترسلينها فى كل شهر ، أهلك أحق منى بثمرة جهودك ، إننى شاكر .

وضمها إلى صدره فأحس كأنما يضم الدنيا إليه .

ـ ١٦٠ ـ

بعثت الحكومة المصرية إلى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة تطلب فيها الدخول فى مفاوضات بين مصر وإنجلترا لإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦، بعد إعلان الحريات الأربع ، وميثاق الأمم المتحدة ، ولكن إنجلترا تمسكت بأسس المعاهدة، فعم السخط البلاد ، بعد أن اتضح أن الوعود التى قطعها الساسة البريطانيون فى أثناء الحرب ، إن هى إلا سراب ، فقامت الجامعة بمظاهرة عظيمة لإعلان السخط على هذه السياسة الجائرة التى تنتهجها بريطانيا ، بعد أن ضحت مصر فى سبيل نصرتها ما ضحت ، من غلاء اكتوت به ، ومعاونات بذلتها عن طيب خاطر ، لتبرهن على حسن نيتها على أمل أن تنال بعد الحرب الجزاء ، وإذا بالجزاء جحود ونكران واحتلال !

واصطدم الطلبة بقوات البوليس ، وتفرقت المظاهرة ، ولكن الشرارة أضرمت النار فى البلاد ، فهبت المظاهرات ، وقام البوليس فى وجهها يقاومها بالرصاص، فسقط بعض القتلى ، فثار الناس على الوزارة ، واضطرت إلى تقديم استقالتها.

وتألفت وزارة إسماعيل صدقى، واجتمع البرلمان وكانت أغلبيته للسعديين ، فحضر الأستاذ زكريا ذلك الاجتماع فيمن حضر ، وكان من رأيه ألا يؤيد البرلمان الوزارة الجديدة ، ولكن أوامر الحزب صدرت بالتأييد ، ونالت وزارة صدقى الأغلبية البرلمانية ، فالنواب على استعداد أن يؤيدوا أى رئيس يعدهم ببقائهم تحت القبة الفخمة ، التى لم تشهد مرة واحدة فى حياتها الطويلة ، ثورة النواب فى وجه وزارة، وسحب الثقة منها ، واضطرارها إلى الاستقالة ، وما أكثر ماشهدت رؤساء الوزارات يلقون فى وجوه النواب أوامر حل البرلمان !

انتظمت المظاهرات تطالب بالجلاء ، فغضت الوزارة الطرف عنها ، وراحت تحمى ممتلكات الأجانب ، وتترك المظاهرات تمر بسلام ..

وراحت المظاهرات تجوب شوارع القاهرة ، تطالب بالجلاء ، ووصلت مظاهرة إلى ميدان الإسماعيلية ، وإذا بسيارات بريطانية مسلحة تندفع صوب المتظاهرين ، وتحصد الأرواح ، وتفرق العزل بالحديد والنار ، ولكن كان الحقد يرعى فى صدورهم.

وحدد ٤ مارس من عام ١٩٤٦ ليكون يوم حداد وطنى عام ، على الشهداء الذين سقطوا صرعى العدوان البريطانى ، وفى ذلك اليوم أغلقت المتاجر والمدارس ودور اللهو ، وخلت الطرق من الناس .

وسارت فى الإسكندرية مظاهرة سلمية تضم الطلبة والعمال ، وتدفقت المظاهرة حتى إذا ما بلغت فندق « أطلانطيك » رأت العلم البريطانى يرفرف فوقه فثار المتظاهرون ، ساءهم ذلك التحدى السافر لشعورهم فى هذا اليوم ، فأنزلوا العلم ومزقوه ، وانطلقوا حتى إذا ما وصلوا إلى شارع سعد زغلول ، ألفوا البوليس الحربى البريطانى قد وضع « كشكا » فى الميدان ، وعلق عليه لافتات باللغة الإنجليزية ، فنزعها المتظاهرون ، وإذا بالرصاص يدمدم ، وإذا بصرخات الجرحى تشق الفضاء ، وإذا بالشباب يسقطون صرعى ، وإذا بدماء القتلى تجرى فى الطرقات ، تصرخ أن قد صار بيننا وبين الإنجليز دم .

وران الحزن على المدينة ، وخيم الظلام ، وانقضى يوم الحداد ، وقد تخضب بالدم ، ودخل فى تاريخ الكفاح الطويل بيننا وبين المغتصبين ، صار ذلك اليوم « يوم الشهداء » .

ـ ١٦١ ـ

عاد الدكتور من عيادته ، فألفى روحية ترقب عودته ، فلما لمحته هرعت إليه تداعبه ، وترنو إليه بعينيها السوداوين الناعستين اللتين يخيل إليه أنهما ماخلقتا إلا لتناجياه وحده .

كانت روحية كما عهدها ، رقيقة رقة الأطياف ، حساسة شديدة الحساسية ، فلم تتبدل بعد الزواج ، بل كانت تزداد على مر الأيام رقة وحساسية . ومد بصره إلى وجهها ، فوجده شاحبا فدنا منها وقال :

ـ أرجو أن تعتنى بصحتك إكراما لى .

فقالت له وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :

ـ أجهدنى الحمل .

ـ صبرا ، إن هى إلا أيام ونراه .

فقالت وهى تنظر إليه فى دلال :

ـ أو نراها .

ـ سيان عندى أن أراه أو أراها ، كل ما أتمنى أن أراك أنت إلى جوارى دائما .

وشرد بصراهما ، ولاذا بالصمت برهة ، ثم قالت روحية :

ـ سعيد ، أصبحت فى حاجة إلى من يرعانى ، ولا أريد أن أثقل عليك ، فأرجو أن تأذن لى بالسفر إلى أمى لأضع عندها .

فقال لها وهو يضمها إليه :

ـ عزيز على أن تغيبى عنى .

ـ لا أريد أن أزيد من مشاغلك ، ولن أغيب طويلا عنك ، سأضع هناك ،

ثم آتى إليك ، سأذهب واحدة ، وأعود اثنين .

فخفق قلبه فى صدره ، واستشعر الحنان يغمره ، وقال :

ــ غدا أذهب معك إلى المحطة . كنت أحب أن أسافر معك ثم أعود .

فقالت له وهى تبتسم :

ــ لا أحب أن أنتزعك من مرضاك ، هم أحوج منى إليك .

فقال لها وقد اتسعت عيناه فى عتاب :

ــ حقا ؟

فقالت له مشرقة النفس :

ــ هذا كلام العقل ، ولو طاوعت أنانيتى ما تركتك لأحد لحظة .

وراحا يتسامران ، كان الحديث يدور حول الوليد المنتظر ، قال سعيد :

ــ لن أكون مع أبنائى مثل لبيب مع أبنائه ، إننى لا أدرى ماذا دهاه ، كان شديدا معنا ، إذا جاء لزيارتنا ورآنا نلعب فى الحارة زجرنا ، ثم ضربنا بقدمه كأنما يضرب كره ، كنا نرتجف منه ونخشاه ، فلما تزوج وأنجب أولادا ، لم يضرب أحدا منهم مهما ارتكب من أخطاء . وكل ما يفعله إذا ما تضايق من أحدهم أن يقول له مهددا « سأقول لعمك عما فعلته ليؤدبك » فإذا ما ذهبت لزيارتهم ، أنبأنى بما فعل ، فأزجره ، وقد أقسو عليه ، وأنا أرقب لبيبا الذى يحاول أن يئد شفقته ورثاءه .

فقالت روحية فى صوت رقيق :

ــ ما أرق قلوب الآباء !

ــ ليس كل الآباء ، فلن أدلل أبنائى أبدا ، لن أفسدهم بيدى .

ــ سنرى .

وأصبح الصباح ، فانطلق سعيد وروحية إلى المحطة ، ووقفا يتناجيان ، ثم ركبت القطار ، لتذهب إلى أمها لتضع عندها ، فقال لها :

ــ اعتنى بنفسك يا روحية ، وإلى اللقاء .

وتحرك القطار ، وهو يمد بصره إليها خافق القلب ، وقد نبت فى جوفه بعض

القلق ، كانت هذه أول مرة تفارقه فيها بعد أن تزوجا ، فأحس لوعة وما كاد القطار يختفى عن ناظريه .

ـ ١٦٢ ـ

وقفت سيارة السلاح الجوى أمام « الفيلا » الأنيقة التى يقطنها خالد ، على ساحل البحر ، وهبط خالد ، واتجه إلى السيارة ، وسارت به أمتارا ، ثم عرجت إلى اليمين ، وانسابت فى محطة الدخيلة الجوية ، وإذا بالجنود يقفون يؤدون للقائد التحية ، وعرجت السيارة إلى اليسار ، ثم وقفت أمام مبنى الرياسة ، فهبط منها خالد ، وراح يرقى فى الدرج ، حتى بلغ مكتبه الفسيح ، الذى يطل على المطار ، وعلى البحر، وما إن جلس إلى كرسيه ، حتى دخل عليه أركان حربه يحييه ، ويسرد على مسامعه ما جد من أنباء المحطة ، قال له فيما قال :

ــ انتدب معالى وزير الحربية سعادتك لتنوب عنه فى تشييع جنازة الجندى الذى مات من المحطة :

ــ ومتى تخرج الجنازة ؟

ــ فى الساعة العاشرة .

وراح خالد يصرف أمور عمله ، فلما وافى الميعاد ، انطلق إلى الجنازة مندوبا عن وزير الحربية . وقفت السيارة أمام بيت متواضع ، وأسرع السائق يفتح الباب ، وسرى همس بين أهل الميت .

ــ مندوب وزير الحربية .

كان زملاء الفقيد قد أخبروهم ، أن الوزير سيبعث إليهم مندوبا ، فخفوا إليه يستقبلونه ، وراحوا يصافحونه ، ولمح خالد بين أهل الميت رجلا متهدما ، برز شعره الأبيض من تحت طربوشه ، وامتدت « الكرافتة » على صدره كحبل أسود ، وذهبت الشمس بلون سترته ، وخط البؤس فى وجهه خطوطا ، عرفه خالد لما وقعت عيناه عليه ، إنه مدرسه الذى ضربه يوما بالعصا على إصبعه دون سبب ،

فترك له عاهة ، كان يقسم كلما نظر إلى إصبعه أنه سيضرب ذلك المدرس إذا ما رآه يوما ، بل كان يؤكد أنه سيكتم أنفاسه ، وإذا به يراه اليوم فلا يثور ، ولايغضب ، ولايحس نحوه حقدا ، بل يشعر نحوه بعطف ورثاء .

وعرفه الرجل ، فدنا منه يحييه ، ويبالغ فى تحيته ، ويقول له :

ـ أشكر لك ياسعادة البك عطفك .

وجلس خالد وجلس الرجل إلى جواره يسأله :

ـ كيف حال الأولاد ؟ أظن أنجبت أولادا .

ـ بخير . الحمد لله !

ـ إننى على استعداد أن أؤدى خدمة ، إذا رأيت أن تعطيهم دروسا خاصة فأنا فى الخدمة .

ونظر خالد إلى الرجل فى إشفاق ، وقال له :

ـ إن شاء الله .

وسارت الجنازة ، فسار خالد والرجل إلى جاره لايفارقه ، وراودت خالدا فكرة أن يضع فى يد الرجل بعض النقود ، وهو يصافحه عقب الجنازة ، وهم بإنفاذها ، ولكنه خجل ، وخاف أن يكون ذلك خدش لكرامته ، فانطلق وهو صامت، وإن كان يفكر فى ذلك الرجل البائس ، الذى أقسم يوما أن يضربه ، وأن يكتم أنفاسه .

وبلغت الجنازة غايتها ، فحمل النعش إلى المسجد ، وراح المشيعون يعزون أهل الفقيد ، وتقدم خالد إليهم يصافحهم ، ثم اتجه إلى سيارته ، وإذا بالرجل يقدم يفتح له الباب ، ويقول وهو ينحنى :

ـ متشكرون يا سعادة البك ، مع السلامة ياسعادة البك .

وانطلقت السيارة ، وخالد شارد يحس غصة فى حلقه ، ودموعا تبلل مقلتيه .

ـ ١٦٣ ـ

الأيام تمر والدكتور سعيد يذهب إلى عيادته ، ثم يعود إلى البيت ، يعكف على الاستذكار ، فإذا خلا بنفسه أحس حنانا إلى روحية ، فيترك لخياله العنان يحلق فى العالم المسحور ، فيراها هادئة ساكنة ، ترنو إليه بعينيها الناعستين اللتين تخاطبانه وحده .

فكر أكثر من مرة أن يغلق العيادة ، وأن ينطلق إليها يتزود منها بالنظرات، ويسكن القلق الذى يمور فى جوفه ، ولكنه كان يحجم ، كان طيفها يزجره :

ـ لا تطاوع أنانيتك ، وأصغ إلى صوت عقلك ، مرضاك أحوج إليك منى .

تلقى منها رسالة تنبئه فيها أنها وضعت فتاة ، وأنها فى صحة جيدة ، ولكن رسالتها كانت قصيرة أشبه ببرقية فبذرت فى نفسه بذور الخوف ، لو كانت متمتعة بصحتها لناجته وبثته شوقها ، وحدثته عن ابنتهما العزيزة ، إنها مريضة ، وقد تحاملت على نفسها لتكتب له ما كتبت .

وعجب لنفسه ، ما بال الهواجس تنتابه هذه الأيام ؟ كان قويا يسيطر على عواطفه ، لايعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، فإذا به قد تبدل بعد أن تزوجها ، صارت الوساوس تعصف به ، تهزه هزا ، إذا ما طاف برأسه أنها مريضة أوأنها فى ضيق اضطرب ، ورفرف قلبه بين ضلوعه فى رهبة ، وانقبض صدره ، أهذا هو الحب ؟ إنه لا يدرى ، وكل ما يعرفه أنه بات يخشى عليها .

وفكر فى ابنته ، فتدفقت مشاعر الحنان من كنوز فؤاده ، وتفتحت ذاته ، وأحس كأنما رق ، حتى صار طيفا ، يهيم فى عوالم حالمة ، كلها شاعرية وكلها روعة ، وأغمض عينيه ليرى ابنته بعين خياله ، ولكن عجز أن يتصورها ، وترادفت فى ذهنه صور أطفال الأسرة فلم يخفق قلبه لصورة منها ، وإذا بطفلة

وجهها وجه روحية ترنو إليه بعينيها الناعستين قد احتلت أقطار رأسه ، فابتسمت روحه ، ورقصت مهجته ، وانداحت فيه مشاعر البهجة حتى غمرته .

ووصلت إليه رسالة منها فضها فى لهفة ، وقد دثرته رهبة ، وراح يقرأ :

عزيزى سعيد .

مرت هذه الأيام على كأنها سنون ، إننى أهفو إلى عشى ، وغدا أعود إليه ، لنعيش معا فى حلمنا البهيج ، لم أكن أحسب أننى سأحن إلى دارى كل هذا الحنين ، إننى بين أهلى حيث نشأت ، ولكننى أحس أن هناك شيئا ناقصا فى حياتى ، شيئا عزيزا غاليا تشتاق إليه روحى ، وتهفو إليه كل خالجة من خوالجى ، هو أنت .

أقول لك كل ما أحسه يا سعيد ، إنه ليخيل لى أنك مررت بيدك على ماضى فطمسته ، فلم أعد أحن إلى ذلك الماضى أو أفكر فيه ، صرت حاضرى وكل أملى ، وغاية ما أشتهيه .

انظر يا سعيد . إن ابنتنا الجميلة تعبث بيدها فى وجهها ، كم هى رائعة ، نظرة واحدة إليها تفتح أمامى أبواب السعادة ، إنها دنيا وحدها ، ليتك تراها وهى راقدة إلى جوارى كملاك ، ولكن صبرا ، فغدا تراها وتضمها إليك ، وتذوق طعم حب جديد .

وإلى الغد الذى أرقبه ، أتمنى لك أسعد الأحلام .

« روحية »

ونظر إلى التاريخ فوجد أنها كتبت الرسالة بالأمس ، إنها قادمة اليوم ، وعلى ذراعها طفلتها الحبيبة ، فانطلق إلى المحطة ينتظرهما خافق القلب نشوان .

ـ ١٦٤ ـ

جلس زكريا وحسان على أريكة غطيت بمفرش أبيض ، وقد تمدد على فى فراشه ، وراح الدكتور سعيد يقيس ضغط الدم ويجرعه الدواء ، والتفت إليه وقال :

ـ أرجو منك ألا تأكل الأصناف التى نهيتك عنها وألا تتحرك على قدر الإمكان .

فرنا إليه على فى عتاب وقال :

ـ ما أكثر أوامرك . شتان ما بينى وبينك ، عشت معى سنين طويلة لم أنهك فيها عن فعل ما تشتهى ، ولم أمنعك عن أكل ماتحب ، فلما اضطرتنى صحتى إلى أن أعيش فى رعايتك شهرين ، إذا بك تأمر وتنهى . لاتفعل هذا ، لا تأكل اللحم المشوى ، إياك والأكل النشوى ، لاتأكل الدهنيات ، اللبن ممنوع ، السمك ممنوع .. منعت عنى كل شىء ، حتى لم أعد أدرى ماذا تركت لى لآكله ، ما كل هذه الأوامر ؟ أتحسب طبك قادرا على إطالة العمر ؟ إنها أرزاق ، والله لو اشتهت نفسى شيئا لأكلته برغم أنف ما يشير به الطب .

وابتسم زكريا ضاحكا ، وقال حسان لسعيد :

ـ لا كرامة لطبيب فى بيته .

فقال سعيد وهو يبتسم :

ـ عيبى الوحيد أننى ابنه ، لو كنت غريبا عنه لأطاع أوامرى ، ولكنه يجدها كبيرة على نفسه أن يطيع ابنه .

والتفت إلى أبيه وقال :

ـ سأمر عليك فى المساء ، ولاتأكل إلاما أمرت لك به .

وانصرف وعلى يتبعه بنظره ، منشرح الصدر ، مشرق الوجه ، وراح حسان يجذب طرفا من أطراف الحديث ، قال :

ـ والله لا أدرى سبب كل هذه الأفراح التى شغفنا بها هذه الأيام ، أفراح لخروج الإنجليز من مصطفى باشا ، أفراح لخروج الإنجليز من ثكنات قصر النيل ، إنه من يرى هذه الأفراح يحسب أنهم قد جلوا عن مصر .

فقال زكريا فى إيمان :

ـ هذه خطوة مباركة ، تستاهل الفرح ، نأمل أن تتلوها خطوات ، حتى يتم الجلاء .

ـ لن تجدى مفاوضات مع الإنجليز ، هذا رأيى .

فقال زكريا وهو يبتسم :

ـ رأى عضو قديم فى الحزب الوطنى .

فقال حسان فى ثورة :

ـ لا ، إننى طلقت السياسة ، بل طلقت الدنيا كلها ، فما فيها ما يستحق أن نبكى عليه .

وأراد زكريا أن يجرجره إلى حديث السياسة ، كان يحب أن يسمع آراءه فى لحظات صحوه ، فقد كان يتدفق حماسة ، على الرغم من إصراره أنه طلق السياسة ، وطلق الحياة ، فقال له :

ـ أظن إننا نستطيع أن ننال بالمفاوضة ما نريد ، وأن نحصل على كل حقوقنا .

فقال حسان وهو يلوى شفته فى زراية :

ـ لا أحب أن أتعلق بالأوهام ، الإنجليز يضللوننا ، فننخدع لهم راضين ، بل نتطوع ونطبل للخديعة ونزمر ، خرجوا من القاهرة وخرجوا من الإسكندرية فإلى أين جلوا إلى القناة ، إلى السويس والإسماعيلية . أليست هذه أراض مصرية ، فلماذا هذه الأفراح ؟ أيصعب على الإنجليز أن يحتلوا القطر مرة ثانية ، إذا أرادوا ، فى يوم وبعض يوم ؟ خدعونا فيسرنا لهم الخديعة ، وأظهرنا السرور والاغتباط .

إذا اغتصب غاصب بيتك ، وطالبته أن يخرج منه ، أيرضيك منه أن يترك شرفات البيت لكيلا يراه الناس ، ويقبع فى غرفة بعيدة ؟ وإذا أرغمك على الرضا بذلك الظلم ، أتقيم الأفراح ؟ الغاصب غاصب سواء أبقى فى الشرفات أم توارى عن الأنظار .

أرى أن واجب مصر أن تطالب بالجلاء عن جميع أراضيها ، وألايهدأ لها بال حتى تنال حقوقها كاملة .

فقال زكريا فى هدوء :

ـ إننا بالمهادنة نكسب كل يوم أرضا ، وسيأتى اليوم الذى نطهر فيه مصر كلها من قوات الاحتلال .

ـ هذا هو الوهم الذى يعيش عليه الساسة ، يحسبون أنهم ينالون كل يوم من إنجلترا نصرا ، والحقيقة أنهم يجرون إثر سراب .. أى نصر فى أن يخرج الإنجليز من القاهرة والإسكندرية إلى القنال ؟

ـ نصر الاعتراف بمبدأ الجلاء . سنطالبهم بالجلاء عن القنال ، كما جلوا عن أراضى القطر الأخرى .

ـ سيجدون ألف حجة وحجة لتبرير بقائهم فى القنال ، وسيبذلون ألف وعد ووعد بالجلاء ، وسيطلقون على هذا الاحتلال ما شاءوا من الأسماء ، ليرضى السذج والبله عن ذلك الوضع ، وكلنا سذج وبله . أقولها صريحة : الإنجليز لن يجلواعن مصر إلا إذا أردنا جميعا ذلك .

ـ أتظن أن هناك من لا يرضى عن الجلاء ؟

ـ الحكام الذين يسندهم الاستعمار ، الذين يحسون فى قرارة نفوسهم أنهم زائلون يوم يزول الاستعمار ، إننى أرى القضاء على هؤلاء قبل المطالبة بالجلاء ، وأرى .. ولكن ما أنا حتى أرى ؟ أنا رجل قد انتهى ، وانقطعت كل ما بينى وبين هذا العالم من أسباب ، هذه البلاد بلادكم ، وهذا الجيل جيلكم ، فافعلوا ماترون .

وهب واقفا ، فقال له زكريا :

ـ إلى أين ؟

فرنا إليه فى زجر ، كأنما يقول له : « أو مثلى يسأل هذا السؤال ، أما تعرفون جميعا إلى أين أذهب » ؟ وانصرف يهرول ، وانطلق إلى الحانة ، ليطفىء الظمأ الذى يحسه ، والحماسة التى اندفعت فى جوفه .

ـ ١٦٥ ـ

أغلق الدكتور سعيد عليه غرفته ، وجلس إلى مكتبه ، وأكب على كتبه ، فقد دنا ميعاد الامتحان ، كان يريد أن يكون من المتفوقين ، ليرغم الحكومة على إيفاده فى بعثة ، لينال .FRCS . ويصبح زميلا فى جمعية الجراحين بانجلترا.

وسمع طرق خفيف على الباب ، فرفع رأسه ، فرأى روحية واقفة عند فرجة الباب تقول :

ـ آسفة لإزعاجك . البنت مريضة ولا أدرى ماذا بها .

فنهض سعيد وذهب معها إلى حيث كانت ابنتهما ترقد ، ونظر إليها فألفاها ممتقعة اللون ، فمال يفحص عنها ، ولاح فى وجهه الاهتمام ، وطال فحصه ، وقطب جبينه ، فأحست روحية قلقا يسرى فى جوفها ، وحاولت أن تسأله عما يرى ، ولكن عقلت لسانها واضطرب نفسها، ورفع رأسه ، فأرهفت سمعها ، فإذا به يغمغم :

ـ BLUE BABY

فقالت له فى لهفة :

ـ ماذا بها ؟

فهز رأسه فى حزن وقال :

ـ الطفل الأزرق .

فقالت فى حيرة :

ـ الطفل الأزرق ؟! ما هذا ؟

ـ قلب البنت ناقص . ولدت هكذا !

ـ لم أسمع بهذا المرض من قبل .

فقال فى سخرية مريرة :

ـ الظاهر أنه لا يصيب إلا أبناء الأطباء ، لأنهم يعرفون تشخيصه .

فقالت فى قلق :

ـ أهناك خطر على الطفلة ؟

فقال فى أسى :

ـ إنها إن عاشت ستعيش عليلة .

ونظرا إلى فلذة كبدهما الممدودة فى فراشها ، وقد رعى الحزن فى أحشائهما ، ولمح الدموع تترقرق فى عينى روحية ، فلف ذراعه حولها ، وضمها إليه مشجعا .

ـ ١٦٦ ـ

عمل يحيى فى دائرة زوج خالته بهاء باشا ، بعد أن نال بكالوريوس التجارة وعرف أن الباشا متردد ، فمايصدر أمرا حتى يسرع وينقضه ، لذلك ما كان ينفذ أوامره عقب صدورها ، بل كان يتريث حتى يتردد الباشا ، ويبدل الأمر مرات قبل أن ينتهى إلى رأى ، لذلك أحبه الباشا ، وزاد فى حبه له أنه كان يعارضه أحيانا فكان يجد فيه طعما جديدا ، لا يألفه ، فقد كان الجميع لايعارضونه وكيف يعارضون من يملك الثروة الكبيرة ؟!

ودق جرس التليفون فى الدائرة ، فمد يحيى يده وتناول السماعة وقال :

ـ ألو ..

وإذا بصوت خالته جليلة يرن فى أذنه ، فيقول :

ـ صباح الخير ياخالتى ، أتريدين الباشا ؟

ـ أريد أن ترسل لنا أربعة أزواج دجاج ، وثلاث أقات مكرونة و ..

وامتقع لون يحيى ، وقال فى حدة :

ـ آسف يا خالتى ، هنا مكتب للعمل ، لالقضاء حاجات المطبخ .

ووضع السماعة ، وهو يحس ضيقا ، فلو كان غريبا أكانت تكلفه زوجة الباشا قضاء حاجات المطبخ ؟ لعل غيره كان يفرح بتلبية طلبات الهانم ، ولكنه لايقبل لنفسه هذا الهوان .

وانقضت ساعات العمل ، وخرج إلى الطريق ، وإذا به يلمح صورة الراقصة فتحية ، ملصقة على الجدران ، جاءت إلى الإسكندرية مع فرقة تمثيلية لتحى موسم الصيف ، فهفت نفسه إليها ، وراودته فكرة الذهاب لمقابلتها .

وأرخى الليل سجوف الظلام ، وأنيرت المصابيح الكهربية ، فانطلق على الكورنيش ، يداعبه نسيم البحر ، فينعش روحه ، ويبلغ الملهى ، فأحس رهبة تستولى عليه ، وتقدم وإذا بقلبه يدق فى عنف بين جنبيه ، وتسمرأمام الباب ، لم يجد فى نفسه الشجاعة أن يقابلها ، وأن يحدثها بعد أن عرفت الملك ، فأحجم ودار على عقبيه وانصرف ، وإن كان قد عرفها قبله ، وقضى معها أسعد الأوقات.

ـ ١٦٧ ـ

وقف سعيد يودع روحية قبل سفره إلى القاهرة ، لتأدية الامتحان ، فجعل يرنو إليها فى حب ، وينظر إلى عينيها السوداوين الناعستين ، خافق القلب ، ثم قال :

ـ هذه أول مرة أذهب فيها إلى الامتحان مضطربا ، كنت أدخل الامتحان واثقا من نفسى ، فما أدرى ماذا دهانى ، حتى عرفت الخوف والرهبة ؟!

ـ لا تقلق ، هذا إحساسنا جميعا قبل الامتحان ، اذهب وفقك الله !

فضمها إليه وقال :

ـ إنى ذاهب ، وسأعود إليك وقد جاءت إجازتك ، فنعيش معا متحررين من قيود العمل ، نعيش كالعشاق ، لاهم لنا إلا أن ندور كالنحلة هنا وهناك ، إلى

اللقاء .

وانصرف ، وهى تنظر إليه فى وله ، فلما غاب عن عينيها ، هرعت إلى الشرفة تتبعه بنظرها وهو منطلق فى الطريق ، حتى اختفى فى غمرة الناس ، فعادت إلى حيث كانت ابنتها ، وحملتها بين ذراعيها ، ذاوية ذابلة ، ثم ضمتها فى حنان ، وقبلتها وأعادتها إلى فراشها وهى تنظر إليها ومشاعر الحب تنبثق فى أعماقها . وانسلت من جوارها خافقة القلب ، وانسابت فى طريقها إلى المدرسة ، تكد وتشقى ، لتبعث إلى أهلها بمرتبها ، ليعيشوا به ويصمدوا فى وجه تيار الحياة القاسى الذى لا يرحم .

ونزل سعيد فى المنزل الذى قضى فيه أيام الدراسة ، ولم يكن به أحد من إخوته ، فجلال سافر إلى الإسكندرية يمضى بها بضعة أيام ، فانتهز فرصة الهدوء الذى ران على المكان ، وأخرج كتبه ، وراح يراجع مراجعة أخيرة قبل دخول الامتحان ، ولكنه ماكان قادرا على تركيز ذهنه فيما يقرأ ، كان يرى روحية فى صفحة الكتاب ، تبتسم له ، وسرعان ما يرى ابنته ذاوية ، شاحبة اللون ، فينقبض صدره ، ويغمره أسى ، ويشرد بذهنه ساهما ، يلوح فى وجهه القلق والاضطراب.

وجاء الليل ، ودخل إلى فراشه ينام ، فإذا بالأفكار تتوافد على رأسه متزاحمة ، متلاطمة كالأمواج ، كان يفكر فيما استذكر ، وفى روحية ، وفى ابنته التى ولدت وقلبها ناقص ، وامتزجت أفكاره وتداخلت ، ثم راح فى سبات .

وراح يؤدى الامتحان فى الصباح ، ويمكث فى البيت بعد الظهر يتأهب لامتحان اليوم الثانى ، وفيما هو جالس وفى يده كتاب ، سمع مفتاحا يدور فى الباب ، فرفع رأسه فرأى جلالا يدخل عليه ويحييه ، ثم يجلس أمامه يحادثه :

ـ ماذا فعلت فى الامتحان ؟

ـ لابأس حتى الآن .

وقال جلال وهو يحاول أن يتحامى نظراته ، فيتظاهر بالعبث فى كتاب :

ـ وكيف حال روحية ؟

ـ غادرتها بخير .

ـ وابنتك ؟

فقال سعيد فى حزن .

ـ إنها مريضة يا جلال ، وستعيش عليلة إذا قدر لها أن تعيش ، إننى كأب أشفق عليها ، أتمنى لها الموت .

فرفع جلال نظره إليه وقال :

ـ ألا تحزن عليها إذا ماتت ؟

ـ سأكون سعيدا لو ماتت ، سيضع موتها حدا لآلامها التى لن تنقضى ، إننى طبيب ، وأعرف ما ستقاسيه فى الحياة ، لذلك ينقبض قلبى كلما فكرت فيها.

وكسا الحزن وجه سعيد ، فوجد جلال الفرصة سانحة ليبلغه النبأ ، فقال له :

ـ ماتت ابنتك .

فقال سعيد فى لهفة :

ـ كيف ؟

ـ خرجت روحية إلى المدرسة ، فلما عادت وجدتها قد فارقت الحياة .

فأطرق سعيد ، وطاف بوجهه سحابة من الأسى ، ثم غمغم فى راحة :

ـ يرحمها الله !

ـ ١٦٨ ـ

دلف يحيى إلى الشقة الصاخبة ، فراح يخوض فى أبناء عماته ، الذين كانوا يموجون فى جلابيبهم المخططة ، وكانت من قماش زهيد ، ويصيحون ويهرولون ، فيحدثون جلبة وضوضاء ، ودوى صوت عزيزة كالرعد :

ـ كفى صياحا يا أولاد الشياطين ، كفى صياحا وإلا قمت أدق أعناقكم .

وجلس يحيى إلى عماته عزيزة وزهيرة وثريا ينتظر سليمان حتى يرتدى ثيابه، لينصرفا معا إلى حيث اعتادا أن يمضيا أمسياتهما ، ودار الحديث ، فقالت زهيرة :

ـ لماذا لا تتزوج يا يحيى وقد كبرت وصرت رجلا ؟

فقال يحيى فى اغتباط :

ـ إنى أفكر جديا فى الزواج ، وأبحث عن زوجة .

فقالت زهيرة فى نعومة :

ـ وفقك الله إلى بنت الحلال .

ورمقت عزيزة بطرف عينها ، كأنما تستحثها على الكلام ، كانت تشتهى فى قرارة نفسها أن تتحدث عزيزة ، لتنهش أعراض الناس ، فتصغى إليها راضية ، وإن تظاهرت بالنفور ، والاستغفار والاستعاذة بالله ، ولكن عزيزة أطرقت صامتة، ولم تنبس بكلمة ، ولم تنبت فى صدرها الآمال . كانت تطمع فى سالف الأوان أن يتزوج أبناء أخيها من بناتها ، يوم كانت تحسب أن غاية ما ينتظرهم عنابر السكة الحديد ، فهى مأواهم كما كانت مأوى جدهم وأزواج عماتهم وما دار بخلدها يوما أن سيصبح منهم المحامى والنائب فى البرلمان والضابط والطبيب وما لا تدرى من ألقاب .

علمتها الأيام أنها من طبقة ، وأنهم صاروا من طبقة أخرى ، وفطنت بغريزتها أنهم أصبحوا غرباء عنها ، وإن كانت عمتهم ، وإن كانوا أبناء أخيها الذى ما زال يقطن معهم فى نفس الحارة ونفس الدار .

وأقبل سليمان يرتدى حلة سوداء ، يتدلى من صدرها منديل أبيض من الحرير ، كانت نفس الحلة التى ارتداها ليلة زفافه من سنين ، ولكنه كان يعتنى بها، فهو يهتم بهندامه ، ولكن ما كانت الثياب الأنيقة تعيره الاحترام ، أو تسربله بالوقار ، فمظهره ينم عن جهله ، وحديثه يفضحه ، ويعلن على رءوس الأشهاد أنه لم يتلق من العلم أدنى نصيب .

وخرج يحيى وسليمان ، فقالت زهيرة وهى تتنهد ، لتجذب عزيزة إلى الحديث، وإلقاء السباب الذى تسر لسماعه :

ـ لو كنا أغنياء لما أعرض عنا الناس ، ولتهافتوا على بناتنا .

فانفجرت عزيزة صائحة :

ـ زمن أغبر ، زمن ابن كلب ، زمن الفلوس ، من ذا الذى يتقدم ليتزوج من بناتنا ، من يتزوج الفقر ، وإذا جاء ذلك المجنون الذى يطلب الزواج من إحداهن ، أنقدمها له بالثياب التى عليها ؟ من أين لنا أن نجهزها ؟ لم نعد نملك ما نبيعه ، أكلتنا السنون السود .

آه ، لو حكمونى فى الذين يكنزون أموالهم لشربت من دمائهم ولأخذت أموالهم وأنفقتها على المحتاجين أمام عيونهم ، ليموتوا بغيظهم . أتعرفين الحاج محمود ؟ خطبت ابنته ، خطبها ابن الحلال ، ولكن الحاج اعتذر بأنها ليست فى سن الزواج ، شابة جميلة فى السابعة عشرة يعتذر أبوها عن زواجها بعد أن جاءها الذى يعرف قيمتها . لماذا ؟ لأن أباها لايملك ما يجهزها به ، لأنه لا يدرى ماذا يفعل بفقره ، فلما انصرف الشاب ، راح الحاج محمود يبكى كالنساء ! زمن أغبر ، زمن ابن كلب ! وطفقت عزيزة تنفث حقدها ، ويتدفق السباب من فمها كالحمم وزهيرة تصغى إليها متلذذة ، كانت تتلذذ بمصائب الناس ، بينا تندت عينا ثريا بالدمع .

***

وبلغ يحيى وسليمان المقهى ، فجلسا يتحدثان نفس الحديث الذى يتكرر كلما تقابلا دون أن يسأماه ، سليمان يروى فى إسهاب ما يفعله الزوجان ، ويحيى يصغى إليه فى اهتمام ، وقد برقت عيناه ، والساعات تمر فى تخيلات مريضة ، ورؤى مغلفة بالأوهام .

***

ووقفت سيارة حكومية ، وهبط منها خالد فى ثيابه الرسمية ، فلما رآه سليمان نسى ما كان فيه من عبث ، وتذكر هوانه ، فهو يتقاضى فى الشهربضعة جنيهات ، لاتكاد تكفى حاجاته الضرورية وحاجات زوجه ، فماذا كان يصنع لو أنه

أنجب أولادا كما أنجب زملاؤه ، إنه يسمع خالدا يتقاضى ما يقرب من المائة الجنيه ، غير السيارة ، فماذا يفعل بكل هذه الجنيهات ، ولماذا لا يعطيه منها ، لييسر له أن يعيش ، وأن يتمتع بحياته ، ولم يكتم هذه الخواطر التى تزاحمت فى رأسه ، بل نظر إلى خالد وقال :

ـ لماذا لاتعاوننى على الحياة ؟

فقال خالد فى تبرم :

ـ ماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ ترتب لى راتبا شهريا .

فقال خالد فى ضيق :

ـ لماذا ؟

ـ لأنك غنى وأنا فقير ، ولأنك قريبى .

فقال له خالد وهو يرمقه فى زراية :

ـ إنك كالحمار لا تستحق الإحسان .

فقال له سليمان فى عناد :

ـ لو قاضيتك لحكمت لى المحكمة الشرعية بنفقة .

فقال خالد فى حدة ، وقد هب ثائرا :

ـ لم تكن زوجتى فى يوم من الأيام ثم طلقتك ، لتستحق نفقة قبلى .

واندفع خالد إلى السيارة ، وأغلق الباب خلفه فى شدة ، وانطلقت السيارة وهو عابس ، يضايقه أن جابهه سليمان بحسده ، ونفث فى وجهه حقده .

- ١٦٩ -

عاد الدكتور سعيد إلى الإسكندرية حزينا كئيبا ، فقد رسب فى الامتحان ، وكانت هذه أول مرة يرسب فيها ، فحز ذلك فى نفسه ، ولكن يد روحية الساحرة مشت على جراح روحه فبرأت ، وعاد إليه الرضا والصفاء .

وراح سعيد يمر على أبيه ، يعطيه الدواء ، ويحاول أن يمنعه من تناول الطعام الذى يزيد ضغط الدم ، ولكن عليا ما كان يستمع إلى نصحه ، كان يجدها كبيرة على نفسه أن ينزل على أوامر ابنه ..

تدهورت صحته ، فأخذ أولاده يعودونه كل يوم ، يلتفون حوله ، يسألونه عن صحته ، ثم يتجاذبون أطراف الحديث ، وأقبل سعيد ، وراح يغلى الحقنة ، وكشف ذراع أبيه ثم حقنه ، ولما انتهى من عمله قال :

- أريد أن يشترى لى أحدكم تذاكر سينما .

فقال على فى صوت واه :

- لن يذهب أحدكم اليوم إلى السينما .

ونظروا إليه ، ولم ينطق أحدهم بكلمة ، ثم راحوا ينسلون واحدا إثر واحد إلى أعمالهم ، وهمس يحيى للدكتور :

- أين أرسل لك التذاكر ؟

- سأكون فى المستشفى .

وانصرفوا ، وبقى على مسجى فى فراشه ، واهنا يتنفس فى جهد ، وقد أسبل عينيه ، ورأى بعين خياله الواهن صورة زوجه تدنو منه فى ثياب بيض ، يشع من وجهها نور ، فغمغم :

- صفية .. صفية .

فقامت إليه زهيرة وقالت :

- أتطلب شيئا ؟

وراح يقرأ القرآن ، واستمر فى التمتمة ، فنادته :

- على .. على .

ولم تسمع جوابا ، واستمر يقرأ ويقرأ ، فصاحت فى رعب :

- نادوا الدكتور .. أرسلوا إلى سعيد .

وصمت ولم ينبس بكلمة ، فأسرعت تحضر كوب ماء ، ثم عادت إليه ، ورفعت رأسه ، وصبت الماء فى فيه ، فجرى على ذقنه ورقبته فوضعت رأسه على الوسادة هالعة ، وراحت تذرع الغرفة مضطربة وتقول

- أين الدكتور ؟ أين الدكتور ؟

- أرسلنا إليه .

وجاء سعيد يهرول ، وأخذ بيد أبيه ، وراح يجس نبضه ، فاربد وجهه ، وانقبض قلبه ، ومد يده إلى الغطاء وسحبه حتى غطى به وجه أبيه المسجى فى فراشه ، فولولت النسوة ، وانسحب سعيد من الغرفة مطرقا ، يحس فى جوفه وقدة نار ، ولكن لم تطفر من مقلتيه عبرة ، فقد كان عصى الدمع .

- ١٧٠ -

شاطىء البحر يموج بالمصطافين ، النساء مستلقيات فى الشمس ، وعلى عيونهن نظارات قاتمة ، وعلى رءوسهن عصابات مختلفة الألوان وقد برزت فتنتهن للعيون ، والرجال يغدون ويروحون ، وقد برزت عظامهم أو كروشهم أو عضلاتهم ، وعيونهم تمرح فى الأجساد البضة المعروضة على الرمال ، فكأن الشاطىء سوق للرقيق . وجلست روحية على مقعد مريح ، وقد استرخت أمام « الكابينة » ، وتمدد عند أقدامها الدكتور سعيد ، فى ثياب البحر ، وقد رفع رأسه ينظر إليها ويقول :

- ألا تخلعين ثيابك وتلبسين ثياب البحر ، لنسبح كما تسبح الناس ؟

فقالت فى ذعر :

ـ مستحيل ! ماذا يقول الناس عنى ؟

ـ لن يقول الناس شيئا ، فما جاءوا إلى هنا إلا للتحرر من القيود ، ليعيشوا طلقاء ، يغترفون من معين السعادة دون رقيب .

ـ لا . لا أستطيع ، ماذا تقول تلميذاتى إذا وقعت أنظارهن على وأنا عارية؟ إنك لا تعرف كلام الناس .

ـ لا يهمنى كلام الناس .

ولمح فى عينيها ذعرا ، فأشرق وجهه ، وابتسم ضاحكا ، ثم نهض وقال :

ـ سأستحم ، ثم أعود .

وانطلق إلى البحر يمرق كالسهم ، ثم قفز فى الماء ، وطفق يسبح فى رشاقة ، وروحية ترمقه فى إعجاب ، وقد دثرتها سعادة ، وأفعمت بالغبطة ، فجعلت تملأ رئتيها بالهواء ، وتزفره فى راحة ، وأقبل سعيد ، فقدمت إليه الفوطة ، فجفف رأسه ، وعاونته على تجفيف جسمه ، ونام على بطنه عند أقدامها ، ونظر إليها ، ثم راح يعبث بأصابعه فى الرمال ، فقالت له مداعبة :

ـ أتضرب الرمل ؟ حدثنى عن مستقبلنا .

فاعتدل وجلس ، وقال فى ثقة :

ـ أن مستقبلنا بأيدينا ، إننانصنعه بأنفسنا .

وشرد ببصره ، وقال :

ـ أراه الساعة واضحا ، أوضح من هذا النهار . سأركب هذا البحر يوما ، وسأنال شهادة (FRCS) وسأعود إليك طبيبا ممتازا ، ثم نبنى مستقبلنا معا بأيدينا ، أرى المستشفى الذى سأشيده ، وأرى النحاسة التى عند مدخله ، وقد كتب عليها « مستشفى الدكتور سعيد على يونس باشا » وأرى السيارة الفخمة المقبلة. وأراك غائصة فيها ، هذا هو مستقبلنا ، لن يصنعه الرمل لنا ، ولكن سنخلقه بصبرنا وكفاحنا وإيماننا بأنفسنا وبأنفسنا فقط .

ورمت ببصرها إلى بعيد ، وحاولت أن تخفى شعورها ، ولكن لؤلؤتين من

الدموع ترقرقتا فى مآقيها .

وذهب سعيد يرتدى ثيابه ، وتركها وحدها لأحلامها ، فهفت روحها إلى مستقبلها ، ورفعت رأسها إلى السما ، وراحت تبتهل فى حرارة أن يحقق الله آماله، وأفاقت إلى نفسها لما أحست به إلى جوارها ، فابتسمت ونهضت تسير معه على الشاطىء ، فقال لها :

ـ والله لا أدرى لماذا تحجمين عن زيارة أهلى ؟ تعالى نزر خالدا ، وتعالى نزر زكريا ، تعالى نخرج إلى دنيا الناس .

فقالت فى قلق :

ـ إننى أخشى الناس ، إذا زرت أحدا يخيل إلى أننى أثقلت عليه ، فأحاول أن أفر بعد أن أجلس ، وإذا أرغمت نفسى على الجلوس ، فإنى أشعر بقلق وخوف.

ـ تعالى نزر خالدا ، سترحب بك درية ، ولن تشعرك أنك فى زيارة أحد غريب ، إن أهلى أناس طيبون .

ـ ماشككت فى ذلك لحظة ، ولكننى أخاف من نفسى ، أخاف أن يضيق الناس بزياراتى ، أحاول أن أقهر ضعفى ، ولكننى أبوء بالإخفاق ، هذا طبعى ، فماذا أفعل ؟

وأحس فى نبراتها رنة من الحزن . . فرأى أن يعيد لها سعادتها ، فقال لها:

ـ أتخافين منى ؟

فقالت له فى وجد :

ـ أنت روحى ، أنت كل حياتى !

– ١٧١ –

ذهبت روحية إلى المدرسة ، وهى شاحبة اللون مجهدة ، إنها تقاسى آلام الحمل والعمل ولولا اضطرارها إلى المرتب الذى تتقاضاه ، لعكفت فى بيتها تعنى بنفسها ، فزوجها قادر على سد حاجاتها ، ولكن من ذا الذى يعاون أهلهاعلى مواجهة الحياة ، فهم فى أشد الحاجة إلى مرتبها الذى تبعث به إليهم فى أول كل شهر ، إنها تكد وتتعب من أجلهم ، ولولاهم لتمددت فى فراشها هانئة.

وعادت إلى البيت والشمس غاربة ، ودخلت إلى غرفتها وارتمت على سريرها تلتقط أنفاسها ، تحس مطارق تدق ظهرها ، فراحت تتلوى من الألم ، وتئن وهى تقبض الوسادة بيديها ، وتعصرها ، وتصرف أنيابها .

ورجع سعيد إلى الدار ، وما تقدم خطوات حتى مس أذنيه أنينها الخافت ، فاضطرب ، وأسرع إليها ملهوفا ، ومال عليها يسألها :

ـ ماذا بك ؟

فقالت فى صوت خافت :

ـ أحس ألما فى ظهرى .

راح يفحص عنها ، فإذا بالدماء تتدفق منها ، فقال لها :

ـ استلقى على ظهرك ، ولا تتحركى .

وأسرع إلى الصيدلية يهرول ، وعاد يحمل بعض الأدوية ، وجرعها ملعقة من هذا ، وملعقة من ذاك ، وحاول وقف النزيف ، ولكن هيهات ! فقد أجهضها التعب .

واستمر فى تمريضها أياما ، حتى استردت صحتها ، وعادت إلى المدرسة تستأنف كفاحها ، ولم يعد لها تورد خديها ، كانت ذابلة تحس آلاما فى معدتها ، ولكنها كانت تكتم عنه أوجاعها ، لم تكن تحب أن تكدر صفوه ، أو تسبب له

آلاما .

ودخل عليها ، فألفاها تتلوى ، وقد وضعت يديها تحت صدرها ، فأسرع إليها يلف ذراعه حولها ويقول :

ـ أتحسين تعبا ؟

ـ أشعر بآلام فى المعدة .

ـ غدا نذهب إلى المستشفى ، لأفحص عما بك بالأشعة .

وذهبا إلى المستشفى ، ودلفا إلى غرفة الأشعة ، وأسدلت الستائر السود ، وجلست تعض عل شفتها السفلى من الألم ،

ـ أريد صورة للمعدة .

وانهمك الرجل فى عمله ، وسعيد يرنو إليها ويبتسم ، ويحاول تشجيعها ، وإن كان فى قرة نفسه يتألم لألمها .

وانتهى كل شىء ، وقدمت الصورة إليه ، فراح يدرسها فى امعان ، فإذا به يجد انسدادا فى المعدة ، وتضخما فى طرفها الأيمن ، والتفت إليها ، فألفاها تحدق فيه فى اهتمام ، فقال لها مطمئنا :

ـ تعب بسيط فى المعدة .

وانصرفا إلى الدار ، والتفتت فى الغرفة ، فألفت التراب متراكما على الأثاث ، فأسرعت لتنظيف الغرفة ، وتعيد ترتيبها ، فقال لها :

ـ دعى هذا الآن ، إن أى مجهود تبذلينه يضرك .

فقالت مهزومة :

ـ ماذ يقول الناس عنى إذا رأوا شقتى هكذا ؟

فقال لها وهو يلف ذراعه حولها :

ـ لاتهتمى بكلام الناس .

وذهب بها إلى الفراش ، وساعدها على أن تتمدد فيه ، وهو يرنو إليها فى وله ، يحس نحوها حبا جارفا .

وتقضت الأيام ، وهو يرعاها ، ويبذل غاية جهده ليخفف عنها ، ولكن

كانت آلام المعدة تزيد ، وألفاها تضج من الألم وتضغط أسنانها فأحس كأن خنجرا يمزق قلبه ، فأسرع يغسل لها معدتها .

ووضع الخرطوم فى فمها ، فخرج طعام متعفن ، وأخذ يفحص عن معدتها فى اهتمام ، ففطن إلى وجود ورم بها ، فانداحت الرهبة فى جوفه ، وراح يجاهد، حتى لاينم وجهه عما يعتمل فى أعماقه ، كان الحزن يستبد به وسألته :

ــ ماذا وجدت ؟

فقال فى هدوء :

ــ تعب بسيط .

وأدار لها ظهره ، وابتعد عنها ، حتى لا ترى الأسى الذى كسا وجهه ، والحزن الذى يشع من عينيه ، وإذا بصوت بشع يوسوس فى أعماقه كفحيح الأفعى : « سرطان .. سرطان » فيحس يدا عاتية تعصر قلبه ، وحزنا طاغيا يكاد يعصف به .

ـ ١٧٢ ـ

تأهب خالد لاستقبال المدير ، كانت محطة الدخيلة الجوية تبدو كعروس ، الجنود والضباط يغدون ويروحون فى ثياب الطيران الشتوية ، والأزرار النحاسية الصفراء تتألق ، والأحذية تلمع . والنظافة بادية للعيون .

وجاء المدير بقامته الطويلة الفارعة ، يحف به رجال مكتبه ، فكان بينهم « كجليفر فى أرض الأقزام » وخف خالد إليه يحييه ، ثم سار معه إلى نادى الضباط ، فقد جاء المدير يفتتحه .

وحول المائدة دار الحديث ، قال خالد للمدير :

ــ فى الصحراء الغربية قنابل ألمانية مبعثرة ، وأرى أن يسمح لى سعادة الباشا بجمعها وتخزينها فى السلاح فقد نحتاج إليها يوما .

فتوقف المدير عن تناول ما كان فى يده ، وقال لخالد :

ــ هذه مسئولية خطيرة ، أرجو منك ألا تتحدث فى هذا الموضوع مرة ثانية .

وانتهى الحفل البسيط ، ومر شهران ، ودخلت مصر حرب فلسطين دون أن تتأهب أو تستعد لخوض معارك حقيقية ، كانت تحسب أنها ستحارب شرذمة من اليهود ، وماحسبت حساب إنجلترا وأمريكا ، فلما اشتبكت فى القتال ، تكشفت النيات ، أمسكت إنجلترا يدها عن أن تمد حليفتها بالسلاح ، وراح تشد أزر اليهود سرا ، وأمدتهم أمريكا بالمعونة جهرا ، فكان على مصر أن تعتمد على مواردها المحدودة فى هذه الحرب .

وراح السلاح الجوى المصرى يشن على الأعداء غارات متواصلة ، كان يبذل مجهود الجبابرة ، ولكن القنابل التى كان يلقيها على الأعداء قنابل صغيرة ، لاتخلف إلا آثارا تدل على أن الطائرات المصرية مرت من هنا .

ودق جرس التليفون فى مكتب خالد ، وإذا بالمدير يحادثه :

ــ أتذكر حديث القنابل الألمانية يوم افتتاح نادى الضباط ، إننا فى أشد الحاجة إلى هذه القنابل ، فقم من فورك لجمعها ، وقد أرسلت إليك سيارات كثيرة إلى الصحراء .

وراح خالد يعد الترتيبات . أرسل فى استدعاء مهندس خبير فى القنابل ، وأمر بتجهيز الطائرة « الأنسون » ولما انتهى كل شىء ، دلف إلى الطائرة ، وأغلقت أبوابها ، وراحت تدرج على أرض المطار ثم حلقت فى الجو منطلقة إلى الصحراء الغربية .

وهبطت الطائرة بمرسى مطروح وذهب خالد ومن معه إلى سيدى برانى ، ولحقت السيارات به هناك ، وكان الهدوء قد سيطر على الصحراء ، وأرخى الليل ستائر الظلام ، فذهب خالد والرجال الذين معه يبيتون ليلتهم .

وفى عماية الصبح انطلقت القافلة إلى سيدى برانى ، فكانت تبدو كظلال انعكست على السماء ، التى راح النور ينتشر فيها رويدا رويدا فبدت كرقعة زرقاء أريق فوقها فضة ، وبلغ الرجال مكانا رصت فيه قنابل فى أكوام ، وقد انتشرت فى الصحراء ، فخفقت القلوب فى الصدور رهبة ، وتقدم خالد ينظر ، ثم التفت

إلى المهندس الذى جاء معه وقال :

ـ القنابل مجهزة بجهاز التفجير .

فهز المهندس رأسه ، ولم يتكلم ، فقال خالد :

ـ أتظن من الخطر حملها وجهاز التفجير فيها ؟

فقال المهندس فى حيرة :

ـ والله لا أدرى .

وصمت الجميع ، ولاح الخوف فى الوجوه ، ومرقت فى رأس خالد فكرة كالبرق ، هذه القنابل تأخذ شحنتها الكهربية من الجو فى أثناء هبوطها ، فيعمل جهاز التفجير فوجودها هكذا مرصوصة دليل على أنها مخزنة لم تسقط من الطائرات .

إنه يستطيع نقلها فى هدوء دون أن يخشى انفجارها .

ورمى ببصره فى الصحراء ، فعز عليه أن يمنعه خوفه من التقدم لحمل هذه القنابل ، وجيشه يفتقر إليها ، لن يعود من هنا إلا وقد حملها ، أوتتناثر هو ومن معه أشلاء .

ونادى بعض الجنود وقال :

ـ تقدموا معى .

فقال المهندس له فى صوت متهدج :

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ سنحمل القنابل فى العربات .

وكتمت الأنفاس ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، كانوا يسيرون على البارود ، إذا انفجرت قنبلة واحدة ، فجرت قنابل الصحراء المتناثرة ، فتطايروا وصاروا رمادا تذروه الرياح .

ومال مع الرجال يحمل معهم أول قنبلة ، فتفصد العرق من الجباه ، ولو أن البرد كان قارسا يجمد الأطراف ، رفعت القنبلة بينهم فى حرص شديد ، وهو يهمس فى صوت واهن ينبعث من أعماقه مرتجفا :

ـ حاذروا .

ومشوا حذرين ، كانوا يحتضنون الموت ، فساروا وقد أرهفت حواسهم ، حتى إذا بلغوا السيارة رفعواالقنبلة بينهم ووضعوها فيها ، ثم راحوا جميعا يزفرون فى حدة ، كأنما ينفثون الذعر الذى ضاقت به صدورهم .

أحسوا بعض الاطمئنان بعد أن نقلوا أول قنبلة دون أن تنفجر ، فقسموا أنفسهم فرقا ، ووكل لكل فرقة تحميل عربة ، وترادفت الساعات ، وهم غارقون فى العمل ، وبدأت الشمس فى الانحدار ، وقد رصت القنابل فى السيارات الكبيرة ، وتحركت القافلة تحمل شحنتها فى طريق عودتها ، وعاد خالد إلى مرسى مطروح ، وفى الفجر خف والذين معه إلى الطائرة ، فلما حلقت فى الجو ، نظر خالد فرأى قطار السيارات يشق الصحراء ، فغمره السرور ، فالقنابل الثقيلة التى تفتقر إليها القوات الجوية ، فى طريقها إلى المطارات المصرية لتلقى على « رحابوت » و « المجدل » و « تل أبيب » .

ـ ١٧٣ ـ

دب اليأس فى قلب سعيد ، ولكن أيسلم ليأسه ، أيدع روجية فريسة مرضها، إنه يحبها غاية الحب ، فهى روحه وهى حياته ، فكيف يركن إلى اليأس ويخون عقيدته ، إنه يؤمن أن لامستحيل على وجه الأرض ، لو كافح ذلك المرض فسيهزمه وينتصر عليه ، وينتزع من المجهول سعادته ، إنه يبنى مستقبله بيده ، فلن يسمح لأية قوة أن تنقض ما بنى ، أو تزعزع عقيدته .

وقر رأيه أن يحارب مرضها ، وأن يفعل ما فى طاقة البشر لإنقاذها ، حتى تسير معه فى الطريق الذى رسمه لمستقبله ، علمته الطموح ، وملأت نفسه ثقة ، فلن يتخلى عنها أبدا ، ولن يسمح لها أن تتخلف ، سيبث فيها روحا قويا قهارا ، يزلزل ذلك المرض الذى تدسس فى أحشائها .

ودخل عليها ، وهى راقدة فى فراشها ، فبش فى وجهها وقال لها :

ـ ستسافرين غدا إلى القاهرة ، وتنتظريننى حتى أنهى عملى هنا وألحق بك ، سأدخلك مستشفى هناك ، فأنت فى حاجة إلى عملية جراحية بسيطة ، لتتخلصى من الآلام التى تنتابك كل ساعة .

فقالت له فى صوت ضعيف :

ـ لابد من العملية ؟

ـ عملية بسيطة لابد من إجرائها .

وصدقته ، كانت تثق فيه كل الثقة ، فقالت فى استسلام :

ـ افعل ما ترى .

وراح يحدثها حديث الأمل ، يروى لها ما يراه بعينه النفاذة من حجب المستقبل ، ويقص عليها أقاصيص الوهم فى حرارة وثقة ، فتتجسم أمامها ، حتى لتكاد تلمسها ، ويحلق خيالها ، فتنسى فى غمرة النشوة آلامها .

وسجا الليل ، ونام الكون ، ورنق الوسن أعينهما ، فغابا عن آمالهما وآلامهما ، لايحسان مرور الزمن ، فلما بعثت الشمس أشعتها ، تغمر الدنيا بالنور ، هبا من رقادهما ، وطفقا يتأهبان للخروج .

وسمع سعيد طرقا على الباب ، فذهب يفتح ، فألفى جلالا جاء لزيارتهما ، فرحب به ، وقال له :

ـ تعال معى نوصل روحية إلى المحطة .

فقال جلال :

ـ أمسافرة اليوم ؟ لماذا ؟

ـ سأدخلها المستشفى .

ـ أتسافر معها ؟

ـ سألحق بها بعد أيام ، ولن نعود إلا بعد أن أنتهى من تأدية الامتحان .

وخرجوا ، وذهبوا إلى المحطة ، ووقف سعيد يحادث روحية ، قال لها :

ـ سألحق بك ، وسآخذك إلى الدكتور مورو ، إنه أستاذنا ، سيعنى بك ولا ريب ، إنها عملية بسيطة ، ولا بد من إجرائها .

وتحرك القطار ، وأخذ يلوح لها بيده ، وهو يغتصب ابتسامة ولكن ما إن اختفت عن عينيه ، حتى رف الحزن على وجهه ، وطفرت دموعه من مقلتيه ، فنظر جلال إليه فى دهش . لم يره يبكى قبل الآن أبدا ، فقال له وهو ينظر إليه بعينين واسعتين :

ـ أتبكى ؟!

فقال سعيد فى حزن وقد طأطأ رأسه :

ـ إنها روحى وأخاف أن تموت .

ـ ١٧٤ ـ

ذهب يحيى إلى السينما فوجد صورة كبيرة لفتحية على واجهتها كانت فى ثياب الرقص ، تبتسم فتنفرج شفتاها عن أسنان كأنها اللؤلؤ ، يشع من عينيها بريق آسر يجذب القلوب ، وقد رفعت بيدها ثوب الرقص ، فظهرت ساقاها الملفوفتان فى انسجام بديع ، فهفت نفسه إليها ، ودلف إلى السينما وفى صدره حرارة ، وفى رأسه أفكار .

وجلس فى مقعده ، يتابع المشاهد فى هدوء ، فلما بدأت الرواية ، ولاحت فتحية لعينيه إذا بالأفكار تتوافد على رأسه ، فيشغل بالرواية التى تمثل فى خياله عن الرواية التى تجرى حوادثها على الشاشة ، كانت قصة خياله أروع فى نفسه من الأشباح المتحركة أمامه فى تكلف مقيت .

رأى نفسه فى الصالة مع رفاقه ، وفتحية تقبل عليه بشة ، تحييه فى ترحيب ، ثم ترسل إليه الحلوى والفاكهة اللذيذة ، فينعم بالسهرة والأكلة ، دون أن ينفق مليما ، وهل كان معه ماينفقه ؟!

ورأى نفسه فى المدرسة ، والناظر يرسل إليه ، فحين يمثل بين يديه ، يأخذ فى تأنيبه ، لأن فتاة بعثت له برسالة غرام إلى المدرسة ، ثم يهدده بأنه سيبلغ الأمر لأبيه ، فيقول له إن أحد أصدقائه أراد أن يعابثه ، ففعل هذه الفعلة ،

ويأخذ الرسالة من الناظر ، ويقرؤها ، ويعلم منها أن فتحية عادت إلى الإسكندرية وأنها تنتظره ، فيذهب إليها ، وهويشكر الناظر من أعماقه على تطوعه ليكون الرسول بينهما .

أكان يصدق فى ذلك الوقت أن فتحية التى كانت تهتم بمراسلته يوم كان طالبا فى المدارس الثانوية ، ستصبح ذات يوم نجما من نجوم السينما ، وحظية الملك ؟ أكانت فتحية نفسها تحلم بذلك ، كانت غاية أمنيتها أن ترى صورتها فى صحيفة أومجلة وقد كتبت تحتها كلمة تقريظ دفعت ثمنها جنيهات أو ليلة .

– ١٧٥ –

دخل سعيد وروحية على الدكتور مورو ، وراح الدكتور سعيد يشرح لأستاذه الكبير ما اهتدى إليه لما فحص عن زوجه وقدم رسم الأشعة ، فنظر إليه الدكتور الكبير فى إمعان ، وجعلا يتحدثان ، كلمة عربية ، وكلمات إنجليزية ، فلم تفهم روحية ممايدور بينهما شيئا .

وقامت روحية ، وتمددت على سرير مرتفع ، وأخذ الدكتور مورو يفحص عنها ، وسعيد يحدق فى وجهه ، يحاول أن يستشف منه أثر الفحص فى نفسه ، ومرت دقائق والدكتور فى عمله ، ثم رفع رأسه ، وبدأت روحية تصلح هندامها .

قال الدكتور مورو :

– عندها ورم فى المعدة ، وانسداد فى طرفها الأيمن .

فقال سعيد باللغة الإنجليزية ، وقلبه يخفق رهبة :

– ألم تجد أثرا للسرطان .

فهز الدكتور مورو رأسه ، وقال فى تأكيد :

– أبدا .

وأشرق وجه سعيد ، وأطمأن قلبه ، وإن كان فى أغوار نفسه صوت يجزم أنها مريضة بالسرطان ، ولكنه وأد ذلك الصوت ، وانصرف منشرحا ، يبث فى

روحية الاطمئنان ، ويؤكد لها أن العملية التى ستجرى لها بسيطة ، لاتستحق اهتماما .

ودخلت روحية المستشفى ، وأجريت لها العملية ، فتح الدكتور فى معدتها فتحة جديدة ، ينصرف منها الطعام إلى أمعائها ، وحملت إلى غرفتها وهى نفس يتردد .

وراح سعيد يزورها فى الصباح وفى المساء ، واضطر يوما إلى السفر إلى الإسكندرية ، فسافر ، ولكنه لم يطق البعد عنها ، فما أشرقت شمس اليوم التالى حتى عاد إلى القاهرة ليراها .

تململت روحية فى فراشها ، وجعلت تئن وتتوجع ، كانت تحس آلاما ، ولكن ما إن لمحته يدلف إلى غرفتها ، حتى تهللت أساريرها ، ورفت على فمها بسمة ترحيب ، فانطلق إليها بشا ، وأخذ بيدها بين يديه ، وقال فى حنان دافق :

– كيف أنت الآن ؟

فقالت له وهى مشرقة النفس :

– حالى عجب ، كنت أحس آلاما مبرحة قبل أن تدخل على ، أما الآن فقد ذهبت أوجاعى .

– صحتك جيدة .

– تعبت بعد سفرك ، وماعادت الصحة إلى إلا بعد عودتك . إن المرض يخاف منك ، يهرب كلما حضرت .

فقال لها فى انشراح .

– سيهرب إلى الأبد ، لأنى سأكون إلى جوارك على الدوام ، صرح الطبيب بخروجك .

– ومتى نخرج ؟

– غدا .

فأشارت له بأصبعها أن يدنى وجهه ، فلما فعل قبلته فى حنان .

وخرجت روحية من المستشفى ، ومكثت فى بيت أهلها ، أمام قصر العينى،

تستجم وتنتظر حتى ينتهى سعيد من الامتحان .

ومرت الأيام ، وأعلنت النتيجة ، فكان سعيد من الراسبين ، فخفت إليه تواسيه وتحوطه برعايتها ، على الرغم من أنها كانت فى حاجة إلى من يرعاها .

وركبا سيارة ، وانطلقا فى الطريق الصحراوى إلى عشهما ، فمالت عليه وقالت له :

ـ إذا كنت قد أخفقت هذه المرة ، فستنجح فى المرة القادمة .

فقال فى أسى :

ـ أخفقت مرتين .

ـ وستحاول للمرة الثالثة .

فضمها إليه فى حنان وقال :

ـ يكفينى سعادة أنك إلى جوارى .

واستأنف الدكتورعمله فى العيادة . فإذا ماانتهى منه عاد إلى عشه الجميل، ينعم بالساعات العذبة التى يقضيها مع روحية ، وفطنت روحية إلى إعراضه عن الاستذكار ، فساءها أن يستسلم ليأسه ، هو الذى عاش مكافحا ، لم يقر يوما بهزيمته ، فقالت له :

ـ لماذا لاتدخل مكتبك ؟ لماذا هجرت كتبك ؟ ألأنك أخفقت مرتين .. لابد أن تحاول مرة ثالثة ، هل أعرضت عن آمالك لأنك أخفقت ؟ أين مستقبلك الذى تراه واضحا أوضح من النهار ؟ لا بد أن تعاود محاولتك ، فلن أجلك قبل أن تنال الشهادة التى تصبو إليها .

فقال وهو مطرق :

ـ أفكر فى السفر إلى إنجلترا .

فقالت له مشجعة

ـ سافر .

ـ وأنت ؟

ـ أعيش من مرتبى ، وانتظرك .

فقال فى وهن :

ـ صعب على أن أغادر سعادتى ، إننا ما نكاد نلتقى حتى نفترق .

فقالت له فى إيمان :

ـ لا تدع الضعف يتدسس إلى نفسك ، سافر.. سنفترق سنين ، ثم نلتقى لقاء لا فراق بعده .

فقال وهويضمها إليه :

ـ سأسافر ، وسنتضافر لنبنى مستقبلنا بأيدينا .

وشرد بصره لحظة ثم قال :

ـ لو كنت أملك مايكفينا أنا وأنت فى إنجلترا ، ماتركتك لحظة .

ـ ١٧٦ ـ

أغلق سعيد العيادة ، وأخذ يعد العدة للسفر ، كانت روحية تحدثه كل ليلة عن أثر نجاحه فى نفسها ، حتى خيل إليه أن حصوله على الشهادة التى يصبو إليهاأصبحت أمنيتها لا أمنيته وأنه سيسافر ليحقق لها حلمها .

وجاءت الليلة التى سيسافر فى صبيحتها ، فاجتمع إخوته عنده يودعونه قبل السفر ، والتفت زكريا إلى روحية وقال لها :

ـ ستعيشين فى بيتى إلى أن يعود .

فقالت فى صوت رقيق :

ـ سألتحق بالداخلية ، وأعيش فى المدرسة .

فقال زكريا فى صدق :

ـ هذا لن يكون . بيتى بيتك حتى يعود .

فأطرقت وقالت فى صوت خافت :

ـ شكرا لك .

فالتفت زكريا إلى أخيه وقال :

ـ أيذن لها يا سعيد أن تعيش معنا .

وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ، أحست أنها أصبحت عبئا ، وأنها لو قبلت النزول عند زكريا فستثقل عليه وعلى زوجه ، ولما كانت حساسة ، شديدة الحس ، استشعرت ضيقا ، وعزمت على ألا تقبل هذه الضيافة ، ورنا سعيد إليها، ففطن إلى ماتكابد ، فلم يشأ أن يرغمها على شيء يضايقها ، فقال لأخيه :

ـ أنا أعرفها أكثر منك ، دعها تعش فى الداخلية ، كماتحب ، على أن تمضى أيام الإجازة عندك .

وصمتت على مضض ، لم يكن أمامها إلا أن تقبل هذا ، وإلا فأين ستمضى أيام الإجازات وبينها وبين أهلها سفر ، إنها على يقين أن زكريا يرحب بها، ويسره أن يضيفها ، ولكنها تضيق بنفسها ،ولاتطيق أن تصبح عبئا على أحد .

وذهب سعيد يرتب آخر حقيبة من حقائبه ، فرأى صورتها ، وهى ترنو إليه بعينيها اللتين تحدثانه وحده ، فتناولها وأدام النظر إليها برهة خافق القلب ، ثم دسها بين الثياب فى حرص ، وشرد ذهنه ، فانتشر فى صدره حب وحنان .

وأصبح الصبح ، فذهب سعيد وإخوته وروحية وصديقه ضابط البوليس ، الذى لا يفارقه أبدا فى ساعات فراغه وصعدوا معه إلى الباخرة يحدثونه ، فالتفت إلى روحية وقال لها :

ـ لن أنساك لحظة ، سأعيش أفكر فيك .

فقالت له فى صوت متهدج :

ـ سأحيا على أمل أن تعود إلى وقد نلت الشهادة ، ثم نسير معا إلى مستقبلنا المشرق ، الذى تبنيه بيدك .

وأطلقت صفارة الباخرة ، فعانقه إخوته ، وارتمت روحية فى أحضانه تودعه، وقد جاشت مشاعرها ، وطفرت الدموع من مآقيها وراحت تغمغم فى صوت تخنقه عبراتها :

ـ مع السلامة .. مع السلامة !

وهبطوا إلى الميناء ، ورفع السلم ، وابتدأت الباخرة تبتعد عن الشاطىء رويدا رويدا ، وسعيد يلوح لهم بمنديله ، وقد تعلقت عيونهم به ، وأحست روحية غصة فى حلقها ، وانقبض صدرها ، وأخذ قلبها ينز أسى وحزنا ، حتى إذا ماابتلع الأفق الباخرة راحت تبكى أحر البكاء .

ـ ١٧٧ ـ

قام جلال فى البكرة ، وقد ارتدى ثيابا خفيفة ، وذهب إلى المحطة ، واستقل القطار ، فلما بلغ غايته ، هبط منه ، فألفى سيارة حكومية تنتظره ، فركبها فانطلقت فى قفار مترامية، لا يبلغ البصر مداها ، وراحت السيارة تطوى الفيافى، والزمن يمر ، والطريق لا ينتهى ، والرياح تزمجر ، والبرد الشديد يمرق كالسهم فى جسمه فيرتجف ، ونال منه التعب ، ولم يتململ ، ولم تراوده فكرة أن يراه الناس وهو فى كده هذا ، ليقدروا عمله ، ويتحدثوا فى إعجاب عن الجهود المضنية التى يبذلها ، فقد زُهد فى اهتمام الناس به وبأعماله ، ولم تعد النظرات التى توجه إليه ترضى غروره ، فياطالما تعلقت به العيون ، وأرهفت الآذان للكلمات التى ينطق بها فى هدوء وثقة .

ولاحت البحيرة على مدى البصركالمرآة ألقيت فى الفلاة ، وأخذت تنداح حتى ملأت الأفق كله ، وظهرت مراكب الصيد تشق عباب الماء ، والريح تزأر مزمجرة ، فيتجعد لها وجه البحيرة ، والسيارة فى هبوط وصعود ، تنطلق كالسهم يئز فى الفضاء ، حتى إذا بلغت البحيرة ، انحرفت يمينا ، وانسابت فى حذاء الشاطىء وقد غاصت عجلتان فى اللجة ، ودرجت عجلتان على الرمال ، وجلال يدور ببصره فى الفضاء ، ينتفض من البرد كالعصفور ، وهوصامت ذاهل ، فما دار بخلده أنه سيقضى فى الطريق كل هذه الساعات الطوال .

ولمح على البعد أشباحا ، أخذت تتضح لعينيه فإذا بها رجال وجمال ، وجنود وضباط ، فزفر فى راحة ، فقد بلغ المكان بعد أن تخدر جسمه ، ومشى فيه الوصب . ووقف السيارة ، فهبط منها ، وراح يشد أعصابه ، وخف إليه الضباط يحيونه ، فلم ينعش ذلك حواسه ، ولم يشبع غروره ، ولم يستشعر زهوا ، بل انطلق إلى حيث كانت إطارات السيارة مكدسة فى الصحراء وجعل يطوف حولها، ومد يده يجذب إطارا ، فامتدت أكثرمن يد ، وقدمت إليه الإطار ، ومال ينظر ، فإذا بفارغه قد ملىء بشىء ملفوف ، فى أشرطة من الكتان ، فى حرص وعناية .

وانتزعت اللفافة ، وفكت الأشرط ، فملأت خياشيمه رائحة عرفها ، ونظر إلى المادة الصدئة ، فهز رأسه عجبا ، ثم أدار عينيه فى الإطارات المكدس بعضها فوق بعض ، فأذهلته كمية الحشيش الهائلة التى كانت فى طريقها إلى القصور العامرة ، والأكواخ الحقيرة ، ليحرقها الفارغون من السادة والعبيد .

وبدأ عشرات من الضباط يصدعون بأوامره ، ويعملون تحت بصره ، واقتيد إليه عشرات من المهربين ، ممن وقعوا فى الكمين ، وتقضت ساعات وهو فى عمل متصل مستمر ، فى الصحراء المقفرة ، والبرد الزمهرير ، دون أن يتأفف أو يتذمر، بل كان يستشعر سعادة ، فقد صار يجد فى عمله لذة ، تفوق تلك اللذة التى كان يحسها كلما سددت إليه نظرات الإعجاب ، التى كانت حلمه وغاية أمانيه .

وانتهى من عمله ، وعاد يقطع الفيافى والقفار وهو مهموم ، ودلف إلى الدار، ورقد فى سريره أياما ، وبلغه أن وزير الداخلية أرسل كتاب شكر إلى مصلحة الحدود ، ولم يشر إلى المجهود الجبار الذى بذله من قريب أو بعيد ، فلم يكترث ، ولم ينقبض صدره ، علمته الأيام أن عطف الناس وتقديرهم وإعجابهم كالعملة الزائفة ، أو كالحبب على سطح الكأس سرعان ماينمحى .

— ١٧٨ —

فى سكون الليل ، دلفت روحية إلى غرفتها الداخلية ، وأغلقت الباب خلفها، وجلست إلى النضد المتواضع القريب من سريرها ، وراحت تكتب رسالة لزوجها ، تبثه لواعج النفس ، وذوب القلوب وتنفخ فيه الأمل ، كانت وهى مكبة على القرطاس ، غائبة عن كل ما حولها إلا عنه أشبه بطالبة عاشقة ، تختلس لحظات الصفو لتناجى حبيبها .

كانت اللحظات التى تتسلم فيها رسالة منه ، واللحظات التى تسطر له فيها ما يعتمل فى جوفها من مشاعر الجوى ، وإحساسات الهوى ، هى اللحظات المسحورة التى تختلسها من حياتها ، فهى تعيش فى المدرسة متقشفة وفى بيت زكريا محرومة ما تشتهى نفسها ، كانت رقة إحساسها تضايقها ، فما كانت بقادرة أن تطلب شيئا ، وإن أحست حاجتها إليه ، أو تفعل شيئا خشية أن تثقل على زكريا وزوجه .

كان زكريا يرعاها ، ويتمنى أن يلبى لها إشاراتها ، وزوجه تحوطها بعنايتها ، فكانت هذه الرعاية تزيد إحساسها توهجا ، فتتمنى صادقة أن تنقضى أيام الإجازات ، لتعود إلى مدرستها ،

كانت تعيش فى رسائله ، وعلى أمل أن يعود إليها يوما ، وقد حقق حلمه ، فنال الشهادة التى يكدح فى سبيلها ، ثم ينطلقان معا فى طريق السعادة ، طريق المستقبل البسام الذى ينتظرهما .

وتسلمت منه رسالة ، فخفق قلبها ، وذهبت إلى حجرتها ، وفضتها وراحت تقرؤها وقد جلست على حرف سريرها ، وقد أفعمت بالغبطة ، وغمرتهاالنشوة ، وانبثقت فى جوفها مشاعر الحنان واللهفة :

عزيزتى روحية :

ـ أكتب إليك هذه الرسالة ، والفرح يهزنى ، والسرور يملأ جوانحى ، فأتلفت حولى ، فلا أجد إلا صورتك ، فأرفعها إلى فمى ، أمطرها قبلاتى ، ثم أضمها إلى صدرى ، أسمعها دقات قلبى .

إننى عائد الآن يا روحية من الكلية ، بعد أن أعلنت نتيجة الامتحان ، وكنت من الناجحين فى الابتدائى ، ياطالما نجحت قبل هذه المرة ، ولكن أصدقك القول لم أسر كما سررت بهذا النجاح ، حتى ليخيل إلى أن الكون يشاركنى فى سرورى ، فالشمس ساطعة ، وقد أخبرتك فى رسالتى الماضية ما يدخله سطوع الشمس هنا فى إنجلترا من بهجة على القلوب ، والأزهار متفتحة ، والهواء يهب دافئا ، فيتعاون مع الأمل الدفىء فى صدرى على إنعاش روحى .

إننى سعيد يا روحية ، لأننى خطوت خطوة فى سبيل أملنا ، وحققت جزءا من حلمنا ، وقصرت المسافة الفاصلة بين لقائنا ، إن هى إلا شهور من الصبر والكفاح، ثم نجنى الثمرة المرجوة ، وأعود إليك مرفوع الرأس ، نستأنف حياتنا وقد استحققت إجلالك وحبك .

اكتبى إلى ياروحية كثيرا ، وحدثينى عن كل شىء ، فإننى فى حاجة إلى همسك ، وإلى مناجاتك ، وإلى حديث نفسك . اكتبى إلى ، فرسائلك غذاء روحى، وأنيسى فى وحدتى ، فقد جاءت الإجازة الطويلة ، وأحب أن أعيش خلالها معك ، أحدثك وأصغى إلى حديثك .

سلامى إلى سنية ، وإلى زكريا وزوجه وإلى إخوتى ، وإليك قبلاتى وأشواقى.

« سعيد »

وطوت الرسالة ، وشرد بصرها ، تنعم بالإحساسات العذبة النابعة من أغوارها، فانشرح صدرها ، وتهللت أساريرها ، وأحست حنانا يدفعها إلى مناجاته ، فقامت إلى النضد تكتب له ، وتسكب على القرطاس نبضات قلبها ،

وتستلهم فرحها ، فانسابت الأمانى ، فإذا برسالتها عامرة بالرقة ، نابضة بالحنان، شفافة تنم عن روحها الهفهافة .

ـ ١٨٩ ـ

تأهبت البلاد لخوض معركة انتخابية جديدة ، وأعاد الأستاذ زكريا ترشيح نفسه ، وشرع يطوف بدائرته ، كان واثقا من التفاف الناس حوله ، فقد كرس كل وقته لتحسين أحوال ناخبيه ، أسس لهم مستشفى ، وأرغم الحكومة على إنشاء أكثر من مدرسة ، ووضع نصب عينيه مصالح الطبقة الفقيرة ، فكان مطمئنا إلى فوزه بثقتهم .

وفى ذات ليلة وهو يتأهب للخروج للطواف فى الدائرة ، جاء وفد من أصدقائه إلى مكتبه ، وطلبوا مقابلته ، فلما دخلواعليه ، قال أحدهم :

ـ أترشح نفسك على مبدأ الحزب السعدى ؟

فنظر إليه فى دهش وقال :

ـ أتريدنى أن أتخلى عن مبدئى ؟

وإذا بصوت يقول :

ـ إذا تمسكت بسعديتك فلن تفوز .

ـ لماذا ؟

ـ الشعب كله ناقم على السعديين ، اسمع نصيحتى ورشح نفسك مستقلا ، إذا لم تنضم للوفديين .

ـ وما سبب كل هذه النقمة ؟ لأن إبراهيم عبد الهادى اعتقل الإرهابيين ؟ ماذا كان يفعل بعد أن أفزعت الناس موجة القتل والإرهاب .

فقال شاب فى حماسة :

ـ كان يضرب على أيدى المفسدين بيد من حديد ، دون أن يترك الشعب كله فريسة لرجال القلم السياسى الجلادين ، ماذا فعل الإخوان المسلمون ليضطهدهم ،

وينكل بأقاربهم وذويهم ، لا لشيء إلا لأنهم أقارب لأناس ساقهم سوء الطالع فى طريق القلم السياسى .

إننى أذكر إننا قمنا يوما على أصوات سيارات وجلبة وضوضاء فى الحارة، فذهبت أنظر ، فرأيت رجال البوليس قد أحاطوا ببيت زعيم من زعماء الإخوان ، فهرعت إلى الحارة ، أتنسم الأخبار ، فعلمت أن أمراعسكريا صدر بإلقاء القبض على حسام الدين ابن الزعيم ، فقد وجد اسمه ضمن كشوف المشتركين فى الشعبة « حسام الدين » اسم رنان ينخلع له قلوب رجال القلم السياسى ، فما بالك إذا كان اسم لابن زعيم من الإرهابيين ، واقتحموا الدار يطلبون تسليم الإرهابى الخطير ، وإذا بحسام الدين يخرج لهم ، يبش فى وجوههم ، حسب أنهم جاءوا يداعبونه ، فقد كان طفلا فى الثالثة من عمره .

لماذا أصدر الباشا أوامره بوقف صرف مرتبات المعتقلين من موظفى الحكومة ؟ من أين يأكل أبناؤهم وأزواجهم وذووهم ؟ أكان يريد أن تبيع الحرائر أنفسهن فى سوق الرقيق ؟

الناس كلهم ضد السعديين ، لا الإخوان المسلمون وحدهم ، ولاالشيوعيون ، سيعطون أصواتهم للشيطان ، ليتخلصوا من العهد البغيض ، عهد الاضطهاد والظلم والتعذيب ، فلك أن تختار بين أن تظل على إخلاصك للسعديين وبين أن تكون نائب هذه الدائرة . وإنه ليشرفنا أن نعيد انتخابك ، إذا ماتخلصت من رجس السعديين .

فثار زكريا قائلا :

ـ حضرتك من الإخوان ؟

فقال الشاب فى حماسة وإيمان :

ـ يشرفنى أن أكون منهم . وأحب أن أقول لك إن هذا ليس رأى الإخوان وحدهم ، بل هو رأى الناس أجمعين :

فقال زكريا فى انفعال :

ـ حضرتك تقول هذا هنا فى مكتبى ، ولكنى قلت هذا القول وأشد منه فى

وجه رئيس السعديين . إننى ثرت يوم وقف صرف مرتبات المعتقلين ، وهددت بالانسحاب من الحزب لكنى لا أستطيع أن أتخلى عن حزبى فى هذه المحنة ، ولو خسرت نيابتى ، إننا أدينا خدمات جليلة لهذا الشعب ، وفرنا له الغذاء ، وأبعدنا عنه شبح الغلاء ، وآثرنا مصلحته على مصلحة الرأسماليين ، وإننا نتقدم إليه ، وهذه مآثرنا ، وله أن يختار .

فقال الشاب فى ثقة :

ـ الشعب يفضل حريته وربط بطنه من الجوع ، على أن يملأ بطنه وهو يرسف فى الأغلال ، مكتوم الأنفاس . أنصحك لوجه الله أن تعلن تبرؤك من السعديين ، وأن ترشح نفسك مستقلا عن الأحزاب .

فقال زكريا محتدا :

ـ أشكر لك نصيحتك .

وانصرف الوفد ، وبقى زكريا يفكر ، لن تكون المعركة هينة هذه المرة ، على الرغم من الخدمات الجليلة التى أداها لدائرته ، ففى يد منافسيه سلاح التشهير وأنه لسلاح ماض قتال ، ومن الذى يصدق أنه كان يثور فى وجه الطغيان، فهو فى نظر الناس سعدى من السعديين ، فعليه أن يستجمع قواه ، وتذكر أن الدكتورسعيد بعيد عنه ، فطافت به موجة من الأسى ، فسعيد محبوب فى الدائرة ، وقد كسب بفضله أصواتا كثيرة فى الانتخابات الماضية ، وقر رأيه على أن يستعين به ، فشرع يكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يحضر من فوره ، ليشد أزره فى الانتخابات .

وسافر زكريا وروحية إلى القاهرة ، جاءت برقية من سعيد أنه فى طريقه إليها بالطائرة ، وذهبا إلى دارخالد ، فقد نقل إلى رياسة القوات الجوية ، واستقل الجميع سيارته ، وانطلقوا إلى مطارفاروق .

اندفعت السيارة فى الطريق ، وقد غابت الشمس وراء السحب وأخذت الرياح تزمجر فى صحراء ألماظة ، وراح زكريا وخالد يتجاذبان أطراف الحديث ، وأطرقت روحية شاردة اللب ، كانت تفكر فى التلاقى خافقة القلب ، تستشعر حنانا

ولهفة .

ودلفا من باب المطار ، فلاحت لأعينهم مبانى المراقبة ، فاشتد وجيب قلب روحية ، وسرت رهبة فى جوفها ، وانتشر قلق لذيذ فى صدرها ، كذلك القلق الذى يحسه المحبوب قبل اللقاء .

وهبطوا من السيارة ، ودخلوا مكان الانتظار ، وجلسوا على الأرائك والهواء البارد يلفح الوجوه ، ولكنهم كانوا مشغولين عنه بالحديث الدائر بينهم ، ورن صوت المذياع يعلن اقتراب الطائرة ، فنهضوا وذهبوا إلى حيث يقف الزوار ، ولاحت الطائرة تحلق فى الجو ، فتعلقت عينا روحية بها ، وطفق قلبها يرفرف حولها ، وهبطت بعيدا ، وراحت تدرج على الأرض حتى دنت منهم ، ثم وقفت ، وضع السلم ، وفتح الباب ، فمدت روحية عنقها ، وقلبها فى صدرها يخفق كجناح حمامة .

وتعلقت العيون بالهابطين ، ولمحته وهو يهبط فى الدرج ، فصاحت أصوات فى أغوارها تهتف : « حبيبى .. حبيبى » ولكن شفتيها رددتا فى لهفة :

« سعيد .. سعيد » . وهرع خالد وزكريا إليه ، وطفقوا يتعانقون ، ووقفت روحية على البعد تحس رغبة فى أن تجرى إليه ترتمى فى أحضانه ، ولكن خجلها سمرها فى مكانها ، ولمحها فهتف فى وجد :

ـ روحية !

ثم هرول إليها يعانقها ، وقد غرقت العيون بالدموع ، وأسرع خالد وزكريا ليتسلما حقائبه ، وتركاهما وحيدين ، يتناجيان ويشكوان تباريح الهوى ، ويترنمان بأهازيج الهيام .

ـ ١٨٠ ـ

احتدمت المعركة الانتخابية ، فراح زكريا وخالد وجلال وسعيد ويحيى يطوفون بالدوائر ، يحضون الناس على إعادة انتخاب نائبهم ، الذى مثلهم فى البرلمان ، فرفع صوتهم مجلجلا بعد خفوته ، كان زكريا يعلن للناخبين أنه منهم وبهم ، وأنه فقير مثلهم ، يحس آلامهم ، ويعرف آمالهم ، فهو خير من يمثلهم .

وطفق خالد يتحدث إلى الناس فى حماسة عما أداه زكريا لهم ، ويذكرهم بما فعله من أجلهم ، ويحاول أن يؤلف القلوب حول أخيه ، فكان الناس يبشون فى وجهه ، وماكان أحد يعارضه ، حتى لو كانوا من معارضى زكريا ، كانوا يتقون ثورته وإطلاق لسانه فيهم ، فكان ينصرف وهو يحسب أن الدائرة معهم .

وراح سعيد ، يعالج المرضى وينشر دعايته ، كان كلما مد بصره إلى بقعة فى الدائرة ألفى أثرا ناطقا من آثار زكريا ، فهذه المدرسة النموذجية السامقة، وهذه المدرسة الثانوية ، ومدرسة التجارة المتوسطة هذه ، والمستشفى الذى وسعه ، أضاف إليه أقساما ، كل أولئك شواهد على ما أداه لهم من جليل الخدمات .

وكان إذا انساب فى الليل فى الحارات والشوارع الضيقة التى كانت تغرق فى الظلام الدامس الثقيل ، ألفى النور الكهربى يغمر الطرقات ، ويبدد الظلمات، فتنتشر فى صدره الثقة والاطمئنان .

ورأى الحمامات الشعبية أنشئت هنا وهناك ، وطرقات الأحياء الفقيرة قد رصفت ، ومست يد النظافة الأحياء ، بعد أكوام القمامة والقاذورات ، ووجد مواقف الترام قد خططت فى الشوارع المزدحمة بالسيارات والناس ، بعد أن كانت كبحر متلاطم الأمواج ، فطفق يسأل نفسه فى إنكار ، أيجحد الناس هذه الأعمال؟ أيغلقون عيونهم دونها ؟

وإذا أنكروا كل هذه الفعال ، أينسون أنه ما من بيت من بيوتهم إلاوقد أدى زكريا له خدمة ؟ أينسون أنه ثار لموظفى السكة الحديدية وعمالها حتى رد لهم حقوقهم ، وجل أهل دائرته من موظفى السكة الحديدية وعمالها ؟ أينسون أنه كافح من أجل الصيادين الفقراء ، حتى يرفع القيود المفروضة على الصيد فى المناطق الممنوعة ؟ أينسون أنه طالب بتعويض منكوبى الغارات الجوية وكان بعضهم من ضحايا الغارات ؟ وإذا نسوا كل هذا أينسون موقفه فى البرلمان يوم ثار فى وجه الحكومة ، لأنها تريد أن تعطى ملايين الجنيهات لشركات الغزل إعانة ، وما كانت تلك الشركات فى حاجة إلى عون ، حتى نجح فى إلغاء هذه الإعانة ، التى كانت ستتسرب من ميزانية الدولة إلى جيوب بعض الرأسماليين الأغنياء ؟ أبدا ، إن سعيد لا يصدق أن ينسى أهل الدائرة جلائل الأعمال .

واشتد أوار المنافسة ، زكريا لايملك إلا إيمانه ، والوعود التى يبذلها بينا راح منافسه يجوس خلال الدائرة ، والذهب فى ركابه ، ينثره هنا وهناك يشترى به الأصوات ، وتقضت الأيام والليالى فى دعاية وكفاح ، ومواكب تطوف بالأحياء إثر مواكب ولافتات من القماش شدت وراء لافتات ، ونشرات توزع ، وخطب تلقى ، وأبواق الدعاية تدوى فى كل مكان ، ولاحت تباشير المعركة فى صبيحة يوم الانتخاب ، فإذا باليأس يتسرب إلى قلب زكريا ، أحس أن البوليس قلب له ظهرالمجن ، وانضم جهرا إلى خصمه ، ورأى الأموال تبعثر بغير حساب ، وألفى بعض معارفه يعرضون عنه ، وكاد يستسلم ليأسه ، ولكنه عزم على أن يثبت حتى النهاية .

وتكدست الجموع عند لجان الانتخابات ، واندفع الأميون يدلون بأصواتهم ، فكانوا ينتخبون مرشح الوفد ، وأحس سعيد غيظا ، ولكنه لم يقنط ، كان يظن أن أنصار منافسهم جاءوا فى الصباح ليفتوا فى عضدهم ، ولكن أمواج الناخبين كانت تتدفق ، وإذا بالمرشح الوفدى ينال أصواتا وراء أصوات ، فمشى اليأس إلى قلب سعيد ، ولكنه أبى أن يرفع راية التسليم ، فماكان من طبعه أن يسلم ، وتقدم رجل ما إن رآه سعيد حتى راح يرقبه فى اهتمام فقد سهر إلى جوار ابنه ليالى ،

حتى انتشله من الموت ، وأرهف سمعه ، فإذا بالرجل ينتخب مرشح الوفد ثم يلتفت إلى سعيد ويقول :

ــ آسف يا بنى ، إنها مسألة مبدأ .

وهب سعيد حانقا ، وانطلق ثائرا ، فقد انتهى الأمر ، وسقط زكريا فى الانتخابات ما فى ذلك ريب ، سقط على الرغم من أنه أدى إلى ناخبيه أجل الخدمات ، وبذل جهد الجبابرة ، ثم أرغم على دفع ثمن أخطاء غيره ، فكان شهيدا من شهداء السياسة ! وتلاقى الإخوة فى البيت ، وعلى وجوههم الأسى ، فقال زكريا فى حزن :

ــ لن أرشح نفسى للانتخابات بعد ذلك أبدا ، إلا إذا تعلم الناخب لماذا ينتخبنى ، لن أتقدم للانتخابات أبدا مادامت انتخابات بوليس وأموال ، ومادام الناخب لايعرف حقوقه ويحسب أن الحكومة ما شرعت الانتخابات إلا ليركب الفقراء السيارات ، ويأخذوا من المرشحين الأغنياء بعض المال .

ــ ١٨١ ــ

مر شهران كحلم بهيج ، رشف فيهما سعيد وروحية كأس السعادة ، وحلقا فى دنياهما المسحورة كفراشتين طليقتين ، أخذتا تمرحان فى جنة من الأزهار المتفتحة فى الربيع .

راحا يجوسان خلال الحقول ، ويمرحان عل شاطىء البحر ، وينطلقان فى الفجر يستقبلان الشروق ، ويقفان على الكورنيش يرقبان الغروب ، وينسابان فى الليل يتهامسان ، والقمر يفرش لهما الطريق بنوره الواهى اللطيف ، فيحرك فيهما كوامن الغزل ، فيتناجيان كعاشقين برح بهما الغرام .

سطا حبهما على سطح الماء وعلى رمال الشاطىء ، وعلى وجه القمر ، وفى صفحة السماء ، وعلى قرص الشمس ، وعلى أنفاس السحر ، وعلى العشب الأخضر ، وعلى الحجر الصلد و كانا كبلبلين لاهم لهما إلا شدو أناشيد الحب

وأهازيج الغرام ، والتسبيح فى محراب الجمال .

وأنعم بالنشوة ، وحملت روحية ، وهذا يفيدها، ويفجر فى جوفه مشاعر رقيقة عذبة ، تجعله أكثر حنانا وأرق نفسا، سيصبح أبا يكرس كل وقته لفلذة كبده ، يرعاه خافق القلب منتشيا .

والتفت إليها وقال مداعبا :

ـ سأغار من ابنك لأنه سيستأثر بحبك .

فقالت له فى دلال :

ـ لن أحب أحدا مثلما أحبك .

ـ ليتك يا روحية تسافرين معى .

ـ إن هى إلا شهور قليلة من الفراق ثم نلتقى .

ـ إننى أجد لأستحق احترامك .

ـ إنك جدير بكل احترام .

وحانت ساعة الرحيل فجعل يرنو إليها فى شوق ، يحس انقباضا ورغبة فى البكاء ، ولكنه تجلد ، وبش لها ، ثم ضمها فى وجد ، يسمعها دقات قلبه ، فشعر بها تنتفض بين يديه ، فغمغم مشجعا :

ـ شهور قليلة ثم نلتقى ، ولن أتركك بعدها أبدا .

وانهمرت دموعها عل خديها ، وكاد يضعف ، وكادت عيناه تخونانه ، ولكنه كبت عواطفه ، وتركهاوهو يقول :

ـ إلى اللقاء ، إلى اللقاء يا روحية !

وانطلق ، وهى تنظر إليه من خلل دموعها ، فلماغاب عنها ، أسرعت إلى النافذة تودعه ، فإذا به ينطلق فى سيارة مع زكريا وصديقه ضابط البوليس ، الذى لا يغادره فى ساعات فراغه ، وغاب عن عينيها ، فارتمت على مقعد وهى تنتحب ، وكل خالجة فيها تصيح فى أسى : « حبيبى .. حبيبى ؟ » .

ـ ١٨٢ ـ

عكف خالد على عمله فى شغف ، كان يشعر أنه يستطيع أن يؤدى فى عمله الجديد خدمة للقوات الجوية ، فبذل غاية جهده فى إنفاذ الأمانى التى تداعب خياله ، دون أن يعلن عن عمله ، أو يأبه للعقبات التى توضع فى طريقه .

ودق جرس التليفون فى مكتبه ، فرفع السماعة يتحدث :

ـ آلو .

وإذا بوجهه ينبسط ، ويقول معتذرا :

ـ والله لم أكن أدرى أنك هنا فى القاهرة .

ودار الحديث رقيقا بينه وبين صديقه حامد ، وما انتهى حتى كان قد وعد صديق طفولته أن يزوره فى بيته ، ليثبت له أنه لم ينسه ، وأنه مازال يذكره ، وأنه يكن له نفس الحب الذى كان يكنه له أيام طفولتهما .

ووافى الميعاد ، فانطلق إلى صديقه ، ووقفت السيارة أمام البيت ، فإذا بالسائق يسرع يفتح له الباب ، فيهبط فى ثياب الطيران الزرقاء ، وعلى رأسه قبعة حليت بالقصب ، وراح يرقى فى الدرج هونا ، ثم طرق الباب فى رفق ، فلما انفتح ألفى أمامه سهام ، بشعرها الأسود السبط ، وعينيها السوداوين البراقتين ، وجسمها الممتلىء فى إغراء ، فارتبك قليلا ، ثم قال :

ـ كيف أنت ؟

ومد يده يصافحها ، فإذا بها تمد له يدها ، ثم تدنو منه ، حتى خيل إليه أنها ارتمت فى أحضانه ، فخفق قلبه فى قلق ، ونظر إلى عينيها ، فإذا به يلمح فيهما نداء ، وألفى شفتيها مزموتين كأنما تتأهب للقبل ، فخشى أن يكون واهما، فتطلع إليها حائرا ، ثم ابتعد قليلا ، وقال فى صوت متهدج :

ـ حامد هنا ؟

فقالت فى دلال ، وهى تلقى برأسها إلى الخلف فى إغراء فيشمخ صدرها :

ـ تفضل !

وسارت أمامه ، بجسمها الممتلىء الرجراج ، وهو يتطلع إلى مفاتنها وقد نبت فى جوفه قلق ، أحس فى أعماقه لأول مرة أنها امرأة ، كانت فى عينيه طفلة دائما ، حتى بعد أن نمت واكتملت أنوثتها .

ودلف إلى غرفة الاستقبال ، وغاص فى مقعده ، وقد تحركت فى نفسه وساوس وأوهام ، أحقا ارتمت سهام فى أحضانه ؟ أحدث هذا أم محض خيال ؟ ودخل حامد مهللا ، فنهض خالد لاستقباله وتعانق الصديقان ، وتدفق حامد فى حديثه ، وخالد يصغى وقد رفت بسمة على شفتيه ، وسهام ترنو إلى خالد فى وله واشتهاء ، فلايسعه إلا أن يسترق النظر إليها ، فتتلاقى العيون ، ويلمح ذلك البريق المتألق فى عينيها فيتدسس الاضطراب إلى روحه ، ويسائل نفسه : أحقا مايدور فى رأسه ؟ ويشيح بوجهه عنها ولكن سرعان مايعاود النظر إليها ، فتسرى رعدة فى بدنه ، ويغوص فى مقعده حيران .

وتصرمت الساعات فى حديث شجى ، فأحست سهام نفسها تتفتح ، وقلبها ينبض بالحنان ، كأنما مسته عصا سحرية ، فدبت فيه الحياة ، وظل خالد فى شكه، ولايكاد يطمئن إلى قرار ، واستمر حامد فى حديثه ، وهو غافل عن حقيقة المشاعر المتفجرة فى جوف خالد وسهام .

وسجا الليل ، فنهض خالد مستأذنا ، ومد يده يصافح سهام ، فإذا بها تمد يدها ، ثم تضغط يده فى حنان ، وعيناها تبوحان بالوجد والهيام . أضغطت على يده حقا ؟ إنه فى حيرة من أمرها .

واسترخى فى السيارة ، وأرخى لخياله العنان ، فإذا بالمشاهد الراسبة فى ذاكرته تطفو على ذهنه ، وإذا به يرى الحوادث مجلوة أمام عينيه ، إنه يرى سهام وهى طفلة تفتح له الباب ، وترحب به ترحيب الأطفال ، وإنه ليذكر أنه أخذها معه فى سيارته مرة واحدة وقابل فتاة كانت تطارده لتتزوجه ، وإنه يذكر أنها أشاحت

بوجهها عنهما لما تلاقيا يتحدثان ، أكانت تعرف الحب فى تلك السن المبكرة ؟

وتذكر ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى حامد يحدثه عن عزمه على الزواج ، إن الحديث الذى داربينه وبين سهام ليرن فى مخيلته كصوت يرن فى كهف : « نويت أن أتزوج » « ممن ؟ » « من درية ابنة خالى » « أتحبها » « إننى أهواها بكل خالجة من خوالجى » » . « فكرجيدا قبل أن تقدم ، فهذا أخطر قرارتقرره فى حياتك » . أكان هذا حديث اللحظة أم كان نابعا من أغوارنفسها ؟ أكانت تريد أن تفتح عينيه على شىء بعينه ؟ أكانت تصبح ليسمع خفقات قلبها ؟ أكانت تقول له إنها تحبه ، وعليه أن يتدبر ذلك قبل أن يتخذ أخطر قرار يتخذه فى حياته ؟ إنه لا يكاد يدرى من أمره شيئا .

وبلغ الدار ، فإذا درية مشغولة بابنها ، فدخل حجرته والأفكارتمور فى رأسه، تذكرأنه قرأ قصة « لزفايج » عن امرأة أحبت رجلا وشغفت به حبا ، وهوغافل عنها ، لايحس وجودها ، إلى أن أرسلت إليه ذات يوم رسالة ، تقص عليه قصة غرامها ، فذهب إلى كتبه وراح يبحث عن الكتاب حتى وجده ، فاسترخى فى مقعده وراح يقرأ : « رسالة من امرأة مجهولة » .

وانفعل وهو يقرأ ، وخيل إليه أن المؤلف يروى قصة حياته ، إن سهام تحبه دون أن يدرى ، وقد كتمت حبها بين جوانحها ، وأمعن فى القراءة فإذا بقلبه يرفرف كجناح حمامة ، وإذا بالحنان يتدفق إلى صدره ، وإذا بالدموع تطفر من مقلتيه ، وما انتهى من القراءة حتى عزم على أن يهدى القصة لسهام ، ليرى أثرها فى نفسها ، بل لينبئها أنه كشف أمرها وأنها تهواه .

ـ ١٨٣ ـ

فى سكون الليل جعلت روحية تئن فى فراشها ، وتتلوى من الألم وحيدة ، وتعض وسادتها ، وتحس رغبة فى أن تصرخ ، ولكنها كانت تكبت رغباتها ، وكانت تشفق على تلميذاتها أن يقمن من نومهن مفزوعات ، فقد عاودها ذلك المرض الذى يمزق أمعاءها .

كان الليل ينقضى ثقيلا ، فإذا ماانجابت الظلمة ، وبزغ النهار، تتحامل على نفسها ، وتذهب إلى الفصول تلقى دروسها ذابلة مكدودة ، وماكانت بقادرة على أن تهجرعملها بعد أن سافر زوجها ، صارت تعيش من دخلها ، وترسل إلى أهلها ماتوفره منه ، ليواجهوا به قسوة الحياة .

وفى أيام الإجازات تذهب إلى بيت زكريا ، تكتم ما بها ، وتغالب فى هجعة الليل آلامها ، حتى لاتقلق زكريا وزوجه ، كانت تخشى أن تند منها آهة ، أو يقهرها ضعفها ، فتنوء وتنهار ، فهى ضيف ، فينبغى ألا تثقل على مضيفيها ، وإنها لتفضل أن تترك وحيدة يقطع الألم أمعاءها على أن ترغمهما على تمريضها ، والسهر إلى جوارها يواسيانها ، فلماذا تجشمهما هذا التعب ؟ لماذا تكون لهما مصدر قلق وإزعاج ؟

واشتدت آلامها ، فلم تجد مفرا من أن تدخل المستشفى ، فذهب زكريا معها وأخذ صادق يرعاها ويكرمها ، وكان يعلم أنها أثيرة عند سعيد زميل الدراسة ، فكان يبالغ فى العناية بها .

وعلم الأطباء أنها زوجة زميلهم الغائب عنها ، ليكافح فى بناء مستقبله ومستقبلها ، فكانوا يعطفون عليها ، ويبذلون كل ما فى طاقتهم لراحتها ، ودخل صادق ذات يوم عليها ، وقال لها :

ـ كيف أنت الآن ؟

فقالت شاردة البصر :

ـ ليت سعيد كان هنا .

فقال صادق فى عتاب :

ـ أكان يفعل أكثر مما فعلنا ؟

ـ إنك لاتدرى ، مرضى يفر منه ، ويخشاه !

فقال لها صادق وهويبتسم ، ويعبث فى نظارته :

ـ اطمئنى ، قضينا على مرضك ، ولن يعود .

وأقبل لبيب وزكريا ويحيى يزورونها ، فجعلوا يحادثونها ويتوددون إليها ، ويظهرون نحوها ضروب العطف والحب ، وهى ترنو إليهم شاكرة ، تستشعرفى أعماقها راحة ، جاءوا جميعا إليها يعودونها ، ويبدون لها المودة :

وقاموا يتأهبون للانصراف ، فدنا لبيب منها وقال :

ـ أتريدين شيئا ؟

فغمغمت فى صوت خافت :

ـ متشكرة .

فقال لها زكريا :

ـ أتحبين أن أحضر لك شيئا معى ؟ سآتى غدا للاطمئنان عليك .

ـ متشكرة .

ـ ألاتريدين شيئا ؟

فقالت وقد غامت عيناها بالدموع :

ـ كل ما أرجوه ألا تذكروا لسعيد أنى مريضة ، فقد قرب ميعاد امتحانه .

وانصرفوا وتركوهاوحدها ، فأسبلت عينيها ، وطفقت تبتهل إلى الله فى حرارة أن يحقق له آماله ، وأن يسدد خطاه .

ـ ١٨٤ ـ

أذن الأطباء لروحية بالخروج بعد إبلالها من مرضها ، فحملها زكريا إلى داره ، وجعل يرعاها هو وزوجته ، فإذا بإحساسها يتحرك ، ويأخذ فى وخزها ، لماذا تبقى عبئا عليهما ؟ كانا معها كريمين ، فليس من الكرم أن تستغل هذا الكرم ، ماذا يقول الناس عنها إذا رأوها هكذا ، ترعاها امرأة غريبة ؟ إنها تحب هذه السيدة الجليلة التى واستها ، واعتنت بها فى دور نقاهتها ، ولكن أيكفى ذلك الحب لتثقل عليها؟

لم يعد لها مقام فى هذا البيت ، لن تطيق أن تعيش عبئا عليهم ، كانت تحس وهى سليمة كلما جاءت فى أيام إجازاتها ، أنها دخيلة ثقيلة ، فما بالها تتمدد فى فراشها ولاتؤدى عملا ، بل تستنفد من أهل البيت جهودا ؟ عليها أن تعود إلى أمها ، وألا تمكث فى دار زكريا لحظة واحدة ، فأمها أولى بالسهر عليها من هؤلاء الكرام .

دخل عليها زكريا حجرتها ، يسألها عن صحتها ، فقالت له :

ـ أريد أن أسافر إلى أمى .

فنظر إليها فى دهش ، وقال :

ـ كيف تسافرين ولازلت فى دور النقاهة !؟

ـ صحتى جيدة والحمد لله ، ولاخوف على من السفر .

ـ لن أسمح لك بالسفرأبدا وأنت على هذه الحال .

ـ سأسافر ، وأشكر لكم عنايتكم بى .

ورفض زكريا ، ولج فى الرفض ، وأصرت روحية على السفر ، فلم يسع زكريا إلا أن ينزل على رغبتها وهو كاره ، وأخذت تتأهب للسفر ، تجمع حوائجها ،

وهى تحس سرور الطائر الحبيس ، الذى فتح له باب القفص ، ليخفق بجناحيه طليقا فى الفضاء .

وسارت واهنة ، والتفتت إلى زوج زكريا قبل انصرافها ، وقالت :

ـ لن أنسى كرمك ما حييت .

فغمغمت السيدة الجليلة :

ـ مع السلامة ، وأتمنى لك صحة طيبة .

وخرجت روحية وزكريا فى أثرها ، وركبا سيارة انطلقت بهما إلى المحطة ، ودلفت روحية إلى القطار ، وجلس زكريا إلى جوارها حتى إذا ما دق الجرس إيذانا بالرحيل نهض وصافحها ، وقال لها :

ـ إننا فى انتظارك ، ونرجو أن تعودى قريبا ، مع السلامة !

وراح القطار يشق طريقه بين المروج ، يحمل المريضة التى أبت عليها كبرياؤها أن تستريح حتى يتم لها الشفاء ، وطفق القطارفى ضجيج وعجيج ، فخيل لروحية أن رأسها يدور ، وأنها تكاد أن تنهار .

وبلغت القاهرة منهوكة محطمة ، فاستقلت سيارة إلى شارع قصر العينى ، وأخذت ترقى الدرج ، الذى طالما صعدته قفزا ، وهى تتحامل على نفسها ، ودخلت على أمهاوقد تحركت آلامها ، فهرعت إليها ملهوفة ، تضع يدها خلف ظهرها ، وتقودها فى الشقة المتواضعة ، التى تنطق برقة الحال ، إلى سرير متواضع ، وتعاونها على أن تتمدد فيه ، وقد تدفقت الرهبة والحنان إلى كهف صدرها .

أخذت روحية تلتقط أنفاسها فى جهد ، فلما هدأت قليلا ، وبدأ خيالها يحلق فى عوالمه ، فكرت فى سعيد ، فخيل إليها أنه قلق عليها ، يحس ماتقاسى من آلام ، فرأت أن تكتب إليه رسالة تسكن الطمأنينة قلبه ، فقامت تكتب له :

حبيبى سعيد :

ـ صحتى جيدة ، وإنى أعيش هنا فى سعادة وهناءة ، لا ينقصنى شىء إلا أنت ، فإذا عدت إلى بعد أن تنال الشهادة التى احتملنا ألم الفراق من أجلها ،

كملت سعادتى ، وتحققت كل الأمانى والأحلام .

أراك فى يقظتى وفى منامى ، وأبتهل إلى الله فى سكون الليل ، وفى السحر أن يوفقك ويرعاك .

إننى أعيش لك ، يداعبنى أمل واحد ، أن أسمع يوما أنك نجحت فيما تجشمنا المتاعب من أجله ، وإنك عائد إلى .

أحب أن أهمس فى أذنك أنك لن تجدنى وحدى عند أوبتك ، بل ستجد معى من تغارمنه قبل أن تراه ، ابننا الحبيب الذى دنت أيامه ، والذى عن قريب يرى نور الحياة .

أقبلك ، وأقبلك ، وأقبلك .

وطوت الرسالة ، وراحت تكتب العنوان ، ثم تحاملت على نفسها ونهضت ، وسارت إلى السرير ، حتى إذا بلغته ارتمت فيه مكدودة مبهورة الأنفاس .

ـ ١٨٥ ـ

تعطلت سيارة خالد ، فأخذ يعالج إصلاحها فى الطريق وهو ضيق الصدر حانق ، فقد وعد سهام يوم قدم لها قصة « رسالة من امرأة مجهولة » لتقرأها ، أن يحضر لزيارتها فى الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم ، وها هى ذى الساعة قد أشرفت على الخامسة ، وهو إلى جوار سيارته يشعر بغيظ شديد .

ودار محرك السيارة ، وقد بدأ الليل فى زحفه ، ليدثر الكون بردائه الأسود الثقيل ، فانطلق خالد يطوى الأرض ، فلما بلغ دارها راح يرقى فى الدرج قفزا ، وطرق الباب خافق القلب ، فأسرعت تفتحه ، وتطلع إلى وجهها ، فألفاها مقطبة الجبين ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، وسار خلفها إلى غرفة الاستقبال .

وجلست وقد وضعت ساقا على ساق ، ثم نظرت إلى الساعة فى معصمها فى تبرم ، فمرر يده على شعرها وقال :

ـ أعرف أنى تأخرت .

فقالت وهى ترنو إليه عاتبة :

ـ لم يحدث من قبل أن انتظرت أحدا كل هذا الوقت .

فقال معتذرا :

ـ تأخرت مرغما ، تعطلت السيارة فى الطريق .

وانقشع عبوسها ، وراحت تنظر إليه مشرقة الوجه ، فقال لها :

ـ أقرأت « رسالة من امرأة مجهولة » .

فخفق قلبها ، وصعد الدم إلى وجهها ، وقالت وهى تجمع شتات نفسها:

ـ نعم قرأتها .

ـ أعجبتك ؟

فقالت وقد اعتدلت في جلستها ، وران على على وجهها الجد :

ـ هذه القصة فتحت عينيك ؟ ألم تكن تدرى ؟ ألم تحس وجودى ؟

فقال فى اضطراب :

ـ لم أكن أعرف .

فقالت فى أسى :

ـ عرفت بعد أن حطمتنى ، بعد أن قضيت على حياتى ، بعد أن انتهى كل شىء .

وساد الصمت بينهما ، كان صامتا قلقا ، أراد أن يقول شيئا ، ولم يجد لسانه ، وشردت ببصرها بعيدا ، تلم أطراف شجاعتها لتعترف له ، لتبوح بحبها وتريح صدرها الذى ضاق بسرها سنوات ، ثم قالت :

ـ أتذكر ذلك اليوم الذى أخذتنى معك فى سيارتك ، وذهبت تقابل امرأة أحبتك ؟

إننى لا أنساه ، ثارت غيرتى لما رأيتكما تتناجيان بعيدا عنى ، كنت طفلة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك راودتنى فكرة أن أهجم عليها ، أقطع شعرها وأمزق ثيابها ، وأصرخ فى وجهها أن تتركك ، وأن تبتعد عنك ، فأنك لست لها ، ولكن خجلى قهرنى ، ليتنى فعلت ذلك ، واسترحت من الغيرة التى ظلت تنهش صدرى

كلما رأيتك خارجا من البيت ، كانت غيرتى تصرخ فى أغوارى أنك ذاهب لملاقاه امرأة ، فتعصف بى ، وتتركنى فريسه للضنى والعذاب .

أتذكر ذلك اليوم الذى جئت فيه إلينا تقول إنك ستخطب درية ابنه خالك ؟

كان يوما قاسيا مريرا فى حياتى ، بكيت حتى كادت كبدى تتصدع من البكاء ، ولكن ماذا تفعل الدموع ؟ ذهبت مسرورا إليها وما دار بخلدك أنك طعنت قلبى طعنة مزقته ، فتطاير فى الهواء .

لم أحقد عليك ، ولم أملك أن أكرهك ، فما كان فى وسعى أن أحقد عليك أو أبغضك . عشت حزينة أبكى حبى الضائع ، وجاء إلى أكثر من رجل ، رفضتهم جميعا ، ثم رأيت أن أقبل أى رجل يتقدم إلى حتى لا أغضب أهلى ، وتزوجت ، أتظن أننى وجدت سعادة فى زواجى ؟ لم أجد إلا الألم والعذاب ، فقد كنت حائلا بينى وبين سعادتى ، كان زوجى كلما سعى إلى ، وجدتك قائما بينى وبينه ، فأضطرب وأنفر منه ، فكان يعجب لشرودى وإعراضى عنه .

إننى لا أجلس إليه إلا إذا أطفأ الأنوار ، لكيلا أراه ، وأراك أنت بعين خيالى وأعيش معك فى الأوهام ، إننى أشفق على هذا الزوج الذى حاطنى بعطفه ومنحنى حبه ، ولم أمنحه إلا جسدا ، بينا خيالى لا يراه ولا يحسه ، بل يهيم مع من يهواه .

إننى لا أعرف من الوم ، أألوم نفسى ، لأننى لم أكاشفك بحبى قبل وقوع المأساة ، أم ألومك أنت ، لأنك لم تقرأ فى عينى وجدى ، ولم تصغ لدقات قلبى ، أم ألوم ذلك القدر الذى فرق بيننا ، وخط بيده قصة شقاء ؟

إننى امرأة معذبة تعيش بلا أمل ، بعد أن تقوضت أمام عينيها الآمال .

وأطرقت حزينة وقد ترقرقت الدموع فى عينيها ، وحاول أن يتكلم ، ولكن المشاعر الزاخرة فى صدره ألجمت لسانه ، فمد يديه وتناول يديها فى حنان ، وغمغم :

ــ سهام .

ثم ضمها إليه ، وراح يقبلها فى وله وسعار .

ــ ١٨٦ ــ

روحية مسجاة فى فراشها ، غاض لونها ووهن ذلك البريق الأخاذ ، الذى كان يشع من عينيها ، وأخذت أختها سنية تغدو وتروح ، وتسهر على راحتها وتمريضها ، كانت أمها تقترب منها خافقة الفؤاد ، وتقول لها :

ــ كيف أنت الآن يا روحية ؟

فتغمغم روحية فى ضعف :

ــ الحمد لله .

ــ ثم تسبل جفنيها ، فتحس أمها خنجرا يمزق أحشاءها ، فتنسل إلى الردهة تراودها الوساوس ، وينهش الخوف أحشاءها وتتلفت فى قلق تستشعر رغبة فى البكاء ، وارتفع صوت ينادى فى « بئر السلم » على روحية ، فهرعت سنية تنظر ، ثم هبطت فى الدرج تتسلم برقية وقد انتشرت رهبة فى جوفها ، وفضت البرقية مضطربة ، وقرأتها ، فإذا بموجة من الفرح تغمرها ، وتنطلق مهرولة إلى حيث ترقد روحية ، وتقول فى انشراح :

ــ برقية من سعيد .

فتفتح روحية عينيها ، وتقول فى لهفة :

ــ ماذا فيها ؟ اقرئيها على .

فقرأت فى صوت متهدج : « نجحت ونلت الشهادة ، وعائد إليك » . فتقول روحية فى ضعف :

ــ سنية ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، انتهى ما كنا نكافح من أجله ، لن أحتمل العيش يوما واحدا وهو بعيد عنى ، اكتبى إليه يا سنية أن يعود ، أن يعود إلى ، إنى انتظره .

ماذا تفعلين يا سنية عندك ، هاتى ورقة واقتربى منى ، اكتبى : حبيبى سعيد ، ولكن لا تكتبى شيئا ، لا أستطيع أن أصبر حتى تصل إليه رسالتى . اذهبى يا سنية وحادثيه فى التليفون قولى له إنى مريضة ، وإنى اشتهى أن أراه ، ليته يأتى الساعة ، آه لو جاء لذهبت عنى كل أسقامى ، إن مرضى يا سنية يهرب منه ، يخشاه . اذهبى يا سنية وحادثيه ، اذهبى من أجلى .

واقتربت سنية منها وقالت :

ـ استريحى يا روحية ، سأكتب إليه أدعوه إلى العودة ، وعليك أن تتغلبى على مرضك ، حتى إذا جاء وجدك متفتحة كالزهرة .

ـ لم أعد أحتمل الصبر ، لا أطيق الانتظار ، اذهبى يا سنية الآن وحادثية فى التليفون .. اذهبى .. اذهبى .

وخرجت سنية تطلب لندن لتحادث سعيد ، وتخبره ان زوجه مريضة ، لم تعد تحتمل عذاب الفراق بعد أن نجح وتحقق حلمهما الذى كافحا من أجله ، واحتملا فى سبيله صنوف العذاب .

وأغلقت روحية عينيها ، فخيل إليها أن سعيد يدنو منها، فتمتمت فى وجد:

ـ سعيد تعال .. تعال ، سعيد .تعال .. إلى ياحبيبى .

ونامت ، وغابت عن الوجود فى غيبوبة طويلة ، فخفت أمها إليها مفزوعة تصيح فى رعب :

ـ روحية حبيبتى ، روحية .

وظلت تعالجها حتى فتحت عينيها فى وهن ، وغمغمت :

ـ أين أنا ؟

فقالت أمها فى حنان :

ـ فى حضن أمك ياروحى .

ونظرت إليها نظرة كلها حب ، وإذا بصوت حنون يهمس في نفسها « روحية حبيبتى ، ليتنى أفديك »» .

ـ ١٨٧ ـ

وقف خالد وقد وضع قدمه على سلم سيارته ، وأسند إليها ظهره ، ثم نظر فى ساعته ، وراح يذهب ويجيء وقد تجمعت فى صدره سحب من القلق والرغبة والاشتهاء ، فهذه أول مرة يواعد فيها سهام على اللقاء خارج دارها .

ومد بصره يكشف الطريق ، وعاود النظرالى ساعة معصمه ، وراح يغدو ويروح هونا ، وقد أطلق لخياله العنان ، يفكر فيما يفعله لما توافيه فى الميعاد ، أيذهب إلى طريق الهرم أم يتجه إلى طريق صحراء ألماظة ؟

ولمحها مقبلة ، ترتدى ثوبا رياضيا فى لون الفيروز ، وقد عقصت شعرها فى عناية ، وجعلت تتقدم بخطوات ثابتة ، وجسمها الممتلىء يترجرج فى إغراء ، فخفق قلبه ، وأحس دبيب النمل يسرى فى جسمه ، وكأن إسفنجه وقفت فى حلقه فطفق يزدرد ريقه ويتلفت فى حذر ، خشية أن يراهما أحد ، فهو زوج وأب لولد وطفلتين ، وهي زوج رجل لم يجد عندها إلا الجحود والنكران .

ومدت يدها تصافحه ، وهى ترفع وجهها إليه ، وتأتلق عيناها ببريق ساحر نفذ إلى فؤاده كالسهم ، فصافحها ، وقد سرى فى جوفه اضطراب ، وفتح لها باب السيارة ، فدلفت فى رشاقة إلى المقعد الأمامى ، وهرع يجلس إلى جوارها ، وتحركت السيارة فقالت :

ـ جئت فى الميعاد ، على الرغم من أننى فكرت فى أن أتأخر عن موعدك ، انتقاما منك لذلك اليوم الذى تأخرت فيه عن موعدى .

فقال يعابثها :

ـ أهون عليك ؟

ـ فكرت ولكن لم يطاوعنى قلبى .

فقال مسرورا :

ـ إنى منصور ما دام قلبك معى .

فقالت وهى تمد بصرها تنظر من زجاج النافذة إلى الفضاء :

ـ أخشى أن تتآمر أنت وقلبى على .

فقال وهو يبتسم :

ـ ضعيفان يغلبان قويا .

فقالت فى مرارة :

ـ بل ياويل الضعيف إذا اتفق عليه قويان

وانطلقا ، هو مسرور لأنه وجد امرأة متزوجة تحبه ، وتجازف بكل شىء من أجله ، فيستشعر لذة المغامرة ، ولذة الحرام ، وهى تفكر فى نفسها فتنقبض وتدثرها رهبة ، ويدق قلبها دقات خوف متتابعات ، ولجت فى التفكير ، فهالها ما هى مقدمة عليه ، فقالت فى لحظة من لحظات القوة :

ـ أرجو أن تنتظر هنا .

فقال فى دهش :

ـ لماذا ؟

ـ ذاهبة لزيارة صديقة لى ، فإذا سئلت أين كنت ، قلت إننى كنت عندها ، انتظرنى ولن أتأخر عنك أكثر من خمس دقائق .

وفتحت باب السيارة ، وانفلتت منها شاردة ، كأنما تفر من شبح يطاردها ، وجعلت تهرول ، ثم عرجت إلى طريق جانبى واختفت فيه .

غادر خالد سيارته ، وراح يذرع الطريق هابطا صاعدا ، يرنو إلى ساعة معصمه ويتململ ، ويذهب إلى الشارع الذى اختفت فيه ويمد بصره فلا يلمحها قادمة فيحنق ، وتصرم الوقت ولم تعد . انقضت ساعة طويلة مملة ، وراحت الدقائق تمر بطيئة بغيضة ، ونفد صبره ، وثارت نفسه ، ولكنه كان يروضها على الصبر والانتظار ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، وبزغت فى رأسه خاطرة أخذت فى الشروق حتى أنارت ذهنه ، إنها خدعته ، لم تذهب لزيارة إحدى صديقاتها ، بل

فرت منه مرعوبة ، خشيت أن يتآمر هو وقلبها عليها .

وذهب إلى سيارته ضيق الصدر ، ودلف إلى مقعده ، وأغلق الباب خلفه فى حنق ، وانطلق وهو يعجب للفتاة التى ارتمت في أحضانه أول ما رأته بعد طول غياب ، وراحت تبثه لواعج نفسها فى طلاقه وثبات ، فإذا ما تحقق حلمها ودنت ساعة التلاق ، فرت مرعوبة لا تلوى على شىء ، وظل يسائل نفسه وهو مشدوه : لماذا جادت ؟ ولماذا فرت ؟ .

ـ ١٨٨ ـ

بذر حديث سنية التليفونى فى صدر سعيد بذور القلق فجعل يجمع حوائجه وقد استولى عليه خوف من المجهول ، ولمح صورة روحية وهى ترنو إليه بعينيها الناعستين اللتين تحدثانه وحده ، فانطلق إليها خافق القلب ، وتناولها وراح يتطلع إليها . مليا ، فأحس يدا سحرية مرت على قلبه ، فمحت وساوس نفسه ، وفجرت فيه ينابيع من الحب والحنان ، وأشرق تفاؤله ، فإذا به يقنع نفسه أن مرض زوجته هو إلا سحابة سرعان ما تنقشع ، فما كان يصدق أن أى شىء يستطيع أن يقف فى سبيل سعادته ، فقد صمم على أن ينال الشهادة التى يطمح إليها ، فكافح حتى نالها ، ورسم لنفسه طريق مستقبله ، وإنه ليسير فيه كما فكر ودبر ، سيعود إلي روحية منتصرا ، ويأخذها من يدها معه إلى المستقبل المشرق ، الذى يتخايل لناظريه ، والذى يراه فى لحظات إشراقه رأى العين ، إنه يبنى مستقبله بيديه ، وقد عزم على أن يشيده شامخا ، ليحيا هو وروحية فى رفاهية وأمن .

وهبط إلى لندن ، وجلس خلال أسواقها ، يشترى لروحية بعض الهدايا ، فقد آن لها أن تفرح ، بعد ما قاست من آلام وأوجاع ، إنه يحس أنه يكافح من أجلها ، وأن كل أمانيه أن يدخل على قلبها البهجة والسرور .

وحان أوان الرحيل ، فحمل حقائبه ، وانطلق خافق القلب فرحان ، وبلغ باريس ، فذهب إلى أسواقها يشترى ما يرضى روحية ، كان يريد أن يغمرها

بهداياه ، كما غمرته بالحب والحنان ، قاست الحرمان من أجله ، وعاشت فى كفاح مع الليالى والأيام ، فأصبح من حقها عليه أن يغمرها برضاه .

ووصل إلى جنوا ، فلم يكن له هم إلا أن يشترى ما يدخل السرور على روحية ، إنها هى التى شدت أزره ، ونفخت فيه من روحها ، حتى حقق حلم الأيام.

ومخرت السفينة البحر ، وسعيد على ظهرها يتعجل الساعات ، أرسل إلى روحية برقية يزف إليها نبأ عودته ، وأرسل إلى زكريا برقية أخرى ، إنه يحس شوقا طاغيا يستبد به ، وحنانا دفاقا يمور فى جوفه ، فحن للقاء .

ولاحت الإسكندرية على مد البصر كبصيص من الأمل فى بحر الظلمات ، فخفق قلب سعيد ، وهفت روحه إلى الأهل والأحبة ، وأفعم بالحنين ، وسارت الباخرة فى طريقها ، حتى اقتربت من الميناء ، ونور الفجر ينتشر فى السماء .

وقفت الباخرة ترقب الإذن لها بالدخول ، وجاءت سفينة صغيرة تحوم حولها ، ثم وقفت بالقرب منها ، وصعد إليها ضابط بوليس ، راح يشق طريقه ويتلفت ، كان صديق سعيد الذى لا يفارقه ، ينقب عنه هنا وهناك .

وتلاقى الصديقان ، فأشرق وجه سعيد ، واندفع إلى صديقه يعانقه ويضمه إلى صدره المشتاق ، والصديق لا يبش ولا يضحك ، حتي أنكره سعيد ، فنظر إليه وقال وقد بدأ القلق يزحف إلى صدره :

ـ أين روحية ؟ لماذا لم تأت معك ؟

فقال الضابط فى صوت خافت :

ـ إنها متوعكة .

وأثاره النظر ، فألفاه مطرقا ، وعهده به مرحا ، أهكذا يقابله بعد طول الغياب ؟ فقال فى إنكار :

ـ ماذا بك ؟

فقال الضابط فى صوت مضطرب :

ـ إنى مريض .

وأخذه من يده ، وذهب إلى السفينة الصغيرة ، فانطلقت بهما إلى الميناء .

درج سعيد على الرصيف ، وما مد بصره حتى ألفى أهله يقابلونه فى ثياب سود ، فخفق قلبه فى شدة ، ثم انقبض ولفه الحزن الثقيل .

ومد يده يصافحهم ، فشعر أنهم يعزونه ، فخيل إليه أن ستارة سوداء ثقيلة أمامه ، فحالت بينه وبين الحياة .

ودلف إلى السيارة وركب زكريا إلى جواره ، وراح الأستاذ يجمع شتات نفسه، ليفضى إليه بالنبأ الفاجع ، ثم قال :

ـ اسمع يا سعيد ..

فقال سعيد فى حزن وضيق :

ـ لا تقل شيئا ، عرفت كل شىء .. ماتت .

أطرق زكريا ولم ينبس بكلمة ، وشرد سعيد فى يأس ، فقد أسنت نفسه ، وتمزق قلبه وتناثر أشلاء ، وجفت الدموع فى مقلتيه ، فلم تجر عبراته لتطفىء النار المتلظية بين الضلوع ، ولوى شفته فى مرارة ، فيا للسخرية ! أصبح يوم فرحه يوم حداد ، وتقوضت أمام عينيه قصور الأمانى التى شيدها بغروره على الأوهام ، ذهبت روحية ، وتركته يسير وحده فى الطريق التى أقفرت من الحب ، وذوت على جانبيها الآمال ، سيسير منخوب النفس ، مزعزع الإيمان ، حزين الروح ، كسير الفؤاد ، كالأفاق يضرب فى الأرض ، لا يستقر على حال ، بعد أن فقد إيمانه بنفسه، وامحى من ذهنه ذلك الوهم المسيطر عليه ، الذى يفعمه بالثقة أنه قادر على أن يبنى مستقبله كما يشتهى بيديه !

ـ ١٨٩ ـ

مزقت المعاهدة بين مصر وبريطانيا ، وهب الشعب للكفاح ، فذهب الفدائيون إلى الإسماعيلية والسويس يقضون مضاجع الانجليز ، يتسللون إلى معسكراتهم إذا جن الليل ويفجرون ذخائرهم ، ويوقعون الرعب فى قلوبهم ، فباتوا يرتجفون من الفزع لا يدرون متى يضرب الفدائيون ضربتهم ، وأين يكون مسرح نشاطهم ،

وشرعت الصحف تكتب المقالات الحماسية ، وتؤجج نار الوطنية فى الصدور ، فتدفقت نار الثورة فى العروق ، وتدفق المجاهدون يقاتلون فى سبيل تحرير الوطن ، من العدو الذى يرتدى ثوب الصديق .

وأكب حسان على قراءة الصحف ، ينفعل كلما قرأ قصص البطولة والفداء ويستشعر رغبة فى أن ينطلق إلى القناة ، وينضم إلى الشبان ، ولكن كانت سنة تقعده ، لم يعد يصلح لمثل ذلك الكفاح المرير ، إنه يقرأ إن شابا زحف على بطنه الليل كله ، حتى إذا بلغ الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر ، فتح فيها فتحة تسمح بمروره ، واستمر زحفه فى حذر ، حتى بلغ هدفه ، فوضع فيه الديناميت ، ثم عاد زحفا من حيث جاء ، وهو يسمع الانفجارات المدوية قبل أن يصل إلى مأمنه ، إنه يتمنى أن يفعل مثل هؤلاء الأبطال ، ولكن هيهات .

وأرخى لفكره العنان ، فطوى السنين فى مثل لمح البصر ، عاد به إلى يوم كان شاب ممتلئا حماسة ، ويرى أن الوسيلة الوحيدة لطرد الإنجليز من البلاد هى القتال ، فر يومها من مصر ، وانضم إلى الجيش التركى ، ليخلص الوطن من وصمة الاحتلال ، آه لو أنه وجد فى عصره مثل هؤلاء الفدائيين الأبطال ، إذن لانضم إليهم ، ولبذل روحه رخيصة في ميدان الفداء .

وسار فى الحارة مشرق النفس ، يستشعر سعادة حقيقية لأول مرة مذ عاد إلى أرض الوطن محطما ، ولا يجد السلوى إلا فى الشراب ، كان يخيل إليه أنه خلق خلقا آخر ، وجعل ينظر إلى الناس الغادين الرائحين فى حب وإعزاز ، وهو يغمغم فى أعماقه « هذا شعب عظيم لن يموت » .

ودخل البيت ، وأقبل الليل ، وإذا بأصوات موسيقية تصدح فى العالية ، وإذا بأضواء تغمر المكان ، وأقبل ركب العروس وهبط إلى الحارة ، وبلغ حى الصعايدة ، فوقفت الموسيقى تصدح السلام ، فقام الصعايدة يرقصون على الأنغام تحية لعروس الفلاحين ، ولم تدر المعركة التقليدية ، التى كانت تدور كلما مرت زفة ، كان هناك عدو يكافحه المصريون جميعا ، فتآلفت القلوب ، ونامت الأحقاد ، ورفرف الوئام ، وعقدت الخناصر على كفاح الغاصب الدخيل .

وأصبح الصباح ، فأسرع إلى الصحف يتنسم الأخبار ، فإذا به ينقبض ، وينتشر فى صدره الأسى ، كأنما قرأ نعى عزيز ، كان يقرأ أنباء حريق القاهرة ، أنباء المؤامرة الدنيئة التى حاكتها أيد خائنة، فى اللحظة الحاسمة ، لتعرقل خطوات الكفاح ، لتقف حائلا فى طريق التحرير ، إنها نكسة وطنية ، بل كارثة حلت بالبلاد .

وسار حسان وهو حزين ، ينظر إلى الناس ، فيحس نحوهم احتقارا ، فمنهم من استجاب لهذه المؤامرة ، ومنهم الذين أحرقوا القاهرة بأيديهم ، فسواء أكانوا يعرفون خطورة ما هم مقدمون عليه أم انقادوا إليه بجهلهم ، فقد اشتركوا فى الجريمة ، وعجب فى نفسه كيف طاوعه قلبه أن يعيد بذر بذور الثقة فى هذا الشعب فى روحه ، بعد أن اقتلعها من زمان ! ..

ودلف إلى الحانة ، وهرع إلى مقعده ، وطفق يلقى بكئوس الخمر فى جوفه ، حتى إذا ما لعبت برأسه هب واقفا وصاح :

ـ كلكم نعاج ، كلكم أشرار ، كلكم خونة .

ثم انهار على النضد ، وأخذ ينشج بالبكاء .

ـ ١٩٠ ـ

فض خالد الرسالة التى تسلمها ، وبدأ بقراءة التوقيع ، فلما وجدها من سهام اضطراب ، وانتشر فى صدره قلق ، وراح يقرأ فى اهتمام :

عزيزى خالد ..

هذه رسالة امرأة فى الأعراف ، تترجح بين الدنس والعفاف ، تقضى الليالى فى قلق وأرق وسهاد ، تتنازعها الملائكة والأبالسة ، فلا تعرف لها قرارا ، ولا تدرى ما تهذى به فى اليقظة والمنام ، أتردد صلاة حارة فى المحراب ، أم تترنم بأنشودة فاجرة فى مذبح الشهوات ؟ .

راودتنى فكرة أن أبعث لك برسالة أدبجها بالأضاليل ، وأسوق فيها

الأكاذيب، فأدعى أننى عبثت بك ، ونجحت فى عبثى ، حتى أوهمتك أننى أحبك، بينا إنى لم أحبك يوما ، وألتمس منك فى ختامها الصفح والغفران ، لأن ضميرى قد آب بعد طول غياب .

كان هدفى أن أطعن كبرياءك ، وأن أجرح شعورك ، وأن أرغمك على الثورة لكرامتك ، فتبتعد عنى ، وهذا غاية ما أصبو إليه ، ولكنى وجدت من العار أن أكذب عليك ، أو أجرحك أو أسبب لك الآلام ، فخير ما أفعله أن أصف لك ما أقاسى فى صدق ، لعلك تلمس حيرتى واضطرابى ، وأضع الأمر بين يديك لتتصرفه كما تشاء .

إننى أمرأة ضائعة ، تكتب إلى من تهواه على مكتب زوجها وبقلمه الذى تذكر إنها وقعت به وثيقة الرباط المقدس ، وعلى بعد خطوات منها فراشه ، الذى تكافح نفسها لكيلا تدنسه ، فلا تدرى أتنجح فى كفاحها أم يتدسس الوهن إلى روحها فتنهار .

فررت منك يوم التقينا على الوداد .. لأننى خفت من نفسى . هالنى ذلك الاستسلام الذى سيطر على روحى ، وفى لحظة من لحظات الثورة لإنسانيتى التى التمعت كالبرق الخاطف فى ضميرى ، هربت منك لا ألوى على شىء ، إننى فرحت بذلك الفرار ساعات ، ولكن أخذ قلبى يعذبنى ، ويوسوس لى أن أعود إليك ، فكدت أضعف لولا بقية من حياء .

إننى امرأة على شفا جرف هار ، إن هى إلا دفعة منك ، فتنزلق إلى طريق الغواية والضلال ، روحى تشتهى هذه الدفعة ، ومشاعرى تحن إليها ، وكل خالجة فى توسوس لى أن أنقاد ، ولكننى أفزع إليك أن تقينى هذا الدمار .

أقولها دون مماراة ، إننى امرأة بلا حصون وبلا قلاع ، واندكت مقاومتها ، ولن تستطيع عن نفسها دفاعا ، فإذا مشيت إليها مشى الغزاة ، رفعت راية الاستسلام ، ولكننى أهيب بك أن تعف ، أتوسل إليك ، فما عاد لى فى نفسى الخيار ، أصبحت أخشى روحى ، لا أثق بها ، بينا لم تزل ثقتى فيك لم تتزعزع ، فصن هذا الإيمان ولا تتقدم ، تنقذ امرأة أحبتك من أن تتردى فى مهاوى الذل

والعار .

يالعالمى الحبيب ، وماضى الناصع الطاهر ، ودنيا الرؤى العذاب ، إنها معلقة فى خيط واه فلا تقطعه ، فتنفصل بينى وبين كل ما هو طاهر فى حياتى مقدس ، أعترف لك والدموع تترقرق فى عينى أننى كنت أخون زوجى بخيالى كلما مشى إلى ، بيد أنى كنت كلما فكرت فى ذلك أتفزع . إنى أتمنى الآن من كل قلبى أن أكفر عن خطيئتى ، فألتمس منك العون على الخلاص ، انتشلنى من الخطايا ، ولا تغرقنى فى بحور الغواية ، ولا تضف إلى خطيئة الخيال خطيئة الجسد . إننى لن أغفر لك أبدا لو استغللت ضعفى ، فأنت قادر على أن تفعل بى ما تشاء ، فلا تكن الذئب الجاثم على الشاة ، بل كن الطبيب الذى يأسو الجراح .

أحببتك بكل جارحة من جوارحى ، لا يزال حبك يملأ الفؤاد ، ولكن لم يكتب لنا أن تكون رجلى ، وكنت رجل امرأة أخرى ، هذه هى أقدارنا ، فماذا سنجنى من الوصال ، غير لذة مسروقة يعقبها العار ، لذة منهوبة ثم الدمار ، إننى أعرف كل ذلك وأقدره ، أوَ يكفى أن أعرف كل ذلك لأحجم عنه ؟ هيهات ! إننى أعرف نفسى ، ضعيفة خوارة ، مسلوبة الإرادة إذا نظرت إليك ، فماذا يكون حالى لو احتويتنى بين ذراعيك ؟

أحس الإثم يسرى فى مسرى الدم ، واحترق شوقا إليك ولكن أستحلفك بحق حبنا الطاهر الذى لم يدنس بعد ، بل بكل عزيز لديك ألا تستغل ضعفى ، وأن تظل كريما كعهدى بك . ماذا ستفعل بى ؟ تلهو شهورا أو سنين ثم تلفظنى حطاما ، أعض بنان الندم بعد فوات الأوان . أهذا جديد على ؟ إننى أعرفه ، بل واثقة منه، ولكن أيكفى ذلك الوثوق لأعرض عنه ، ياليت ، إننى كالفراشة التى تحوم حول النار ، لا تهدأ حتى تحترق .

انسنى يا خالد ، انسنى وإن كنت لن أنساك ، وأنس أننى بحت لك يوما بحبى ، وعاهدنى على الفراق ، وأقسم أنك لن تحاول أن ترانى ، حتى لا تنكأ جروح الفؤاد ، وليكن عربون الجفاء تمزيق هذه الرسالة ، كما مزقت قلبى ، وتركتها للرياح تذروها حيث تشاء .

وداعا ياخالد ، وداعا أرجو مخلصة ألا يعقبه لقاء ، وان كان فى ذلك لوعتى وعذابى ، وداعا يا خالد ، وياويلتى لو لم يتحقق ذلك الوداع ، سأصير أمرأة مدنسة ، حطمت كل مقدسات حياتها وأرغمت قسرا على أن تبيع نفسها للشيطان.

وداعا يا حبيبى ، يا أول من خفق له قلبى .

« سهام »

وطفق يرنو إلى الرسالة شارد اللب ، مضطرب النفس ، وقد راح قلبه يخفق حزنا ، وترقرق الدمع فى مقلتيه ، وهم بتمزيق الرسالة ، ولكنه عاد وطواها فى حرص ، ودسها فى جيبه ، ثم راح يتحسها فى رفق ، وسار مطرقا مهموما حائرا ، لا يدرى ماذا يفعل ، أيستسلم لحزنه ، أينطلق إليها يضمها إلى صدره ؟ أيعرض عنها حتى يسدل النسيان عليها أسجافه ؟ إنه حائر قلق ، لا يستقر على شىء ، فرأى أن يترك أمره للغد يفعل به ما يشاء .

ـ ١٩١ ـ

سار حسان فى الحارة ، لا يمد بصره إلى شىء فيها حتى ينقبض ، يرى الخربة وقد تكدست فيها أكوام القمامة ، والقطط الضالة والكلاب والحشرات ، لم تمتد إليها يد الإصلاح ، ولكأنما صارت شيئا مقدسا لا يمس .

ورنا إلى حليمة ، وقد صارت حطاما ، وهى جالسة فى ذلة أمام قفصها ، رفيق عمرها الذى تقضى هباء ، فما كان لها هم فى الحياة إلا أن تجد طعامها ، كان الخبز غايتها ، وكان أخشى ما تخشاه أن تبيت على الطوى ، ينهش الجوع جوفها ، فتتلوى من الألم والحرمان ، كانت كل دنياها ، باب الدار وقفص الجريد وبعض الصبية الذين يفدون إليها يشترون بعض الحلوى ، ثم الخبز الجاف وبصلة أو حزمة من الفجل ، أهذه حياة ؟! وأدار عينيه عنها والأسى يملأ جوانحه ، يحس مقتا للدنيا ، وكرها للحياة .

ورأى النجرو وهو عريان ، لا يستره إلا قميص الخيش القذر وقد تدلت لحيته كليفة بيضاء ، ولف سبحته الخشبية الضخمة حول عنقه ، وقد جلس بين القمامة ينقب بين الفضلات عما يمسك به رمقه ، فأشاح بوجهه فى استياء .

وانطلق تزكم أنفه رائحة الماء الآسن ، الراكد عند أقدام الجدران ، فأحس ثورة تتفجر فى جوفه ، ورن فى أعماقه صوت يصيح : « إنك لاتفيق أبدا أبدا » . لماذا يلومنى الناس على الشراب ؟ ماذا عن دنياهم يستحق أن أفيق من أجله ، أأفيق لأرى ملكا يحرق عاصمة ملكه ، ليدق مسمارا فى نعش الأحرار ، ليمكن للاحتلال فى البلاد ؟ أأفيق لأرى ماذا ؟ لأرى البؤس المخيم على الناس ، والذل الجاثم على صدورهم ، أأفيق لأرى الكروش المنتفخة إلى جوار العظام النخرة ؟

ماذا فى دنياهم يستحق أن أفيق من أجله ؟ أأفيق لأرى نحر المبادىء والمقدسات ؟ لأرى النفاق وأسمع النفاق ، وأسير فى موكب النفـاق ؟ الكل منـافقون ، رؤساء الحكومات ، رجال الدولة الكبراء ، حتى رجال الدين احترفوا الملق والرياء !

أين الرجال الأحرار ؟ أين الزعماء ؟ ارتموا يقبلون الحذاء ، حتى الصحافة الرشيدة طبلت وزمرت وزفت إلى العالم الاسلامى البشرى السعيدة ، البشرى السعيدة ، البشرى التى طبخها النفاق ، وباركها الذين باعوا أنفسهم للأبالسة والشياطين ، بشرى النسب الشريف ، أصبح الملك بين عشية وضحاها ، السيد فاروق سليل النبى العربى الكريم ، ورفعت أكف الضراعة إلى السماء ، وارتفعت أصوات النفاق تدعو : « اللهم صل وسلم وبارك على فاروق » .

أكذوبة صارخة ، لا الذين صاغوها صدقوها ، ولا الذين صيغت لهم صدقوها، وكل ما خلفته من أثر أن حركت الأذهان لابتداع النكتة ، وتأليف الأضحوكة . ماذا فى دنياكم يستحق أن أفيق من أجله ؟

وبلغ المقهى وهو ثائر ، فجلس فإذا برجال خلفه يتحدثون عن تلك الفرية التى أطلقت ألسنة الناس فى الملك ، بدلا من أن تسربله بقداسة ، فأصاخ سمعه فإذا برجل يقول :

– والله إنى فى حيرة من أولئك الذين تمكنوا من أن يصلوا نسب أمه بنسب الرسول ، لقد ذكر الأمير عمر طوسون أن جدتها من سبايا اليونان ، وجدها سليمان باشا الفرنساوى ، فكيف اتصل الرسول باليونانيين والفرنسيين ؟

فقال آخر فى سخرية :

– هذا أبسط ما ننتظره من رجال الدين .

فقال ثالث :

– وهل يغير من الأمر شيء لو كان من نسل الرسول ، لقد كان أبو لهب عم النبى ، وسيصلى نارا ذات لهب .

فقال الأول :

– لى صديق صالح ، كان يمضى أوقاته فى الحسين ، فلما أعلن الملك من نسل النبى خرج صديقى من المسجد فورا ، ثم التفت خلفه وقال : لن أدخلك أبدا ، ما دام هذا قريبك .

وضحك الموجودون ، وضاق صدر حسان ، فهب ثائرا ، وانطلق إلى الحانة ، وذهب إلى الركن البعيد ، وراح يحتسى الكئوس ، فلما انتشى راح يرتل كتلميذ فى كتاب :

– نسب فاروق من جهة أمه ، هو فاروق ابن نازلى بنت توفيقة ، بنت ماريكا، بنت كاترينا .. بنت .. بنت .. بنت فاطمة الزهراء ؟!

ورفع الكأس ، وألقى بها بعيدا ، فارتطمت بالحائط ، وتحطمت وتناثرت أشلاء .

– ١٩٢ –

استيقظ المصريون على صوت المذيع يعلن أن الجيش المصرى قد هب يحارب الفساد فى الجيش ، وقد قبض على القواد ، وإن هدفه الإصلاح فى ظل الدستور ، وتحمس الناس لذلك النبأ . ولم يلاحظوا فى غمرة فرحهم أن البيان قد خلا من ذكر الملك والولاء له .

وخرج حسان مهرولا إلى مقهى الصعايدة يصغى إلى الإذاعة ، فإذا به يجد سكان العالية من أهالى الإسكندرية والفلاحين جالسين يصغون ، وطفق الفلاحون والصعايدة يتجاذبون أطراف الحديث مستبشرين ، نسوا ما بينهم من ثأرات وأحقاد ، وراحوا يتبادلون الأمانى والآمال ، ثم ساحوا فى الأرض ينقبون عن رزقهم ، وكلهم بالأنباء مشغول .

وانطلق حسان يقرأ الصحف فى لهفة ، يتتبع الأنباء وهو مشغوف ، ولكنه كان يحس قلقا ، كان يخشى على هؤلاء الذين قاموا بالحركة ، ويتعجل الحوادث ، ويعجب فى نفسه كيف تطاوعهم قلوبهم أن يتركواالرأس الفاسد ، إنه يخاف عليهم أن يمكر بهم ، وأن يطفىء آخر أمل يداعب النفوس .

وعاشت مصريوما مفعما بالأحداث والمشاعر والإحساسات ، وزارة تستقيل ووزارة يفرضها الجيش ، فيقبلها الملك صاغرا ، ومطالب وراء مطالب تجاب ، فليس أمام الملك إلا أن يذعن .

واستيقظت الإسكندرية لترى المدافع والدبابات فى طريقها إلى قصرى المنتزة ورأس التين ، وانتشرت التنبؤات ، وتناثرت الأقوال هذا يقول أنها جاءت لحماية الملك ، وذاك يقول إنها ما جاءت إلا لتدك القصور فوق رأسه ، وحسان فى قلقه، يشتهى أن تنتهى هذه الأحداث كما يحب الشعب ويتمنى .

سرى همس فى الإسكندرية أن الجيش يطلب من الملك النزول عن العرش ، ومغادرة البلاد ، فانطلق حسان إلى سراى رأس التين ليرى القوات المحيطة بالقصر، وجموع الشعب التى زحفت تشد أزر الجيش ، فاستشعر قلقا ، كان يخشى المجهول ، علمته الأيام ألا يطمئن إليها ، فمن يدرى ماذا تخبئه الأقدار .

ووافت الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ فإذا بالمظاهرات تنساب كالطوفان فى شوارع الإسكندرية، وإذا بحسان يحس الدموع تتحرك فى مآقيه وينطلق نشوان ، حتى إذا ما هدأت نفسه ، راح يغمغم :

ـ أصبح فى الحياة ما يستحق أن أفيق من أجله ، أن أرى بزوغ الفجرالجديد .

وفى الصباح خرج إلى مقهى الصعايدة يصغى إلى المذيع وهويقرأ :

ـ « نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان » .

لماكنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ، ونبتغى سعادتها ورقيها ، ولماكنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنيب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة، ونزولا علي إرادة الشعب ، قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه .

ودار الحديث فى المقهى بين الفلاحين والصعايد حديث كله غبطة وأمل ووفاق ، ونهض حسان وسار فى الحارة يحس كأنما خلق خلقا آخر ، ونظر فإذا بالعمال قد جاءوا لهدم أول بيت فى الحارة ، جاءوا يسطرون بمعاولهم السطر الأول فى قصة الشارع الجديد !

رقم الإيداع ٢٠٠٣

الترقيم الدولى ٣ ــ ٣٤٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧